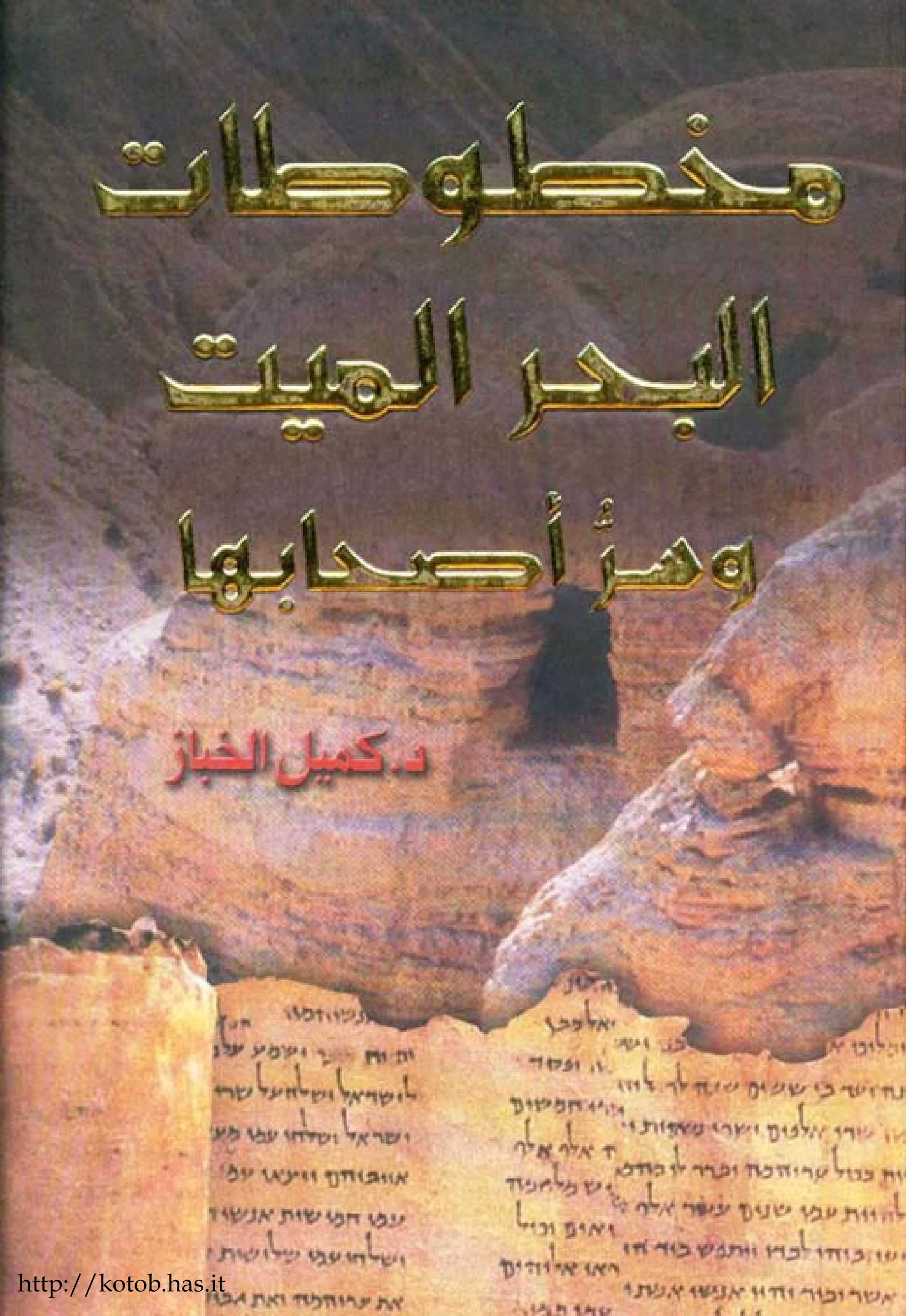

مخطوطات
البحر الميت
وسرُّ أصحابها
د. كميل الخباز

د. كميل الخباز

مخطوطات البحر الميت
وسرّ أصحابها

بيروت ٢٠٠٦


http://kotob.has.it

إهـداء

إلى أمي
وزوجتي وأولادي
ووطني لبنان

مقدمة

بالقرب من الشاطئ الشمالي الغربي للبحر الميت الذي تنخفض مياهه ٣٩٢ متراً تقريباً عن المستوى العام للبحار، يوجد جرفٌ صخريٌ مرتفع، تشكّل حافته العليا حدّاً لهضبة «برّية اليهودية» من جهة الشرق. كما يوجد في أسفل الجرف عدد من الجلول والروابي الحوّارية التي تنحدر نحو السهل الساحلي لشاطئ البحر الميت. يضمّ ذلك الجرف الصخري الهائل عدداً من المغاور الطبيعية.

في ربيع سنة ١٩٤٧[١]، عثر بدوي من قبيلة التعامرة يُدعى محمد الذيب على مدخل إحدى تلك المغاور، فنظر إلى داخلها ولم يجرؤ على الدخول إليها بمفرده خوفاً من أرواح الجن. ثم عاد في اليوم التالي برفقة نسيب له، فدخلا المغارة فوجدا عدداً من الجرار بعضها محطّم وأخرى سالمة، وكانت جميعها خاوية باستثناء واحدة[٢] تحتوي على مخطوطات، وهي عبارة عن دُروج[٣] أي لفائف من الجلد، غُلِّف بعضها بقماش من الكتان.

عُرضت المخطوطات للبيع بواسطة أحد تجار العاديات في بيت لحم القريبة من مضارب التعامرة، فوقع قسم منها بيد أثناسيوس يشوع صموئيل، مطران طائفة السريان في مدينة القدس. اشترى المطران في أواخر تموز ١٩٤٧ ما عُرِض عليه من لفائف[٤] بمبلغ زهيد. أما القسم الآخر من المخطوطات المكتشفة فقد بيع في تشرين الثاني ١٩٤٧ إلى البروفسور سوكونيك[٥]، أستاذ الآثار في الجامعة العبرية، الذي قام بعملية الشراء لحساب الجامعة المذكورة.

١- J. C. TREVER, «When was Qumrân cave 1 discovered?», *RQ*, n° 75, (1961) p. 141.

٢- J. T. MILIK, *Dix ans de découvertes dans le désert de Juda,* Paris, 1957, p. 14.

٣- مفردها دَرْج ويقال أيضاً دِرْج، وهو قرطاس طويل يُكتب فيه ويُلَفّ.

٤- المخطوطات التي اشتراها المطران هي: نبوءة أشعيا (1QIsa[a])، تفسير حبقوق (1QpHab)، نظام الجماعة (1QS)، ومنحول التكوين (1QapGen ar).

٥- الدروج التي وقعت بيد البروفسور سوكونيك هي: نظام الحرب (1QM) - المدائح (1QH[a]) - ودرج غير كامل لنبوءة أشعيا (1QIsa[b]) يُعتبر أحدث عهداً من درج أشعيا (1QIsa[a]) الذي كان بحوزة المطران صموئيل.

شاور المطران صموئيل عدداً من اختصاصيي المعهد الأميركي للدراسات الشرقية في القدس، لمعرفة فحوى هذه اللفائف وتاريخها، فتأكد أنها قديمة العهد.

في أيار ١٩٤٨، وإبّان الاضطرابات السياسية في فلسطين وإعلان قيام دولة إسرائيل، سافر المطران صموئيل إلى الولايات المتحدة حاملاً معه المخطوطات بغية بيعها. فعُرضت على الجمهور في أماكن عامة قبل أن يشتريها بنك أميركي لحساب أحد زبائنه بمبلغ قدره ٢٥٠ ألف دولار أميركي. وتبيّن أن الشاري هو إيغال يادين، إبن البروفسور سوكونيك الذي اشتراها لحساب حكومة إسرائيل. وقد أُعلن رسمياً عن تلك الصفقة في ١٣ شباط ١٩٥٥[١].

كان لا بدّ من تحديد موقع المغارة التي حَوت تلك المخطوطات. وقد تمّ ذلك بتاريخ ٢٨ كانون الثاني ١٩٤٩ بفضل الجهود التي قام بها النقيب فيليب ليبنس، عضو لجنة المراقبة التي أوفدتها هيئة الأمم المتحدة لمراقبة سير الأمور في فلسطين، بالتعاون مع متحف فلسطين ومصلحة الآثار الأردنية والمعهد الأميركي للدراسات الشرقية والمدرسة التوراتية الفرنسية في القدس التي كانت بإدارة الأب دوفو.

عُيّن الأب دوفو مديراً فنياً للحفريات الأثرية في المغارة. ونتيجة لأعمال التنقيب، عُثر على قطع فخارية وبعض الأوعية، بالإضافة إلى مئات الفتائت العائدة لسبعين مخطوطة على الأقل. وقد تبيّن أن عدداً من تلك الفتائت يتوافق تماماً مع بعض الفجوات الموجودة في المخطوطات التي باعها البدو، ما يعني أن مصدر المخطوطات التي كانت بحوزة المطران صموئيل والبروفسور سوكونيك هو هذه المغارة بالذات.

في شباط ١٩٥٢، اكتشف البدو مغارة ثانية عثروا فيها على ١٨٥ فتيتة من الجلد بيعت إلى المدرسة التوراتية الفرنسية ومتحف فلسطين. واستدلّ المسؤولون بعد شهر تقريباً إلى موقع المغارة، لكنهم لم يعثروا فيها سوى على قطعتين صغيرتين من فتائت المخطوطات، وبعض حطام الفخار.

١- Jean POUILLY, *Les Manuscrits de la mer Morte et la Communauté de Qumrân,* (Cahiers Evangile. Supplément, 28; Documents autour de la Bible), Paris, 1979, p. 9.

خلال شهر آذار ١٩٥٢ نُظّمت حملة أثرية بإدارة الأب دوفو، فجرى مسح الصخور المطلّة على البحر الميت في منطقة قمران. وأسفر هذا الجهد المضني عن اكتشاف المغارة الثالثة التي عُثر فيها على «الدَّرَج النحاسي» (3Q15) بالإضافة إلى عدد من فتائت المخطوطات.

حقق بدو التعامرة في أواخر صيف ١٩٥٢ نصراً مهماً بعد اكتشافهم المغارة الرابعة في منحدر صخري من الرابية التي تقوم عليها أطلال خربة قمران حيث عثروا على الألوف من الفتائت التي كانت تشكّل في الماضي حوالى ٤٠٠ مخطوطة. وتمكّن المسؤولون من تحديد موقع المغارة حيث كشفت أعمال التنقيب على المئات من نُتَف المخطوطات بالإضافة إلى عدد من الجرار المحطمة وغيرها من الأواني الفخارية.

عجزت الحكومة الاردنية عن دفع ثمن ما عرضه التعامرة من مخطوطات، فطلب متحف فلسطين والمدرسة التوراتية الفرنسية المساعدة المالية من الخارج. فقدّمت المساعدة مؤسسات علمية في عدد من الدول الأوروبية والأميركية. ونصّت العقود الموقعة معها على أن تُعطى تلك المؤسسات حق ملكية نسبة معيّنة من المخطوطات المشتراة بأموالها، بحيث يُحوّل إليها نصيبها من المخطوطات بعد نشرها[١].

ثم تابع المسؤولون تنقيباتهم الأثرية، فعثروا في أواخر سنة ١٩٥٢ على

١- تتوزع المخطوطات والآثار المكتشفة في مغاور قمران وخربتها على المؤسسات العلمية التالية: (أ) «قصر الكتاب» في القدس، ويحتوي بوجه خاص على مخطوطات المغارة الأولى التي اشتراها سوكونيك وتلك التي باعها المطران صموئيل. (ب) متحف روكفلر (متحف فلسطين سابقاً) ويضم عدداً مهماً من الفتائت المكتشفة في المغارة الرابعة التي سيحوّل قسم منها بعد نشره إلى بعض المؤسسات العلمية صاحبة حقوق الملكية الأثرية. (ج) Studium Biblicum Franciscanum وفيه نص من سفر الحكمة ونص آخر من مزامير يشوع. (د) متحف عمان (الاردن) وفيه قسم من المواد الأثرية المكتشفة في المغارة الأولى بالاضافة إلى «الدرج النحاسي». (هـ) المكتبة الوطنية في باريس حيث يوجد بعض النصوص من المغارة الأولى. (و) متحف التوراة والارض المقدسة (باريس) وفيه توجد فتيتة يرجّح أنها من سفر المزامير. (ز) مكتبة جامعة هايدلبرغ (المانيا) وفيها إحدى مخطوطات تفسير ناحوم. (ح) جامعة شيكاغو (الولايات المتحدة) وفيها مخطوطة «فخاخ المرأة» (4Q184). وهناك قليل من الفتائت والمواد الأثرية التي توجد ضمن مجموعات خاصة.

المغارتين الخامسة والسادسة، وقد حوَت كلّ منهما مجموعة قليلة من الفتائت.

وقبيل ذلك، كانت قد بدأت التنقيبات الأثرية في خربة قمران المجاورة لموقع الاكتشافات من أجل إظهار معالمها والتثبّت من إمكانية وجود علاقة بينها وبين ما حوته تلك المغاور من مخطوطات وأدوات. كما جرى لاحقاً تمشيط المنحدرات الصخرية التي تقوم عليها خربة قمران، فتمّ اكتشاف أربع مغاور عُثر فيها على بعض فتائت المخطوطات.

وفي سنة ١٩٥٦ عثر الفريق المكلّف بالتنقيبات الأثرية في منطقة قمران على المغارة الحادية عشرة. وكان التعامرة قد سبقوهم إليها وأخذوا منها عدداً من المخطوطات جرى بيعها إلى متحف فلسطين. وقد حُفظ للمتحف المذكور حرية بيع حقوق النشر، فتقدمت الأكاديمية الملكية للعلوم في أمستردام- هولندا واشترت الحقوق الحصرية لنشر المخطوطات.

بعد سيطرة إسرائيل على القدس الشرقية والضفة الغربية سنة ١٩٦٧، أصبحت مخطوطات البحر الميت المعروضة في متحف فلسطين في القدس (حالياً متحف روكفلر) تحت سلطة اسرائيل. وسرت إشاعة مفادها أن التاجر «خليل اسكندر شاهين» الملقب بـ«كندو»، الذي اقترن اسمه بعملية بيع مخطوطات المغارة الأولى، يحتفظ بإحدى مخطوطات البحر الميت. فداهم إيغال يادين منزله في بيت لحم واقتاده مع ابنه إلى تل ابيب، حيث تمّ استجوابهما. فاعترف «كندو» بحيازته أحد الدّروج وسلّمه للسلطات الاسرائيلية. وقد نَشره يادين فيما بعد وأطلق عليه اسم «دَرْج الهيكل» (11Q19). ومن المرجّح أن الدَّرج المذكور مُهرَّب من المغارة الحادية عشرة.

منذ سنة ١٩٥٢، جرى تشكيل فريق دولي من أجل دراسة مخطوطات البحر الميت ونشرها بشكل رسمي في سلسلة من المجلدات تحمل عنوان «اكتشافات في برية اليهودية»[1]. تألّف هذا الفريق من سبعة اخصائيين، ارتفع

١- ابتداءً من سنة ١٩٦٢، أصبح العنوان *Discoveries in the Judaean Desert of Jordan* بعدما انتقلت مسؤولية حراسة المخطوطات ونشرها الى مصلحة الآثار الاردنية. ومنذ سنة ١٩٦٧ فصاعداً، استُبدلت عبارة «of Jordan» بعبارة «of Israel»، وذلك بعد احتلال اسرائيل للقدس الشرقية ووضع يدها على مخطوطات البحر الميت الموجودة في المتحف الفلسطيني.

عددهم لاحقاً إلى خمسين شخصاً.

وتسارعت عملية النشر في بادئ الأمر، ثم حصل تباطؤ فيما بعد، ما أدّى إلى ارتفاع أصوات الاحتجاج في وسائل الإعلام ولدى الأوساط العلمية، مطالبةً بإطلاق حرية الاطلاع على المخطوطات وإصدار قوائم وصفية بالمخطوطات غير المنشورة.

وفي ٢٢ أيلول ١٩٩١ حصل تطوّر مهمّ في هذه المسألة، وذلك عندما قررت مكتبة «هانتنغتون» في الولايات المتحدة الاميركية، السماح للمتخصصين بالاطلاع على ميكروفيلم المخطوطات الذي تحتفظ به[١]. كما صدرت طبعة غير رسمية تضمّ ١٨٠٠ صورة من المخطوطات غير المنشورة[٢]. تجاه تلك التطوّرات، وافقت دائرة الآثار الإسرائيلية بتاريخ ٢١ تشرين الأول سنة ١٩٩١ على السماح بإطلاق حرية الاطلاع على المخطوطات. فأسفر هذا التدبير عن طبع ملف كامل لصور مصغّرة عن المخطوطات سنة ١٩٩٣، وصدور الملف المذكور على أقراص مدمجة (CD-Rom) سنة ١٩٩٧.

ومنذ التسعينيات من القرن الماضي تتصاعد بشكل ملموس عملية نشر المخطوطات في سلسلة «اكتشافات في برية اليهودية». وقد بلغ عدد الأجزاء الصادرة حتى هذا اليوم ٣٩ مجلداً.

والآن، وبعد نشر هذه المخطوطات، لا يزال الغموض يكتنف سرّها وسر أصحابها. فالأخذ برأي أكثرية الباحثين القائل إن الأسينيين[٣] هم أصحاب مخطوطات البحر الميت يضعنا أمام معضلة، لأن الأسينيين اشتهروا بحبهم للسلام واحترامهم للسلطات وذلك استناداً إلى المصادر، في حين أن المخطوطات تشدّد على أصولية أصحابها وموقفهم الرافض للحكم الأجنبي والمتعاونين معه. وهناك فريق من الباحثين يرى أن طائفة الأسينيين نشأت في

١- تحتفظ أربع مكتبات في العالم بميكروفيلم عن المخطوطات (ثلاث منها موجودة في الولايات المتحدة الأميركية، والرابعة في جامعة أوكسفورد في انكلترا). وقد اتخذ هذا التدبير الاحترازي خوفاً على المخطوطات من تجدد الصراع في منطقة الشرق الاوسط.

٢- R. EISENMAN - J. M. ROBINSON, *A Facsimile Edition of the Dead Sea Scrolls,* 2 volumes, Washington, DC, 1991.

٣- الأسينيون هم طائفة يهودية قديمة، لا يُعرف بالتحديد زمن نشوئها.

القرون السابقة للميلاد، وفريق آخر يعتقد أن الخلفية التاريخية لمخطوطات البحر الميت تتوافق مع الحرب اليهودية الكبرى ضد الرومان (٦٦-٧٠م.) ، ما يستحيل معه إعادتها إلى مرحلة ما قبل المسيحية. والخلاف على أشدّه الآن بين هذين التيّارين حول تأريخ المخطوطات وهوية أصحابها[1].

إذاً، تنحصر المسألة الأساسية بالنسبة إلى مخطوطات البحر الميت في التأكد من أن الأسينيين هم أصحاب تلك المخطوطات، وفي تحديد الإطار التاريخي الصحيح لنشأة تلك الجماعة والغاية من تأسيسها، وبالتالي تعيين الحقبة التاريخية الصحيحة التي كُتبت فيها المخطوطات، إذ يتوجب على المؤرخ قبل الشروع بنقد الوثائق وتحليلها أن يضعها في إطارها الزمني لكي يتمكن من فهم أبعادها على ضوء السياق التاريخي الذي تنتمي إليه. هذه المسألة وما رافقها من ضجّة إعلامية حول الحظر المفروض على مخطوطات البحر الميت ومسألة التباطؤ في نشرها، وصحّة ما قيل عن تأثر الديانة المسيحية ومؤسسها بطائفة الأسينيين ومعتقداتهم، كلّ ذلك شكّل الحافز الأساسي لاختيارنا موضوع مخطوطات البحر الميت وسرّ أصحابها كمادة لهذا الكتاب.

فهل صحيح أن الأسّينيين هم أصحاب مخطوطات البحر الميت أم أن جماعة أخرى هي صاحبة هذه المخطوطات؟ ومتى نشأت تلك الجماعة وما هو سرّها؟

هذا ما سنحاول معرفته خلال بحثنا عن هويّة هذه المخطوطات وأصحابها.

١- هالة العوري، أهل الكهف: قراءة في مخطوطات البحر الميت، بيروت، رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٠، ص ١٩ و ١٣١.

لائحة المختصرات

١- النصوص التوراتية والانجيلية

اح	الأحبار
١ اخ	سفر الأخبار الأول
٢ اخ	سفر الأخبار الثاني
ار	إرميا
اس	أستير
اش	أشعيا
اف	الرسالة إلى أهل أفسس
اي	أيوب
با	سفر باروك
١ بط	رسالة بطرس الأولى
٢ بط	رسالة بطرس الثانية
تث	تثنية الاشتراع
١ تس	الرسالة الأولى إلى اهل تسالونيكي
٢ تس	الرسالة الثانية إلى اهل تسالونيكي
تك	التكوين
جا	الجامعة
حب	حبقوق
حج	حجاي
حز	حزقيال
حك	سفر الحكمة
خر	الخروج
دا	دانيال
را	راعوت
رسل	اعمال الرسل
روم	الرسالة إلى اهل رومة
رؤ	الرؤيا
زك	زكريا
سي	يشوع بن سيراخ
صف	صفنيا
١ صم	سفر صموئيل الأول
٢ صم	سفر صموئيل الثاني
طو	طوبيا
طي	الرسالة إلى طيطس
١ طيم	الرسالة الأولى إلى طيموتاوس
٢ طيم	الرسالة الثانية إلى طيموتاوس
عا	عاموس
عب	الرسالة إلى العبرانيين
عد	العدد
عز	سفر عزرا
عو	عوبديا
غل	الرسالة إلى اهل غلاطية
ف	الرسالة إلى فيلمون
فل	الرسالة إلى اهل فيلبي
قض	سفر القضاة
١ كور	الرسالة الأولى إلى اهل كورنتس
٢ كور	الرسالة الثانية إلى اهل كورنتس
قول	الرسالة إلى اهل قولسي
لو	الانجيل كما رواه لوقا
متى	الانجيل كما رواه متى
مثل	الامثال
مر	الانجيل كما رواه مرقس
مرا	المراثي
مز	المزامير
١ مك	سفر المكابيين الأول
٢ مك	سفر المكابيين الثاني
١ مل	سفر الملوك الأول
٢ مل	سفر الملوك الثاني
ملا	ملاخي
مي	ميخا
نح	سفر نحميا
نحو	ناحوم
نش	نشيد الاناشيد

هو	هوشع
يش	سفر يشوع بن نون
يع	رسالة القديس يعقوب
يو	الانجيل كما رواه يوحنا
١ يو	رسالة القديس يوحنا الأولى
٢ يو	رسالة القديس يوحنا الثانية
٣ يو	رسالة القديس يوحنا الثالثة
يوء	يوئيل
يون	يونان
يه	يهوديت
يهو	رسالة القديس يهوذا

٢- الرموز الخاصة بمخطوطات البحر الميت الواردة في هذا الكتاب

اسم المخطوطة بالعربية	اسم المخطوطة بالأجنبية	الرمز
ابراج	Horoscope	4Q186
ابن سيراخ	Ben Sira	2Q18
اخنوخ	Enoch	En*
ارض متجددة	Renewed Earth	4Q475
اسفار موسى الخمسة المنحولة	Apocryphon Pentateuch	4Q368, 4Q377
اشعيا (الجامعة العبرية)	Isaiah[b]	1QIsa[b]
اشعيا (دير مار مرقس)	Isaiah[a]	1QIsa[a]
اعمال ملك اغريقي	Acts of a Greek King	4Q248
اقوال النيّرات	Words of the luminaries	4Q504-506
اقوال موسى	Words of Moses	IQ22
اقوال ميخائيل	Words of Michael ar	4Q529
اناشيد ذبيحة السبت	Songs of the Sabbath Sacrifice	4Q400-407
اناشيد ذبيحة السبت (مسعدة)	Masada Songs of the Sabbath Sacrifice	Mas1K
اورشليم الجديدة	New Jerusalem	2Q24, 4Q554, 5Q15, 11Q18

* سوف نشير إلى سفر أخنوخ الأول، المعروف منذ القِدَم، بالرمز «En». وقد عثر في مغاور قمران على فتائت متعددة منه، نذكر منها: 1Q23, 1Q24, 2Q26, 4Q201-212, 4Q530, 4Q532, 4Q556, 6Q8.

اسم المخطوطة بالعربية	اسم المخطوطة بالأجنبية	الرمز
باركي يا نفسي	Bless, oh my soul	4Q434, 4Q435, 4Q436, 4Q438
ترجوم أيوب	Targum of Job	11Q10
التطويبات	Beatitudes	4Q525
تعليم	Instruction	4Q418
تفسير اشعيا	Isaiah Pesher	4Q161-165
تفسير المزامير	Pesher to Psalms	1Q16
تفسير المزمور ٣٧	Psalms Pesher	4Q171
تفسير حبقوق	Pesher to Habakkuk	4IQpHab
تفسير سفر التكوين	Commentary on Genesis	4Q252, 4Q253, 4Q254
تفسير صفنيا	Pesher to Zephaniah	1Q15
تفسير ملاخي	Commentary on Malachi	4Q253a
تفسير ميخا	Pesher to Micah	1Q14, 4Q168
تفسير ناحوم	Nahum Pesher	4QpNah
تفسير هوشع	Hosea Pesher	4Q166, 4Q167
الدرج النحاسي	3Q Copper Scroll	3Q15
درج الهيكل	Temple Scroll	11Q19
رؤيا آرامية	Aramaic Apocalypse	4Q246
رؤى عمرام	Visions of Amram	4Q543-548
رؤيا مشيحية	Messianic Apocalypse	4Q521
رسالة ارميا	Epistle of Jeremiah	7Q2
رسالة مسلكية	Halakhic letter	4Q394-399
سفر التثنية	Deuteronomy	11Q3
سفر اللاويين	Leviticus	11Q1, 11Q2
سفر طوبيا	Tobit	4Q196-200
شهادات	Testimonia	4Q175
صلاة نابونيد	Prayer of Nabonidus	4Q242
صلوات الاعياد	Festival prayers	1Q34, 1Q34bis
فخاخ المرأة	Wiles of the wicked woman	4Q184
كتاب الاسرار	Mysteries	1Q27, 4Q299-301
كتاب المباركات	Rule of Benedictions	1QSb
اللاويون، العدد، التثنية (الترجمة السبعينية)	Septuagint Leviticus, Numbers & Deuteronomy	4Q119-122
مختارات	Florilegium	4Q174

اسم المخطوطة بالعربية	اسم المخطوطة بالأجنبية	الرمـز
المدائح	Hodayot	1QH^{a}
المراثي المنحولة	Apocryphal Lamentations	4Q179
المزامير	Psalms	11Q5
مزامير غير قانونية	Non-canonical Psalms	4Q380, 4Q381
المزامير المنحولة	Apocryphal psalms	11Q11
ملحق نظام الجماعة	Rule of the Congregation	1QSa
ملكيصادق	Melchizedek	11Q13
منحول إرميا	Apocryphon of Jeremiah	4Q383, 4Q384, 4Q385^{b}, 4Q387^{b}
منحول التكوين	Genesis Apocryphon	1QapGen ar
منحول حزقيال	Pseudo-Ezekiel	4Q385, 4Q385c, 4Q386, 4Q388, 4Q391
منحول لاوي	Apocryphon of Levi	4Q540, 4Q541
منحول موسى	Apocryphon of Moses	4Q375
منحول يشوع	Apocryphon of Joshua	4Q378, 4Q379, 5Q9
منحول يوسف	Apocryphon of Joseph	4Q371-373, 4Q539
نبوءة حزقيال	Ezekiel	11Q4
نبوءة يشوع	Prophecy of Joshua	4Q522
نص تقويميّ	Calendrical Document	4Q320-330
نص جدليّ	Polemical fragment	4Q471a
نص عرفاني	Sapiential work	4Q185
نص قصصي	Narrative	4Q462
نظام الجماعة	Rule of the Community	1QS
نظام الحرب	War Scroll	1QM
وثيقة دمشق	Damascus Document	CD-A, CD-B
وصية قهات	Testament of Qahat	4Q542
وصية لاوي	Testament of Levi	4Q213-214^{b}
وصية لاوي (غنيزة القاهرة)	Cairo Geniza Testament of Levi	CTL
وصية نفتالي	Testament of Naphtali	4Q215
وصية يهوذا	Testament of Judah	4Q538
يوبيلات	Jubilees	Jub*

* سفر اليوبيلات معروف منذ زمن بعيد، وسوف نشير إليه بالرمز «Jub». وقد عثر في مغاور قمران على نصوص مجتزأة منه حملت الرموز التالية: 1Q17, 1Q18, 2Q19, 2Q20, 3Q5, 4Q218-219, 4Q499, 11Q12.

B.E.I = André DUPONT-SOMMER - Marc PHILONENKO (éds.), *La Bible Ecrits Intertestamentaires*, Paris, 1987.

BURROWS, *Manuscrits* = Millar BURROWS, *Les Manuscrits de la mer Morte*, traduit par M. GLOTZ et M.-T. FRANCK, (les Enigmes de l'univers), Paris, 1957.

DB = *Dictionnaire de la Bible.*

DBS = *Dictionnaire de la Bible, Supplément.*

DHGE = *Dictionnaire d'Histoire et de Géographie Ecclésiastiques.*

DJD = *Discoveries in the Judaean Desert*

DSSSE = Florentino G. MARTINEZ - Eibert J. C. TIGCHELAAR, *The Dead Sea Scrolls, Study Edition*, 2 volumes, Grand Rapids, Michigan/ Cambridge, U.K, 2000.

EISENMAN-WISE, *Man. Rév.* = Robert EISENMAN - Michael WISE, *Les manuscrits de la mer Morte révélés: choix, traduction et interprétation de 50 textes clefs inédits*, traduit par Jean-Christophe ATTIAS, Paris, 1995.

EUSEBE, *H. E.* = EUSEBE DE CESAREE, *Histoire Ecclésiastique*, traduction et annotation par Gustave BARDY, (Sources Chrétiennes, n° 31), vol. 2, Paris, 1952.

EUSEBE, *Prép. Ev.* = EUSEBE DE CESAREE, *La Préparation Evangélique*, introduction, traduction et notes par Guy SCHROEDER et Edouard des PLACES, (Sources Chrétiennes, n° 369), Paris, 1991.

JOSEPHE, *Ant. jud.* = FLAVIUS JOSEPHE, *Antiquités judaïques*, traduction de G. MATHIEU et L. HERRMANN, (*Oeuvres Complètes de Flavius Josèphe*, collection éditée sous la direction de Théodore REINACH), tome 4, Paris, 1929.

JOSEPHE, *Apion* = FLAVIUS JOSEPHE, *Contre Apion*, texte établi et annoté par Théodore REINACH et traduit par Léon BLUM, (Collection Des Universités De France), Paris, 1930.

JOSEPHE, *Guerre* = FLAVIUS JOSEPHE, *Guerre des Juifs*, traduction de René HARMAND, revisée et annotée par Théodore REINACH, (*Oeuvres Complètes de Flavius Josèphe*, collection éditée sous la direction de Théodore REINACH), tomes 5 et 6, Paris, 1911.

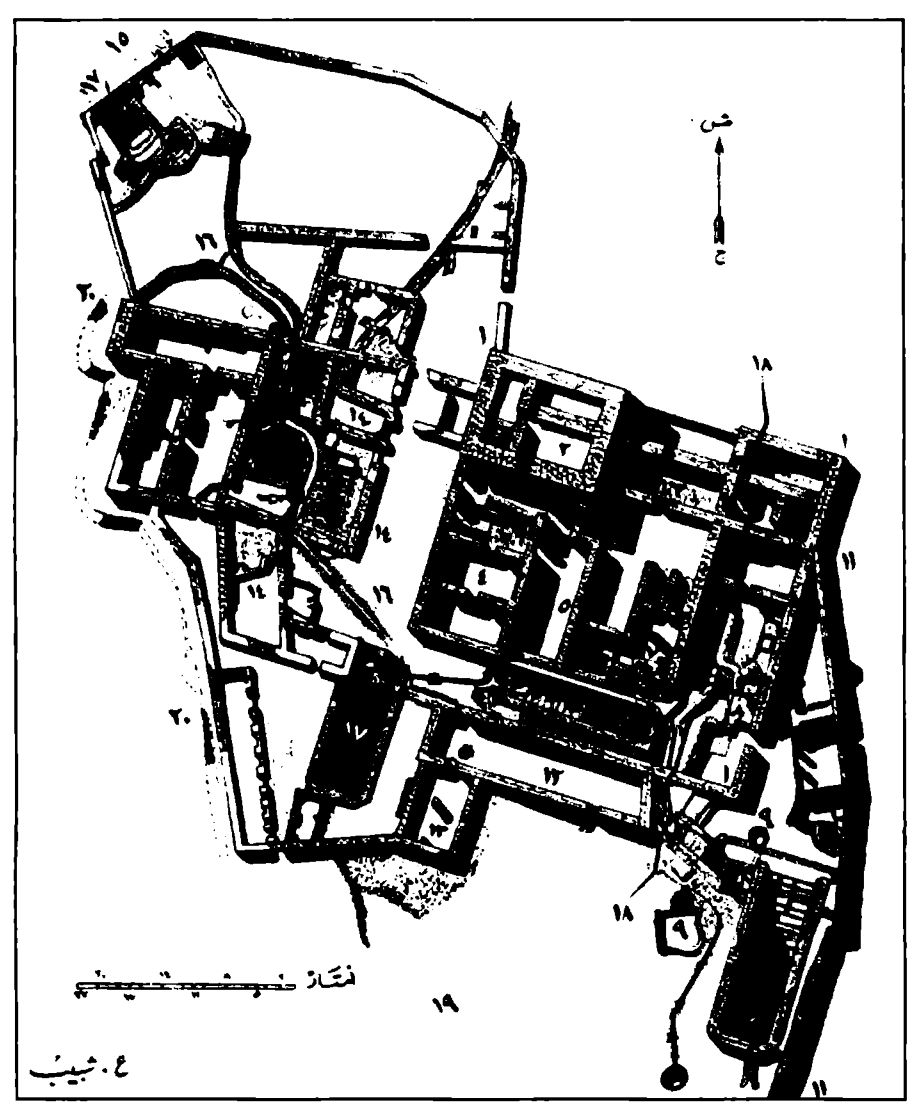
JOSEPHE, *Life* = *The Life of Flavius Josephus Written by Himself*, dans *The Works of Josephus*, translated by W. Whiston, Philadelphia, (undated).

LAPERROUSAZ, *Qoumrân* = E.-M. LAPERROUSAZ, *Qoumrân, L'Etablissement éssénien des bords de la mer Morte, histoire et archéologie du site*, Paris, 1976.

N.H.E.	=	Jean DANIELOU - Henri MARROU, *Des Origines à Saint Grégoire le Grand,* dans L.-J. ROGIER, R. AUBERT, M. D. KNOWLES (éds.), *Nouvelle Histoire de l'Eglise,* tome 1, Paris, 1963.
P.G.	=	*Patrologiae Graecae.*
PHILON, *Vita*	=	PHILON D'ALEXANDRIE, *De Vita Contemplativa,* introduction et notes de F. DAUMAS, traduction de P. MIQUEL, (*Les Oeuvres de Philon d'Alexandrie,* 29, collection dirigée par Roger ARNALDEZ – Jean PUILLOUX - Claude MONDESERT, sous le patronage de l'Université de Lyon), Paris, 1963.
PHILON, *Quod Omnis*	=	PHILON D'ALEXANDRIE, *Quod Omnis Probus Liber Sit,* introduction, texte, traduction et notes par Madeleine PETIT, (*Les Oeuvres de Philon d'Alexandrie,* 28, collection dirigée par Roger ARNALDEZ – Jean PUILLOUX – Claude MONDESERT, sous le patronage de l'Université de Lyon), Paris, 1974.
RB	=	*Revue Biblique.*
RQ	=	*Revue de Qumran.*
De VAUX, *L'Archéologie*	=	Roland de VAUX, *l'Archéologie et les Manuscrits de la mer Morte,* (The Schweich lectures of the British Academy, 1959), London, 1961.

الباب الأول

الأصول والمصادر: عرض ونقد



١ : زوايا الحصن
٢ : البرج
٣ : السلم
٤ : غرفة الطعام
٥ : المكتبة
٦ : المطبخ
٧ : المدبغة
٨ : المصبغة
٩ : الفاخورة
١٠ : افران الفاخورة
١١ : الحائط عند المقبرة
١٢ : قاعة الاجتماع
١٣ : خزانة الاواني
١٤ : المصانع
١٥ : اتصال الاقنية
١٦ : القناة الرئيسية
١٧ : الصهاريج
١٨ : شق الزلزال
١٩ : الساحة الجنوبية
٢٠ : الحائط الركن الغربي

خربة قمران (الحقبة السكنية الثانية)

(نقلاً عن: أسد رستم، مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران، ص ٤٦).

الفصل الأول

خربة قمران

خربة قمران هي اسم لموقع أثري متهدّم يقع في المنطقة التي اكتُشفت فيها مغاور المخطوطات، ويبعد حوالى ١٢ كلم الى الجنوب من مدينة أريحا. شُيّدت أبنية قمران على رابية جرداء مسطّحة القمّة تقع في أسفل الجرف الصخري، وهي ترتفع خمسين متراً عن شاطئ البحر الميت، كما تبعد عنه مسافة كيلومتر واحد تقريباً.

تتخذ خربة قمران اسمها من وادي قمران الوعِر الذي يحدّها من الجنوب شاقاً مجراه عبر الجرف الصخري، كما يحدّها من الشمال والغرب وهاد. وهناك جلّ منبسط الى الشرق من الخربة، يليه منحدرٌ وآثارٌ لدرب قديمة.

توجد مقبرة تبعد خمسين متراً لناحية الشرق من خربة قمران، وهي تضمّ ١١٠٠ مدفن. كما توجد مقبرتان ثانويّتان تضمّان مئة مدفن تقريباً، تقع إحداهما على الجلّ الحوّاري الكائن في شمال الخربة، والأخرى لناحية الجنوب.

وعلى مسافة ٤,٥ كلم الى الجنوب من خربة قمران، يندفع الجرف الصخري نحو البحر فيشكّل رأساً يُدعى «رأس فشخة». تنمو الى الشمال من الرأس المذكور نباتات هزيلة بالقرب من ينابيع قليلة العذوبة، أهمها «عين فشخة». كان يحيط بتلك الينابيع واحة من النخيل والخضار، وتشرف عليها خربة تسمّى «خربة فشخة»[1]. وقد أثبتت التنقيبات الأثرية ارتباط «خربة فشخة» تاريخياً بخربة قمران[2].

اهتمّ علماء الآثار بخربة قمران خلال تنقيباتهم الأثرية في المغاور، فأرسلوا بين سنتي ١٩٥١ و١٩٥٦ خمس بعثات للتنقيب عن الآثار فيها، أسفرت عن كشف معالمها وتطوّر العمران فيها. وقد ثَبُتَ ارتباط خربة قمران بالمغاور

---

١ - «خربة فشخة» هي عبارة عن بناء مستطيل طوله ٢٤ متراً وعرضه ١٨ متراً. يتألف البناء من طابقين، ويتضمن الطابق الأرضي عدداً من الغرف والمخازن.

٢- De VAUX, *L'Archéologie,* p. 51.

والمخطوطات المكتشفة فيها نظراً للعثور في خربة قمران على أوانٍ فخارية مشابهة لتلك التي عُثر عليها في المغاور. وقد لاحظ الأب دوفو الذي أشرف على التنقيبات الأثرية، أن الخربة المذكورة مرّت بمراحل سكنية متعددة، وهي التالية:

أولاً- العهد الاسرائيلي

كشفت أعمال التنقيب الأثرية أن أطلال خربة قمران شُيِّدت خلال عصور مختلفة. فالمداميك السفلى الكائنة في الزاوية الشمالية الغربية من البناء الرئيس تختلف في حجم حجارتها وسماكة البنيان عن سائر ما تبقى من جدران قائمة. كان البناء في الأصل مستطيل الشكل، يتألف من فناء فسيح لجهة الغرب ومن غُرف متعددة بمحاذاة السور الشرقي. ويوجد في الناحية الغربية، خارج البناء، أرض مسوّرة تحتوي على صهريج مستدير الشكل، تتجمع فيه مياه الأمطار عبر قناة تخترق أسفل الجدار الشمالي. والصهريج المذكور هو الوحيد من نوعه في قمران من حيث شكله المستدير. كما وان تصميم البناء مشابه للقلاع الاسرائيلية التي تمّ اكتشافها في النجب أو في سهل البقيعة الواقع في الهضبة المطلّة على خربة قمران.

ساعد حطام الفخار المتواجد في ذلك الموقع على تحديد الحقبة التي بُنِيَت فيها القلعة. فالحطام المذكور يعود الى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد. وقد عُثر على مقبض وعاء خزفي عائد الى نهاية عهد الملكية، خُتِمَت عليه عبارة «الى الملك». وفي المستوى الأثري عينه، وُجدت طَبقَة من الرماد تدلّ على أن القلعة أُحرقت ودُمِّرت بشكل عنيف. ويحتمل أن يكون ذلك قد تزامن مع سقوط مملكة يهوذا في مطلع القرن السادس قبل الميلاد[1].

ثانياً- الحقبة السكنية الأولى (أ)

مرّت قرون عديدة قبل أن تأتي مجموعة ثانية من البشر للسكن في قمران،

١- De VAUX, *L'Archéologie,* p. 2-3.

غير أن دوفو لا يجد أي رابط بين هذه الحقبة السكنية والحقبة السابقة[١]. فما تبقى من أطلال القلعة الاسرائيلية استُعمل كنقطة انطلاق للساكنين الجدد. وقام هؤلاء بإجراء تعديلات طفيفة على تصميم البناء، فزادوا مساحته من الناحية الغربية عن طريق إطالة الحائط الجنوبي ووصله بالحائط الغربي المجاور للصهريج المستدير، بحيث صار هذا الأخير ضمن البناء. وحفروا، بالقرب من الصهريج المذكور، صهريجين مستطيلي الشكل مع حوضٍ للتصفية، كما شيّدوا بعض الغرف، ورمّموا السور الشمالي المتهدّم، وبنوا فرنين للفخار مكان الغرف الشرقية الجنوبية المدمّرة.

هناك صعوبة في تحديد بداية هذه الحقبة السكنية التي لم يتبقَّ منها سوى حطام الفخار وبعض الأوعية التي وجدت في الناحية الجنوبية من البناء الرئيس، وهي لا تختلف في شكلها عن الفخاريات العائدة لمرحلة السكن التالية (الأولى-ب)، كما أنها لم تكن مقرونة بأيّ نوع من العملات. وبسبب ندرة الآثار العائدة للمرحلة (الأولى-أ)، يرى دوفو أن تلك الحقبة السكنية كانت قصيرة الأمد، وباعتقاده أنها انتهت مع بداية الحقبة السكنية التالية (الأولى-ب) أي في عهد يوحنا هركانوس (١٣٥-١٠٤ ق.م.)[٢].

ثالثاً- الحقبة السكنية الأولى (ب)

تشير دلائل العملات المتواجدة إلى أن أبنية قمران كانت مسكونة بشكل مؤكد في عهد اسكندر حناني (١٠٣-٧٦ ق.م.)، وقد اتخذت في هذه المرحلة السكنية شكلها النهائي تقريباً، فبلغت مقاييسها ما يقارب ٨٠ متراً من الشرق الى الغرب و١٤٠ متراً من الشمال الى الجنوب. وأصبحت تتألف من بناء رئيس يقع في الجهة الشرقية، ومن فناء في الوسط، ثم من أجنحة تضم عدداً من المشاغل الكائنة في الجهة الغربية وتحيط بالصهاريج الثلاثة العائدة للفترة السكنية السابقة.

ويوجد في القسم الجنوبي الغربي من البناء الرئيس قاعة مربعة مؤلفة

١- De VAUX, *L'Archéologie*, p. 3.

٢- *Ibid.*, p. 4.

من قسمين، تحاذيها من الشرق قاعة كبرى للإجتماع طولها ثلاثة عشر متراً وعرضها أربعة أمتار، يليها لناحية الشرق فناء مكشوف يؤدي شمالاً الى مطبخ تحيط به غرف ومخازن. ويوجد في الناحيتين الجنوبية والجنوبية- الشرقية من البناء الرئيس، أربعة صهاريج للمياه تتوسطها قاعة كبيرة يبلغ طولها إثنان وعشرون متراً وعرضها أربعة أمتار ونصف، وهي عبارة عن قاعة اجتماع، وتُستعمل أيضاً كقاعة طعام. وهناك غرفة أخرى تقع جنوبي قاعة الطعام وتشكل معها زاوية قائمة، عُثر فيها على حطام أكثر من ألف وعاء من الأواني المطبخية[1].

أما البناء الثانوي الغربي، فقد أضيف إليه عدد من المخازن وأنشئ في قسمه الجنوبي صهريج كبير للمياه واصطبل للدواب.

في هذه الحقبة السكنية، حُفرت قناة لنقل مياه السيول التي تعبر وادي قمران خلال فصل الشتاء، وهي تتصل بشبكة من القنوات الداخلية وأحواض التصفية والصهاريج. ومن الواضح أن تلك الشبكة المتطورة لجرّ المياه تؤكد وجود عدد مهمّ من أعضاء جماعة اختارت العيش في الصحراء، وكان التموين بالمياه يُعتبر مسألة جوهرية بالنسبة إليها. ولم تكن خربة قمران، في تلك المرحلة، حصناً أو قرية، بل مؤسسة لجماعة تعيش حياة مشتركة. فغرف المنامة تشغل حيّزاً ضيّقاً بالنسبة إلى الأمكنة المخصّصة للإستعمال العام، ويحتوي البناء الثانوي على عدد من المخازن. ولا يوجد سوى مطبخ واحد واصطبل واحد، بينما هناك العديد من المشاغل وقاعات الاجتماع.

أشار دوفو إلى أن نهاية هذه الحقبة السكنية سبّبها زلزال لا تزال معالمه ظاهرة في الصهريجين الواقعين شرقيّ البناء الرئيس حيث انخسفت جهتهما الشرقية وهبطت ٥٠ سنتمتراً. كما تزعزع الحائط الشرقي للبرج وحصلت أضرار في نواحٍ مختلفة من البناء. وقد حدّد تاريخ حصول الزلزال في ربيع سنة ٣١ ق.م. وتدلّ طبقة من الرماد عائدة الى تلك الحقبة السكنية على

١- De VAUX, *L'Archéologie,* p. 9-10.

حصول حريق، ربما حصل بسبب الزلزال[1]. ويظهر أن الأضرار التي لحقت بالأبنية أو بنظام المياه المتصدّع لم تُصلح فوراً، بل بقيت المياه تنحدر من وادي قمران وتسيل عبر قناة المياه الرئيسة، فتتجمّع ترسّباتها في حوض التصفية الأول خارج البناء، ثم تفيض منه لتغمر الفسحة المحاذية للسور، وتشكّل طبقة سميكة من الطين فوق ترسّبات الرماد الناتج عن الحريق.

رابعاً- الحقبة السكنية الثانية

رأى دوفو أن الحياة عادت الى موقع قمران بعد مدة وجيزة من الزمن كما وأن الجماعة السابقة نفسها عادت وسكنت فيه[2]. وقام القادمون بترميم الأبنية التي حافظت على تصميمها الأصلي، باستثناء بعض التعديلات الطفيفة.

خلال تلك الحقبة، جرى استحداث عدد من المشاغل في البناء الثانوي. فقد أثبتت التنقيبات الأثرية وجود إحدى الصناعات التي تحتاج الى نار قوية والكثير من الماء. كما تمّ إنشاء موقد كبير من الطوب وموقد آخر صغير في مشغل يقع الى الجنوب من الصهريج المستدير. غير أنه لم يُعثر على أي دليل يساعد على تحديد نوع الصناعة التي كانت تُمارس في ذلك الموضع. وفي الجنوب الشرقي من المشغل المذكور بُنِيَت مطحنة. وفي الفناء الواقع بين البنائين الرئيس والثانوي، تمّ إنشاء غرفتين، تحتوي إحداهما على فرن للخبز. وأُجريَت بعض التعديلات في شبكة المياه. إذ ألغي حوض التصفية الأول الكبير الواقع خارج الأبنية بسبب تراكم الترسبات فيه، واستبدل بحوض آخر صغير يقع عند مصبّ القناة الرئيسة. وفي البناء الرئيس، صُرف النظر عن استعمال الصهريجين اللذين تضرّرا بسبب الزلزال وسُدّت منافذ المياه اليهما[3].

١- De VAUX, *L'Archéologie,* p. 18.

حول الزلزال الذي أحدث أضراراً في منطقة اليهودية في السنة السابعة من عهد الملك هيرودس الكبير (٣٧-٤ ق.م.)، أنظر: JOSEPHE, *Guerre,* I, xix, 2, § 370.

٢- De VAUX, *L'Archéologie,* p. 19.

٣- *Ibid.,* p. 21-22.

١- قاعة الكتابة

لا شك أن أهم التعديلات التي قام بها سكان قمران خلال الحقبة الثانية هو استحداث قاعة للكتابة كائنة في الطابق الأول فوق قاعة الاجتماع الكبرى. يبلغ طول قاعة الكتابة ثلاثة عشر متراً وعرضها أربعة أمتار على مثال قاعة الاجتماع الكبرى التي تقع تحتها مباشرة. وقد لمّح دوفو الى تواجد تلك القاعة في الحقبة السكنية (الأولى-ب) دون أن يحدد أو يؤكد وجهة استعمالها أثناء تلك الفترة، بل ترك أمر تحديد استعمالها كقاعة للكتابة خلال حديثه عن الحقبة السكنية الثانية[١].

من مخلّفات القاعة المذكورة، حُطامٌ لطاولة من الآجر المغطّى بالجصّ المالس، بلغ طولها ٥ أمتار، وعرضها ٤٠ سنتمتراً، وارتفاعها ٥٠ سنتمتراً. كما عثر على حطام طاولتين أخريين لهما مواصفات الطاولة الكبيرة ذاتها ولكنهما أقصر طولاً، بالإضافة الى مائدة من الجصّ قليلة الارتفاع، كانت مُستدة الى الحائط الشمالي من القاعة، وهي تحوي فجوات مخصصة للماء الذي يتطهّر به الكتّاب عند الشروع بالعمل. وعُثر أيضاً في الموضع عينه على محبرتين من العصر الروماني، لا تزال إحداهما تحفظ في قعرها بقايا ناشفة من الحبر الأسود[٢]. وكانت الطاولة الكبيرة موضوعة بموازاة الحائط الشرقي في القسم الجنوبي من قاعة الكتابة، وهي تتصل عند أسفلها بمَقعد خشبي مجصّص، قليل الارتفاع، كان في الأصل مثبتاً في الحائط المذكور.

اشار «بادلي» إلى أن المواصفات القديمة للمكتبات وغرف النوم تفرض أن تكون مواجهة للشرق، لكي تؤمن لها شمس الصباح الإنارة والدفء، وتزيل الرطوبة المتكوّنة أثناء الليل. وهذه الشروط تتناسب تماماً مع قاعة الكتابة، المواجهة للشرق، التي ربما كانت قاعة المنامة الكبرى لسكان الحقبة السكنية السابقة.

١- De VAUX, *L'Archéologie,* p. 5 et 23.

٢- Katharine Greenleaf PEDLEY, «The library at Qumran», *RQ,* n° 5 (1959), p. 29.

٢- آراء حول بداية الحقبة السكنية الثانية ونهايتها

بغية تحديد بداية هذه المرحلة السكنية، لجأ دوفو الى شهادة علم المسكوكات. فتبيّن له أن مسكوكات الحقبة السكنية الثانية التي عُثِر عليها بين أطلال خربة قمران، هي التالية:

- ١٠ قطع نقود من عهد الملك هيرودس الكبير (٣٧-٤ ق.م.)، سُكَّت بعد العام ٣٠ ق.م.
- ١٦ قطعة نقود من عهد أرخلاوس بن هيرودس (٤ ق.م.-٦ م.).
- ٩١ قطعة نقود من عهد المحصّلين[١] [ومنها ٣٣ قطعة نقود سُكَّت في عهد نيرون قيصر (٥٤-٦٨ م.)].
- ٧٨ قطعة نقود من عهد الملك أغريبا الأول (٤١ م.- ٤٤ م.)
- ٩٤ قطعة برونزية عائدة للثورة اليهودية الكبرى (٦٦-٧٠ م.)، منها ٨٣ قطعة من العام الثاني للثورة، و٥ قطع من العام الثالث، و٦ قطع غير واضحة التاريخ[٢].

ذكر دوفو أن العثور على عشر قطع نقود عائدة الى عهد هيرودس الكبير لا يعني أن خربة قمران كانت مسكونة في الثلث الأخير من القرن الأول قبل الميلاد، لأن تلك النقود اكتُشفت في مستوى أثري مختلط بجوار بعض النقود العائدة الى عهود مختلفة، ومنها مثلاً قطعة نقود عائدة الى عهد المحصّلين. هذا بالإضافة الى أن مسكوكات هيرودس بقيت قيد الاستعمال حتى بعد وفاته. لذلك اعتبر أن الحياة السكنية عادت الى خربة قمران في عهد أرخلاوس بسبب العثور على ١٦ قطعة نقود مسكوكة باسمه[٣].

وخلال التنقيبات الأثرية في إحدى الغرف الواقعة في الزاوية الشمالية

١- بعد إقصاء أرخلاوس بن الملك هيرودس الكبير عن الحكم سنة ٦ م. عيّن أوغسطس قيصر «كوبونيوس» محصّلاً (procurateur) على اليهودية. وكانت مهمة المحصل إدارية مالية بالإضافة الى حفظ الأمن. وكان له أيضاً حق الحياة والموت على رعاياه. وهو يرتبط مباشرة بالإمبراطور بالرغم من خضوعه جزئياً لسلطة رقابة والي سوريا. وقد حكم المحصّلون اليهودية من مدينة قيصرية الساحلية.

٢- LAPERROUSAZ, *Qoumrân,* p. 151-152.

٣- De VAUX, *L'Archéologie,* p. 26.

الغربية من البناء الثانوي في خربة قمران، تمّ العثور على كنز يتألف من ٥٦١ قطعة نقود فضّية. والكنز المذكور هو من مسكوكات مدينة صور باستثناء عدد قليل من القطع النقدية الرومانية العائدة للعهد الجمهوري. أقدم تلك القطع يعود للعام ١٣٨-١٣٧ ق.م. وأحدثها مؤرخ في سنة ١١٨ لعام صور الثاني الموافق لسنة ٩-٨ ق.م[1]. وكانت تلك النقود موضوعة في ثلاث جرار صغيرة، واحدة منها هي من النوع المعروف في قمران. وكانت الجرار مخبأة تحت أرض الحقبة السكنية الثانية وفوق أرض الحقبة السكنية (الأولى-ب). لذلك اعتقد دوفو أنه تمّ جمع الكنز وطمره بين نهاية الحقبة السكنية الأولى (ب) وبداية الحقبة السكنية الثانية التي تبدأ وِفق تقديره في أواخر القرن الأول قبل الميلاد أو أوائل القرن الميلادي الأول[2].

اعتمد دوفو على المسكوكات التي تمّ العثور عليها في الحفرة (أ) لدعم نظريته حول بداية الحقبة السكنية الثانية. فقد حَوَت الحفرة المذكورة قسماً من ركام الأنقاض التي رمتها طلائع سكان الحقبة السكنية الثانية على جانب المنحدر المحاذي للسور الشمالي لخربة قمران، عند مباشرتهم بترميم المكان وتنظيفه. ووُجدت في تلك الحفرة المسكوكات التالية:

- درهم فضي من عهد انطيوخوس السابع مسكوك في صور حوالى ١٣١-١٣٠ق.م.
- درهم مسكوك في صور المستقلة (يعود تاريخه لفترة غير محددة قبل الميلاد).
- قطعة نقود برونزية بدون تاريخ لانطيوخوس الثالث (٢٢٣-١٨٧ ق.م.).
- قطعة نقود برونزية بدون تاريخ لانطيوخوس الرابع ابيفانس (١٧٥-١٦٤ ق.م.)
- ١٩ قطعة نقود برونزوية من عهد اسكندر حناني (١٠٣-٧٦ ق.م.)
- قطعة نقود برونزية من عهد هركانوس الثاني (٦٧ و ٦٣-٤٠ ق.م.).
- قطعة نقود برونزية من عهد أرخلاوس بن هيرودس.

١- Christian AUGE, «Un trésor monétaire frappé à Tyr», *Le Monde de la Bible*, n° 107, Paris, 1997, p. 19.

٢- De VAUX, *L'Archéologie*, p. 27-28.

لاحظ دوفو أن توزيع تلك النقود يتوافق مع تحديده لبداية الحقبة السكنية الأولى (ب)، فلا وجود بينها مثلاً لقطع نقود عائدة الى عهد هيرودس الكبير لأن الأبنية كانت شاغرة في أيامه بعد حصول زلزال سنة ٣١ ق.م. وباعتقاده أن قطعة النقود الوحيدة المسكوكة في عهد ابنه أرخلاوس فُقدت في أثناء أعمال رفع الأنقاض[1].

أما نهاية الحقبة السكنية الثانية المشار إليها فتتميّز بحصول تدمير عنيف. فقد عُثر على الكثير من رؤوس النبال في طَبقَة من الرماد في ذلك الموقع، ما يعني أنّ الأبنية هُدمت وأُحرقت من جرّاء عملية عسكرية. وبما أن العملات الأخيرة العائدة للحقبة السكنية الثانية هي يهودية وخاصة بالحرب اليهودية الكبرى ضد روما، يمكن الاستنتاج أن التدمير حصل خلال الحرب المذكورة التي بدأت سنة ٦٦م. وانتهت بسقوط أورشليم سنة ٧٠م. ويعتقد دوفو أن التدمير حصل بشكل مؤكد في حزيران من العام ٦٨ على يد فرقة تابعة للجيش الروماني العاشر الذي كان يحاصر أريحا[2]. فلما شعر سكان قمران بالخطر المحدق بهم، قاموا بإخفاء مخطوطاتهم الشهيرة في المغاور.

عارض لابروساز رأي دوفو حول بداية الحقبة السكنية الثانية، مستنداً إلى بعض تقارير الحفريات الأثرية في خربة قمران التي أثبتت العثور على ١٥ قطعة نقود في طبقة أثرية واحدة، منها ١٢ قطعة مسكوكة في عهد اسكندر حناني، وواحدة في عهد أنتيغونس متتيا (٤٠-٣٧ ق.م.) وواحدة في عهد هيرودس الكبير، وقطعة واحدة أيضاً مسكوكة في عهد المحصّلين الرومان. ولم تكن تلك القطع النقدية مكوّمة بقصد إخفائها، بل منثورة كما لو أنها وقعت على الأرض. ويستحيل الاعتقاد، بسبب عددها الكبير نسبياً، أن أحد العابرين فقدها بين الأطلال أو أنها فُقدت خلال عملية رفع الأنقاض عند عودة الحياة السكنية إلى موقع قمران. لذلك رجّح لابروساز حصول رحيل

١- De VAUX, *L'Archéologie*, p. 28.

٢- *Ibid.*, p. 33.

مفاجئ للسكان عن ذلك الموقع في عهد المحصّلين الرومان[1]. وأشار إلى أن الحقبة السكنية الثانية تنقسم بدورها الى حقبتين زمنيتين رئيستين تتخلّلهما فترة غير محددة من الهجر في عهد المحصّلين، وهما كما يلي:

١- الحقبة الثانية (أ): تبدأ في مرحلة متأخرة من عهد هيرودس الكبير وتنتهي بعد فترة قصيرة من وقوع اليهودية تحت حكم المحصّلين الرومان، أي بعد سنة ٦ ميلادية.

٢- الحقبة الثانية (ب): يعترف لابروساز بأنه من الصعب جداً تحديد بدايتها[2]، غير أنه يتفق مع دوفو حول نهايتها إبّان الحرب اليهودية الكبرى، أي سنة ٦٨ ميلادية.

وفي ما يتعلق بكنز النقود الفضية المسكوكة في صور الذي عُثر عليه في أرضية إحدى غرف البناء الثانوي، يعتقد لابروساز أن شخصاً غريباً عن جماعة قمران أخفى الكنز في ذلك الموقع، لأن تلك الجماعة تضمّ يهوداً متشدّدين، كما هو ثابت من المخطوطات التي عُثر عليها في الكهوف المجاورة، وهؤلاء القوم يأنفون امتلاك نقودٍ تحمل نقوشاً وثنية. إضافة الى ذلك يجب الأخذ بعين الاعتبار أن اثنتين من الجرار الحاوية للكنز هما من نوع غريب عن قمران. وعليه، يرى الباحث المذكور أن الكنز أُخفي في خربة قمران بعد فترة قصيرة من هجر الموقع في زمن المحصّلين. وقد حصل ذلك عن طريق حفر أرضية الحقبة السكنية الثانية (أ)[3].

٣- نقد وتحليل

تعليقاً على ما ذكره دوفو أن الجماعة التي سكنت أبنية قمران خلال الحقبة الأولى (ب) هي نفسها التي عادت ورمّمت الأبنية المذكورة وسكنتها خلال الحقبة السكنية الثانية، لا بدّ من ابداء الملاحظات التالية:

١- إذا كان سكان الحقبة السكنية (الأولى-ب) هم الذين عادوا الى قمران في بداية الحقبة السكنية الثانية، فلماذا انتظروا حوالى الثلاثين سنة

١- LAPERROUSAZ, *Qoumrân*, p. 42 et 52.

٢- *Ibid.*, p. 56.

٣- *Ibid.*, p. 52-53.

للعودة إلى ديارهم، ولم يباشروا فوراً، بُعيد حصول زلزال سنة ٣١ ق.م. والحريق الذي تلاه، بإصلاح الأضرار الناتجة عنهما؟ علماً أن عملية ترميم الأبنية وإزالة الأضرار آنذاك كانت أقل كلفة، لأن الأضرار تفاقمت وتعاظمت خلال سني الهجر الطويلة.

٢- وإذا صحّت نظرية دوفو حول الزلزال والحريق اللذين أديّا إلى هجر أبنية قمران من شاغليها خلال عقود ثلاثة من الزمن؟ فلماذا لم يترك هذا الحدث أيّ أثر ينبئ عنه في هذا العدد الهائل من المخطوطات التي يُفترض أن أصحابها عاصروا تلك الأحداث.

٣- من المفترض أن قسماً من النصوص التنظيمية والعقائدية الخاصة بجماعة قمران كُتب في المراحل الأولى لسكنهم في مقرّهم الرئيس. فلو صحّ رأي دوفو بأن سكنهم في قمران حصل في بداية الحقبة الأولى (ب) التي تبدأ في الثلث الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد، لكان بعض ما تضمنته قاعة الكتابة من أثاث وأدوات عائداً الى العهد الحشموني. والجدير ذكره أن دوفو خصّص الحديث عن أثاث قاعة الكتابة المذكورة في إطار كلامه على المرحلة السكنية الثانية في قمران التي تبدأ، وفق تقديره، منذ بداية القرن الميلادي الأول تقريباً لغاية سنة ٦٨م. كما أكّد صراحةً أن جميع المحابر التي عُثر عليها في خربة قمران تعود الى العصر الروماني[١].

٤- إن قول لابروساز بأن الحقبة السكنية الثانية تنقسم بدورها إلى مرحلتين (أ) و (ب) هو رأي جدير بالاهتمام. وباعتقادنا ان تزايد عدد المشاغل خلال الحقبة المذكورة، يدلّ على تطوّر في النشاط الصناعي وفي الحياة الاجتماعية في خربة قمران. ولعلّ أبرز مظاهر هذا التطوّر وجود أتون يحتاج العمل فيه الى نار قوية والى الكثير من المياه[٢]. ولا شكّ أن هذا النشاط الصناعي الجديد مرتبط بالمرحلة الأخيرة من الحقبة السكنية الثانية التي تزامنت نهايتها مع إخفاء مخطوطات البحر الميت في مخابئها. والجدير ذكره أن تلك المخطوطات تؤكد استعداد جماعة قمران للمشاركة بحرب نهاية الأزمنة ضد أبناء الظلمة، ما يعني احتمال أن يكون المشغل المذكور مخصصاً

١- De VAUX, *L'Archéologie,* p. 23.

٢- *Ibid.,* p. 22.

لصناعة الأسلحة.

٥- أما لناحية قول لابروساز بأن شخصاً غريباً عن جماعة قمران قام بطمر الكنز الفضي في الخربة عندما هجرها سكانها بين الحقبتين الثانية (أ) والثانية (ب)، فإننا نعتقد أن من قام بإخفاء الكنز لم يكن غريباً عن قمران بشكل مطلق، لأن إحدى الجرار الثلاث الحاوية للكنز كانت من «النوع المعروف في قمران»[١]. ولا بدّ من التساؤل عن السبب الذي دفع أحد الغرباء للمجيء من مكان بعيد حاملاً معه كنزاً فضياً ليطمره في ذلك المكان النائي الكائن في أطراف برّية اليهودية، إذ لا يوجد أي حافز يبرّر قيامه بهذا العمل إلاّ إذا كانت تشدّه الى قمران روابط عاطفية.

ومن المعروف أن خربة قمران شكّلت على مرّ العصور، وبفضل موقعها الجغرافي، مركزاً مثالياً لمناوأة السلطة الأجنبية الحاكمة. وربما كانت خلال العهد الحشموني مقرّاً لطائفة الحسيديين[٢] الذين اشتهروا بالورع والتقوى إلى جانب شهرتهم بالبأس في ساحة القتال خلال الحرب المكابية ضد السلوقيين. ومن المحتمل أيضاً أنها كانت ملجأً للثوار خلال الاضطرابات السياسية ذي الطابع المشيحي[٣] التي حصلت في فلسطين سنة ٤ م. خلال فترة حكم أرخلاوس بن هيرودس الكبير. أضف إلى ذلك أن سقوط الموقع المذكور سنة ٦٨ م. وإحراقه وتدميره على يد فرقة من الجيش الروماني هو دليل على مقاومة ساكنيه للمحتل الأجنبي. والجدير ذكره أن خربة قمران استعملت مجدداً كمخبأ للثوار اليهود خلال الحرب اليهودية الثانية ضد الرومان[٤] التي اندلعت سنة ١٣٢م في عهد الامبراطور تراخان (١١٧-١٣٨ م).

١- De VAUX, *L'Archéologie,* p. 27.

٢- الحسيديون، أي الأتقياء الصالحون، هم أعضاء ملّة يهودية قديمة. وقد حاربوا مع المكابيين من أجل حريّة العبادة في عهد الملك السلوقي أنطيوخس الرابع أبيفانس (١ مك ٢: ٤٢ ؛ ٧: ١٣؛ ٢ مك ١٤: ٦).

٣- المشيحية (messianisme) عقيدة يهودية تقوم على الإيمان بمجيء المسيح، أي المسيّا المنتظر، خلال حقبة زمنية معينة، لتحقيق الخلاص لبني إسرائيل وإنشاء ملكوت الله على الارض.

٤- De VAUX, *L'Archéologie,* p. 36.

الفصل الثاني

أهمية المخطوطات وفحواها

أولاً- أهمية المخطوطات

أسفرت الجهود التي بذلها بدو التعامرة والمؤسسات العلمية المختصة عن اكتشاف بعض المخطوطات شبه السالمة وعشرات الألوف من فتائت المخطوطات التي كانت تشكّل في الماضي ما يقارب ٨٧٠ مخطوطة[1]. تشمل هذه المخطوطات نصوصاً توراتية وأسفاراً منحولة بالأضافة إلى العديد من النصوص الخاصة بجماعة قمران.

والجدير ذكره أن النصوص التوراتية المكتشفة هي على قدر كبير من الأهمية لأنها أقدم ما وصل إلينا من النصوص التوراتية المكتوبة باللغتين العبرية والآرامية قبل ضبط تلك النصوص على أيدي الماسوريّين[2]. فقد جرى اكتشاف فتائت عائدة لنسخ متعددة من الأسفار التوراتية، منها حوالى ٤٠ نسخة من المزامير، و٢٢ من نبوءة أشعيا[3]، و٣٢ من سفر التثنية، و١٤ لكل من

١- Michael WISE - Martin ABEGG, Jr. - Edward COOK, *Les manuscrits de la mer Morte,* traduit de l'anglais (Etats-Unis) par Fortunato Israël, Paris, 2001, p 16.

٢- الماسوريون (Massorètes) هم جماعة من علماء الشريعة اليهود، أخذوا على عاتقهم ضبط النصوص التوراتية عن طريق إضافة الحركات الصوتية إليها تسهيلاً لقراءتها، وذلك منذ القرن السادس حتى القرن العاشر للميلاد. وقد أدّى عملهم هذا إلى ظهور ما يُعرف بالنص «الماسوري». وقد حرصت السلطات الدينية اليهودية آنذاك على إلغاء جميع النصوص المخالفة للنصّ الماسوري، بدليل أن جميع المخطوطات التوراتية القديمة -باستثناء مخطوطات قمران- هي لاحقة لعمل الماسوريّين ومتجانسة مع النصّ الماسوري الرسمي. من هنا تأتي أهمية المخطوطات التوراتية المكتشفة في منطقة قمران.

٣- تم اكتشاف درجين مهمّين لسفر أشعيا في مغارة قمران الأولى، وهما:

أ- مخطوطة دير مار مرقس: كتبت باللغة العبرية، ويوجد فروقات طفيفة بينها وبين سفر أشعيا المعروف.

ب- مخطوطة أشعيا الجامعة العبرية: يتوافق مضمونها مع النصّ الماسوري. وهي أحدث عهداً من سفر أشعيا دير مار مرقس.

سفري التكوين والخروج، و٧ من سفر اللاويين، و٤ من سفر العدد، و٣ من سفر القضاة، و٦ من نبوءة حزقيال، و٨ من نبوءة دانيال و٤ لكل من أسفار صموئيل وأيوب وراعوت وإرميا ونشيد الأناشيد الخ... علماً أنّ النصوص المكتشفة تمثّل الأسفار التوراتية كافةً باستثناء سفر أستير[١].

وقد عُثر على نصوص توراتية تتوافق مع الترجمة السبعينية[٢]. كما عُثر أيضاً على نصوص تتوافق مع توراة السامريين[٣]. وتشمل هذه الأخيرة أسفار موسى الخمسة (Pentateuque) التي تبنّاها السامريون قبل قرون عديدة من ضبطها على يد الماسوريّين، وهي تتميّز عن النصّ الماسوري بفروقات عديدة ومهمّة[٤].

وتتضمن مخطوطات البحر الميت بعض النصوص التوراتية المنحولة التي تُعتبر مزيفة بنظر علماء الأديان. من أهمها: منحول التكوين (1QapGen ar) - المزامير المنحولة (11Q11) - منحول موسى (4Q375) - منحول إرميا (4Q383, 4Q384, 4Q385b, 4Q387b)- منحول حزقيال (4Q385, 4Q385c, 4Q386, 4Q388, 4Q391) - منحول يشوع (4Q378, 4Q379, 5Q9) الخ...

وهناك نصوص لا تدخل ضمن لائحة الكتب المقدسة التي أقرّها علماء

١- J. TREBOLLE, «A Canon Within a Canon: Two series of Old Testament books differently transmitted, interpreted and authorized», *RQ*, n° 75 (2000), p. 383; P.W. SKEHAN, «Qumran», *DBS*, tome 9, Paris, 1979, p. 806.
الخوري بولس الفغالي، «الأسيانيون ومخطوطات البحر الميّت»، مجلة المسرة، العدد ٨١٨ (١٩٩٥)، ص ٦١٨-٦١٩.

٢- الترجمة «السبعينية» هي الترجمة الأولى للتوراة باللغة اليونانية القديمة. روى يوسيفوس أنها حصلت على يد إثنين وسبعين عالماً في الشريعة اليهودية أُحضِروا خصيصاً من أورشليم إلى الاسكندرية للقيام بهذا العمل، وذلك في عهد الملك بطليموس فيلدلفيوس (٢٨٣-٢٤٦ ق.م.) (JOSEPHE, *Ant. Jud.*, XII, ii, 1-13). وقد تضمنت مخطوطات البحر الميت التي حملت الرموز (4Q119-122)، نصوصاً من الترجمة السبعينية لأسفار اللاويين والعدد والتثنية.

٣- السامريون هم سكان منطقة السامرة التي يحدها شمالاً الجليل وجنوباً اليهودية. فتحها الأشوريون سنة ٧٢١ ق.م.، فقاموا بإجلاء أهلها وأسكنوا عوضاً عنهم شعباً غريباً أخذ عن اليهود شريعة موسى وبنى هيكلاً للرب على جبل جرزيم، فكفّره اليهود واستحكم الخلاف وتمكّنت العداوة بين الشعبين فلم يخالط بعضهم بعضاً (JOSEPHE, *Ant. Jud.*, XI, iv).

٤- LAPERROUSAZ, *Qoumrân*, p. 128.

اليهود في مجمع «جامنيا»[1]، على مثال «ابن سيراخ» (2Q18) و «رسالة إرميا»[2] (7Q2) وسفر «طوبيا» (4Q196-200). وهذه النصوص هي في عُرف الكنيسة الكاثوليكية من النصوص القانونية الثانية (Deutérocanoniques)، أي أنها قُبِلت في عداد الكتب المقدسة بعد مرحلة طويلة من الجدل. والجدير ذكره أن سفر طوبيا يندرج ضمن الأدب الحكمي الروائي، ويدل وجوده بين مخطوطات البحر الميت على اهتمام جماعة قمران بالخصائص الشفائية للأشياء واعتقادهم أن إله إسرائيل يرعى شعبه بواسطة الملائكة الذين في حضرته[3].

وهناك أيضاً بعض النصوص التي تصنّفها الكنيسة الكاثوليكية ضمن لائحة الكتب التوراتية المنحولة، ومنها: «أخنوخ»، «اليوبيلات»، «وصية لاوي» (4Q213-4Q214b)، «وصية نفتالي» (4Q215)، «صلاة نابونيد» (4Q242) وغيرها.

أما بالنسبة إلى النصوص الخاصة بجماعة قمران، فالمقصود بها تلك النصوص التي تلقي ضوءاً على سلوك أعضاء الجماعة وعلى طريقة عيشهم بالإضافة إلى قوانينهم ومعتقداتهم، وهي على جانب كبير من الأهمية. وسوف نتكلم لاحقاً بشكل مفصّل على النصوص المذكورة أعلاه.

ثانياً- المخطوطات التوراتية المنحولة

لن نتناول في هذ الكتاب موضوع النصوص التوراتية القانونية التي يدلّ تواجدها على احترام جماعة قمران لكتب الشريعة والأنبياء، بل سنبحث في مسألة تواجد عدد كبير من النصوص التوراتية المنحولة.

تنسب الأسفار المنحولة إلى ذاتها صفة الإلهام، وهي ليست بمُلهمة، وتُعتبر

١- في أواخر القرن الميلادي الأول، اجتمع عدد من علماء الشريعة اليهودية في «جامنيا» (حالياً «يبنة»)، وهي مدينة ساحلية تقع جنوب يافا وتبعد عنها مسافة ٢٠ كلم تقريباً، ووضعوا لائحة بالكتب الدينية اليهودية المقدّسة التي لا تزال معتمدة لغاية اليوم.

٢- تشكّل رسالة ارميا الفصل السادس من سفر باروك.

٣- يشدّد سفر طوبيا على دور الملاك رافائيل في تعليم طوبيا الخصائص العلاجية الموجودة في قلب الحوت وكبده ومرارته للشفاء من العمى وطرد الأرواح الشريرة (طو٦: ٥). أنظر: 4Q197, frag. 4, 1, 12-15.

من كتب «الأبوكريفا». هذه اللفظة هي يونانيّة، وتعني ما ظلَّ مخفياً، أي ما يجب إخفاؤه وكتمه عن سواد الناس وحفظه لفئة معيّنة من النّخبة.

وتضمّ مكتبة قمران عدداً من الاسفار المنحولة للتوراة، من أهمها:

١ - المزامير

عُثر في المغارتين الرابعة والحادية عشرة على عدد من اللفائف التي تحتوي على مزامير قانونية إلى جانب عدد من المزامير المنحولة، ومنها على سبيل المثال وليس الحصر تلك التي حملت الرموز (4Q88, 4Q380, 4Q381 11Q5, 11Q11). من أهم تلك النصوص لفيفة «المزامير» (11Q5) المعروفة أيضاً بالرمز (11QPsª)، وهي تتضمن ٣٦ مزموراً بعضها كامل والآخر جزئي، وتحوي مزامير قانونية إلى جانب ثمانية مزامير منحولة لداود. ويُلاحظ أن ترتيب المزامير القانونية جاء مختلفاً عن الترتيب الماسوري، كما أن العامودين ١٨ و ٢٤ من المخطوطة، يحويان الأصل العبري للمزمورين الثاني والثالث من مجموعة المزامير السريانية المنحولة. وهذان المزموران يشكّلان مع المزمور المنحول الوارد في العامود ٢٨، مجموعة المزامير المنحولة التي حملت في الترجمة السبعينية الأرقام التالية: ١٥١ و١٥٤ و١٥٥[١].

ورد في العامود ٢٧ من لفيفة «المزامير» مقطع نثري جاء فيه أن داود «كتب ٣٦٠٠ مزموراً، بالاضافة إلى ٣٦٤ نشيداً يُرتَّل أمام مذبح محرقة الذبيحة الدائمة في كل يوم من أيام السنة، و٥٢ نشيداً لتقدمة السبوت، و٣٠ نشيداً لتقدمات أوائل الشهور...»[٢]. لا شك أن المزامير التي نسبها كاتب المخطوطة إلى النبي داود تفوق كثيراً عدد المزامير القانونية المعترف بها. ومن المرجح أن لفيفة المزامير المنحولة (11Q11) شكّلت جزءاً من تلك المجموعة الهائلة من المزامير المنسوبة إلى النبي داود.

وبسبب وجود نُتف عائدة للفيفتين من المزامير القانونية، اعتقد البروفسور «فان در بلويغ» أن جماعة قمران كانت تعتمد على كتاب المزامير الرسمي،

١- M. DELCOR, «Cinq nouveaux psaumes esséniens?», *RQ*, n° 1 (1958), p. 88.

٢- 11Q5, XXVII, 4-9.

وأشار إلى أن المجموعات التي تضم خليطاً من المزامير القانونية والمزامير المنحولة هي قليلة. كما اعتبر أنه لا يمكن معرفة إذا كانت تلك الجماعة تضع المزامير القانونية والمنحولة في منزلة واحدة[1]. لكن بالعودة إلى المقطع النثري الوارد في العامود ٢٧ من لفيفة المزامير (11Q5)، يُلاحظ أن عدد الأناشيد التي كانت تُنشد أمام مذبح المحرقات هو ٣٦٤ أي ما يوازي عدد أيام السنة الطقسية لدى جماعة قمران، ما يعني أنّ الأناشيد والمزامير المنسوبة إلى النبي داود كانت مرتبطة بالطقوس الدينية للجماعة المذكورة، وبالتالي فهي قانونية بنظر أصحابها[2].

٢- منحول التكوين

«منحول التكوين» (1QapGen ar) مستوحى من (تك ٦: ٢ و ٤)، وفيه بعض التفاصيل التي لا وجود لذكرها في سفر التكوين المعروف. يتميّز قسمه الأول بأسلوب السيرة الذاتية[3]، أي أن لامك وأبرام يرويان الأحداث بصيغة المتكلم. أما القسم المتبقى منه[4] فيعتمد على أسلوب الرواية، إذ يكمل قصة أبرام بشكل حرفي تقريباً كما هي واردة في سفر التكوين[5].

يدور موضوع العامود الثاني حول شكوك لامك بالنسبة إلى ولادة إبنه نوح. فقد كان المولود الجديد جميلاً جداً بحيث ارتاب لامك أن يكون هو أباه، وظنّ أن زوجته «بت أنوش» حبلت به من أحد الملائكة «الساهرين». وبالرغم من تأكيدات الزوجة عدم خيانتها له، التجأ لامك إلى والده متوشالح ليطّلع على

١- J. van der PLOEG, «Le Psaume XCI dans une recension de Qumran», *RB*, n° 2 (1965), p. 216.

٢- تأكيداً لهذا الرأي نورد ما ذكره فيلون الاسكندري في كتاب «الحياة التأملية» عن شيعة الثيرابوتيين اليهودية التي كانت تعيش بالقرب من الاسكندرية. قال: «ولهذا لا يقصرون أنفسهم على التأمل فقط، بل يعكفون على تأليف الأناشيد والمزامير تكريماً لله، وفق أوزان وألحان مختلفة...» (PHILON, *De Vita*, 29). فقوله إن الأناشيد والمزامير أعِدّت تكريماً لله يعني أنها كانت تعتبر قانونية بنظر الثيرابوتيين، والأمر عينه جائز بنظر جماعة قمران.

٣- 1QapGen ar, II, 1 - XXI, 22.

٤- 1QapGen ar, XXI, 23 - XXII, 34.

٥- تك ١٤: ١ - ١٥: ٤.

الحقيقة من جدّه أخنوخ.

يتناول موضوع العواميد الباقية قصة أبرام (إبراهيم) وانتقاله مع زوجته ساراي (ساره) من حبرون إلى مصر بسبب المجاعة. كما يتضمن وصفاً دقيقاً وحسّياً لمفاتن ساراي[1]. ويظهر أن فرعون أُعجِب بجمالها، فأخذها إلى بيته بعدما زعمت أن أبرام هو شقيقها. فأرسل إله اسرائيل روحاً لمعاقبة فرعون، فمَرِضَ ولم يستطع مقاربتها لمدة سنتين؛ ونزلت به وبأهل بيته ضربات شديدة لم تنتهِ إلاّ بعد أن أعاد فرعون ساراي إلى زوجها. وعاد أبرام من مصر إلى حبرون بعدما صار غنيَّاً جداً بالماشية والفضة والذهب.

٣- سفر أخنوخ

سفر أخنوخ، أي أخنوخ الأول، منشور بشكل مجتزئ باليونانية واللاتينية والسريانية، غير أن النصّ لم يُحفظ بشكله الكامل إلاّ باللغة الحبشية، ولا تزال الكنيسة الحبشية تحتفظ بسفر أخنوخ في لائحة كتبها المقدسة[2].

هذا السفر هو من النصوص المحبّبة لدى جماعة قمران بدليل العثور في المغارة الرابعة على فتائت تعود الى ١١ نسخة منه.

أخنوخ هو السابع بعد آدم. جاء عنه في سفر التكوين أنه سار مع الله «ولم يكن بعد ذلك، لأن الله أخذه»[3]. تتوقف الرواية التوراتية عند هذا الحد، إلى أن يأتي كاتب السفر ليكشف بالتفصيل الرؤى التي شاهدها أخنوخ والمعرفة[4]

١- 1QapGen ar, XX, 2-8.

٢- *B.E.I.*, p. 466.

٣- تك ٥: ٢٣-٢٤.

٤- جاء في كتاب اليوبيلات أن أخنوخ هو «أول إنسان على الأرض تعلّم الكتابة والعلوم والحكمة، فوصف علامات السماوات وفق ترتيب الأشهر ووضعها في كتاب ...» (Jub, IV, 17; *B.E.I.*, p. 655). وكانت جماعة قمران شديدة الولع بسفر أخنوخ نظراً لوجود فتائت لنسخ متعددة منه بين مخطوطات البحر الميت. وقد وازى المؤرخون العرب بين أخنوخ وإدريس النبي المذكور في القرآن الكريم (سورة مريم، الآية ٥٦ و٥٧)، فذكر البلخي أن أخنوخ سُمّي باسم إدريس لكثرة درسه. وقال إنه أول نبيّ أُعطي الرسالة بعد آدم. وهو أول من خطّ بالقلم بعد آدم. وقد «نبّأه الله بعد وفاة آدم، وأنزل عليه النجومَ والطبَّ، واسمه عند اليونانيين هُرمُسْ» (البلخي، البدء والتاريخ، ج ١، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، ص ٢١٦). ومن المعروف أن الإغريق وازوا بين الإله هرمس والإله المصري طوط (Thot)، ما يعني أن سفر أخنوخ يندرج ضمن الأدب العُرفاني.

التي اكتسبها على يد الله وملائكته أثناء تنقّله في العالم السماوي.

يتألف الكتاب، بشكله الحاضر، من سبعة أقسام يدور موضوعها حول الدينونة الأخيرة. وقد ذكر «ليون دوفور» أن كتاب أخنوخ صُنّف خلال عصور مختلفة تعود إلى ما قبل أواسط القرن الثاني ق.م. وباعتقاده أن القسم الثالث من الكتاب، أي الفصول ٣٧-٧١، يعود إلى القرن الثالث الميلادي بسبب احتوائه على بعض المصطلحات اليهودية-النصرانية[١]، كعبارة «ابن الانسان» الدالّة على المسيح السابق للوجود، الذي هو أكثر من إنسان[٢]. وقد بنى دوفور رأيه هذا استناداً لعدم وجود فتائت من القسم المذكور في مغاور قمران.

وبرأينا أن الأقسام المتعددة من سفر أخنوخ صيغت في عصور مختلفة. لكننا لا نجد في السفر المذكور أيّة إشارة تاريخية تساهم في تحديد الفترات الزمنية التي كُتب خلالها. إضافة إلى ذلك، يُلاحظ لدى مؤلّفي جماعة قمران ميلٌ لاعطاء مصنّفاتهم المنحولة عمقاً تاريخياً موغلاً في القِدَم عن طريق نِسبتها إلى شخصيات توراتية عاشت في القرون الغابرة.

ويتميّز سفر أخنوخ بالأمور التالية:

١- توافقه مع معتقدات جماعة قمران، خاصةً في ما يتعلق بالتقويم المرتكز على السنة الشمسية المكوّنة من ٣٦٤ يوماً[٣]، ووجود فكرة جوهرية أساسية تربطه بمختلف مخطوطات البحر الميت، ألا وهي ترقّب المعركة

١- لعبارة اليهود-النصارى (Judéo-chrétiens) معنيان رئيسيّان يحدّدهما سياق النص: أولهما اليهود الذين تنصروا، وثانيهما هؤلاء الذين اعتنقوا المذاهب اليهودية-النصرانية الهرطوقية. وهذه المذاهب متعددة ومتنوعة. وقد نشطت منذ أواخر القرن الميلادي الأول فصاعداً، وزعمت أنها تمثل المسيحية الحقّة، فكان لها أناجيلها وكتبها المنحولة. وجوهر تعاليمها أن الشريعة الموسوية هي السبيل إلى الخلاص.

٢- Xavier LEON-DUFOUR, *Dictionnaire du Nouveau Testament,* Paris, 1975, p. 286.

٣- En, LXXIV, 12; *B.E.I.*, p. 559.

الإسكاتولوجية[1] التي لم يتمّ حسمها بعد، وفيها سينتصر المختارون «القديسون» على الأشرار[2].

٢- اشتهر أعضاء الجماعة بتعصّبهم للشريعة. وتنعكس ملامح هذا التعصّب أيضاً في سفر أخنوخ حيث يؤكد الكاتب وجوب إطاعة كواكب السماوات أوامر الله ونواميسه كي لا تنال العقاب فتُسجن أو تُلقى لتختلج في النار[3].

٣- أما من ناحية القسم الثالث من سفر أخنوخ، فلا شك أنه آخر ما كُتب من السفر المذكور نظراً لطابعه اليهودي-النصراني الذي يميّزه عن باقي أقسام الكتاب. كما أن تواجد هذا القسم في سفر أخنوخ يضع علامات استفهام حول علاقة المذاهب اليهودية-النصرانية بجماعة قمران.

٤- كتاب اليوبيلات

هذا الكتاب هو من الأسفار الدخيلة على التوراة في عرف الآباء المسيحيين من شرقيين وغربيين وفي عرف أحبار اليهود، باستثناء الكنيسة الحبشية التي حفظت نسخة كاملة عنه في كتابها المقدس، وهي مترجمة عن اليونانية[4].

عُرف كتاب اليوبيلات أيضاً باللاتينية من خلال نصوص غير كاملة، إلى أن تعرّف عليه العلماء باللغة العبرية في قمران. فقد وجد المنقبون عدداً من الفتائت العائدة لحوالى ١٢ مخطوطة منه، ما يعني أنه كان عزيزاً جداً على أصحاب المخطوطات[5].

١- كلمة «اسكاتولوجية» مشتقة من اليونانية، وهي تعني البحث في الأمور الأخيرية المرتبطة بنهاية الأزمنة. خلال الحقبة الاسكاتولوجية، ينشب صراع عظيم بين الأبرار والأشرار، وتنتعش الآمال المشيحية (messianisme) لدى اليهود.

٢- En, XLVIII, 8-10.

٣- En, XVIII, 13-15.

٤- *B.E.I.*, p. 630.

٥- J. van der PLOEG, «Les manuscrits de la grotte XI de Qumrân», *RQ*, n° 45 (1985), p. 12.

ويبحث دَرج اليوبيلات في أصل «الشعب المختار» منذ بدء التكوين حتى ظهور الله للنبي موسى على جبل سيناء. وهو يعيد رواية سفري التكوين والخروج وفق تقسيم زمني جديد، بحيث جاء في تسع وأربعين حقبة تشمل كل واحدة منها أخبار تسع وأربعين سنة[1]. أراد الكاتب تبيان قدسية الناموس وقِدَم عهده ورجوعه إلى عهد البطاركة الأولين، لذلك أشار إلى أن هذا الكتاب يرقى إلى زمن النبي موسى[2].

٥ - وصيّات الآباء الاثني عشر

الآباء الإثنا عشر هم أولاد يعقوب[3]. والوصيّات هي ما أوصوا به أولادهم وأحفادهم قبل وفاتهم، على غرار ما فعل يعقوب في الفصل ٤٩ من سفر التكوين.

كانت هذه الوصيّات المنحولة محفوظة باليونانية والأرمنية والسلافية. وتوقّع العلماء الباحثون، لدى بدء الاكتشافات في منطقة قمران، أن يعثروا على نصّ «وصيّات الآباء الإثني عشر» نظراً لما لمسوه في النصّ اليوناني من آثار الأسينيين[4]؛ غير أن جلّ ما عثروا عليه هو بعض الفتائت بالآرامية المنسوبة إلى لاوي ونفتالي[5]، يبدو أن واضع وصيّات الآباء استند إليها لوضع مصنّفه. وسوف نقصر الحديث على «وصية لاوي» نظراً لأهميتها بالنسبة إلى موضوع دراستنا.

وصية لاوي معروفة منذ زمن بعيد. يذكر كاتبها أنها منقولة عن «الألواح السماوية»[6]، وهذا أسلوب درج عليه ناحلو الأسفار التوراتية في قمران.

١- أنظر: اح ٢٥: ٨ وما يليها.

٢- Jub, I, 5.

٣- أولاد يعقوب هم: رأوبين، شمعون، لاوي، يهوذا، زبولون، يسّاكر، دان، جاد، أشير، نفتالي، يوسف، بنيامين. وهم رؤساء أسباط إسرائيل الاثني عشر.

٤- أسد رستم، **مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران**، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٩٠، ص ٥٢.

٥- 4Q213-214b, 4Q215.

٦- Testament de Lévi, I, 1; V, 4; *B.E.I.,* p. 833 et 841.

بعد أن رفع لاوي الصلاة إلى إله اسرائيل، غلبه النعاس، فإذا به على جبل شاهق وأبواب السماوات مفتوحة أمامه. ثم دعا ملاك الرب لاوي للدخول، فاستجاب لدعوته وتعرّف على السموات السبع ومواقعها وما يحويه كلّ منها. وتوالت الرؤى، فشاهد لاوي سبعة رجال يرتدون ثياباً بيضاء، جاؤوا يطلبون منه أن يرتدي ثياب الكهنوت المقدسة حتى يصير كاهناً للرب العلي[1].

في أثناء ذلك، تراءى ليعقوب في الحلم أن ابنه لاوي سيصير كاهناً لرب اسرائيل، فباركه وألبسه ثوب الكهنوت[2]، وذهب به إلى والده اسحق كي يعلّمه الشريعة في ما يخصّ الكهنوت والذبائح والتقدمات. وتنتهي «وصية لاوي» بتكهنات وإرشادات موجهة إلى أبنائه للاستمرار في مطالعة الشريعة وعمل البرّ والقيام بالاعمال الصالحة.

هذا هو موضوع «وصية لاوي» التي يبدو أنه لَحِقَها إضافات وتنقيحات عبر العصور التالية لخراب أورشليم بهدف إضفاء طابع النبوءة عليها، فوصلت إلينا كجزء من المجموعة المعروفة بـ«وصيات الآباء الاثني عشر». ولعلّ أهم المواضيع التي تناولتها الوصية المذكورة ما ورد حول كهنوت لاوي. فمن المعروف أن هذا الأخير هو ابن يعقوب ورئيس أحد أسباط إسرائيل الإثني عشر. وكان موسى وهارون لاويين من بيت عمرام وعائلة قهات. وقد أُفرز هارون ونسله فقط دون باقي اللاويين ليكونوا كهنة لرب إسرائيل، وكُرِّس اللاويون لخدمة مسكن الشهادة[3] ثم لخدمة هيكل أورشليم فيما بعد، فصاروا متوسطين بين الشعب والكهنة، ولم يُسمَح لهم أن يقدموا ذبائح أو يحرقوا بخوراً أو يروا الأشياء المقدسة إلا مغطاة. أما في «وصية لاوي»، فهناك طرح جريء مخالف لسنن الآباء، إذ نرى اللاويين على قدم المساواة مع نسل هارون لناحية تكريسهم للكهنوت وتقديم الذبائح[4]. لكن يبدو أن هذا الكهنوت سوف يتحقق في أورشليم الجديدة التي كانت جماعة قمران تتشوّق لمجيئها. فقد جاء على لسان يهوذا في الوصية المنسوبة إليه، ما يلي: «... فلي أنا أعطى

١- Testament de Lévi, VIII, 2-3.

٢- *DSSSE,* vol. 1, p. 51; 4Q213b, 4-6.

٣- عد ١: ٥٠-٥٣؛ ٣: ١٠ و ١٧: ٥.

٤- EISENMAN-WISE, *Man. Rév.,* p. 167-168.

الرب المُلْكَ، وللاوي الكهنوت. أنا أعطاني ما على الأرض، وله أعطاه ما في السماء. وكما أن السماء تعلو على الأرض، كذلك يتفوّق الكهنوت على الملك الأرضي...»[1].

والجدير ذكره أن تسلّم اللاويين وظيفة الكهنوت في أورشليم الجديدة، يقع في زمن الدينونة والتجدد الشامل.

ثالثاً - نصوص منحولة متنوّعة

هناك الكثير من النصوص المنحولة بين مخطوطات البحر الميت، ومنها:

- «رؤى عمرام» (4Q543-548): عمرام هو والد النبي موسى. يدور موضوع الرؤى المنسوبة إليه حول الصراع بين ملاكين يسودان على البشرية كلها. أحدهما يُدعى «مَلكي رَشَع»، ومعناه ملاك الشر، أي «بليعال»، والآخر «ملكيصادق»، ومعناه ملاك البِرّ، أي رئيس الملائكة «ميخائيل». وكان على عمرام أن يختار واحداً منهما. وترمز هذه الرؤيا الى الصراع الذي يدور في قلب كل إنسان بين الشر والخير.
- «أقوال موسى» (1Q22): هذا النص هو صياغة جديدة لبعض النصوص المقتبسة من سفر التثنية والمتعلقة بالخطاب الوداعي الأخير الذي وجهه النبي موسى لبني إسرائيل.
- «صلاة نابونيد» (4Q242): تتحدث هذه المخطوطة عن الملك «نابونيد» (٥٥٦-٥٣٩ ق.م.)، وهو آخر ملوك الكلدانيين. وقد أشار «دلكور» إلى وجود قرابة بين هذا النص والفصل الرابع من نبوءة دانيال[2].

عُثِر في مغاور قمران أيضاً على بعض النصوص المكتوبة بالآرامية التي تتحدث عن «أورشليم الجديدة» (2Q24, 4Q554, 5Q15, 11Q18). كاتب هذه النصوص متأثر برؤيا حزقيال حول الهيكل الجديد في نهاية الأزمنة[3]، وفيها

١- Testament de Juda, XXI, 2-3; *B.E.I.*, p. 870.

٢- M. DELCOR, «Qumran: Doctrine des Esséniens», *DBS*, t. 9, Paris, 1979, p. 913.

٣- حز ٤٠ -٤٤.

ينتقل الرائي عبر المدينة التي ستُشاد على جبل صهيون، برفقة ملاك يقوم بقياس أبنيتها بواسطة قصبة طولها سبعة أذرع. تبدو أورشليم الجديدة مستطيلة الشكل، يحيط بها سور يخترقه ١٢ باباً، على عدد أسباط إسرائيل الإثني عشر. ويحتل باب لاوي مركز الصدارة لوقوعه في وسط الضلع الشرقي، أي في المحور الذي يقع فيه مذبح المحرقات ومدخل الهيكل[١]. أما المدينة فتتألف من أحياء مربعة الشكل، تمرّ بقربها شوارع عريضة.

وهناك عدد آخر من النصوص المنحولة، نذكر منها على سبيل المثال وليس الحصر: «المراثي المنحولة» (4Q179)، أسفار موسى الخمسة المنحولة (4Q368, 4Q377)، منحول موسى (4Q375)، منحول يشوع (4Q378, 4Q379, 5Q9)، منحول ارميا (4Q383, 4Q384, 4Q385[b], 4Q387[b])، منحول حزقيال (4Q385, 4Q385[c], 4Q386, 4Q388, 4Q391)، منحول يوسف (4Q371-373, 4Q539)، منحول لاوي (4Q540, 4Q541)، وغير ذلك من النصوص المنحولة التي يدلّ تواجدها في مخابئها إلى جانب النصوص التوراتية القانونية، على اختلاف عقائد جماعة قمران عن عقائد كهنة الهيكل وسواهم من الشيع اليهودية المعروفة في عصرهم.

رابعاً- تفاسير توراتية

التفسير عند جماعة قمران هو الرجوع إلى الأسفار التوراتية وتأويلها على ضوء الظرف الراهن.

من أهم الشروحات على النصوص التوراتية «تفسير حبقوق» (1QpHab) الذي اكتُشف في المغارة الأولى، ولم يُعثر بين المخطوطات على نسخ أخرى منه. يستلهم الكاتب بعض الآيات الواردة في سفر حبقوق فيفسّرها على ضوء واقعه الراهن مشيراً إلى اضطهاد الكاهن الشرير لمعلّم البِرّ، مؤسس الجماعة، بالإضافة إلى الظلم اللاحق بالشعب اليهودي من بني «كتيم» الذين امتدّ خوفهم ورعبهم على جميع الأمم.

١- EISENMAN-WISE, *Man. Rév.*, p. 37.

ومن مخلّفات المغارة الأولى أيضاً بعض الفتائت التي تعود إلى تفسيري ميخا (1Q14) وصفنيا (1Q15). كما عُثِر في مغارة قمران الرابعة على بعض النصوص التفسيرية، وأهمها: تفسير أشعيا (4Q161-165)، تفسير هوشع (4Q166, 4Q167)، تفسير ملاخي (4Q253a)، تفسير ناحوم (4QpNah)، تفسير سفر التكوين (4Q252, 4Q253, 4Q254) وتفسير المزمور ٣٧ (4Q171).

خامساً- المخطوطات التنظيمية والعقائدية

قبل دراسة المخطوطات التنظيمية والعقائدية الخاصة بشيعة قمران، تجدر الإشارة إلى أن هذه النصوص تشكّل وحدة لا تتجزأ مع النصوص التوراتية المنحولة، فهذه النصوص جميعها تتجانس من حيث العقيدة، ما يدلّ على أنها صادرة عن شيعة واحدة[1]. أهمّ المخطوطات القمرانية ما يلي:

١- نظام الجماعة

يتألف «نظام الجماعة» من خمسة أقسام: يتحدث القسم الاول (١: ١٦- ٣: ١٢) عن الدخول في العهد ووجوب إجراء طقوس معيّنة بإشراف الكهنة، أبناء صادوق، واللاويين. ويتناول القسم الثاني (٣: ١٣ - ٤: ١٦) التعليم عن عقيدة الروحين، روح الخير وروح الشر، والحرب الدائرة بينهما. أما القسم الثالث (٥: ١- ٧: ٢٥) فيتناول قواعد عامة تتعلّق بسلوك الأعضاء، وتنظيم الجلسات والمشاورة، وطريقة قبول الأعضاء الجدد، والعقوبات. ويشمل القسم الرابع (٨: ١- ٩: ٢) الأمور المتعلقة بالمجلس الاعلى، ونقل التعاليم والعقائد، والعقوبات التي تُفرض على مخالفي الشريعة. كما يعرض القسم الخامس والأخير (٩: ٣- ١١: ٢٢) الأنظمة المتعلقة بانتساب الأعضاء الجدد وتعليمهم وغير ذلك من الأمور والإرشادات.

١- André DUPONT-SOMMER, *Les Ecrits ésséniens découverts près de la mer Morte,* Paris, 1968, p. 12.

٢ - ملحق نظام الجماعة وكتاب المباركات

عُثر في المغارة الأولى على ملحقين لنظام الجماعة. دُعي الأول «ملحق نظام الجماعة» (1QSa)، وهو موجّه إلى جماعة إسرائيل في الأيام الأخيرة. ودُعي الثاني «كتاب المباركات» (1QSb)، وهو عبارة عن سلسلة من المباركات الشعرية الموجهة إلى عظيم الكهنة ورئيس الجماعة في قمران.

٣- نظام الحرب

يدور موضوع «نظام الحرب» (1QM) حول الحرب الاسكاتولوجية في نهاية الأزمنة بين أبناء النور وأبناء الظلمة، بحيث تكون تلك الحرب مقدمّة لزمن الخلاص الذي سيظهر في وقت حدّده إله اسرائيل واعتقدت جماعة قمران أن موعده قد حان.

استلهم الكاتب موضوعاً نبوياً يتحدّث عن الهجوم الأخير لأمم الأرض على أورشليم[١]، المدينة المقدسة بنظر جماعة قمران، فزاد عليه، وجعل المبادرة تنطلق من معسكر الجماعة في أورشليم[٢]. هذا الهجوم يدوم وقتاً حُدِّد مسبقاً ويُلزم مجمل الشعب، ويكون هدفه تدمير أمم الأرض وعلى رأسهم شعب «كتيم»[٣] الذي سيطر على أمم كثيرة، ومنها فلسطين.

٤- المدائح

«المدائح» هي مجموعة من الصلوات والتراتيل والتأملات الشعرية التي تشبه في بعض النواحي المزامير التوراتية، غير أنها تقلّ عنها مستوى من الناحية الأدبية.

تتألف هذه المخطوطة من لفيفتين متضرّرتين جزئياً ($1QH^a$, $1QH^b$). وقد عُثر في المغارة الرابعة على فتائت عائدة لست نسخ أخرى منها.

يرى عدد من الباحثين أن مخطوطة «المدائح» صادرة عن كاتب واحد نظراً

١- زك ١٤: ١-٢.

٢- 1QM, VII, 3-4.

٣- 1QM, XV, 2-7.

لوحدة الأسلوب[1]. وفيها ترد كثيراً كلمة «الأبرار» الذين يقصد الكاتب بهم أعضاء جماعته؛ أما الكفّار فهم من الوثنيين بالإضافة الى اليهود الذين هم في صراع مع جماعة قمران.

ويصف الكاتب الطبيعة البشرية بطريقة تشاؤمية، لكنه مقتنع أن إله اسرائيل يعمل في قلب الانسان ويقدّسه ويحوّله إلى ابن أمين حين يتوب عن ذنبه. كما يلمّح إلى عقيدة «الروحين» اللذين يسيّران الإنسان بحيث يخضع الكفّار لروح «بليعال»، رئيس ملائكة الشر، كما يخضع الصالحون لروح الإله القدّوس[2]، أي ميخائيل، رئيس ملائكة النور. على أن هذا الخضوع لا يفرض إلغاءً تاماً لحرية الانسان.

٥- وثيقة دمشق

تُعرف هذه المخطوطة أيضاً باسم «وثيقة صادوق». وقد عُثر على نسختين منها في أواخر القرن ١٩ في «غنيزة»[3] مجمع «القرّائين»[4] في القاهرة. دُعيت الأولى (CD-A)، وهي تعود إلى القرن العاشر للميلاد. ودُعيت الثانية (CD-B)، ويقدّر العلماء أنها عائدة إلى القرن الثاني عشر.

لم يلاحظ الباحثون أن وثيقة دمشق هي من نتاج جماعة قمران، إلى أن تمّ اكتشاف بعض النصوص المجتزأة العائدة لسبع مخطوطات منها[5]. فتبين لهم

١- Jean CARMIGNAC - Pierre GUILBERT, *Les Textes de Qumran: traduits et annotés,* (Autour de la Bible), vol. 1, Paris, 1961, p. 130-142.

٢- 1QH[a], XII, 13; VIII, 10-15.

٣- غنيزه: كلمة ارامية تعني مخبأ، خزانة، خزنة، وهي مشتقة من فعل (غ ن ز) أي حفظ وخبأ وأخفى. والغنيزة هي الموضع الذي تُحفظ فيه مخطوطات الكتب المقدسة التي أصابها التلف. فبحسب الشريعة اليهودية، لا تُوضع هذه الأشياء في موضع الاهمال، بل «تُعامل» باحترام. وهذا يعني أنها تُدفن في مدفن محلّي. وبانتظار ذلك، كانت توضع في «خزانة» بانتظار أن تدفن.

٤- شيعة يهودية تنكر التقليد الشفهي ولا تأخذ إلاّ بالتوراة كينبوع للشريعة. تأسست في بغداد حوالى سنة ٧٦٥ م. على يد عنان بن داود. يقدّر أتباعها في يومنا الحاضر بحوالى ٣٠,٠٠٠ شخص يعيش معظمهم في إسرائيل. وهناك مجموعات صغيرة منهم تعيش في الولايات المتحدة الاميركية وبولونيا وفرنسا وتركيا.

٥- Michael WISE- Martin ABEGG, Jr.- Edward COOK, *Les manuscrits de la mer Morte,* p. 63; 4Q266-273; 5Q12; 6Q15.

أن مضمون تلك النصوص يتوافق بشكل عام مع المخطوطة (CD-A)[1].

ويتمحور موضوع وثيقة دمشق حول محورين رئيسين. يتضمن الأول اعتبارات حول تاريخ شعب إسرائيل منذ ماضيه السحيق حتى الزمن الذي عاش فيه الكاتب (من ١: ١ حتى ٨: ٢١). ويتناول الثاني الفرائض المختلفة الخاصة بجماعة قمران (من ٩: ١ حتى ١٦: ١٩).

٦- درج الهيكل

يستلهم كاتب دَرْج «الهيكل» (11Q19) أفكاره من بعض الأسفار التوراتية، غير أنه يتجاوز تلك الأسفار في كثير من الأحيان.

وضع هذا الدّرج تشريعاً جديداً لهيكل أورشليم. فوصف الكاتب المواد الثمينة التي سوف تستعمل في بناء الهيكل وفي صناعة الأواني المقدسة، وشدّد على أن يكون أثاث قدس الأقداس مذهّباً من الداخل بما فيه الحجاب الفاصل[2]. فخالف بذلك سفر الخروج (خر ٣٦: ٣٦) الذي لم يفرض أن يكون الحجاب مذهباً. ثم وصف الكاتب المسكن وقياساته، ومذبح المحرقات، والمحرقات اليومية والاسبوعية والشهرية، والأعياد وزمن وقوعها والأنظمة والطقوس المتعلقة بها، فقدّم معلومات قيّمة عن أعياد الأسينيين والتقويم الخاص بهم.

٧- الدرج النحاسي

عُثر على الدّرج النحاسي (3Q15) أثناء أعمال التنقيب في المغارة الثالثة سنة ١٩٥٢. ويُعتبر «كوهن» في طليعة القائلين بأن الدّرج النحاسي هو عبارة عن لائحة بالمواضع التي خبّأت فيها جماعة قمران أموالها وكنوزها[3]. وقد أكّد «ميليك» أن الدّرج النحاسي هو لائحة بالكنوز التي جرى طمرها في ٦٣ موضعاً من فلسطين في العصر الروماني، حيث تعيش أكثرية من الشعب

١- *B.E.I.*, p. 136.

٢- 11Q19, VII, 13.

٣- K. G. KUHN, «Les Rouleaux de cuivre de Qumran», *RB*, n° 2 (1954) p. 204.

اليهودي[1]. وذكر لابروساز أن أكثر من نصف هذا الكنز أُخفي في مواضع متعددة من أورشليم، خاصةً ضمن سور الهيكل والأماكن المحيطة به، وفي المقابر المجاورة للمدينة[2]. يُقدّر وزن الكنز المذكور بما مجموعه خمسة وستين طناً من الفضة وستة وعشرين طناً من الذهب، كما يُشير النصّ إلى وجود كمية من الثياب الكهنوتية الثمينة والآنية المستخدمة في تأدية الطقوس الدينية، بالإضافة إلى وجود نسخة ثانية من الدّرج المذكور، أُخفيت في موضع آخر[3].

تضاربت آراء الباحثين حول أهمية هذا النصّ وحقيقة مضمونه. فقد وافق «روث» على صحّته وأصالته[4]. وأكّد «بكسنر» أن الدّرج النحاسي هو لائحة كنوز حقيقية، فجماعة قمران كانت قادرة على جمع تلك الثروة الضخمة، لأن أعضاءها كانوا يضعون جميع أموالهم وأملاكهم بتصرّف القيّمين عليها[5]. أما «ميليك»، فقال إن الدّرج النحاسي يصف كنوزاً خيالية نابعة من الفولكلور اليهودي في العصر الروماني، وحجّته أن كمية الكنوز لا تتوافق مع موارد بلاد اليهود في ذلك العصر[6]. غير أن هذا الرأي لا يتفق مع بعض الوقائع التاريخية. فقد ذكر المؤرخ اليهودي يوسيفوس أن القائد الروماني بومبيوس، عند احتلاله اورشليم سنة ٦٣ ق.م.، فرض على اليهود جزية فورية تزيد على ١٠٠٠٠ مثقال[7]؛ وبعد ذلك بعشر سنوات قام «كراسوس»، والي سوريا، بالاستيلاء على ٢٠٠٠ مثقال من الفضة من الهيكل كان «بومبيوس» قد عفا عنها، بالإضافة إلى أكثر من ٨٠٠٠ مثقال من الذهب[8]. لذلك وافق لابروساز

١- J.T. MILIK, «Le rouleau de cuivre de Qumrân», *RB*, n° 3 (1959), p. 329.

٢- LAPERROUSAZ, *Qoumrân*, p. 344.

٣- 3Q15, XII, 10-13.

٤- Cecil ROTH, *The Historical Background of the Dead Sea Scrolls*, Oxford, 1958, p. 44-45 et 67.

٥- Bargil PIXNER, «Unravelling the copper scroll code. A study on the topography of 3Q15», *RQ*, n° 43 (1983), p. 339.

٦- J. T. MILIK, *Dix ans de découvertes dans le désert de Juda*, p. 38.

٧- المثقال: وحدة وزن قديمة تساوي من ٢٠ إلى ٢٧ كيلوغراماً.

٨- JOSEPHE, *Ant. Jud.*, XIV, iv, 1-5; XIV, vii, 1.

على أن الدّرج النحاسي هو فعلاً لائحة كنوز حقيقية، لكنه ذكر أن هذا الكنز يمثّل المال العام وأموال الهيكل وموجوداته التي كانت بإدارة كل من بار كوكبا والكاهن أليعازر أثناء الثورة اليهودية الثانية ضد الرومان (١٣٢-١٣٥م)[١].

لكن الرأي الأخير غير صحيح للأسباب التالية:

أ- عدم توافقه مع المعطيات الأركيولوجية التي تؤكد إخفاء جميع مخطوطات البحر الميت، بما فيها الدّرج النحاسي، في مغاور قمران حوالى سنة ٦٨م.

ب- إن فريق الآثار هو الذي اكتشف المغارة الثالثة، بمعنى أنه لم يُعبث بمحتويات تلك المغارة التي حوَت ٢٧٤ فتيتة من الجلد والبردى وشُقَف من الفخار لحوالى ٣٥ جرة و٢٦ غِطاء وإبريقين وسِراج واحد[٢] بالإضافة إلى الدّرج النحاسي. فلو تمّ إخفاء هذا الدّرج في مغارة قمران الثالثة أثناء ثورة بار كوكبا ضد الرومان، لكان عُثِر في المغارة عينها على آثار عائدة للثورة اليهودية الثانية، كما هو الحال بالنسبة إلى كهوف وادي المربعات[٣].

ج- كانت الأوضاع المالية ليهود فلسطين والهيكل عند اندلاع الحرب اليهودية الاولى ضد روما، أكثر يسراً مما آلت إليه الأحوال فيما بعد، إذ يخبر يوسيفوس أنه بعدما أحرق الجنود الرومان الهيكل سنة ٧٠ م. واستولوا على

١- LAPERROUSAZ, *Qoumrân*, p. 134 et 264.

٢- *Ibid.*, p. 11 et 158.

٣- يقع وادي المربعات في الجنوب-الشرقي من مدينة القدس ويبعد عنها مسافة ٢٥ كلم تقريباً. نتيجة للتنقيبات الأثرية التي أجريت سنة ١٩٥٢، تبين أن ذلك الموقع عرف حقبات سكنية عديدة، أقدمها عائد إلى العصر الحجري الخالكوليثي (Chalcolithique) أي إلى حقبة الألف الرابع ق.م. (٤٠٠٠-٣٠٠٠ ق.م.). كما كشفت الحفريات الأثرية عن وجود آثار من القرنين الثامن والسابع ق.م. وعثر أيضاً على عدد كبير من حُطام الفخار الروماني ومعظمه يعود إلى أواخر القرن الثاني ب.م.، بالاضافة إلى عدد قليل من فتائت المخطوطات التوراتية التي تتوافق مع النص الماسوري، ومجموعة من النقود والمخطوطات التي يعود معظمها إلى زمن الثورة اليهودية الثانية ضد الرومان، ومنها ما هو مُذيّل باسم قائد الثورة، سمعان بن كذبة، المعروف بإبن كوكبا. وعُثر أيضاً على اتفاقيتين وبعض المستندات اليونانية التي تحمل تواريخ محددة في القرن الثاني للميلاد، بالإضافة إلى بعض الفتائت باللغة اللاتينية، ما يجيز الاعتقاد بأن حامية رومانية احتلّت الموقع المذكور بعد القضاء على ثورة سمعان بن كذبة.

كنوزه، صارت الليرة الذهبية تباع في سوريا بنصف قيمتها السابقة[١].

وبرأينا أن لائحة الكنوز الواردة في الدّرج النحاسي، تشمل ما توفّر في صندوق جماعة قمران من أموال طوال مدة استعدادهم لحرب نهاية الأزمنة التي يشير إليها عدد مهم من مخطوطات البحر الميت، بالإضافة إلى كنوز الهيكل والأموال العامة التي وُضعت بتصرّف الثوار اليهود بعد اندحار الرومان في السنة الأولى من الحرب. كما أن وجود لائحة ثانية بالكنوز عينها، أُخفيت في مكان آخر، يعني وجود سلطة وصاية أخرى على تلك الكنوز، ربما تمثّلت بحكومة الثورة الأولى التي تولّت شؤون الدفاع عن البلاد بعد انتصار الثوار اليهود على الرومان سنة ٦٦ وبسط سيطرتهم على فلسطين.

٨- مخطوطات متفرقة

من مكتشفات مغارة قمران الأولى نصّ أطلق عليه اسم «كتاب الأسرار» (Q127). كما يندرج تحت هذا العنوان بعض النصوص المكتشفة في المغارة الرابعة وهي تحمل الرموز التالية (4Q299-301). يتمحور موضوع تلك النصوص حول الحكمة التي هي الطريق الصحيح لمعرفة مخططات «يهوه».

وهناك نصوص أخرى دُعيت «صلوات الأعياد» (1Q34; 1Q34bis)، وهي تحوي ما تبقى من مجموعة صلوات احتفالية تشمل السنة الطقسية بكاملها.

ومن النصوص المهمة أيضاً «أناشيد ذبيحة السبت» (4Q400-407) وهي مجموعة من التراتيل التي تمجّد إله إسرائيل والملائكة الذين في حضرته. كما أنها مخصّصة لسبوت السنة الطقسية لدى جماعة قمران.

هناك نصّ آخر دُعي «مختارات» (4Q174)، وهو يشكّل تفسيراً لآيات توراتية متنوّعة انطلاقاً من قناعة الكاتب أنه يعيش مع جماعته في مرحلة الزمن الأخير، أي زمن التجدد الشامل.

وأطلق المتخصصون اسم «شهادات» (4Q175) على مخطوطة وُجدت في المغارة الرابعة، وهي تتميّز بطابعها المشيحي.

١- JOSEPHE, *Guerre*, VI, vi, 1, § 317.

وهناك نصّ أطلق عليه المتخصصون اسم «مليكصادق» (11Q13)، وهو تأويل لآيات متفرقة من بعض أسفار التوراة[1]. يدور موضوع النص حول «ملكيصادق» الذي يبدو كمحرّر سماوي في آخر الأزمنة وكسيّد في عالم الملائكة[2]. وملكيصادق هذا هو غير «ملك شاليم» المذكور في سفر التكوين والذي أعطاه أبرام عشر ممتلكاته[3].

وعُثر في المغارة الرابعة على نصّ شعري دُعي «فخاخ المرأة» (4Q184). يعتبر كاتبه أن المرأة هي مبدأ كل شر ومصدر للمكر والإغواء. جاء وصفها على صورة زانية تتربص على مفترق الطرقات وأمام أبواب المدن لكي تغوي الأبرار وتدعوهم إلى الخطيئة[4]. كما عُثر أيضاً على نص يتناول الطالع الفلكي أو الأبراج (4Q186)، يتبيّن منه أن مجموع حصص النور والظلمة في الإنسان هو تسع حصص، غير أن نسبة النور الى الظلمة تختلف بين شخص وآخر استناداً إلى برج مولده ومواصفات جسده.

وتُعتبر «الرؤيا الآرامية» (4Q246) من أهم النصوص المنشورة بعد سنة ١٩٩١. أسلوب النص رؤيوي، ويتميّز بطابعه المشيحي. وهو يتحدث عن انتصار «شعب الله» على الأشرار في نهاية الأزمنة. وقد جرت حول النص المذكور دراسات متعددة لورود عبارة «ابن الله» في متنه[5]، وبسبب ما لتلك العبارة من دلالة يهودية-نصرانية من حيث المعنى المعطى لها في سياق النص.

ومن مخلّفات المغارة الرابعة نصّ أُطلق عليه اسم «التطويبات» (4Q525) نظراً لتشابه أسلوبه مع مطلع عظة يسوع الناصري على جبل الزيتون[6].

١- اح ٢٥: ١٣؛ ٢٥: ٩؛ تث ١٥: ٢؛ مز ٧: ٨-٩؛ ٨٢: ١و٢؛ اش ٧: ٨-٩؛ ٥٢: ٧.

٢- 1Q13, II, 8-10, 25.

٣- تك ١٤: ١٨-٢٠.

٤- Q184, 4frag. 1, 3-14.

٥- E. PUECH, «Notes sur le fragment d'Apocalypse 4Q246: le Fils de Dieu», *RB,* n° 4 (1994), p. 533-556; 4Q246, II, 1.

٦- Michael WISE - Martin ABEGG, Jr. - Edward COOK, *Les manuscrits de la mer Morte,* p. 549.

يتضمن النص المذكور تطويبات تهدف إلى التمسّك بالشريعة باعتبارها طريق المعرفة.

وحملت مخطوطة أخرى تسمية «رؤيا مشيحية» (4Q521)، وهي تتحدّث عن المسيّا المنتظر الذي تخضع له السموات والأرض[1]. يتشابه مضمون هذا النص مع ما ورد في (متى ١١: ٢-٥) لناحية الاعتقاد أنه خلال الزمن المشيحي سوف يقوم الموتى بفضل الله ومسيحه. والجدير ذكره أنه لا أثر لهذه العقيدة في كتب التوراة[2].

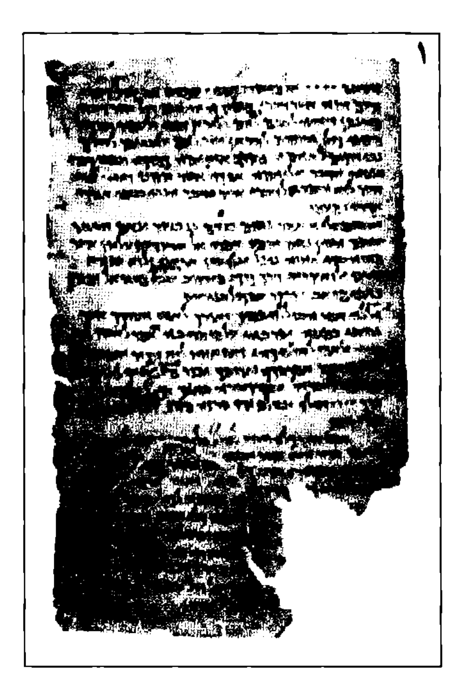
وتتناول «الرسالة المسلكية» (4Q394-399) التي عُرفت سابقاً بالرمز (4QMMT)، مسألة الحفاظ على الشريعة والتشدّد في مراعاة أحكامها. ويتبيّن منها أن عقيدة جماعة قمران مشابهة لعقيدة من سمّاهم بولس الرسول «الأخوة الكذبة» في رسالته إلى أهل غلاطية (غل ٢: ٤ و١٦)، وذلك لناحية إيمان جماعة قمران بأن الشريعة الموسوية هي السبيل الوحيد لتحقيق الخلاص[3].

هناك أيضاً عدد آخر من النصوص المهمة التي سنذكرها لاحقاً، وهي تؤكد أن مخطوطات البحر الميت صادرة عن شيعة يهودية كانت تجلّ الكتب التوراتية القانونية وتحترمها، لكنها فسّرتها انطلاقاً من عقائدها المميّزة وتجاربها الخاصة. والدليل على ذلك وجود هذا العدد الكبير من التفاسير والكتب المنحولة للنصوص التوراتية التي عُثر عليها في مغاور قمران.

١- 4Q521, frag. 2, I, 1.

٢- Michael WISE - Martin ABEGG, Jr. - Edward COOK, *Les manuscrits de la mer Morte*, p. 545.

٣- *Ibid.*, p. 458.





١- مخطوطة «شهادات» (4Q175)
٢- مخطوطة «تفسير هوشع» (4Q166)
٣- مخطوطة «نظام الجماعة» (1QS)

الفصل الثالث

الأسينيون في المصادر الكلاسيكية

يعتقد معظم الباحثين أن الأسينيين هم أصحاب المخطوطات، وأنهم وجماعة قمران جماعة واحدة. غير أن عدداً من الباحثين يرفض هذا الرأي. لذلك وجدنا من الضروري أن نستعرض بالتفصيل ما ذكرته المصادر الكلاسيكية حول الأسينيين، لكي نتمكن فيما بعد من مقارنة المعطيات التي تقدّمها المصادر المعروفة بتلك التي توفّرها الأصول، أي مخطوطات البحر الميت، وبالتالي من إبداء الرأي حول هذا الموضوع.

أولاً- فيلون الاسكندري

وُلد هذا الفيلسوف في مدينة الاسكندرية حوالى سنة ١٣ ق.م. ويُقال إنه توفي بين سنتي ٤٥ و٥٠ م[١]. ينتمي فيلون إلى عائلة يهودية مرموقة هاجرت من فلسطين إلى الإسكندرية. وفي تلك المدينة أنهى المراحل الدراسية التي كانت لا تتوافر إلاّ ليوناني ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية. كما أنه تلقّى أيضاً تربية يهودية رصينة.

حاول فيلون التوفيق بين الديانة اليهودية والفلسفة اليونانية بطريقة التأويل الرمزي. ألْهَمَت فلسفته المشبعة بالمذهب الأفلاطوني والمفاهيم التوراتية، الأفلاطونية الحديثة. له مؤلفات كثيرة عدّدها أوسابيوس القيصري في كتابه «تاريخ الكنيسة»، تدور مواضيعها حول أمور فلسفية وتاريخية ودينية وغيرها. من أهمها: «العناية الإلهية»، «كل شرير هو عبد»،

١- يرى عدد من الباحثين أن فيلون توفي بين سنتي ٤٥ و٥٠ م. غير أن هذا الرأي لا يستند إلى مصادر موثوق بها، كما أنه لا يتفق مع ما ذكره كاتب «تاريخ يوسيفوس اليهودي» الذي قال إن فيلون كان مسجوناً في روما في عهد الامبراطور نيرون قيصر. وقد حرّره «غلبا» من السجن بعد تربّعه على العرش (يوسيفوس، **تاريخ يوسيفوس اليهودي**، طبع بنفقة سليم نقولا مدور وابراهيم سركيس، بيروت، ١٨٧٢، ص ٢١٦)، ما يعني احتمال أن يكون فيلون قد توفي بعد سنة ٦٨ م.، أي بعد تربّع الامبراطور غلبا على عرش روما.

«كل فاضل هو حر»، «الدفاع عن اليهود»، «الحياة التأملية»، «الرد على فلاكوس»، «البعثة إلى غايوس»، «مسائل وحلول حول سفري التكوين والخروج» الخ... وسوف نتوقف عند كتابين مهمّين تحدّث فيهما فيلون عن الأسينيين، وهما: «كل فاضل هو حر» و«الدفاع عن اليهود».

١ - «كل فاضل هو حر»

بعد أن أشاد فيلون بالحكمة وضرورة البحث عنها، تحدث في كتابه المذكور عن الحرية، ولكن ليس حرية الجسد بل حرية النفس. فصاحب الحكمة حرّ لأنه يستطيع السيطرة على أهوائه ومخاوفه، حتى أمام الموت. وهو يتميّز بصفات ثلاث: السعادة، وصداقة الله، والعقل الراجح المستقيم. وذكر فيلون أن أصحاب الحكمة قليلون، وهم يؤثرون الابتعاد عن ضوضاء المدينة وفسادها. وبعد أن أكّد أن الحرية وقفٌ على الحياة الفاضلة، أشار إلى وجود ثلاث مجموعات من الحكماء في العالم: لدى اليونانيين والفرس والهنود؛ ثم تحدث مطوّلاً عن الأسينيين، فقال:

«ولم تفتقر سوريا-فلسطين أيضاً إلى الفضيلة، وهي التي يقطنها عدد مهم من أمة اليهود الكثيرة السكان. فبعضهم هناك يُعرف باسم أسينيين (Εσσαιοι)، حيث يتجاوز عددهم **الأربعة آلاف**. وبالرغم من كون هذا الاسم لا يتخذ صيغة صحيحة في اللغة اليونانية، غير أنه مشتق، بحسب رأيي، من كلمة «**قداسة**». وبالفعل، فإنهم خدّام الله بكل ما للكلمة من معنى، ليس لأنهم **لا يقدمون الحيوانات قرابين**، بل لما لهم من إرادة في جعل أفكارهم جديرة بالله.

وهم **يسكنون القرى ويهجرون المدن** بسبب جور سكانها؛ علماً أن الاحتكاك بالحياة الاجتماعية ينقل إلى النفوس، كالأجواء المُعْدِيَة، أمراضاً لا شفاء منها. **ويعمل بعض هؤلاء في الأرض، بينما يكرّس الآخرون حياتهم للمِهن التي تصون السلام**، فيهتمّون بنفع ذواتهم وجيرانهم، دون الاهتمام بجمع كنوز الفضة والذهب، ودون تملّك أراضٍ واسعة لزيادة إيراداتهم، ولكنهم يعملون على قدر ما يكفي لتلبية حاجاتهم الحياتية. فهم وحدهم، دون غيرهم من البشر، **دون ثروة أو ملكيات**، لنزعة لديهم لا بسبب شحّ مواردهم. لذلك يتصوّرون أنفسهم أثرياء جداً، إذ ينظرون بحقّ على أن الوفرة هي في أن يكون للمرء القليل من الحاجات، بحيث يمكن إرضاؤها بسهولة. **ولا يوجد بينهم أي صانع سهام أو رماح أو سيوف أو خوذات أو دروع. ولا يتعاطون تجارة الأسلحة وكلّ أدوات الحرب، حتى ولو كان بعضها مفيداً في أوقات السلم**. وليس لهم أيّ تصوّر، حتى

في الحلم، عن التجارة أو الملاحة. فهم يتجنّبون ذلك لأن فيه شيئاً من الربح. **ولا يوجد بينهم أي عبد، فكلهم أحرار يتعاونون فيما بينهم**. وهم يُدينون العبودية، ليس فقط بسبب ما ينتج عنها من ظلم، بل لأنها تقضي على المساواة، أو بالأحرى لأنها، من الناحية الإيجابية، كفرٌ تجاه ناموس الطبيعة التي أنجبت كافة البشر وأمّنت لهم الغذاء كما تفعل الأم، وجعلت منهم إخوة، ليس بالاسم بل في الواقع. غير أن الجشع زعزع القرابة بين البشر، فحلّ الفراق مكان الألفة، والحقد مكان الصداقة.

أما بالنسبة إلى الفلسفة، فهم يهملون المنطق بمفرداته المنمّقة، ويعتبرونه غير مجدٍ للفوز بالفضيلة، كما أنهم يهملون الفيزياء بانشغالاتها الفلكية التي يعتبرونها خارجة عن متناول الطبيعة البشرية، إلاّ في ما يتعلّق بما تقوله عن وجود الله وأصل الكون. لكنهم يهتمّون بشكل زائد بعلم الأخلاق، آخذين الشرائع التي وضعها أجدادهم مثالاً وقدوة، تلك الشرائع التي لم يكن بوسع العقل البشري صياغتها إلاّ بإلهام من لدنه تعالى. وهم يدرسونها في كل الاوقات، خاصةً في السبوت، لأن **اليوم السابع مقدس بنظرهم**؛ لذلك يمتنعون خلاله عن كل عمل آخر ويؤمّون الأماكن المقدسة التي يدعونها «كنسّ». هناك يجلسون وفق أعمارهم في أماكن محددة، بحيث تكون مقاعد الشيوخ أرفع مقاماً ممن يصغرهم سناً، ويتهيّأون للاستماع. عندها يتناول أحدهم الكتاب ويقرأ، ثم يتقدم آخر يتمتّع بالكفاءة والخبرة لشرح ما عسُر فهمه. وبالفعل فإن القسم الأكبر من تعاليمهم الفلسفية يُعطى بالرموز، بحسب منهج قديم في البحث. وهناك يتدرّبون على التقوى والقداسة والعدالة... ومعرفة الأعمال الصالحة، أو الرديئة، واختيار الأفضل والابتعاد عمّا يخالف ذلك، معتمدين مبدأً ثلاثياً هو محبة الله والفضيلة والإنسان. وتشمل محبة الله أمثلة لا تحصى: طهارة ثابتة ودائمة مدى الحياة، فلا حلفان ولا أباطيل، والاعتقاد بأن الله تعالى هو مصدر كل خير دون أن يكون سبباً لأيّ شرّ. وينطوي حب الفضيلة على **احتقار الثروة والغنى** والمجد الباطل والملذات، وعلى **الزهد** والصبر وبساطة المأكل والتواضع واحترام الحق والثبات في الرأي وكل ما تشتمل عليه العادات الحميدة. وتشمل محبّة الإنسان: الرِفق والمساواة والحياة الجماعية التي هي أرفع من كل ثناء. والكلام على ذلك باقتضاب لا يكون واقعاً في غير محلّه. فما من أحد يملك منزلاً إلاّ وأصبح شائعاً للجميع. فبالإضافة إلى كونهم **يعيشون في أخويات**، فإن منازلهم مفتوحة للزوار من الخارج الذين يشاركونهم المثالية عينها. وليس لهم سوى بيت مؤونة واحد ومصاريف مشتركة: **فالكساء مشترك، والمائدة مشتركة**، وقد اعتادوا على تناول الطعام سوية. فأين يمكن أن يجد الإنسان تحت سقف واحد جماعة منظّمة على هذا الشكل تعيش نمط الحياة عينه وتجتمع حول مائدة واحدة. إن هذا الأمر نتيجة طبيعية لنمط حياتهم، لأن جميع ما يتلقونه كأجر عن

أعمالهم اليومية، لا يحتفظون به لأنفسهم، إنما يضعونه بتصرف المجموعة لكي يستفيد منه من هو بحاجة إليه. وهم لا يتركون المرضى والمساكين بدون عناية بحجة أن هؤلاء لا يستطيعون القيام بشيء، لأن لديهم، بفضل أموالهم المشتركة، كل ما يلزم لمعالجة الأمراض. وهم ينفقون بسخاء ما توجّب انفاقه في سبيل تلك الغاية. كما أنهم يجلّون المسنين ويحيطونهم بالعناية، تماماً كالأهل الذين يساعدهم أبناء حقيقيون في شيخوختهم؛ فيعاملونهم بكرم، ويأتون لمساعدتهم باندفاع وبانتباه كلّي.

وهكذا يلاحظ كيف أن فلسفة جاهلة لأناقة الألفاظ اليونانية تنشئ رجالاً أقوياء في الفضيلة، وتقترح نموذجاً يقتدى به في الافعال الحميدة التي تؤكد كامل حريتهم. والدليل على ذلك أنه **عبر العصور، تعاقب على تلك البلاد حكام كثيرون** مختلفو الطباع والسلوك. وكان البعض منهم أكثر ضراوة من الوحوش الكاسرة، لا يوفّرون أي نوع من الفظائع، يذبحون مرؤوسيهم كالقطعان، يقطّعونهم أحياء كالطبّاخين، قطعة قطعة، وعضواً عضواً، ولا يتوقفون عن شرورهم إلاّ عندما تصيبهم العدالة الإنسانية بالمظالم عينها. والآخرون من الحكام، يستبدلون المكر بالحنق، فيمارسون قساوة لا توصف وهم يثرثرون بهدوء... هؤلاء الرجال الذين قاموا بأفعال مؤلمة لا يمكن الشفاء منها، تركوا وراءهم في كل مدينة تعاسة لا تُنسى من الذين عانوا من مساوئهم، ذكرى لكفرهم وحقدهم على البشر. **ولكن لا أحد من هؤلاء الحكام** - أكان ممن تزايد طغيانهم أو اشتدّ مكرهم- **تمكن من اتهام تلك الجماعة التي تدعى «الأسّينيين» أو القديسين**؛ بل بالعكس، فقد عاملوهم كأناس مستقلين وأحرار بالطبيعة بعدما لمسوا فضائلهم. وهم يحتفلون بتناول الطعام حول مائدة واحدة ويعيشون حياة مشتركة تفوق كل ثناء، وهذا هو المظهر الأكثر وضوحاً لوجودٍ كامل فائق السعادة.»[١]

ونعود الى القواسم المشتركة بين ما أورده فيلون عن الأسينيين وما تضمنته مخطوطات البحر الميت عن أصحابها، خاصةً في ما يتعلق بالقداسة[٢] والطهارة[٣] وكره الغنى والربح[٤]. فقد تميّزت جماعة قمران بالصدق والنزاهة

١- PHILON, *Quod Omnis,* 75-91.

٢- من الأوصاف الواردة في المخطوطات للدلالة على قداسة جماعة قمران، ما يلي: قديسون- جماعة القديسين- مجلس القداسة- الجماعة المقدسة.
أنظر: 1QS, II, 25; V, 20; 1QM, IX, 8; 1QH[a], III, bottom, 10.

٣- حوّت خربة قمران عدداً من صهاريج المياه التي كانت تستعمل للتطهّر قبل الاشتراك بالوليمة المقدسة.

٤- 1QH[a], XVIII, 29-30.

والفضائل الحميدة، بالإضافة إلى الألفة والأخوّة ومحبة أفرادها لبعضهم البعض[1]. وكان هؤلاء يعيشون حياة مشتركة، يتناولون الطعام سوية ويرفعون معاً صلوات الشكر لله. وكان لديهم صندوق مشترك يغذّونه من مقتنياتهم وأجور أعمالهم اليومية[2]، تحت إشراف وكيل مسؤول، بحيث تنتفي لديهم الملكية الفردية ويصبح ما يملكه كل واحد منهم ملكاً للجميع.

أما بالنسبة إلى دراسة شرائع الآباء، فقد فرضت الأنظمة في قمران أن يكون في كل مجموعة منهم رجل يدرس الشريعة نهاراً وليلاً في ما يتعلّق بواجباتهم نحو بعضهم البعض. كما وجب على الأعضاء السهر مداورةً ثلث ليالي السنة لقراءة النصوص التوراتية. وكانوا يخصصون السبوت لتفسير كتبهم المقدسة وشرح رموزها الغامضة. وقد أشار فيلون إلى أنه أثناء تواجد الأسينيين في الكُنُس، كانوا يجلسون وفق أعمارهم في أماكن محددة بحيث تكون مقاعد الشيوخ أرفع مقاماً ممن يصغرهم سناً[3] وهذا ما نجده في قمران أيضاً، يجلس الكهنة في الصف الأول، والشيوخ في الثاني. أما ما تبقّى من الأعضاء، فيجلس كل واحد منهم بحسب درجته[4].

ولا وجود للعبيد في جماعة قمران؛ فالاشتراك في المأدبة المقدسة يفرض عدم وجود غرباء، لذلك قال «بوشانان» ما معناه أنه من المستحيل من الناحية العملية الاحتفاظ بعبيد لدى جماعة قمران، لأنه إذا اختار العبد أن يكون فرداً من الجماعة وقُبِلَ على هذا الأساس، عندها لا يكون عبداً[5].

وبالرغم من القواسم المشتركة الكثيرة بين ما ذكره فيلون عن الأسينيين وما أوردته مخطوطات البحر الميت عن جماعة قمران، تبقى بعض الفروقات المهمة: فإذا كان الأسينيون فعلاً دعاة سلام ومحبة وكانوا ينبذون الحرب وأدواتها كما زعم فيلون، فكيف يُفسّر وجود «نظام الحرب» بين مخطوطات

١- 1QS, I, 9; IV, 5.

٢- 1QS, I, 11-12; VI, 2-3, 20.

٣- PHILON, *Quod Omnis*, 81.

٤- 1QS, VI, 8-9.

٥- George W. BUCHANAN, «The role of purity in the structure of the Essene sect», *RQ*, n° 15 (1963), p. 406.

البحر الميت؟ فهذا الدّرج يؤكد استعداد جماعة قمران لخوض حرب إسكاتولوجية ضد الوثنيين والأغراب الذين كانوا يحتلّون فلسطين بالإضافة إلى مخالفي الشريعة الموسوية؟

ربما تعود الفروقات بين المصادر والأصول إلى جهل حقيقة الأسينيين كونهم مذهباً باطنياً. ومن المحتمل أيضاً أن يكون فيلون قد عمد إلى تحسين صورة الأسينيين وإظهارهم كمدرسة فلسفية رغبةً منه بالدفاع عن بني قومه اليهود بشكل عام.

٢- «الدفاع عن اليهود»

تحدث فيلون أيضاً عن الأسينيين في كتابه المفقود المسمّى «الدفاع عن اليهود» الذي لم يبقَ منه سوى ما أورده أوسابيوس في كتابه «التحضير الإنجيلي». قال فيلون:

«لقد هيّأ مشرّعنا لأعداد وافرة من تلامذته أن يحيوا حياة مشتركة، ويدعى هؤلاء «أسينيون» (Εσσαιοι). استحق هؤلاء هذا الاسم، كما أعتقد، بفضل قداستهم. **وهم يسكنون عدداً من مدن اليهودية والقرى والأماكن الآهلة بالسكان.** ولا علاقة لتلك النزعة بالعِرق، بل هي آتية من انسانيتهم وغيرتهم على الفضيلة. **لا يُقبل الأطفال أو الفتيان أبداً عند الأسينيين**، نظراً لعدم استقرار طباعهم وقلّة نضوجهم واستسلامهم لكل شيء جديد. أما هؤلاء **فهم رجال ناضجون يميلون نحو الشيخوخة**، وقد تحرّروا من الشهوات وانتظموا بحرية متماسكة. وتشهد حياتهم على تلك الحرية، فلا يُسمح للواحد منهم على الإطلاق أن يقتني ملكاً خاصاً به، لا بيتاً ولا عبداً ولا حقولاً ولا مراعي أو غير ذلك من مزايا الغِنى؛ فبعد تقديمهم لكل ما يملكونه إلى الجماعة، يشتركون جميعاً بالتنعّم من مواردهم. وهم يسكنون سويّة في أخويات، يتناولون الطعام حول مائدة مشتركة، ويمارسون نشاطهم لمصلحة المجموعة. غير أن لكل منهم عملاً مختلفاً ينكبّ عليه بعَزْم دون التذرّع بالبرد أو الحرّ أو تقلّبات الطقس. **فقبل طلوع الشمس يلتحقون بأعمالهم المألوفة ولا يعودون حتى المغيب**، وهم بغاية السعادة كالمتنافسين في الألعاب الرياضية. غير أنهم يعتبرون النشاطات التي يمارسونها أكثر نفعاً للحياة، لأنها مستحبّة للنفس والجسد، ولا تزول مع الشيخوخة كالقوة البدنية. يوجد بينهم مزارعون يبذرون ويغرسون، ورعاة يسوقون مختلف أنواع الماشية. ويهتم البعض منهم بتربية النحل، والبعض الآخر يحترف مهناً مختلفة تجنباً للمعاناة والحرمان مما تتطلبه الضرورات الأساسية، كما أنهم لا يرفضون أيّ وسيلة شريفة للحصول على

الموارد. وهم يضعون الأجور التي يقبضونها عن تلك الأعمال المتنوعة بيد الوكيل الذي اختاروه، فيشتري هذا الأخير بوفرة كلّ ما هو ضروري للحياة. ويجلسون جميعاً حول مائدة بسيطة، فيتناولون وجبة الطعام عينها يومياً وهم بغاية السرور، إذ يعتبرون البذخ داء للنفس والجسد. والمشاركة ليست في الطعام فقط، بل أيضاً في اللباس. فهناك تحت تصرّفهم معاطف خَشِنَة للشتاء، وثياب بخسة الثمن في الصيف، بحيث يمكن للواحد منهم أن يختار الرداء الذي يوافقه. فمن المتوافق عليه أن ما يخص الواحد منهم يكون ملكاً للجميع، وبالعكس فإن ما تملكه الجماعة يكون ملكاً لكل فرد منهم.

وإذا مرض أحدهم، يُداوى على نفقة الجماعة، ويتلقى المساعدة والرعاية من الجميع. أما كبار السنّ الذين لا أولاد لهم، فيمضون مراحل حياتهم الأخيرة كأن لهم الكثير من الأولاد، وتكون شيخوختهم سعيدة هانئة، محاطة بالاحترام والعزّة من هؤلاء الأبناء الذين يقدمون لهم العناية بكل اهتمام. **وهم يرفضون الزواج** إذ يعتبرونه الخطر الأكبر المؤدي إلى انفراط الجماعة، لذلك **يمارسون العفّة المطلقة. فلا أحد من الأسينيين يتخذ امرأة** بسبب أنانيتها وميلها للحسد وإتقانها إغواء الإنسان في سلوكه وجرّه إلى الأذى المتواصل. فهي كالممثلة، تبهر نظره وسمعه بتملّقها وخداعها، وتنتهي بشلّ إرادته. وإذا صار لديها أولاد، تستولي بعنف على ما حصلت عليه بفضل تملقها، وكل ذلك يتعارض مع الحياة المشتركة. أما الزوج المتيّم أو المنشغل بتدبير أمور أولاده فتتبدل علاقته بالآخرين. فيتحوّل، دون أن يدري، إلى إنسان آخر منتقلاً من الحرية إلى العبودية. وهكذا يُحسد هؤلاء على نمط حياتهم ليس فقط من الأفراد بل أيضاً من ملوك كبار...»[1]

ثانياً- فلافيوس يوسيفوس

وُلد يوسيفوس سنة ٣٧ م. وتوفي حوالى سنة ١٠٠ م. له مؤلفات عديدة، أهمها «الحروب اليهودية» و«العاديات اليهودية» و«ضد أبيون» و«سيرة حياة فلافيوس يوسيفوس». أخبر في كتابه الأخير الذي أنهى تأليفه حوالى سنة ٩٦ م.، أنه يتحدّر من أسرة كهنوتية يهودية نبيلة، ويجري في عروقه دم ملوكي عن طريق أمه المتحدرة من سلالة الحشمونيين. ولما بلغ عامه السادس عشر، رغب في أن يتعرّف عن قرب إلى الطوائف الدينية المشهورة في عصره، أي

١- EUSEBE, *Prép. Ev.*, VIII, 11, 1-18.

الأسّينين والفريسيين والصدوقيين، فتقرّب منها مدة من الزمن بغية اختيار أفضلها. وقد مارس الزهد والتقشّف ثلاث سنوات في الصحراء على يد ناسك يدعى «بانوس»، ثم عاد بعد ذلك إلى أورشليم وانخرط في شيعة الفريسيين[1].

تُعتبر مؤلفات يوسيفوس، وعلى الأخص منها كتاب «الحروب اليهودية»، أهم المصادر التاريخية للحرب اليهودية الكبرى، علماً أن يوسيفوس شارك في المرحلة الأولى من تلك الحرب عندما تولّى قيادة الجبهة الشمالية استعداداً لصدّ جيوش فسبزيانوس الزاحفة على أورشليم. فلما تيقّن من الهزيمة، استسلم لفسبزيانوس وتنبّأ له بأنه سيصبح سيّداً على العالم. فلمّا تسنّم هذا الأخير عرش الامبراطورية سنة ٦٩ م.، عفا عن يوسيفوس وجعله من خاصته. فدُعي المؤرخ المذكور «فلافيوس يوسيفوس» تيمّناً بأُسرة الفلافين التي ينتمي اليها الإمبراطور.

وتعتبر مؤلفات يوسيفوس أيضاً من أهم المصادر بالنسبة إلى طائفة الأسينين، لأنه عاصرهم ودرس أحوالهم عندما قرر الانخراط في إحدى الشيع اليهودية المعروفة في عصره.

١ - الحروب اليهودية

أورد يوسيفوس نصاً مطوّلاً عن الأسينين في كتابه «الحروب اليهودية»، كما ذكر فيه أيضاً أخباراً متفرقة عنهم، وهي على درجة كبيرة من الأهميّة.

قال يوسيفوس:

«هناك ثلاث مدارس فلسفية لدى اليهود: الفريسيون أولاً، والصدوقيون ثانياً. وقد عُرف مشايعو المدرسة الثالثة باسم «الأسينيين» (Εσσηνοι) بفضل ممارستهم للقداسة. هؤلاء وُلدوا يهوداً وتحابّوا أكثر من غيرهم. وقد اعتبروا ملذّات الجسد شروراً وذنوباً وآثروا العفّة وجعلوا من التغلب على الشهوات فضيلة. وهم يهملون الزواج وينتقون من أولاد غيرهم من يعتبرونهم منهم فيقبلونهم صغاراً، بَين ذوي قابلية للتعلّم ويطبعونهم بطبائعهم. وهم لا ينكرون صوابية الزواج وحفظ النسل وإنما يحذّرون من سلوك النساء الفاسق مقتنعين أن ليس بينهم واحدة تحافظ على أمانتها

١- JOSEPHE, *Life,* p. 7.

لرجل واحد.

هؤلاء الرجال يحتقرون الثروة والغنى ويميلون جداً إلى الألفة والعيش المشترك. وليس بينهم مَن عنده أكثر من غيره. فالقانون بينهم يقضي بأن يقدّم الداخل في زمرتهم ما عنده للجماعة. فلا ترى بينهم ظاهرة فقر ولا ظاهرة غنى، بل اختلاطاً بين مُلْك الفرد ومُلْك الآخرين، بحيث يتراءى لك أن هنالك إرثاً واحداً لجميع الأخوة. وهم يرون في الزيت وسخاً، فإذا مُسح أحد به بدون موافقته، مُسح عنه مسحاً؛ فهم يفضّلون أن يكون الجسم خشناً وجافاً، كذلك يؤثرون ارتداء اللباس الأبيض. وهم يختارون قيّمين لإدارة شؤونهم المشتركة.

وليس لهم مدينة معينة يقيمون فيها، بل يتوزّعون في جميع المدن حيث يعيشون بأعداد كبيرة. وإذا جاءهم بعض الأخوة من أماكن أخرى وضعوا ما عندهم تحت تصرّفهم كأنه ملكهم، فهم يترددون على أناس لم يرونهم من قبل كأنهم يعرفونهم منذ زمن بعيد. وهكذا فإنهم لا يحملون شيئاً أثناء تنقلاتهم إلاّ أسلحتهم خوفاً من تعدّي اللصوص. ولهم في كل مدينة يقيمون فيها مسؤول يُعيَّن خصيصاً للاعتناء بهم كضيوف، يقدّم لهم اللباس والقوت. فلباسهم ومظهرهم أشبه بلباس الأولاد الذين ينشأون تحت سيطرة سيّدهم. ولا يستبدلون ألبستهم أو أحذيتهم إلاّ بعد أن تصبح خرقاً بالية أفناها الزمن. ولا يبيعون شيئاً ولا يشترون شيئاً من بعضهم. بل يعطي كلٌّ منهم إلى غيره ما يحتاج إليه ممّا عنده، ويأخذ منه ما يوافق حاجته...

وخوف الله عندهم فوق العادة. فإنهم لا ينطقون بكلمة واحدة تتعلق بأمور الدنيا قبل شروق الشمس، بل يرفعون صلوات ورثوها عن آبائهم كأنهم يضرعون بها أن تشرق عليهم. وبعدها يذهب كلّ واحد منهم، وفقاً لأمر نظّارهم، لممارسة العمل الذي يجيد. فيعملون بكل نشاط حتى الساعة الخامسة[1]؛ ثم يجتمعون في مكان واحد، فيستترون بنقاب أبيض ويستحمّون في الماء البارد. وبعد الانتهاء من هذا التطهير يجتمعون في مكان واحد لا يجوز لغيرهم الدخول إليه وينتقلون منه إلى قاعة الطعام أنقياء كأنهم يؤمّون هيكلاً مقدّساً فيجلسون صامتين. فيأتي الخبّاز ويضع أمامهم أرغفة الخبز بالترتيب. ثم يقدّم الطاهي لوناً واحداً من الطعام في صحن واحد أمام كلٍّ منهم. ويتلو الكاهن الصلاة قبل الطعام، ولا يجوز لأحد منهم أن يذوق الطعام قبل انتهاء تلك الصلاة. ثم يصلّي الكاهن مجدداً بعد الانتهاء من الطعام. وهم يشكرون الله في البداية والنهاية لما أنعم به عليهم من طعام. وبعد هذا يخلعون الثياب التي ارتدوها أثناء الطعام كأنها ثياب مقدسة، وينصرفون إلى أعمالهم حتى المساء. ثم

١- كان النهار في ذلك الزمان مقسماً إلى اثنتي عشرة ساعة، تبدأ الأولى عند شروق الشمس.

يعودون لتناول العشاء بالطريقة ذاتها. وإذا كان عندهم ضيوف فإنهم يجلسون معهم. ولا يعلو الضجيج بينهم أبداً لينجّس بيتهم فإنهم يفسحون المجال لكل واحد منهم أن يتكلم بدوره. ويرى الغرباء في هذا السكوت سراً عظيماً ولكن الواقع أنهم يمارسون الاعتدال باستمرار فيتناولون دائماً الكمية عينها من المأكل والمشرب وهي أكثر من أن تكون كافية.

وهم، والحق يقال، لا يفعلون شيئاً في الأمور الأخرى إلاّ بموجب تعليمات نظّارهم. وهم ليسوا أحراراً إلاّ في أمرين: مساعدة المحتاج وأعمال الرحمة. **ولهم أن يعاونوا من يشاؤون ممن يستحق المساعدة، وأن يعطوا الطعام إلى البائسين**. ولكن ليس لهم أن يفعلوا ذلك مع بعضهم البعض بدون موافقة النظّار. وهم يصرفون غضبهم بعدل ويُمسكون عن شهواتهم. وقد **اشتهروا بالأمانة والمسالمة**، وقولهم أثبت من القسم. وهم يتحاشون إعطاء اليمين ويعتبرونه أسوأ من الحنث فإنهم يقولون: إن من لا يصدق إلاّ بعد اليمين يستحق الدينونة قبلها. ويبذلون جهداً عظيماً في دراسة كتب القدماء فينتقون منها أعظمها فائدةً لنفوسهم وأجسادهم؛ ويفتّشون فيها في سبيل معرفة الخصائص الشفائية لجذور النباتات والحجارة وذلك من أجل معالجة الأمراض. وإذا شاء أحد أن يلتحق بفرقتهم لا يقبل فوراً بل يُؤمر باتّباع طريقهم في المعيشة سنةً كاملة دون أن يُعتبر واحداً منهم، ويُعطى فأساً صغيرة والمنطقة المذكورة سابقاً والثوب الأبيض. وبعد أن يقدّم الدليل في تلك المدة على مقدرته في الاعتدال، يُقرَّب من إسلوبهم في العيش فيشترك معهم في مياه التطهير ولكنه يظل ممنوعاً عن الاشتراك في العيش معهم. وبعد إثبات صبره على هذا الشكل تُمتحن سجاياه سنتين أخريين، فإذا وُجِد لائقاً أُلحِق بالجماعة. وقبل أن يُسمح له بلمس طعامهم يُستحلف على يمين شديدة بأن يتّقي الله أولاً، وأن يعدل بين الناس، وألاّ يلحق ضرراً بأحد لا طوعاً ولا إكراهاً، وأن يكره الشر دائماً، وأن يتعاون مع الصالحين، **وأن يبقى أميناً لجميع الناس ولا سيّما أولي الأمر لأنه لا يصل أحد إلى الحكم بدون معونة الله**، وألاّ يسيء استعمال السلطة في حال وصوله إلى الحكم، وألاّ يحاول أن يفوق رعاياه بالبذخ والزينة، وأن يحب الصدق على الدوام ويوبّخ الكاذبين، وألاّ يلطخ يديه بالسرقة ونفسه بالأرباح غير المشروعة، **وألاّ يخفي عن أبناء فرقته أو يفشي بعقائدهم إلى الآخرين ولو اضطرّه الأمر إلى المخاطرة بحياته**. وكان عليه، بالإضافة إلى ما تقدّم، أن يقسم أنه لن ينقل العقائد إلى أحد إلاّ بالطريقة عينها التي تسلّم بها تلك العقائد، وأن **يمتنع عن أعمال اللصوصية ويحافظ على كتب الفرقة وأسماء الملائكة**. هذه هي الأقسام التي ربطوا بها الداخلين في فرقتهم. ومن يقع في الخطايا الشائنة يُطرد من بين الجماعة فيموت بائساً لأنه يكون قد ارتبط بما أقسم وبالعادات التي اعتادها فلا يأكل

ما يجد، بل يضطر أن يأكل العشب فيضعف جسمه حتى الهلاك. فيشفق عليه أفراد الجماعة ويعتبرون ما حلَّ به من بؤس كفَّارة كافية عما ارتكب من الخطايا فيعيدونه اليهم في الرمق الأخير.

وهم يدققون كل التدقيق في ما يصدرونه من أحكام ويعدلون. **ولا يصدرون حكماً بتصويت محكمة يقل عدد أعضائها عن المئة.** وما يُحدَّد بهذا العدد يصبح غير قابل للنقض. وما يحترمونه بعد الله كل الاحترام هو اسم مشترعهم. **فمن يجدّف يُحكم عليه بالإعدام.** كما يستحسنون طاعة شيوخهم ورأي الأكثرية. فإذا اجتمع عشرة منهم لا يتكلم أحدهم إذا علم أن التسعة الآخرين لا يتّفقون معه في الرأي. ويمتنعون عن البصق في ما بينهم وإلى يمينهم. **وهم أشدّ حرصاً على حفظ السبت من أيّ يهود آخرين.** ولا يكتفون بإعداد طعامهم في اليوم السابق كي لا يضطرّوا إلى إيقاد النار بل انهم لا يزيحون آنية من محلها، ولا يتغوّطون. وليس ذلك فقط بل انهم في الأيام الأخرى **يحفرون بفأس يُعطى لهم لدى دخولهم في الجماعة، حفرة عمقها قدم ويسترون أنفسهم بالثوب، كي لا يهينوا أشعَّة النور الالهي.** وبعد أن يريحوا أنفسهم في هذه الحفرة، يعيدون التراب الذي حُفر منها إليها. وحتى هذا أيضاً لا يفعلونه إلاّ في الأماكن المنفردة التي يختارونها خصيصاً لهذه الغاية. ومع أن إراحة الجسد هذه أمر طبيعي، **فإنهم يوجبون بالقانون غسل أنفسهم بعدها كأنها تنجّسهم.** وهم يتوزّعون على أربع فئات بحسب أقدمية انتسابهم. ويظل المستجدّون دون المتقدّمين رتبة، فإذا لمس المستجدّون المتقدّمين اضطر الأخيرون إلى الاغتسال كأنهم اختلطوا بغرباء. وهم يعمّرون بحيث أن كثيرين منهم يعيشون أكثر من مئة عام. ويعود السبب في ذلك إلى بساطة طعامهم، لا بل إلى محافظتهم على النظام في أمور المعيشة. وهم يحتقرون بؤس الحياة ويترفّعون عن الألم لاتساع عقولهم. أما الموت فإن كان في سبيل مجدهم فإنهم يؤثرونه على الاستمرار في الحياة. **وقد سجّلت حربنا ضدّ الرومان أدلّة وافرة على عظمة نفوسهم في المحنة. فإنهم على الرغم من تعذيبهم وتشويههم واحراقهم وتقطيعهم إرباً، وعلى الرغم من تعريضهم إلى جميع أنواع العذاب ليجدّفوا على مشترعهم أو ليأكلوا ما حُرّم عليهم فإنّ معذبيهم لم يفلحوا في إكراههم على أحد هذين الأمرين أبداً،** ولو كانت لإكرام المعذبين. **ولم تتساقط لهم دمعة واحدة بل ابتسموا في آلامهم وهزئوا بمن عذّبهم** وأسلموا أرواحهم برغبة شديدة كأنهم انتظروا تسلّمها مرة ثانية. والسبب في ذلك أن عقيدتهم هي هذه: إن الأجساد قابلة للفساد وهي لا تدوم، وان النفوس خالدة مستمرة إلى الأبد. فالنفس تأتي من الأثير اللطيف لتتحد بالجسد منجذبة إليه بشوق طبيعي، فيصير الجسد سجناً لها. ولكن عندما تتحرَّر النفس من قيود الجسد وتعتق من عبودية طويلة، تصعد فَرِحَةً نحو

الأعالي. وهم يتفقون مع اليونانيين، فيزعمون أنه قد خُصّص للنفوس النقية وحدها مكان فيما وراء المحيط، بمنأى عن أذى الأمطار والثلوج والحرارة الزائدة، ينعشه على الدوام النسيم العليل الخارج من المحيط. وبالعكس، فإن النفوس غير الطاهرة تذهب، وفقاً لمعتقداتهم، إلى هوّةٍ مظلمة تعصف بها الأعاصير وتكثر فيها الآلام الأبدية. واعتقد أنه انطلاقاً من فكرة مشابهة، يخصّص اليونانيون لشجعانهم، هؤلاء المعتبرين أبطالاً أو أنصاف آلهة، مكاناً يسمّونه الجزر السعيدة، كما يعتقدون أن نفوس الشرّيرين تذهب إلى مكان الكافرين أي جهنم، حيث تتعرّض بعض شخصياتهم الخرافية للعذاب الأليم... وتوجد في تلك المعتقدات فكرة خلود النفس والحثّ على الفضيلة والابتعاد عن الشر، لأن الصالحين يسعون خلال حياتهم إلى المزيد من الفضائل، بفضل رجائهم لما سوف يحصلون عليه من الإكرام بعد الموت. وأما الأشرار فيضبطون عواطفهم خوفاً من نيلهم العذاب الأبدي المنتظر، حتى ولو تخلّصوا من العقاب أثناء حياتهم. **هذه هي التعاليم الدينية لطائفة الأسينيين التي تشكّل جاذباً لا يمكن مقاومته لمن تعرّف مرة واحدة إلى حكمتهم.**

وبينهم من يحاول أن يتنبأ بما سيحدث من خلال مطالعة الأسفار المقدسة واللجوء إلى أنواع متعددة من التطهر. **وبما أنهم يجيدون معرفة أقوال الأنبياء فإنهم لا يخطئون في نبوءاتهم إلاّ نادراً.**

وهنالك فرقة أخرى من الأسّينيين تتفق وسائر الأسّينيين في المعيشة والعادات والشرائع ولكنها تختلف عنهم في أمر الزواج. فإن أفرادها يرون أن الامتناع عن الزواج يقضي على القسم الرئيس من الحياة البشرية وعلى إمكانية الاستمرار؛ فإذا قال الجميع بعدم الزواج قُضي على الجنس البشري. وعلى كلٍّ حال فإن هؤلاء يمتحنون نساءهم فإذا وجدوهنَّ من ذوات الحيض ثلاث سنوات متتالية تزوجوا منهنَّ فعلاً. ولكنهم لا يساكنونهنَّ إذا كن حاملات ليبرهنوا على أنهم لا يتزوجون لمجرد اللذة بل لأجل التوالد. والنسوة يتوضأنَ وهنّ يرتدين بعض أثوابهنَّ، أما الرجال فيتمنطقون. **تلك هي عادات هذه الفرقة من الأسّينيين»**[1].

وقد ذكر يوسيفوس أخباراً متفرقة عن الأسينيين في كتاب «الحروب اليهودية»، وهي على جانب كبير من الأهمية. ومنها ما يتعلّق بحادثة حصلت مع شيخ من طائفة الأسينيين كان قد تنبأ بمقتل انتيغونس، شقيق الملك أرسطوبولس (١٠٤ ق.م.)[2]. قال يوسيفوس:

١- JOSEPHE, *Guerre,* II, viii, 2-13.

٢- أرسطوبولس هو أول من لبس تاج الملك في أسرة الحشمونيين.

«وقد حصل بهذا الخصوص شيء مذهل مع **يهوذا، وهو أحد الأسينيين**، ممن كانت تنبوءاته لا تخطئ أبداً. فقد رأى ذلك الرجل انتيغونس يمرّ في الهيكل، فصرخ أمام تلامذته الذين كانوا يتحلّقون حوله قائلاً: «إني استحق الموت هذا النهار، لأن روح الحق تركني، وكُذّبت إحدى نبوءاتي. فقد رأيت انتيغونس يُقتل اليوم، والمكان المحدد لموته هو برج سطرون الذي يبعد ستمائة غلوة[1] عن هذا المكان. وها هي الساعة الرابعة من النهار، وقد انقضى من الوقت ما يجعل تحقيق نبوءتي مستحيلاً» ... ولم يمض وقت طويل حتى جاء من يُخبر الشيخ أن انتيغونس اغتيل في نفق يحمل أيضاً اسم «برج سطرون» على مثال المكان الذي يُدعى بهذا الاسم في مدينة قيصرية الساحلية...»[2]

وإلى جانب موهبة التنبؤ لدى الأسينيين التي أكّدها يوسيفوس مراراً، فقد أشاد بما لبعض هؤلاء من موهبة في معرفة تفسير الاحلام، وكيف تمكن سمعان الأسيني من تفسير حلم رآه أرخلاوس بن هيرودس الكبير الذي عينه أوغسطس قيصر إتنارخاً (Ethnarque) على السامرة واليهودية بعد موت والده سنة ٤ ق.م.، ثم عاد وخلعه سنة ٦ م. قال يوسيفوس:

«يُقال إنه قبل استدعائه من قبل قيصر، رأى [أرخلاوس] في منامه تسع سنابل مليئة بالحبوب تلتهمها الثيران. فاستقدم بعض العرّافين والكلدانيين وطلب إليهم تفسير ذلك. ففسّره كل واحد على طريقته. لكن **سمعان، وهو من شيعة الأسينيين**، قال إن السنابل ترمز إلى سنين والثيران إلى ثورة لأنها تدوس الأثلام التي تشقّها فتقلب الأرض عليها. لهذا سوف يحكم عدداً من السنوات على قدر عدد السنابل ويموت بعد حياة متقلّبة. وبعد خمسة أيام استُدعي أرخلاوس إلى محكمة قيصر»[3].

والجدير ذكره أن يوسيفوس الذي لم يورد أيّة إشارة صريحة في النص الرئيس المذكور سابقاً إلى الزمن الذي نشأت فيه طائفة الأسينيين، تمكن، بفضل تلك الأخبار المتفرقة عن مواهب الأسينيين في التنبؤ وتفسير الأحلام، من إعطائهم عمقاً تاريخياً موغلاً في القدم.

ويذكر يوسيفوس في «الحروب اليهودية» اسم «يوحنا الأسيني»، فيؤكد أنه

١- الغلوة (stade) هي وحدة قياس قديمة من وحدات الطول، تبلغ ١٨٠ متراً تقريباً.

٢- JOSEPHE, *Guerre,* I, iii, 5, § 78-80; Id., *Ant. Jud.*, XIII, xi, 2.

٣- JOSEPHE, *Guerre,* II, vii, 3.

أحد القادة الذين شاركوا بالثورة اليهودية الكبرى ضد روما، كما يشير إلى مقتله[1]. ويلمّح أيضاً إلى وجود موضع في أورشليم يُقال له «باب الأسينيين»[2].

٢- العاديات اليهودية

أشار يوسيفوس في كتاب «العاديات اليهودية» إلى تواجد الأسينيين في بداية العهد المكابي. ففي كلامه على الحوادث الحاصلة في عهد يوناثان (١٦٠-١٤٣ ق.م.)، قال:

«وكان بين اليهود في ذلك الزمان ثلاثة مذاهب اختلفوا في مواقفهم من أعمال الانسان، وهم الفرّيسيون والصدّوقيون والأسّينيون. فقال الفرّيسيون إن بعض الأفعال مقدّرة لا كلّها، وأن بعضها يقع تحت سلطتنا، وأن هذا البعض معرّض لمفعول القدر ولكنه ليس مسبّباً عنه. أما الأسّينيون فقالوا إن القدر يتحكم بجميع الأمور، ولا يحصل أي شيء للبشر إلاّ بموجب سابق لتصميمه وتحديده. وأبطل الصدّوقيون القدر وقالوا انه غير موجود، وان حوادث البشر ليست تحت تصرفه. وافترضوا أن جميع أفعالنا هي تحت مطلق سلطتنا وأننا نحن نسبّب الخير ونقبل الشر بطيشٍ منا...»[3].

ثم أشار يوسيفوس إلى تواجد الأسينيين في زمان الملك هيرودس الكبير (٤٠ ق.م. - ٤ ق.م.). ومن المعروف أن ميل هيرودس، الأدومي الأصل، إلى الحضارة الهلينستية أكسبه عداوة عددٍ كبيرٍ من اليهود، خاصةً الفريسيين الذين رأوا في بعض أعماله ما يخالف سنن الآباء. فحاول هيرودس إجبار خصومه على طاعته. وكان مصير من تهرّب منهم الهلاك. قال يوسيفوس:

«كان هيرودس يرغب بأن يجعل بوليون وشميا الفريسيين يقومان بتأدية قَسَم الولاء له مع معظم تلامذتهم، لكنهما تمنّعا عن ذلك. فلم يعاقبهما كباقي المعانِدين، لأن هيرودس أظهر تسامحاً تجاههما نظراً لما يكنّه من احترام لبوليون. كذلك أعفى من تلك الفريضة هؤلاء الذين يُعرفون عندنا باسم أسينيين. وتلك الشيعة تسير على نمط

١- JOSEPHE, *Guerre*, II, 20, 3-4, § 562-568; III, 2, 1, § 9-12.

٢- *Ibid.*, V, 4, 2, § 145.

٣- JOSEPHE, *Ant. Jud.*, XIII, 5, 9.

من الحياة يتوافق مع المبادئ التي علّمها فيثاغورس للشعب الاغريقي. وسوف أتحدث عنها فيما بعد بشكل مفصّل...»[١].

حاول يوسيفوس في النص الوارد أعلاه، أن يماثل الأسينيين بإحدى المدارس الفلسفية المشهورة في عصره، أي المدرسة الفيثاغورية[٢]. وربما كان يهدف، من خلال إبراز فضائل إحدى الجماعات اليهودية ومزاياها، الدفاع بشكل عام عن بني قومه اليهود.

أما عن السبب الذي جعل هيرودس يكنّ للأسينيين احتراماً شديداً ، فقد علّله يوسيفوس بالرواية التالية:

«لقد قام بين الأسينيين رجل كان يدعى مناحيم وانه سار سيرة ممتازة في حياته. وكان الله قد منحه موهبة التنبؤ. وقد شاهد ذلك الرجل هيرودس حينما كان لا يزال صبيّاً ذاهباً إلى المدرسة، فتأمّله وحيّاه ملكاً على اليهود. فظنّ هيرودس ان ذلك الكلام ينمّ عن جهل أو سخرية، وذكّر قائله بأنه شخص عادي. فابتسم مناحيم بهدوء ثم صفع الصبي بحنان وهو يقول: «سوف تصبح ملكاً وتملك سعيداً لأن الله وجدك كفؤاً لذلك. ولتكن صفعة مناحيم علامة ترمز إلى تبدّل أحوالك. سيكون لك ذلك موضوع تأمل عميق إن كنت ترغب بالعدل والتقوى تجاه الله وإنصاف الناس. غير أني ، وأنا العالم بكل شيء، أعرف انك لن تكون هكذا. سوف تكون سعيداً أكثر من أي إنسان، وتكسب مجداً خالداً، لكنك سوف تنسى التقوى والعدالة، ولن يخفى هذا الأمر على الله، فسيفتقدك غضبه في نهاية حياتك.

لم يلتفت هيرودس آنئذ إلى ما قاله مناحيم إذ لم يكن لديه أي رجاء في مثل هذا التقدّم. لكن لما أسعده الحظ وتقدّم إلى رتبة الملك وأمسك بزمام السلطة، استدعى مناحيم وسأله كم يدوم ملكه. فلم يقل له مناحيم عن مدة ملكه شيئاً. فسأله هل يملك

١- JOSEPHE, *Ant. Jud.*, XV, 10, 4.

استعمل يوسيفوس في هذا النص لفظة (Εσσαιοι) للمرة الأولى، وذلك للإشارة الى شيعة الأسينيين، وهي التسمية عينها التي اعتمدها فيلون قبله.

٢- أسسها الفيلسوف فيثاغوروس المولود في جزيرة ساموس بين سنتي ٥٨٠ و ٥٧٠ ق.م. وكان فيثاغورس قد هاجر في شبابه إلى كروتونا في جنوب إيطاليا حيث أنشأ الجمعية الفيثاغورية التي تدعو إلى مكارم الأخلاق وطهارة النفس من الرجس والدنس. وكان أعضاؤها يرتدون لباساً أبيض شعاراً لهم. وقد آثروا الخشونة والتقشف في عيشهم لأن الجسد كان بنظرهم سجناً حُبست فيه الروح. وقد اعتقدوا ان تطهير النفس من أدران الجسد لا يكون إلاّ بالتفكير في الفلسفة والعلوم لأنهما مظهران للنشاط العقلي والروحي.

عشر سنوات أم لا؟ فأجاب: عشرين لا بل ثلاثين سنة؛ ولكنه لم يحدد انتهاء الملك. فسُرَّ هيرودس من هذه الأجوبة ومدّ لمناحيم يده وأمره بالخروج. ومنذ ذلك الحين استمر في احترام الأسينيين.

وبالرغم من أن هذه الرواية مستبعدة الوقوع، لكنني أرى من الواجب نقلها إلى القراء واعطاء هذه الشهادة إلى الجمهور ، لأن عدداً من هؤلاء يستحقون التكريم لمعرفتهم بالمخططات الالهية بسبب فضائلهم»[1].

شدّد يوسيفوس في النص أعلاه على موهبة التنبؤ لدى بعض الأسينيين، فروى قصة زعم أنها حصلت في عهد الملك هيرودس، فأعطى الانطباع بتواجد طائفة الأسينيين في ذلك الزمان الغابر.

وبالرغم من أن يوسيفوس كان قد وعد قرّاءه بالتحدث «بكل تفصيل» عن شيعة الأسينيين في كتاب «العاديات اليهودية»[2]، غير أن حديثه عنهم في ذلك الموضع جاء أكثر اقتضاباً وأقلّ تفصيلاً من النصّ الرئيس الذي سبق وأورده في كتاب «الحروب اليهودية». قال يوسيفوس:

«كان لليهود منذ زمن بعيد ثلاث فرق فلسفية تعكس عاداتهم القومية: الأسينيون والصدّوقيون واخيراً هؤلاء الذين يدعون فرّيسيّين. وبالرغم من أنني تحدثت عن هؤلاء في الكتاب الثاني من «الحروب اليهودية»، فإنني أورد أخبارهم في هذا المكان بقليل من الكلمات...»[3].

وبعد أن أوجز يوسيفوس عقيدتي الفريسيين والصدوقيين، تابع كلامه على الأسينيين قائلاً:

«...إن عقيدة الأسينيين هي أن لله مردّ الأمور. فهم يعتقدون ان النفس خالدة، وانه يجب السعي دون هوادة للحصول على ثمار البِرّ. وهم، عندما يرسلون إلى الهيكل ما يكرّسونه لله، لا يقدمون الذبائح لأن لديهم من التطهير ما هو أنقى وأفضل. ولهذا فإنهم يتجنّبون الدخول إلى صحن الهيكل، ويقدّمون قرابينهم على حدة. فضلاً عن ذلك، فهم أناس شرفاء، مولعون كلياً بأعمال الأرض. وهم يستحقون الإعجاب أكثر من جميع الباحثين عن الفضيلة، وذلك بفضل ممارستهم للبر، فلا يوجد لهم مثيل أبداً لدى شعوب الأغريق أو البرابرة... وأموالهم مشتركة بينهم جميعاً، فلا يستفيد الغني

١- JOSEPHE, *Ant. Jud.*, XV, x, 5.

٢- *Ibid.*, XV, x, 4.

٣- *Ibid.*, XVIII, i, 2, § 11.

من أمواله أكثر من الذي لا شيء عنده. ويبلغ عدد الذين يعيشون هذا النمط من الحياة أكثر من أربعة آلاف.

وهم لا يتزوجون أبداً ولا يسعون للحصول على عبيد، إذ يعتبرون أن أحد هذين الأمرين جائر والآخر مثير للخلاف. كما أنهم يعيشون متعاونين فيما بينهم. وينتخبون باليد المرفوعة أناساً أمناء من أجل جمع العائدات وغلاّت الأرض، كما يختارون كهنة لتحضير الطعام والشراب.»[1]

يمكن القول إن هذا النص هو اختصار لما ذكره يوسيفوس سابقاً عن الأسينيين. كما ان الشيء الجديد الذي أورده عنهم هو عددهم البالغ أكثر من أربعة آلاف شخص. والجدير ذكره أن فيلون اليهودي أعطى رقماً مماثلاً عن عددهم[٢].

ثالثاً- بلينوس الكبير وديون كريزوستوم

بلينوس الكبير كاتب لاتيني، وُلد سنة ٢٣ م. في مدينة «كوم» (Côme)، مقاطعة لمبارديا، إيطاليا، وتوفي سنة ٧٩ م. له مؤلفات عديدة في القواعد والعلوم، غير أن جميعها مفقود باستثناء «التاريخ الطبيعي» المصنّف في ٣٧ مجلداً، والذي يعتبر موسوعة في المعارف القديمة.

ذكر بلينوس في تاريخه الطبيعي (٥: ١٧،٤) نصاً مهماً عن الأسينيين، جاء تعريبه في «دائرة المعارف» كما يلي:

«إلى غربي البحيرة الأسفلتية، يقيم الأسّينيون بعيداً عن الشاطئ القتّال. هو شعب من أغرب الشعوب، يعيش منفرداً في صحبة النخل، لا نساء، ولا حبّ، ولا مال. إنما يتكاثر باطّراد، إذ تأتيه وفود الأعضاء، ممن أتعبتهم فرائض الحياة، أو حملتهم نوائب الدهر على الأخذ بهذا النوع من العيش. وهكذا، منذ ألوف الدهور، يبقى **شعبٌ أبديّ لا يولد فيه أحد**. فيا له من أمر غريب! وبفضلهم يزدهر زهد الآخرين بالحياة. وإلى أسفل منازل الأسّينيين كان موقع مدينة عين جدي، التي لم تقلّ عن أريحا خصب أرض وكثرة نخل، إلاّ أنها **أمست اليوم تلّة من الرماد**. ثم يبدو حصن مسّادة[٣]... في الجبل.

١- JOSEPHE, *Ant. Jud.*, XVIII, i, 5, § 18-22.

٢- PHILON, *Quod Omnis*, 75.

٣- المقصود قلعة مسعدة (Massada) التي تُشرف على الشاطئ الغربي الجنوبي للبحر الميت.

وهو أيضاً بعيد عن البحيرة الأسفلتية»[1].

أما «ديون كريزوستوم»، وهو خطيب وفيلسوف اغريقي عاش بعد بلينوس الكبير بفترة قليلة، فقد أثنى على الأسينيين، وأشار، وفقاً لما ذكره دوبون صومر، إلى أنهم يكوّنون مدينة كاملة ومزدهرة تقع بالقرب من البحر الميت، في قلب فلسطين، في مكان لا يبعد كثيراً عن سدوم[2].

وتدعم شهادتا «بلينوس الكبير» و«ديون كريزوستوم» نتائج أعمال التنقيب الأثرية في موقعي خربة قمران وعين فشخة الكائنين في الشمال-الغربي من ضفاف البحر الميت، اللذين شكّلا في حقبة من الزمن الموطن الرئيس لطائفة الأسينيين.

رابعاً- بورفير

وُلد «بورفير» (Porphyre) في صور سنة ٢٣٤ م. وتوفي في روما حوالى سنة ٣٠٥م. ينتمي هذا الفيلسوف إلى المدرسة الافلاطونية الحديثة التي نشأت في الاسكندرية. كان تلميذاً للفيلسوف أفلوطين ونصيراً للحضارة الهلنستية. كَتَب بورفير عن الأسينيين، لكن مؤلفاته ضاعت ولم يبقَ مما ذكره حول تلك الجماعة سوى نصّ أورده أوسابيوس القيصري في كتابه «التحضير الانجيلي»[3]. وقد أشار «طومسون» إلى أن جميع المعلومات المتعلّقة بالأسينيين والواردة في النصّ المذكور هي مقتبسة بكل بساطة عن يوسيفوس[4].

١- كميل افرام البستاني، «الأسّينيون»، دائرة المعارف، بإشراف فؤاد افرام البستاني، الجزء ١٢، بيروت، ١٩٧٧، ص ٣٦٩.

٢- A. DUPONT-SOMMER, *Les Ecrits ésséniens découverts près de la mer Morte,* p. 49.

٣- EUSEBE, *Prép. Ev.,* IX, 3, 1-21.

٤- J. E. H. THOMSON, «The Essenes», *The International Standard Bible Encyclopaedia,* vol. 2, Grand Rapids, Mich., 1960, p. 1000.

خامساً- هيبوليتس

مطران ولاهوتي روماني. وُلِدَ حوالى سنة ١٧٠م. وتوفي سنة ٢٣٥م. يُعتبر من أهم الشرّاح المسيحيين الأوائل للتوراة. تحدث هيبوليتس عن الأسينين في الكتاب العاشر (الفصول ١٣-٢٣) من مصنّفه «دحض جميع الهرطقات»، وهو نوع من موسوعة للفلسفات والمذاهب الدينية المعروفة في زمنه، وفيه نقض لضلال الهراطقة الذين ظهروا بعد نشوء المسيحية، وخاصةً البِدع اليهودية-النصرانية والغنوصية[1]. ويلاحظ أن ما ذكره هيبوليتس عن الأسينيين هو مقتبس من يوسيفوس. ذلك أنه لم يأت بشيء جديد بخصوصهم سوى ما ذكره عن إيمانهم بقيامة الأجساد وباقتراب مجيء المسيّا، أضف الى ذلك انقسامهم، مع مرور الزمن، إلى أربع مِلل يجمع بينها قاسم مشترك، ألا وهو التعصّب للشريعة. فهناك مِلّة يرفض أعضاؤها استعمال النقود بسبب وجود رسوم عليها، فكانوا يعتبرون التداول بها موافقة على عبادة الاصنام. وكان هؤلاء، عند دخولهم إلى مدينة ما، يتحاشون المرورَ عِبر الباب الذي نُصِبت فوقه تماثيل، معتبرين ذلك خرقاً لأحكام الشريعة. وكان أعضاء ملّة ثانية يُلزِمون كلَّ متحدّث عن الله أو شرائعه أن يكون مختوناً، فإن صدف وتبيّن لهم غير ذلك، راقبوه حتى يصير في مكان منعزل، ثم انقضّوا عليه وأجبروه على الاختتان بحد السيف، فإن رفض ذبحوه. وقد اعتقد هيبوليتس ان الزيلوت والاسخريوطيين[2] ينتمون إلى هذه الفئة. أما الملّة الثالثة فلا يعترف أعضاؤها إلاّ بسيّد واحد هو الله. وكانوا لا يتراجعون عن موقفهم هذا حتى ولو أُخضعوا للعذاب حتى الموت. وهناك جماعة نشأت في مرحلة متأخرة بعد انحراف اعضائها عن الأنظمة والقواعد المتّبعة، فكان من حافظ على التقاليد والسنن القديمة يتجنّب هؤلاء، وإن لامسهم صدفةً، سارع إلى إلتطهّر

١- الغنوصية هي مذاهب توفيقية تستمد عقائدها من ديانات وفلسفات مختلفة، وتسعى لتحقيق خلاص الإنسان عن طريق المعرفة.

٢- الزيلوت هم أعضاء حزب يهودي أصولي مناوئ للرومان، أسسه يهوذا الجليلي سنة ٦ م. أما الأسخريوطيون، فهم من الزيلوت الأكثر تطرفاً، الذين مثّلوا دوراً مهماً في الحرب اليهودية الكبرى ضد روما (٦٦-٧٠ م.) وقد دُعوا بهذا الأسم نسبة الى الخناجر الصغيرة (Sicarii) التي كانوا يغتالون بها أخصامهم.

كما لو أنه تنجّس بملامسة غرباء. وقد أشار هيبوليتس إلى وجود جماعة أخرى من الأسينيين الذين حافظوا على العقائد والأنظمة ذاتها، ولم يختلفوا عن سواهم سوى لناحية رأيهم بالزواج. فكانوا يتزوجون في سبيل المحافظة على النسل فقط.

سادساً- إبيفانس

وُلد في فلسطين حوالى سنة ٣١٥ م. وتوفي سنة ٤٠٣ م. عُيِّن مطراناً على مدينة كونستانسيا في قبرص. يُعتبر إبيفانس من معلّمي الكنيسة اليونانية. له كتاب يُدعى «ضد الهرطقات» (Adversus Haereses)، تحدث فيه عن المذاهب المعروفة في عصره، ومنها شيعة الأسيين (Essenos) وشيعة الأوسيين (Ossenos)[١]. ويتبيّن مما ذكره إبيفانس حول هاتين الجماعتين أنه لم يكن يتحدث عن الأسينيين الذين انقرضوا تدريجياً كجماعة منظّمة بعد الحرب اليهودية الكبرى ضد الرومان، بل تناول ما تبقّى لهم من أثر في بعض الشيع السامرية والمذاهب اليهودية-النصرانية الهرطوقية على مثال «السامبسيين»، الذين كانوا يسكنون في عبر الاردن. ويذكر إبيفانس أن اسمهم يعني «شمسيين»، ويشبّههم «بالعَظاية الشمسية» التي تختبئ في تجويف من الأرض يتجه نحو الشرق ترقباً «لشروق الشمس»[٢]. ويبدو أن هذا التهكّم متأثر بما ذكره يوسيفوس عنهم لناحية توجيه أبصارهم نحو الشرق انتظاراً لشروق النيّر الأعظم.

وبشكل عام، تُعتبر آراء إبيفانس حول الأسينيين شديدة الغموض وتنقصها الدقّة، وهي، كما يقول «موفات»، «قليلة القيمة»[٣].

١- EPIPHANE, «Adversus Haereses», *P.G*, Excudebatur et Venit Apud J.-p. Migne Editorem, tomus XLI, Parisiis, 1863, p. 231-234 et 259-262.

٢- **الرؤى المنحولة**، ترجمة اسكندر شديد، (الكنيسة في الشرق -١٠-)، منشورات دير سيدة النصر، نسبيه-غوسطا، ١٩٩٩، ص ٢٦٤.

٣- J. MOFFATT, «The Essenes», *The Encyclopaedia of Religion and Ethics*, vol. 5, New York, 1955, p. 399.

الفصل الرابع

نقد الأصول والمصادر

أولاً- مخطوطات البحر الميت

كانت المهمة الأولى للباحثين، حين اكتشاف مخطوطات البحر الميت، التأكد من صحّتها. وقد ساهم علم الباليوغرافيا، الذي يهتم بتطوّر شكل الكتابة عبر العصور، بتأكيد أصالة تلك المخطوطات وقِدَمِها. كما ساهم علم الآثار في هذا الموضوع بحيث جاءت نتائج الحفريات الأثرية التي أجريت في خربة قمران والمغاور المجاورة لتؤكد واقعة إخفاء المخطوطات في المغاور إبّان الحرب اليهودية الكبرى، أي سنة ٦٨م. إضافة إلى ذلك فقد أجرى البروفسور «ليبي» (Libby) من معهد الدراسات النووية في شيكاغو، دراسة على قطعة من القماش الكتاني كانت تغلّف إحدى المخطوطات، وذلك عن طريق فحصها بواسطة الكاربون ١٤ من أجل تحديد عمرها. فجاءت النتيجة ان القماش صنع سنة ٣٣م. علماً ان معدّل الخطأ كان يتراوح بين ٥ و ١٠ بالمئة[1]. وبفضل التقدّم العلمي والتقني، أُجريت اختبارات أخرى بواسطة الكاربون ١٤ في أريزونا سنة ١٩٩٧ على ست فتائت كان يعتبرها علماء الباليوغرافيا من الحقبة الحشمونية، فتبين أنها تعود على الأرجح إلى الحقبة الهيرودية التالية، كما وأن أربعة منها تعود إلى الحقبة الهيرودية بشكل مؤكد[2]. وهذا يعني ان علم الباليوغرافيا ليس متطوراً بشكل كاف بالنسبة إلى دراسة الكتابات السامية القديمة حتى زمننا الحاضر، كما وأن طريقة الكاربون ١٤ تعطي نتائج تقريبية ولا تقدّم النتيجة الحاسمة، خاصةً عندما يتطلب الأمر دقة متناهية في معرفة الزمن الفعلي الذي كُتبت فيه مخطوطة معيّنة.

١- BURROWS, *Manuscrits,* p. 94.

٢- R. van der WATER, «Reconsidering Paleographic and radiocarbon dating of the Dead Sea Scrolls», *RQ,* n° 75 (2000), p. 424.

وتكمن أهمية مخطوطات البحر الميت في أنها أقرب إلى الحقيقة التاريخية، لأن الأصول هي أكثر صدقاً وواقعية من المصادر، كما وأن هذه الأخيرة كُتبت على أيدي أشخاص من خارج الجماعة. والجدير ذكره أن جماعة قمران هي باطنية، لأن أسرارها لم تكن تُعطى إلاّ للمنتسبين اليها، وعلى مراحل. لذلك فإن المصادر المعروفة لا تعكس إلاّ ظواهر الأمور فيما يخصّ جماعة الأسينيين. والدليل على ذلك أن مخطوطات البحر الميت تؤكد أصولية أصحابها وكرههم للغريب المحتلّ، في حين أن مؤلفات فيلون وبلينوس الكبير ويوسيفوس، وهي من أهم المصادر الكلاسيكية وأقدمها عن الأسينيين، لا تشير بشكل صريح إلى تلك المواضيع، بل بالعكس فهي تشدّد على الطابع السلمي الذي اشتهر به هؤلاء وعلى احترامهم لأصحاب السلطة.

وتجدر الإشارة إلى المشكلة التي عانى منها الاختصاصيون عند محاولتهم فرز تلك الكميات الضخمة من فتائت المخطوطات وإعادتها إلى نصوصها الأصلية. فالعمل على الفتائت العائدة للأسفار التوراتية لم يجد صعوبةً تذكر، إذ كان من السهل تحديد السياق الذي تنتمي إليه تلك النصوص، نظراً لتوفّر بعض المراجع التي تحتوي على لائحة ألفبائية تشمل الكلمات الواردة في التوراة وتحدد مواضع ورودها. وكان من السهل أيضاً تحديد هوية فتيتة تعود إلى كتاب مفقود في لغته الأصلية، أكانت العبرية أم الآرامية، وذلك عند توافر ترجمات للكتاب عينه في لغات قديمة أخرى، كما هو الحال بالنسبة إلى كتابي أخنوخ واليوبيلات. غير ان العمل كان أكثر صعوبة في ما يتعلق بالفتائت المبعثرة الاخرى التي تشكل غالبية مخطوطات المغارة الرابعة، والعائدة إلى نصوص مجهولة في لغتها الأصلية وغير مترجمة إلى اللغات القديمة المعروفة. فقد شكّل هذا الأمر صعوبة كبيرة عند إعادة تجميع تلك النصوص، لأن العمل كان يتطلب جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً، إضافة إلى النتيجة غير المؤكدة لناحية إعادة النص إلى ما كان عليه سابقاً[١].

١- André PAUL, *Les manuscrits de la mer Morte,* Paris, 2000, p. 32.

ثانياً - المصادر الكلاسيكية

إن الفكرة التي كوّنها أهل العلم والمعرفة عن الأسينيّين من خلال المصادر الكلاسيكية، تسبق بما يقارب التسعة عشر قرناً المعطيات التي قدّمتها بخصوصهم الأصول المكتشفة في مغاور قمران منذ نصف قرن ونيّف، بحيث أن الفكرة المسبقة المتكوّنة عن الأسينيين منذ العصور القديمة أثّرت جداً في الدراسات القمرانية. ولا بد من إيراد بعض الملاحظات حول المصادر التي اعتمدنا عليها في هذا الكتاب، وهي التالية:

١- فيلون الاسكندري

تناول فيلون الاسكندري موضوع الأسينيين بالتفصيل في كتاب «كل فاضل هو حر» وكرّس لهم قسماً مهماً منه. وقد أثار الباحثون في أواخر القرن التاسع عشر موضوع أصالة هذا الكتاب وصحة نسبته إلى فيلون، لكن يبدو، وفقاً لما ذكرته «بوتي» في مقدمتها لكتاب فيلون المذكور، أن كفّة الباحثين المؤيدين لأصالته رجحت، ولا يوجد في الوقت الحاضر أي شك حول هذا الموضوع[1]. وتجدر الإشارة إلى أن أوسابيوس القيصري نقل في كتابه «التحضير الانجيلي»[2]، النص الخاص بالأسينيين الذي ذكره فيلون في كتابه «كل فاضل هو حر». ويُعتبر هذا النص أقدم مصدر حول الطائفة المذكورة، وهو من النصوص الرئيسة التي اعتمدنا عليها في هذا الكتاب.

خصّص فيلون أيضاً نبذة قصيرة عن الأسينيين في كتابه المفقود المسمّى «الدفاع عن اليهود»، أوضح فيها بعض الأمور المتعلقة بهم. وقد أورد أوسابيوس القيصري تلك النبذة في كتابه «التحضير الانجيلي»[3].

وصف فيلون جماعة الأسينيين كمدرسة فلسفية في كتابه «كل فاضل هو حر». واعتبر أن تمرّسهم في علم الاخلاق ودراستهم كتب الشريعة يشكلان جزءاً مهماً من تعاليمهم الفلسفية. فهم يطالعون باستمرار كتب الشريعة

١- Cf. Madeleine PETIT, introduction à PHILON, *Quod Omnis,* p. 24.

٢- EUSEBE, *Prép. Ev.,* VIII, 12, 1-22.

٣- *Ibid.,* VIII, 11, 1-19.

والأنبياء وغيرها من الكتب المقدسة الخاصة بهم؛ ويتشددون في تطبيق الشريعة، فيمتنعون عن العمل في السبوت ويجتمعون في «الكُنُس» للاستماع إلى الشروحات التي تفسّر ما عَسُر فهمه من رموز الشريعة. ومن المعلوم أن الوثنيين في ذلك الزمان اشتهروا بتهكّمهم من السبت المقدس عند اليهود، فردّ فيلون الاعتبار لذلك اليوم بأن جعله مكرساً للفلسفة لدى الأسينيين. ولعلّ التهمة الرئيسية التي كان يوجهها الوثنيون ضد اليهود هي كرههم للمجتمع الانساني وحقدهم على البشر؛ غير أن فيلون دحض تلك التهمة من خلال وصفه لنمط حياة الأسينيين القائم على البر والفضيلة والتعاون والعيش المشترك، ما يدلّ بنظره على محبتهم للانسان. وهكذا تمكن هذا الفيلسوف، بفضل براعته وحذاقته، من الدفاع عن اليهود بشكل عام دون أن يذكرهم بالاسم. ولهذا يشكّل ما ذكره عن الأسينيين في كتاب «كل فاضل هو حر»، نصّاً دفاعياً، لأنه لا يقدّم سوى معلومات قليلة عن مؤسسات تلك الجماعة وعقائدها وتاريخها.

وقد ذكر فيلون في كتابه «الدفاع عن اليهود»، أن الأسينيين كانوا يسكنون عدداً «من مدن اليهودية»[1]. فخالف ما سبق وذكره عنهم في مبحثه السابق «كل فاضل هو حر» عندما أكّد أنهم «يسكنون القرى ويهجرون المدن»[2]. فكيف يمكن تعليل هذا التناقض؟

إن ما ذكره فيلون في نصّه الأول عن الأسينيين وإيثارهم السكن بعيداً عن ضوضاء المدينة وحياتها الاجتماعية الفاسدة هو كلام صحيح لأنه يتوافق مع مضمون كتاب «كل فاضل هو حر» حيث شدّد فيلون على الحكمة التي تميّز بها الأسينيون، وأكّد أن الحكماء «يهربون من حياة المدن المؤذية»[3]. وباعتقادنا أن هذا الخلاف حول مضمون فكرة واحدة وردت في نصّين مختلفين لكاتب واحد، لا يدلّ على خطأ ارتكبه الكاتب، بل يعني حصول تبدّل في نمط حياة الأسينيين الاجتماعية. ويُلاحظ هذا التطوّر الاجتماعي أيضاً في مخطوطات

١- EUSEBE, *Prép. Ev.*, VIII, 2, 1-3.

٢- PHILON, *Quod Omnis*, 76.

٣- *Ibid.*, 63.

البحر الميت التي تثبت أن انتقال جماعة قمران إلى البرية[١]، أي الى موقع قمران، شكّل المحطة الاولى من تاريخهم. أما واقعة انتشارهم في قرى فلسطين ومدنها حيث كانوا يعيشون في أخويات لا يقلّ عدد اعضائها عن عشرة أشخاص[٢]، فتُعتبر المحطة التالية من تاريخهم. علماً أن الإشارة إلى هذا الواقع المستجدّ لا ترد إلاّ في المخطوطات التي كُتبت في مرحلة متأخرة.

لقد تجاهل فيلون تحديد زمن نشأة طائفة الأسينيين، غير أنه ذكر في «الدفاع عن اليهود» عبارة واحدة تحمل بُعداً تاريخياً جاء فيها: «وهكذا يُحسد هؤلاء على نمط حياتهم ليس فقط من قِبَل الأفراد بل أيضاً من قبل ملوكٍ كبار...»[٣]، فحافظ بذلك على أسلوبه المبهم الذي يخلو من أدلّة تثبت تجذّرهم في التاريخ، وهو أسلوب اعتمده بحذاقة في مبحثه الأول عن الأسينيين حين عبّر عن عراقتهم في التاريخ من خلال التلميح إلى شهادات الاستحسان والتقدير الصادرة بحقهم من قبل الحكام الذين تعاقبوا على حكم فلسطين عبر العصور[٤].

أما بخصوص معرفة الزمن الذي كتب فيه فيلون مبحثيه المشار اليهما أعلاه عن الأسينيين، فقد ذكرت «مادلين بوتي» أن فيلون ألّف كتاب «كل فاضل هو حر» في مطلع شبابه في حين أنه انتهى من تأليف كتاب «الدفاع عن اليهود» في شيخوخته[٥]. وباعتقادها أنه عندما أشار فيلون في مقدمة «الحياة التأملية»، إلى أن كتابه هذا يشكل القسم الثاني لموضوع يتعلّق بمحبّي الحياة التأملية، سَبَق أن تناول في قسمه الأول موضوع الأسينيين[٦]، فقد كان يقصد النصّ الذي كتبه عن الأسينيين في «الدفاع عن اليهود» وليس النصّ المتعلّق بهم الوارد في كتاب «كل فاضل هو حر».

١- 1QS, VIII, 13-14.

٢- 1QSa, II, 22; CD-B, XIII, 2.

٣- EUSEBE, *Prép. Ev.*, VIII, 11, 18.

٤- PHILON, *Quod Omnis,* 89-91.

٥- Madeleine PETIT, introduction à PHILON, *Quod Omnis,* p. 27 et 105.

٦- PHILON, *De Vita,* 1.

لكن هذا الرأي بعيد عن الحقيقة للأسباب التالية:

١- يتوافق النص المتعلّق بالأسينيين في كتاب «كل فاضل هو حر» من حيث حجم مادته الكتابية مع النص الذي كتبه فيلون عن الثيرابوتيين، في حين أن النص المتعلّق بالأسينيين في «الدفاع عن اليهود» هو أصغر حجماً.

٢- من جهة ثانية، نرجّح أن الفترة الزمنية الفاصلة بين تأليف كتابي «كل فاضل هو حر» و«الدفاع عن اليهود» لا تزيد عن سنوات معدودة، لأنهما يشكلان دفاعاً عن اليهود بشكل عام، ويتوافق زمن نشر أولهما مع بروز فيلون على المسرح السياسي كمدافع عن بني قومه بعد تأزّم العلاقة بين روما واليهود في عهد الإمبراطور كاليغولا (٣٧-٤٠ م.). والجدير ذكره أن فيلون شدّد على موضوع الحرية بالنسبة إلى الأسينيين في كتابه «الدفاع عن اليهود»، فذكر مثلاً أنهم «تحرروا من الشهوات وانتظموا بحرية متماسكة. وتشهد حياتهم على تلك الحرية...». ثم أضاف قائلاً: «أما الزوج المتيّم... فيتحوّل دون ان يدري إلى إنسان آخر منتقلاً من الحرية إلى العبودية»[1]. ومن المعروف ان الحديث عن الحرية يشكل موضوع المبحث السابق، أي «كل فاضل هو حر»، ما يعني أن كتاب «الدفاع عن اليهود» يشكّل امتداداً فكرياً للمبحث السابق الذي يعالج الموضوع عينه، ولا يمكن في هذه الحالة أن تفصل بين النصّين فترة زمنية طويلة.

٣- ذكر أوسابيوس القيصري أن فيلون ألّف خمسة كتب تحدث فيها عن مصائب اليهود، وبشكل خاص يهود الاسكندرية، في عهد الإمبراطور غايوس قيصر (٣٧-٤١م). حفظ التاريخ من هذه الكتب إثنين، هما «الرد على فلاكوس» و«البعثة الى غايوس». وقد شدّد أوسابيوس على أن «مصائب اليهود حلّت بهم بعد وقت وجيز من أعمالهم الجريئة ضد المسيح وبسببها»[2]، ما يعني أن السياق التاريخي العائد لمؤلفات فيلون التي كتبها دفاعاً عن اليهود، يقع ضمن الفترة اللاحقة لنشوء المسيحية. وبرأينا أن ما كتبه فيلون حول الأسينيين، يندرج أيضاً ضمن تلك الحقبة، لأنه يُعتبر دفاعاً غير مباشر عن

١- EUSEBE, *Prép. Ev.*, VIII, 11, 17.

٢- EUSEBE, *H. E.*, II, 5, 1 et 6.

اليهود بشكل عام.

٤- الرأي السائد هو أن فيلون وُلد حوالى سنة ١٣ ق.م. وتوفي بين سنتي ٤٥ أو ٥٠ م. تقريباً[1]. غير أن المصادر القديمة لا تأتي على ذكر زمن وفاته بشكل دقيق، ما يعني أن تاريخ وفاته هو أمر مفترض ينقصه الاثبات. وقد ورد في كتاب «تاريخ يوسيفوس اليهودي» أن الفيلسوف فيلون سُجن في روما في عهد نيرون قيصر، ثم حرّره الامبراطور غلبا (٦٨-٦٩م.) بعد تربعه على العرش[2]، فمن المحتمل إذاً أن تكون وفاة فيلون حصلت بعد سنة ٦٨ م. وليس قبل ذلك التاريخ.

٢- يوسيفوس

ألّف يوسيفوس عدداً من الكتب باللغة اليونانية تحدث في ثلاثة منها عن الأسينيين، وهي التالية: «الحروب اليهودية» - «العاديات اليهودية» - «سيرة حياة».

يتألف مصنّف «الحروب اليهودية» من سبعة كتب صدر أولها سنة ٧٥ م. تقريباً وآخرها في عهد الإمبراطور دوميتيان (٨١-٩١م.). خصّص يوسيفوس في كتابه المذكور نصّاً مطوّلاً عن الأسينيين تضمّن معلومات مفصّلة عن حياتهم الاجتماعية وبعض عقائدهم وطقوسهم. وقد أدرج النص المذكور في القسم الذي خصصه للكلام على تاريخ اليهود زمن الاحتلال الروماني في مطلع القرن الميلادي الأول. فأثناء حديثه عن الاضطرابات التي حصلت في فلسطين بُعيد إقصاء أرخلاوس بن هيرودس الكبير عن الحكم وقيام يهوذا الجليلي بانتفاضته ضد روما سنة ٦ م.، أشار يوسيفوس إلى أن يهوذا المذكور «هيّج الشعب بقوله إنه من العار الموافقة على دفع الضرائب للرومان والاعتراف بهم، إلى جانب الله، كأسياد دنيويين. وقد أسس [يهوذا] مِلّة خاصة لا علاقة لها بباقي المِلل...»[3]. واتخذ يوسيفوس من هذه العبارة مدخلاً، ليس للحديث عن حزب «الزيلوت»، أي الغيورين على الشريعة، الذي

١- J. E. MENARD, «Philon d'Alexandrie», *DBS,* tome 7, Paris, 1966, p. 1288.

٢- يوسيفوس، **تاريخ يوسيفوس اليهودي**، ص ٢١٦.

٣- JOSEPHE, *Guerre,* II, viii, 1, §118.

أسسه يهوذا الجليلي، بل ليستطرد ويتكلم على المدارس الفلسفية اليهودية الثلاث المعروفة في عصره، أي الأسينيين والفريسيين والصدوقيين. غير أنه خصّص معظم حديثه للكلام على طائفة الأسينيين، وترك سطوراً قليلة للحديث عن الفريسيين والصدوقيين، فبدا كلامه على الطوائف اليهودية المعاصرة له مقحماً على النص لأنه يقطع تسلسل الأفكار، وبخاصةٍ أنه عاد بعد ذلك لمتابعة كلامه السابق على ما حصل في «اتنارخية» أرخلاوس بعد إقصائه عن الحكم[1].

فمن المحتمل إذاً أن يكون يوسيفوس كتب النص المتعلق بالأسينيين على شكل نصّ مستقل. وعندما شرع بكتابة «الحروب اليهودية»، بعد سنوات معدودة من نهاية الحرب اليهودية الكبرى ضد الرومان، رغب في أن يضيف ذلك النص الى كتابه بغية إعلام معاصريه الناطقين باليونانية أن معظم الشعب اليهودي كان يميل الى السلام وإلى احترام أسياده الرومان، ومنهم تلك الملّة اليهودية المعروفة بالأسينيين، التي شدّد يوسيفوس على ابراز طابعها السلمي المرتكز على المحبة واحترام الانسان والشرائع الالهية. علماً أنه شبّههم في موضع آخر من مؤلفاته بإحدى الفرق الفلسفية اليونانية المعروفة في عصره، أي الفيثاغورية[2].

من جهة أخرى، يتميّز النص الرئيس المتعلق بالأسينيين، الوارد في كتاب «الحروب اليهودية»، بوجود خاتمتين فيه. تشكل الأولى خاتمة النص (أ)[3]، وقد جاء فيها ما يلي: «هذه هي التعاليم الدينية لطائفة الأسينيين التي تشكل جاذباً لا يمكن مقاومته لمن تعرّف مرة واحدة الى حكمتهم». أما النص (ب)[4] الذي أُضيف إلى النص (أ) في زمن لاحق، فقد جاء في خاتمته ما يلي: «تلك هي عادات هذه الفرقة من الأسينيين».

عند مقارنة النص (أ) المشار اليه أعلاه مع غيره من المصادر المعاصرة في القرن الميلادي الأول، يتبين ما يلي:

١- JOSEPHE, *Guerre,* II, ix, 1.
٢- JOSEPHE, *Ant. Jud.,* XV, x, 4.
٣- JOSEPHE, *Guerre,* II, viii,1-11.
٤- *Ibid.,* II, viii, 12-13.

١- هناك تقارب بين مضمون النص (أ) وما ذكره كلّ من فيلون وبلينوس الكبير عن الأسينيين لناحية إيثارهم البتولية وإهمالهم الزواج.

٢- أكّد يوسيفوس أن الأسينيين يقبلون الأولاد في صفوفهم فخالف ما ذكره فيلون حول هذا الموضوع بقوله إن هؤلاء لا يقبلون الأطفال أو الفتيان أبداً عندهم نظراً لعدم استقرار طباعهم[١]. وتجدر الاشارة إلى ان هذا التناقض بين المصدرين لا يدلّ على خطأ أحدهما، بل على تطوّر وتبدّل في نمط الحياة الاجتماعية لدى الأسينيين. ويلاحظ هذا التطوّر من خلال مقارنة مخطوطة «نظام الجماعة» بتلك التي تُدعى «ملحق نظام الجماعة» حيث لا نجد في الأولى إشارة إلى الاولاد، في حين ان الثانية، التي كُتبت في مرحلة لاحقة، تشير بوضوح إلى أولاد الأعضاء، وتؤكد التحاقهم بميليشيات خاصة في وسط عشائرهم، استعداداً لدخولهم إلى الجماعة عند بلوغهم الخامسة والعشرين من العمر[٢].

٣- ذكر يوسيفوس أن الأسينيين كانوا ينصرفون صباحاً إلى أعمالهم ويعودون قبل منتصف الظهر بقليل من أجل التطهر والمشاركة بالمأدبة المقدسة[٣]. ثم ينصرفون مجدداً الى أعمالهم ويرجعون عند الغروب للمشاركة مرة ثانية في المأدبة المقدسة التي تقام بعد عودتهم من أعمالهم[٤]، فخالف بذلك ما ذكره فيلون الذي أشار إلى أن الأسينيين كانوا يلتحقون بأعمالهم قبل طلوع الشمس ولا يعودون حتى المساء[٥].

٤- لا يشير النص (أ) الى موهبة التنبؤ لدى الأسينيين فيتفق من هذه

١- EUSEBE, *Prép. Ev.*, VIII, 11, 3; JOSEPHE, *Guerre*, II, viii, 2, §120.

٢- 1QSa, I, 4 et 12-13.

٣- JOSEPHE, *Guerre*, II, viii, 5, §129.

٤- *Ibid.*, II, viii, 5, §132.

٥- EUSEBE, *Prép. Ev.*, VIII, 11, 6.

ربما يعود التباين بين موقفي يوسيفوس وفيلون حول هذا الموضوع الى اعتقاد هذا الأخير بوجود علاقة بين الأسينيين و«الثيرابوتيين»، وهم جماعة يهودية معاصرة للأسينيين، كانت تعيش خارج فلسطين في مستعمرة تقع بالقرب من مدينة الاسكندرية. وكان الثيرابوتيون يعيشون حياة تزهد وتنسّك، وربما تأثروا بالعقائد الثنائية فاعتبروا أنفسهم من أبناء النور، إذ كانوا يرجئون تناول الطعام حتى المساء لاعتقادهم أن «حاجات الجسد خليقة بالظلام» (PHILON, *De Vita*, 34.).

الناحية مع المصادر العائدة لفيلون الاسكندري وبلينوس الكبير.

٥- يتفق يوسيفوس مع فيلون لناحية التشديد على الطابع السلمي لطائفة الأسينيين لكنه يخالفه لناحية حملهم السلاح أثناء تنقلاتهم، معلّلاً ذلك بخوفهم من اللصوص. أما فيلون فيؤكد عدم اقتنائهم أدوات الحرب ويشدّد على امتناعهم عن ممارسة الصناعات المرتبطة بها. وبرأينا أن ما ذكره يوسيفوس يدل على تطوّر في حياة الأسينيين وسلوكهم فرضته الظروف الراهنة في فلسطين في الفترة التي سبقت الحرب اليهودية الكبرى مباشرة، وذلك بسبب تعاظم الفوضى وأعمال اللصوصية. كما تجدر الاشارة أيضاً الى أن النص (أ) يحتوي على إشارة تاريخية تؤكد وجود دور معيّن مثّله الأسينيون خلال تلك الحرب، إذ يشير يوسيفوس الى التعذيب الجسدي الذي مارسته القوات الرومانية على الأسينيين الذين وقعوا في قبضتهم، فقد آثر هؤلاء الموت على مخالفة شرائعهم وعقائدهم[1].

أما النص (ب) فيدور حول الموضوعين التاليين:

١) موهبة التنبؤ التي تجلّت لدى الأسينيين من خلال اطّلاعهم المتكرر على النصوص التوراتية. وهذه الصفة ثابتة أيضاً لدى جماعة قمران بفضل النصوص التفسيرية المتعددة لأسفار التوراة والأنبياء، كما انها تندرج في السياق التاريخي الممهّد للحرب اليهودية الكبرى، وبخاصةٍ في المرحلة الأخيرة منه، حين كَثُرت التنبؤات المتعلقة بمجيء المسيّا[2]. وبرأينا أن سبب تجاهل كل من فيلون الاسكندري وبلينوس الكبير لذكر موهبة التنبؤ لدى الأسينيين هو أن مصادرهما تنتمي إلى المرحلة الأولى من السياق التاريخي المذكور أعلاه.

٢) وجود جماعة ثانية من الأسينيين توافق على الزواج حفاظاً على النسل، وهذا الأمر يتناقض مع مضمون النص (أ)[3] ويخالف ما ذكره كل من فيلون

١- JOSEPHE, *Guerre,* II, viii, 10, § 152-153.

٢- JOSEPHE, *Ant. Jud.,* XX, 8, 6; Id., *Guerre,* II, xiii, 4-5; VI, v, 4, § 312.

٣- أكد يوسيفوس في كتاب «العاديات اليهودية» الذي نشره بعد «الحروب اليهودية» بسنوات عديدة، أن الأسينيين لا يتزوجون أبداً، (JOSEPHE, *Ant. Jud.,* XVIII, i, 5 § 21)، ولم يذكر أبداً وجود جماعة أخرى من الأسينيين توافق على الزواج. وهذه الواقعة تدعم رأينا القائل بأن النص (أ) كان نصاً مستقلاً، وقد جرى ضمّ النص (ب) إليه في مرحلة لاحقة.

وبلينوس الكبير. كما أنه يعكس تطوّراً مهماً في الناحية الاجتماعية لدى تلك الجماعة في هذه المرحلة الفاصلة من تاريخها. وتجدر الإشارة الى أن النصوص التي تلمّح الى تواجد المرأة والأولاد في جماعة قمران ترد أيضاً في المخطوطات التي كُتبت في مرحلة متأخرة.

أما كتاب «سيرة حياة» الذي ألّفه يوسيفوس حوالى سنة ٩٦ م. تقريباً، فقد عرض فيه المؤلف نبذة قصيرة عن حياته مهّد بها لكتابه الذي يمكن اعتباره نبذة دفاعية رداً على الاتهامات التي وجهها «يوستوس»، وهو أحد أعيان مدينة طبرية، ضد الأعمال التي قام بها يوسيفوس في الجليل، عندما كان حاكماً على المنطقة الشمالية من فلسطين في بداية الحرب اليهودية. وكان «يوستوس» قد نشر كتاباً حول تاريخ الشعب اليهودي منذ النبي موسى حتى وفاة الملك اغريبا الثاني (حوالى سنة ٩٣م.)، ضمّنه تلك الاتهامات. وتعود أهمية كتاب «سيرة حياة»، إلى ما أكّده يوسيفوس حول تقرّبه من شيعة الأسينيين في مطلع شبابه وتعمّقه بدراسة المذاهب اليهودية المعاصرة له، وهذا ما يضفي أهمية خاصة على النصوص التي كتبها حول الأسينيين.

والجدير ذكره أن يوسيفوس لم يُشِر أبداً في ما كتبه عن الأسينيين، إلى إحدى الشخصيات المهمّة عندهم، نعني بذلك «معلّم البِرّ»، مؤسس الطائفة المذكورة. وهذا ما يضع علامة استفهام حول تجرّده وموضوعيته.

٣- تاريخ يوسيفوس اليهودي

تحتفظ المكتبة العربية بكتاب مطبوع في بيروت سنة ١٨٧٢ تحت عنوان «تاريخ يوسيفوس اليهودي»، جاء في مقدمته أن صاحبه هو يوسيفوس بن كربون اليهودي، والمقصود بذلك يوسيفوس، المؤرخ اليهودي المعروف. وبالفعل، فإن صاحب الكتاب يوازي نفسه بيوسيفوس وذلك من خلال تأكيده أن يوسيفوس بن كربون هو الذي انتُخب قائداً على طبرية والجليل في بداية الحرب اليهودية الكبرى[1]، وهي المهمّة ذاتها التي أوكلت إلى يوسيفوس بن متّيا، أي فلافيوس يوسيفوس.

١- يوسيفوس، **تاريخ يوسيفوس اليهودي**، ص ٢٢٩ و ٢٣٠.

يبلغ عدد صفحات «تاريخ يوسيفوس اليهودي» (الطبعة العربية) ما مجموعه ٣٣٤ صفحة من الحجم الصغير (١٩ × ١٢ سم.) وهو مقسّم إلى ثمانية فصول. يبدأ الكاتب في الفصل الأول بذكر آدم ونسله، ثم يتناول قبائل بني يافث والمواضع التي سكنوا فيها، ويخصّص نبذة عن تاريخ روما وأسطورة بنائها والملوك الذين تعاقبوا على الحكم فيها. ثم يتحدث بإيجاز عن الكلدانيين والفرس وفتوحات الاسكندر المقدوني، وينهي أخباره بنقل كتب الشريعة من العبرية إلى اليونانية في عهد بطليموس فيلدلفيوس (٢٨٣-٢٤٦ ق.م.). وفي الفصول الثاني والثالث والرابع والخامس، يتناول الكاتب تاريخ اليهود منذ بداية الحرب المكابية حتى نهاية عهد الملك هيرودس الكبير. كما يخصص الفصول الثلاثة الأخيرة لعرض تاريخ اليهود منذ عهد ارخلاوس بن هيرودس حتى نهاية الحرب اليهودية الكبرى ضد روما. والجدير ذكره أنه باستثناء الفصل الأول من «تاريخ يوسيفوس اليهودي»، فإن الفصول الباقية موازية لناحية الموضوع مع مصنف «الحروب اليهودية» الذي نشره المؤرخ اليهودي يوسيفوس باللغة اليونانية.

ورد في اسفل الصفحة ١٢٣ من الطبعة العربية، بعد الحاشية المكرّسة أصلاً لشرح بعض المعلومات عن مدينة أريحا، تعليق أُضيف عند صدور طبعة (١٨٧٢) العربية التي نحن بصددها، ذكر فيه صاحبه ما معناه أن بعض العلماء الذين تسنّى لهم الاطلاع على النسخة المعرّبة قبل طبعها، اعتقدوا أن «تاريخ يوسيفوس اليهودي» معرّب عن اصل عبري مُقتبس بدوره من كتاب يوسيفوس الصادر باللغة اليونانية (والمقصود كتاب الحروب اليهودية). وباعتقاد هؤلاء أن اليهود نقلوا من الكتاب الأخير ما وافقهم بعدما حذفوا أكثره[١].

وقد ورد أيضاً في مجلة «المشرق» تعليق حول الطبعة العربية لتاريخ يوسيفوس اليهودي، جاء فيه ما يلي:

«ليوسيفوس الكاتب اليهودي الشهير تاريخان واسعان في اليونانية دعا الأول العاديات اليهودية والثاني الحرب اليهودية ضمّنهما أخبار أمّته منذ أصلهم الاول إلى

١- يوسيفوس، تاريخ يوسيفوس اليهودي، ص ١٢٣.

فتح الرومان لمدينة اورشليم... وقد سعى كثيرون بتلخيصهما ونقلهما إلى لغاتهم فمن جملة ذلك ترجمة عربية ليست بالبليغة لا يعرف معرّبها والظاهر انه من كتبة القرون الأخيرة. ومن هذه الترجمة المختصرة عدّة نسخ مخطوطة كثرت فيها الأغلاط. وقد طبعت طبعة اولى في بيروت بعد تصحيح خفيف سنة ١٨٧٢ فنفدت نسخها وها قد جدّد طبعها الشقيقان الأديبان سليم ويوسف ابراهيم صادر فتركاها على علاّتها...»[1]

يذكر صاحب المقالة الواردة أعلاه أن الذي نقل «تاريخ يوسيفوس اليهودي» إلى العربية غير معروف، علماً ان طبعة ١٨٧٢ لا تشير إلى اسمه. ولا شك ان كاتب المقالة استند إلى تطوّر اللغة ومفرداتها لإبداء رأيه حول الزمن الذي كان يعيش فيه المترجم وذلك عندما قال إنه من «كتبة القرون الأخيرة». ولكن بالرغم من المبدأ القائل إن لكل عصر لغته، فاللغة والمفردات يمكن أن تشير إلى العصر ولكن لا يمكن الاكتفاء فقط بالأدلة اللغوية. وربما يكون النسّاخ قد غيّروا أو بدّلوا في هذه المفردات عن قصد أو عن غير قصد فتصرّفوا بالنص حذفاً أو زيادة ووقعوا في كثير من الأخطاء اللغوية والتركيبية. حتى إذا وصلت إحدى النسخ إلى المطبعة، كلّف الناشر من يصحّح اللغة ويقوّم العبارة، فبَعُدَ الفارق جداً بين النص الأصلي والنص المطبوع، كما هو الحال بالنسبة إلى كتاب «تاريخ يوسيفوس اليهودي». علماً أن كاتب المقالة يؤكد أن طبعة ١٨٧٢ صدرت «بعد تصحيح خفيف»، كما يشير إلى تواجد «عدة نسخ مخطوطة كثرت فيها الاغلاط».

ويعتقد صاحب المقالة أيضاً أن «تاريخ يوسيفوس اليهودي» هو تلخيص أو «ترجمة مختصرة» لكتابي يوسيفوس المنشورين باليونانية وهما «العاديات اليهودية» و«الحروب اليهودية». فلو كان هذا الرأي صحيحاً، لثبت وجود شخص آخر غير يوسيفوس قام باختيار نصوص معيّنة من المصنّفين الضخمين المذكورين آنفاً وصاغهما من جديد في كتاب واحد، وكان من حقّه الإشارة إلى الدور الذي قام به في مقدمة الترجمة المختصرة، كما هو حاصل

١- «تاريخ يوسيفوس اليهودي»، (مقالة لكاتب مجهول)، المشرق، المجلد ١٢ (١٩٠٩)، ص ٣١٤-٣١٥.

بالنسبة إلى سفر المكابيين الثاني[1]. لكن المعرّب نفسه أقرّ بأن جميع ما ورد في الكتاب هو لصاحبه الأصلي، وذلك من خلال عبارة «قال صاحب الكتاب» التي ذكرها مرّات عديدة، وفق أسلوب شائع في عصره، للدلالة على أنه حافظ بأمانة على النص الذي قام بتعريبه[2].

من جهة أخرى، من المحتمل جداً أن يكون «تاريخ يوسيفوس اليهودي» معروفاً في الغرب تحت عنوان «كتاب يوسيفوس» أو كتاب «يوسيفوس العبري» الذي طُبع باللغة العبرية في مدينة مانتو (Mantoue) من أعمال ايطاليا بين سنتي ١٤٧٦ و١٤٧٩، ثم تُرجم بعد ذلك إلى اللاتينية والالمانية. يبدأ هذا الكتاب بذكر آدم وينتهي بدمار أورشليم، فتتوافق مواضيعه مع مضمون «تاريخ يوسيفوس اليهودي». صاحب الكتاب هو يوسف بن غريون الذي يماثل نفسه أيضاً بفلافيوس يوسيفوس، المؤرخ المشهور.

هناك شكوك لدى الباحثين حول أصالة «كتاب يوسيفوس» وصحة نسبته إلى يوسيفوس اليهودي، بالرغم من ان يهود القرون الوسطى كانوا يعتبرونه مصدراً محترماً وموثوقاً به. كما تتعدّد آراء الباحثين لناحية زمن صدوره، فمنهم من جعله في القرن الرابع ومنهم من رأى انه من نتاج القرن التاسع أو القرن العاشر للميلاد.

ذكر تيودور ريناخ، على سبيل المثال، أن «كتاب يوسيفوس» المشار إليه مقتبس عن كتاب «العاديات اليهودية» في القرن العاشر الميلادي وأنه نُقل إلى اللغة العربية على يد يهودي يمني[3]. وربما كان هذا الكتاب المعرّب هو ذاته «تاريخ يوسيفوس اليهودي» الذي بين أيدينا. غير أننا لا نوافق على ما ذهب اليه تيودور ريناخ لناحية قوله إنه مقتبس عن مصنّف «العاديات اليهودية» ليوسيفوس. فالكتاب الأخير يتناول الحقبة الممتدة منذ بدء الخليقة حتى السنة الثانية عشرة من ملك نيرون[4]، أي سنة ٦٦م.، وبالتالي فهو لا يتناول

١- ٢ مك ٢: ٢٣.

٢- يوسيفوس، **تاريخ يوسيفوس اليهودي**، ص ٤-٥-٦-١١ و٦٩.

٣- T. Reinach, Inroduction à JOSEPHE, *Apion*, p. VI.

٤- JOSEPHE, *Ant. Jud.*, XX, xi, 2.

أخبار الحرب اليهودية التي يسهب كاتب «تاريخ يوسيفوس اليهودي» بشرحها.

أما لناحية أصالة الكتاب وصحة نسبته إلى يوسيفوس اليهودي، فيذكر هذا المؤرخ في مقدمة كتابه «الحروب اليهودية» الذي نشره باليونانية، أنه سبق وألّف الكتاب عينه بلغته الأم[1]، ووجّهه إلى بني شعبه في فلسطين وبلاد ما بين النهرين. ويُعتبر هذا الكتاب مفقوداً في وقتنا الحاضر بنظر الباحثين. لكن من المحتمل أن يكون «تاريخ يوسيفوس اليهودي»، بلغته الأصلية، الكتاب ذاته الذي ألّفه يوسيفوس عن الحرب اليهودية الكبرى، بحيث يمكن اعتبار كتاب «الحروب اليهودية» صياغة جديدة منقّحة ومسهبة للموضوع عينه. والجدير ذكره أن يوسيفوس استعان، عند المباشرة بصياغة كتابه المذكور، بعدد من المساعدين المتهلّنين، كما استعان بمصادر أخرى[2]، فجاء مصنفّه الجديد أغزر مادة وأرقى مستوى في الكتابة لأنه موجّه إلى جمهور آخر يتكلم اليونانية، لغة الثقافة في ذلك العصر.

من خلال مقارنة «تاريخ يوسيفوس اليهودي» بمؤلفات يوسيفوس الصادرة باليونانية، نقع في النصّ المعرّب على عدد من المواضيع والمصطلحات التي لا وجود لذكرها في النصوص اليونانية المذكورة، ما يدلّ على أن النصّ المعرّب ليس مقتبساً عنها. من هذه المواضيع، على سبيل المثال وليس الحصر، خبر مصاهرة بني كتيم لبني توبال، والكلام على ملوك الكتيم الاوائل، وبعض الروايات الأخرى التي يزخر بها الفصل الأول من «تاريخ يوسيفوس اليهودي»[3]. كما استعمل الكاتب لفظة «كتيم» مرّات متعددة في الفصل الأول المشار إليه للدلالة على الرومان، في حين أن هذه اللفظة لا ترد في مؤلفات يوسيفوس المعروفة سوى في فقرة واحدة من كتاب «العاديات اليهودية»، وللدلالة فقط على أن اليهود كانوا يطلقونها على سكان جزيرة قبرص، وأن معناها توسّع في زمن الكاتب ليشمل سكان جميع الجزر وقسماً كبيراً من

١- JOSEPHE, *Guerre,* préambule 1, 3.

٢- عرض يوسيفوس كتاب «الحروب اليهودية» على الإمبراطور فسبزيانوس وابنه تيطس بالاضافة إلى عدد من القادة الرومان الذين شاركوا في الحرب وغيرهم، وقد توخى بذلك معرفة آرائهم حول مضمون الكتاب لكي يأتي وصفه منسجماً مع الحقيقة والواقع (JOSEPHE, *Apion,* 9).

٣- يوسيفوس، **تاريخ يوسيفوس اليهودي**، ص ٤-١١.

شواطئ البحر[1]، والمقصود بذلك جزر البحر المتوسط وشواطئه.

ويشير صاحب كتاب «تاريخ يوسيفوس اليهودي» إلى تواجد طائفة «الحسيديين»[2] في عهد يوحنا هركانوس (١٣٥-١٠٤ ق.م)، في حين أن يوسيفوس لا يذكر أبداً تلك الطائفة في كتبه المنشورة باليونانية، بالرغم من أنه تحدث عن الصدّوقيين والفرّيسيين المعاصرين لها. أضف إلى ذلك أن «تاريخ يوسيفوس اليهودي»، وإن اتفق مع كتاب «الحروب اليهودية» في وحدة الموضوع، غير أنه يختلف أحياناً مع المصنّف المذكور حول مضمون الفكرة الواحدة. فالكتاب المعرّب هو، في بعض المواضع، أكثر أمانة ودقّة من كتاب «الحروب اليهودية». وتأكيداً لذلك نذكر ما يلي:

كان يوسيفوس قد عُيّن قائداً للجبهة الشمالية في بداية الحرب اليهودية لكي يصدّ الهجوم المتوقّع للجيش الروماني بقيادة فسبزيانوس. ويروي المؤرخ المذكور في كتاب «الحروب اليهودية»، أنه نظّم جيشه «على الطريقة الرومانية»، فعين قوّاداً «للعشرات والمئات والألوف»؛ وعلى رأس هؤلاء «عين قوّاداً ذوي صلاحيات أشمل»[3]. إن هذا القول يحتوي على مغالطات مقصودة، فالتنظيم الذي اتّبعه يوسيفوس معروف عند اليهود منذ أيام النبي موسى[4]، وقد اعتمده المكابيون أيضاً في حروبهم ضد السلوقيين[5]. كما اعتمده أبناء النور القمرانيين في حربهم الاسكاتولوجية ضد بني الظلمة[6]. وكان يوسيفوس يعلم هذا الأمر جيداً لأنه تعرّف عن كثب إلى شيعة الأسينيين، واطّلع على الدور الذي مثّلوه خلال الحرب اليهودية الكبرى. ونشير إلى أن مخطوطة «نظام الحرب» وزّعت المراتب العسكرية في جيش أبناء النور على الشكل التالي: «أمير المعسكر» - «أمير القبيلة» - «رئيس الربوة» أو العشيرة - «رئيس

١- JOSEPHE, *Ant. Jud.*, I, vi, 1.

٢- يوسيفوس، تاريخ يوسيفوس اليهودي، ص ٩٣.

٣- JOSEPHE, *Guerre*, II, xx, 7, § 577-578.

٤- خر ١٨: ٢١ و٢٥؛ تث ١: ١٥.

٥- ١ مك ٣: ٥٥.

٦- 1QS, II, 21-22; VI, 3; 1QSa, I, 14-15 et 29.

الألف» - «رئيس المئة» - «رئيس الخمسين» - «رئيس العشرة»[1]. إذاً، لم يكن يوسيفوس بحاجة لتنظيم جيشه على مثال الجيش الروماني الذي يضمّ بعض الرتب المماثلة.

أما كتاب «تاريخ يوسيفوس اليهودي» فهو أكثر أمانة لهذه الناحية، إذ يذكر كاتبه أنه عندما استعد يوسيفوس لمواجهة أعدائه، «رتّب عسكره وجعل على كل ألف رجل منهم مقدماً وكذلك على كل مئة وعلى كل خمسين وعلى كل عشرة...»[2]. ولا يشير الكاتب أبداً إلى أن جيش يوسيفوس كان منظّماً على مثال الجيوش الرومانية، ما يؤكد جدية وأصالة المصدر المذكور لتوافقه مع الحقيقة التاريخية ومع مخطوطات البحر الميت، بالرغم من أنه نُشر قبل بدء اكتشافها بخمسة وسبعين عاماً تقريباً. كما أن اختلاف المضمون حول الفكرة الواحدة في الكتابين المذكورين، هو دلالة على أن «تاريخ يوسيفوس اليهودي» ليس مقتبساً عن مؤلفات يوسيفوس المنشورة باليونانية.

ويوجد برهان آخر يثبت أن كتاب «تاريخ يوسيفوس اليهودي» معرّب عن مصدر قديم:

هناك سفر منحول لأحد النصوص التوراتية يُعرف بـ«سفر المكابيين الرابع». يتألف هذا السفر من تسعة وخمسين فصلاً، استناداً للنص الذي نشره «مين» في مجلده حول معجم النصوص المنحولة[3]. وقد ورد في المعجم المذكور نقلاً عن «فيلوسترات» قوله إن «سفر المكابيين الرابع» هو من تأليف المؤرخ يوسيفوس، كما ورد أيضاً أن الكاتب يتّبع أسلوب يوسيفوس في السرد التاريخي، وينقل عنه حرفياً في كثير من الاحيان، غير أنه يضيف ويحذف ولا يقدّم سوى مقتطفات[4]، ما جعل النقّاد يظنّون أن كاتب السفر اقتبس عن يوسيفوس وعن مصادر أخرى.

1- 1QM, III, 13-19.

٢- يوسيفوس، **تاريخ يوسيفوس اليهودي**، ص ٢٣٠-٢٣١.

٣- J. -P. MIGNE, «Le IVe livre des Machabées», *Dictionnaire des Apocryphes,* tome 1, Brepols, Turnhout (Belgium), 1989, p. 737-850.

٤- *Ibid.,* p. 738 et 743.

وباعتقادنا أن «سفر المكابيين الرابع» مقتبس عن إحدى النسخ العائدة للكتاب الذي وضعه يوسيفوس بلغته الأم حول الحرب اليهودية، لأن فصوله التسعة والخمسين تتوافق مع جزء مهم من «تاريخ يوسيفوس اليهودي»، وذلك ابتداءً من الصفحات الأخيرة من الفصل الأول تحت عنوان «ذكر أخبار العبرانيين بعد وفاة اسكندر وما جرى عليهم من ملوك اليونانيين»، حتى نهاية الفصل الرابع الذي يبدأ بعنوان «ذكر قتل هيرودس ولديه اسكندر وأرسطوبولوس»[1]. ويظهر من خلال مقارنة النصين المذكورين وجود توافق تام بينهما في الانشاء والمضمون والسرد التاريخي؛ كما أن عناوين الفصول في سفر المكابيين الرابع تتوافق بشكل كامل تقريباً، من حيث مضمونها وتسلسلها، مع العناوين الثانوية للجزء الموازي لها من «تاريخ يوسيفوس اليهودي»، باستثناء الفصل الأول حيث يختلف العنوان بالرغم من التوافق في مضمون النصّين، بالإضافة إلى الفصلين العاشر والواحد والخمسين اللذين لا أثر لهما في النصّ المعرّب. أما مضمون كلّ من «سفر المكابيين الرابع» والجزء الموازي له من «تاريخ يوسيفوس اليهودي» فهما على توافق تام باستثناء وجود بعض التفاصيل الدقيقة القليلة التي يتميّز بها كل نصّ عن الآخر، بالإضافة إلى وجود ميلٍ لدى مقتبس «سفر المكابيين الرابع» للاسهاب في الشرح. ويمكن تعليل هذه الأمور بأن سفر المكابيين الرابع مقتبس عن نسخة أحدث عهداً من النسخة التي عُرِّب عنها «تاريخ يوسيفوس اليهودي».

وتجدر الإشارة إلى الرأي القائل بأن «تاريخ يوسيفوس اليهودي» عبارة عن مقتطفات مقتبسة من المؤلفات التي نشرها يوسيفوس باللغة اليونانية، هو غير صحيح، وذلك لورود بعض المصطلحات والمواضيع التي لا وجود لذكرها في تلك المصادر. ولا شكّ أن المصطلحات التي يتفرّد «تاريخ يوسيفوس اليهودي» بذكرها، تؤكد أصالة هذا المصدر وتثبت صحّته. فكلمة «كتيم» مثلاً التي تُذكر للإشارة إلى الرومان، هي من أهمّ المصطلحات التي ترد أيضاً في بعض مخطوطات البحر الميت للدلالة على الشعب الغريب الذي كان يحتلّ فلسطين في ذلك الزمن الغابر. ولا شك أنه في زمن يوسيفوس ومن عاصرهم من

١- يوسيفوس، **تاريخ يوسيفوس اليهودي**، ص ٤٧-١٩٣.

الأسينيين، أي في القرن الميلادي الأول، كانت كلمة «كتيم» ترمز أيضاً إلى الرومان الذين بسطوا سلطتهم على الكثير من الأمم والشعوب. لذلك فإن ورود هذا المصطلح في «تاريخ يوسيفوس اليهودي» بالمعنى المشار اليه، يقع في السياق التاريخي الصحيح، وهو دليل على قِدَم الكتاب وأصالته. كما أن عدم وروده في كتاب «الحروب اليهودية»، أو وروده بمعناه العام في موضع منفرد من كتاب «العاديات اليهودية» حيث شمل معناه جميع سكان جزر المتوسط وقسماً من شواطئه، لا يشكل دليلاً على أن كاتب «تاريخ يوسيفوس اليهودي» هو شخص آخر غير يوسيفوس؛ فصاحب الكتاب الأخير كان يخاطب أبناء شعبه اليهودي بلغته الأم، وفقاً لقناعاتهم، وتماشياً مع مصطلحاتهم. أما مؤلفات يوسيفوس الصادرة باللغة اليونانية، فهي موجّهة لجمهور من المثقفين في العالم الهليني-الروماني، ولم يكن من اللائق أبداً أن يطلق هذا المؤرخ على الرومان تسمية «كتيم» التي تحمل في ثناياها معنى الكره للشعب الغريب المحتلّ، في حين أن يوسيفوس كان يسعى، بعد أسره، لكسب ودّ الإمبراطور فسبزيانوس وابنه تيطس اللذين كانا من أبرز المطّلعين على كتاب «الحروب اليهودية» قبل نشره.

أما لناحية ما ورد في «تاريخ يوسيفوس اليهودي» حول وجود طائفة «الحسيديين» في عهد يوحنا هركانوس، فهذا الكلام يتوافق مع الحقيقة التاريخية ومع أحد مصادر التاريخ اليهودي، عنينا بذلك سفر المكابيين الأول[1]. والجدير ذكره أن يوسيفوس تجاهل، لغاية في نفسه، ذكر طائفة الحسيديين في جميع مؤلفاته التي كتبها باليونانية. لذلك، يمكن اعتبار «تاريخ يوسيفوس اليهودي»، بالنسبة إلى هذا الموضوع، أرفع شأناً وأكثر صدقاً من مؤلفات يوسيفوس المعروفة.

٤- بلينوس الكبير

إن النبذة القصيرة التي ذكرها بلينوس الكبير عن الأسينيين في كتابه «التاريخ الطبيعي» هي على جانب كبير من الأهمية، ومن الضروري مناقشتها.

١- ١ مك ٢: ٤٢ و٧: ١٣.

١- وصف بلينوس المكان الذي عاش فيه الأسينيون، فتبين انه موقع منعزل، بعيد عن العمران، وهو يتوافق مع موقعي قمران وعين فشخة الكائنين في الطرف الشرقي لبرية اليهودية. هذا الوصف يؤكد صحة ما ذكره فيلون الاسكندري، في أقدم النصوص التي كتبها حول الأسينيين، لناحية إيثارهم العيش في الأماكن المنعزلة، بعيداً عن المدن وضوضائها. كما أن بلينوس الكبير، من خلال تحديده للموقع الجغرافي الذي نشأ فيه الأسينيون، يدفعنا إلى التساؤل عن سبب تجاهل كل من فيلون ويوسيفوس لهذا الأمر، خاصةً وأن هذا الأخير كان عارفاً بموقع مقرّهم الرئيس، نظراً لتقرّبه منهم في حداثته وممارسته التقشّف والتزهّد في برية اليهودية على غرارهم.

٢- ذكر بلينوس أن الأسينيين عاشوا حياة زهد، بلا نساء ولا حبّ ولا مال، وفي مجتمع لا يولد فيه أحد. هذه الشهادة هي على قدر كبير من الأهمية، لأن بلينوس كاتب لاتيني، ويعكس رأيه الصورة التي كوّنها الرومان عن الأسّينيين، وهي أن الأخيرين نسّاك متزهّدون، محبّون للسلام، ولا يشكّلون أي تهديد للإمبراطورية الرومانية وللشعوب التي تعيش تحت سلطتها. ويُستدلّ من هذه الشهادة أيضاً، أن بلينوس كتب نبذته عن الأسينيين في المرحلة السابقة للحرب اليهودية الكبرى، إذ لا نجد فيها إشارة إلى الاضطهاد الذي عانى منه هؤلاء على أيدي جلاّديهم الرومان، ولا إلى احتلال الأخيرين مقرّهم الرئيس في قمران، كما هو ثابت من شهادة يوسيفوس ومن التنقيبات الأثرية في ذلك الموقع.

٣- أشار بلينوس إلى تواجد تلك الجماعة منذ ألوف الدهور. ومن المحتمل أن تكون قناعته حول عراقة الأسينيين في التاريخ قد تأثرت بالأمور التالية:

أ- معرفته أن أبنية قمران قديمة العهد. وقد أكّدت التنقيبات الأثرية هذه الواقعة، إذ تبين أن بعض الأطلال القديمة في خربة قمران شُيِّدت في القرن الثامن قبل الميلاد.

ب- اعتقاده أن الأسينيين يشكّلون استمرارية للسكان الذين أقاموا قبلهم في ذلك الموقع.

٤- في حديثه عن مدينة عين جدي، ذكر بلينوس أنها أمست في أيامه تلّة من الرماد. هذا الكلام يشير إلى حدث حصل أثناء الحرب اليهودية الكبرى ضد روما. فقد روى يوسيفوس أن الأسخريوطيين الذين كانوا يتحصّنون في

قلعة مسعدة، اجتاحوا مدينة عين جدي خلال الحرب ضد الرومان، وقتلوا سبعمائة نفس من النساء والأطفال[1]. يُستنتج من ذلك أن عين جدي كانت لا تزال قائمة في بداية الحرب اليهودية. ومن المحتمل أن تكون أُحرقت على أيدي الأسخريوطيين خلال اجتياحهم لها حوالى سنة ٦٩ م. وبالتالي فإن ملاحظة بلينوس حول مدينة عين جدي تدلّ على أنه عدّل النصّ الذي سبق ودوّنه قبل اندلاع الحرب اليهودية الكبرى، على ضوء المعطيات الجديدة التي توفّرت له في مرحلة لاحقة.

٥- هيبوليتس

اعتمد هيبوليتس على مؤلفات يوسيفوس كمصدر رئيس عن الأسينيين، غير أنه تخطّاه في ثلاثة مواضيع، ألا وهي انقسام الأسينيين إلى أربع مِلل، وإيمانهم بقيامة الأجساد، وانتظارهم مجيء المسيّا. وبرأينا أن هيبوليتس بقي متأثراً بيوسيفوس بالنسبة إلى الموضوع الأول، لإن إشارته إلى انقسام الأسينيين إلى أربع مِلل هي تفسير لقول يوسيفوس «إنهم يتوزّعون على أربع فئات بحسب أقدمية انتسابهم. ويظل المستجدّون دون المتقدّمين رتبة، فإذا لمس المستجدّون المتقدّمين اضطر الأخيرون إلى الاغتسال كأنهم اختلطوا بغرباء»[2]. ويظهر أن هيبوليتس جعل من هؤلاء المستجدين مِلّة متميّزة لاعتقاده أن سبب نشوئها عائد إلى انحراف أعضائها عن الأنظمة والقواعد المتّبعة. أما حديثه عن انتماء جماعات أصولية يهودية متعددة إلى الأسينيين، كالزيلوت والاسخريوطيين وكل من رفض الخضوع لأي سيّد بشري، لاعتقادهم أن «يهوه» هو وحده السيد المطلق، فسبب ذلك وجود قاسم مشترك بين هؤلاء جميعاً ألا وهو التعصّب للشريعة الموسوية والدفاع عنها واحترام مشرّعها، أي النبي موسى، ولو أدى ذلك إلى التضحية بالذات، وهو أمر اشتهر به الأسينيون

١- JOSEPHE, *Guerre,* IV, vii, 2, §402-403.

٢- *Ibid.,* II, viii, 10, §150.

خاصةً[1] والجماعات الأصولية اليهودية بشكل عام.

ولا شك أن هيبوليتس استند إلى مصدر آخر لناحية ما ذكره حول وجود جماعة من الأسينيين رفضت استعمال النقود بسبب وجود رسوم عليها، وكان أعضاؤها يتجنّبون الدخول إلى المدن عِبر أبواب نُصِبت فوقها تماثيل. إن هذا السلوك يعكس تطوّراً في الناحية الاجتماعية لدى الأسينيين، هدفه المحافظة على الشريعة الموسوية. وما يؤكد اطلاع هيبوليتس على مصدر آخر هو كلامه عن اعتقاد الأسينيين بقيامة الأجساد، إذ لا نجد لهذا الموضوع أي أثر في المصادر القديمة المتعلقة بتلك الجماعة. أضف إلى ذلك قوله إن جميع الطوائف اليهودية في ذلك الزمن، أي الصدوقيين والفريسيين والأسينيين، كانوا يترقبون مجيء المسيّا. وقد علّل طومسون تجاهل فيلون ويوسيفوس لهذا الموضوع، بأنهما تحدثا عن الأسينيين بالكثير من الإطراء، لأن مؤلفاتهما التي نُشرت باليونانية، كانت موجهة إلى الوثنيين، فلو ذكرا آمال الأسينيين المشيحية وانتظارهم للمسيّا الآتي لحكم العالم، لعُدَّ ذلك خيانةً وصار ولاؤهم أمراً مشكوكاً فيه[2].

وعليه نرى أن هيبوليتس تأثر بما كتبه يوسيفوس عن الأسينيين، غير أنه استند أيضاً إلى مصادر أخرى نُشرت بعد نهاية الحرب اليهودية الكبرى ضد الرومان، لأنها تتحدث عن تطوّر في سلوكهم الاجتماعي إلى جانب أصوليتهم، معتبرة إياهم على قدم المساواة بالمقارنة مع بعض الأحزاب اليهودية المتطرفة المعادية للرومان، وهو أمر غفلت عنه المصادر القديمة المعروفة عنهم.

١- JOSEPHE, *Guerre,* II, viii, 10, §145-152.

والجدير ذكره أن يهوذا الجليلي، مؤسس حزب الزيلوت، دعا، خلال تمرده على الرومان سنة ٦ م.، إلى عدم الاعتراف بسلطتهم وسيادتهم، لأن «يهوه» بنظره هو السيّد الأوحد.

أنظر: JOSEPHE, *Guerre,* II, viii, 1, §118.

٢- J. E. H. THOMSON, «The Essenes», *The International Standard Bible Encyclopaedia,* vol. 2, p. 1000.

ثالثاً - ملاحظات عامة

لا بدّ من التساؤل عن إمكانية وجود مصادر قديمة عن الأسينيين، من المفترض أن يكون أصحاب المصادر الكلاسيكية المعروفة قد اطّلعوا عليها. لكن بالعودة إلى أقدم المصادر، أي تلك التي كُتبت في القرن الميلادي الأول، نلاحظ أن فيلون تحدّث عن الأسينيين كأنه يُعرّف عنهم للمرة الأولى، بالرغم من تلميحه أن تلك الطائفة عريقة في التاريخ. وهذا ما نستنتجه من أمرين، أولهما انعكاس بداية مراحل تطوّرهم الاجتماعي في مؤلفاته، كما سنرى أدناه. وثانيهما، أن فيلون لم يتحدث في مؤلفاته سوى عن طائفتين يهوديتين، أي الأسينيين والثيرابوتيين، وتجاهل الاشارة إلى الطوائف اليهودية الأخرى المعاصرة له، كالصدّوقيين والفرّيسيين. أضف إلى ذلك أنه قسّم حديثه إلى شقّين، فشكّل الأسينيون موضوع الشقّ الأول، وشكّل الثيرابوتيون موضوع الشقّ الثاني[١]. وهو في كلامه عن الثيرابوتيين لم يأتِ أبداً على ذكر زمن نشأتهم، ولو تلميحاً، ما يعني أنهم نشأوا في عصره.

أما لناحية التفاصيل الدقيقة التي ذكرها يوسيفوس عن الأسينيين، فهي نتيجة لتقرّبه منهم ومعرفته بأحوالهم منذ حداثته. ومن المعروف أن مؤلفات يوسيفوس تُعتبر المصدر الرئيس الذي نهلت منه المصادر اللاحقة الخاصة بالأسينيين. واذا استثنينا إبيفانس الذي لا يُعتبر مصدراً موثوقاً به، لا بدّ من التساؤل عن السبب الذي دعا كل من هيبوليتس وبورفير إلى الاعتماد على يوسيفوس كمصدر رئيس، دون الإشارة أبداً إلى ما ينبئ عن وجود مصادر قديمة تعود إلى ما قبل القرن الميلادي الأول بالنسبة إلى تلك الطائفة. فقد نقل بورفير عن يوسيفوس ولم يأتِ بشيء جديد. كما نقل هيبوليتس عن يوسيفوس أيضاً، لكنه استعان بمصادر أخرى لاحقة. أما إبيفانس فقد كتب عن الجماعات المعاصرة له التي تحدّرت من الأسينيين أو تأثرت بهم، وبالتالي فإن مصادره ليست قديمة. فإذا كان صحيحاً ما زعمته المصادر الكلاسيكية عن عراقة الأسينيين في التاريخ، لماذا لا نعثر فيها على أي دليل يثبت وجود مصادر أخرى ترقى إلى ما قبل القرن الميلادي الأول ؟!

١- PHILON, *De Vita*, 1.

من جهة ثانية، إذا عدنا إلى مؤلفات فيلون ويوسيفوس نجد تطوّراً في السلوك الاجتماعي لدى الأسينيين موازياً للتطوّر الاجتماعي الذي تعكسه مخطوطات البحر الميت عن اصحابها. وقد مرّ هذا التطوّر الاجتماعي في المصادر الكلاسيكية بالمراحل التالية:

١- نشوء الأسينيين في الأماكن النائية بعيداً عن المدن. وكان هؤلاء من الذكور الناضجين فقط، ويعيشون حياة بتولية وزهد وتنسّك.

٢- في مرحلة تالية، شمل انتشار الأسينيين مختلف المدن الفلسطينية وصولاً إلى أورشليم حيث كانت توجد محلّة تُعرف بباب الأسينيين.

٣- وفي مرحلة لاحقة، سمحت جماعة من الأسينيين لأعضائها بالزواج في سبيل الحفاظ على الاستمرارية.

تتجلّى هذه المراحل بوضوح في مخطوطات البحر الميت حيث يتبيّن ان المحطة الأولى في تاريخ جماعة قمران هي الارتحال إلى البرية[١]. كما يؤكد «نظام الجماعة» ان المجتمع القمراني هو مجتمع ذكوري فقط، في حين ان «ملحق نظام الجماعة»، الذي كُتب في مرحلة تالية، يشير إلى النساء والأطفال[٢]. وتلمّح مخطوطات أخرى إلى انتشار واسع للجماعة في فلسطين شمل القرى والمدن بما في ذلك أورشليم[٣].

فهل يمكن اعتبار مراحل التطوّر في السلوك الاجتماعي لدى الأسينيين الذي تحدثت عنه مؤلفات فيلون ويوسيفوس الصادرة في القرن الميلادي الأول، بمثابة انعكاس لمراحل تطوّر في الحياة الاجتماعية لدى جماعة قمران حصلت في الحقبة عينها؟

١- 1QS, VIII, 12-15.

٢- 1QSa, I, 4.

٣- 4Q394, frags. 3-7, II, 16-17.

الباب الثاني

عقائد الأسينيين ومعتقداتهم وأنظمتهم

الفصل الأول

عقائد الأسينيين ومعتقداتهم

أولاً- الله

تتمحور عقائد جماعة قمران حول مبدأ أساسي وهو أن «يهوه»، الذي يُدعى أيضا «إيل» و«إلوهيم» و«أدوناي»، أي «إله إسرائيل» المذكور في التوراة، هو خالق الكون وسيّده المطلق[1]. فجميع الظاهرات الطبيعية والكواكب والنجوم تسير وفق النواميس التي وضعها لها منذ البدء. وهو الذي صمَّم الكائنات قبل ان تكون، ونظّمها لتسير بحسب مخططه المجيد فتتمّ عملها ولا تبدّل فيه شيئاً. وهو الذي خلق كل روح صالحاً كان أم شريراً[2]، دون أن يكون سبباً لأيّ شرّ[3]. إنه إله الآلهة، الإله العادل، الرحيم، الحي، الأزلي، الإله الحق، القدير، ملك المجد وربّ كل روح وسيّد كل خليقة الذي لا شيء يحصل إلاّ بسابق علمه ووفقاً لإرادته[4]. لذلك كان اسم «يهوه» يلقى عندهم كل احترام وإجلال، ومن يجدف باسمه يستحق الموت.

ويعتقد هؤلاء أن «إله اسرائيل» هو أب لجميع أبناء الحقّ، يعتني بهم ويحميهم؛ ولكن يجب على المؤمن أن يحقق إرادته ويسير وفق وصاياه وفرائضه[5].

وتلمّح بعض المخطوطات إلى روح الرب القدّوس أو إلى روح القداسة[6]. ففي جميع هذه الحالات يتبيّن أن الروح القدس غير مميّز عن «يهوه»، بحيث أن جماعة قمران لم تخرج عن المفهوم اليهودي التقليدي لهذه الناحية.

١- M. BURROWS, *Lumières nouvelles sur les manuscrits de la mer Morte,* traduit par Gabrielle RIVES, Paris, 1959, p. 332; 1QS, III, 24; 1QM, I, 9; 13, 7.

٢- 1QS, III, 16-17; 1QH[a], IX, 7-9.

٣- PHILON, *Quod Omnis,* 84.

٤- 1QH[a], XVIII, 8; 4Q403, frag. 1, II, 26.

٥- 1QH[a], XVII, 35-36; 1QS, IX, 23-26.

٦- 1QS, VIII, 16; 1QSb, II, 24; 1QH[a], XV, 6-7.

ثانياً - الثنائية والصراع بين النور والظلمة

جاء في التوراة أنه منذ الخلق، وضع «يهوه» الإنسان أمام شجرة معرفة الخير والشر، تاركاً له إمكانية الطاعة والتمتع بشجرة الحياة، أو العصيان والتعرض للموت. ولما كان الإنسان مسؤولاً، فعليه أن يختار عن وعي الأمر الذي يحدد نوعيته الأخلاقية وبالتالي مصيره. وقد اختار الإنسان الشر منذ البدء تحت إغراء الشرير أو الشيطان، فبحث عن خيره في أشياء مخلوقة طيّبة للمأكل وشهيّة للعيون، متعدياً على إرادة الله، وفي هذا يقوم أساساً شرّ الخطيئة. وعلى أثر الخطيئة، دخل الشر في العالم وانتشر. وقد تمادى أبناء آدم في الشر لدرجة أن الله ندم على خلقهم. ويظهر الشر فعلاً ليس كمجرد غياب للخير، بل كقوة حقيقية تستعبد الإنسان وتفسد العالم. وليس ذلك من عمل الله، لأنه خير مطلق، ولكن بما أن الشرّ قد ظهر، فالله يقاومه. وتبدأ حرب بلا هوادة، تدوم دوام التاريخ: فلكي يخلّص الله الإنسان، يجب عليه، وهو القدير، ان ينتصر على الشر والشرير[١].

وبالرغم من تأثر جماعة قمران بالمعتقدات التوراتية، غير أننا نلاحظ تطوّراً في الفكر القمراني بالنسبة إلى مفهوم الصراع بين الخير والشر الذي تحوّل الى عقيدة ثنائية تدلّ على تأثر تلك الجماعة بديانات الفرس القديمة، وخاصةً الزرادشتية[٢].

١- **معجم اللاهوت الكتابي**، تعريب د. ارنست سمعان، الأب اسكندر وديع، الأب اندراوس سلامه وغيرهم، منشورات دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦، ص ٣٢٤-٣٢٥.

٢- نسبة إلى الداعية الفارسي «زرادشت» (٦٣٠؟-٥٥٠ ق.م.؟) الذي بشّر بتعاليم جديدة مستلهمة من الديانة المزدية القديمة. والمشهور من تعاليم زردشت قوله إن للعالم أصلين أو إلهين: أصل الخير وهو «أهورامزدا»، أو «يزدان» كما يسمّيه الشهرستاني، وأصل الشر وهو «أهرِمَن». هذان الأصلان هما في نزاع دائم، ولكل منهما قدرة الخلق. فأصل الخير هو النور، وقد خلق كل ما هو حسن ونافع، وأصل الشر هو الظلمة، وقد خلق كل ما هو شر في العالم. فالنور والظلمة أصلان متضادان. وقد حصلت التراكيب من امتزاجهما، وحدثت الصور من التراكيب المختلفة. فالخير والشر والصلاح والفساد والطهارة والخبث، إنما حصلت من امتزاج النور والظلمة ولو لم يمتزجا لما كان وجود للعالم. والإنسان موضع نزاع بين الروحين، لأنه مخلوق «أهورامزدا» الذي خلقه حر الإرادة، فكان في الإمكان أن يخضع للقوى الشريرة. وإذا عمل الانسان عملاً صالحاً في حياته وطهّر بدنه ونفسه، فقد أخزى روح الشر، ونصر روح الخير واستحق الثواب من

ويعتبر «نظام الجماعة» من أهم مخطوطات البحر الميت التي تتحدث بشكل مفصّل عن العقيدة الثنائية[1]. وفيه أن إله إسرائيل أعدَّ للإنسان روحين ليمشي فيهما حتى يوم التفقّد، وهما روح الحق وروح الضلال. روح الحق هو رئيس الملائكة ميخائيل، أمير الأنوار[2]، الذي بيده السيادة على جميع الأرواح الخيّرة وجميع أبناء البرّ السائرين في طريق النور والقداسة. أما روح الضلال فهو ملاك الظلمة «بليعال»، الذي يسود على الأرواح الشريرة كافة.

روح الحق ينير قلب الإنسان ويمهّد أمامه طرق البِرّ. إنه روح التواضع وطول البال والرحمة الوفيرة والرأفة الأبدية والمحبة الكبيرة تجاه جميع أبناء الحق. أما روح الضلال فيتجسد بالطمع والكفر والكذب والكبرياء وترفّع القلب والنفاق والغش والقسوة ووفرة اللصوصية وقلة الصبر والوقاحة والأعمال المشينة التي يقترفها روح الفجور وطرق النجاسة التي تجعل الإنسان يسير في طرق الظلمة وشرّها.

وفي هذين الروحين تمضي أجيال جميع أبناء البشر، وفي هاتين الطبقتين تتوزّع جيوشهما من جيل إلى جيل. وقد جعل «يهوه» بغضاً أبدياً بين طبقتيهما: فأعمال الضلال رجس للحق، وجميع طرق الحق رجس للضلال. وبسبب ملاك الظلمة يضلّ جميع أبناء البِرّ. فكل آثامهم وسوء أعمالهم هي نتيجة سيادته، وكل الأرواح الشريرة التي من نصيبه تجعل أبناء النور يعثرون[3].

أما «يهوه»، وفي أسرار عقله ومجد حكمته، فقد وضع حداً نهائياً لوجود الضلال. وهو يزيله في ساعة التفقّد أي عندما يأتي في زمن الدينونة. ففي ذلك الزمن الذي حَدّد موعدَه منذ البدء، تحصل المعركة الأخيرة بين النور والظلمة، فترتفع يد «يهوه» العظيمة على بليعال وعلى أتباعه لتضربهم الضربة

«أهورمزدا»، وإلاّ قوّى روح الشر وأسخط عليه الإله المذكور (الشهرستاني، **الملل والنحل**، ج ٢، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ، ص ٢٢٦ و٢٦٠-٢٦١). وكان للشمس مقام رفيع في الطقوس الزرادشتية، فكان أتباع هذا المذهب يصلّون ثلاثَ صلواتٍ يدورون فيها مع الشمس كيفما دارت (البلخي، **البدء والتاريخ**، ج ١، ص ٣٢٨).

١- 1QS, III, 13 - IV, 26; 1QH[a], IX, 17.

٢- 1QS, III, 20.

٣- 1QS, III, 21-24.

الحاسمة، ويُعين ميخائيل جميع أبناء النور القديسين في صراعهم ضد أبناء الظلمة، فينتصر الخير على الشرّ والنور على الظلمة ولا يعود للضلال من وجود[1].

ثالثاً- الملائكة

الملائكة أرواح خلقها «يهوه» وهي تخضع له. إنهم جُند السماء وأبناؤها وجبابرتها الأقوياء. ويُلاحظ أن مفهوم الملائكة متطور جداً لدى جماعة قمران، ففي حين لا تذكر التوراة سوى أسماء ثلاثة منهم، أي ميخائيل وجبرائيل ورافائيل، فإن مخطوطات البحر الميت تضيف الى هذه اللائحة اسم «سريئيل» الذي نجده على تروس الأبراج الأربعة خلال المعركة الاسكاتولوجية[2]. كما نجد في سفر أخنوخ لائحة بأسماء ملائكة الحضرة السبعة[3]، وهي تضمّ، بالاضافة إلى ما سبق ذكره، كل من أورئيل ورجوئيل ورامئيل. وهؤلاء جميعاً هم كهنة المذبح السماوي القائمين في حضرة الملك القدوس[4]. ونجد في سفر أخنوخ أيضاً أسماء أمراء الملائكة الذين تمرّدوا على إله اسرائيل[5]، بحيث تشمل كلمة «ملائكة» في مخطوطات البحر الميت الأرواح الخيّرة والأرواح الشريرة معاً.

وتشير بعض المخطوطات إلى وجود عدد كبير من الملائكة. فبالاضافة الى ملائكة الحضرة والقداسة، هناك ملائكة الدمار والعقاب، وملائكة الهواء، وملائكة أرواح الغيوم والظلمة والثلج والجليد، وملائكة أصوات الرعود والبروق والمطر والندى والمعادن، وملائكة أرواح البرد والحرّ، وملائكة الفصول الأربعة[6]. ويبدو ان الملائكة مثّلوا دوراً كبيراً في معتقدات جماعة

١- 1QS, III, 24-25; IV, 15-21.

٢- 1QM, IX, 15.

٣- En, XX.

٤- 4Q400, frag. 1, I, 8.

٥- En, VI, 7-8.

٦- 1QH^a, XV, 6; 1QapGen ar, XX, 16; 1QSb, IV, 26; 1QH^a, IX, 10-11; VI, 13; CD-A, II, 6.

قمران، إذ حلّوا محلّ آلهة الوثنيين في تدبير شؤون العالمين الدنيوي والعلوي. وربما لهذا السبب حُرِّم على الأسينيين الإفصاح عن أسماء الملائكة للغرباء عن جماعتهم[1].

وتعتقد جماعة قمران أن جيوش ملائكة القداسة سوف تشترك في الحرب الإسكاتولوجية التي ستحصل في الأيام الأخيرة[2]، أي في زمن دينونة الأشرار، بحيث يكون موقع ملائكة القداسة مع«يهوه»، في وسط معسكرات أبناء النور، لكي يقودوا خطاهم نحو النصر[3].

١- عبادة الملائكة والصلاة نحو الشمس:

عُثر بين مخلّفات المغارة الرابعة على نصوص حملت عنوان «أناشيد ذبيحة السبت» (4Q400-407) وهي موجّهة الى رؤساء الملائكة السبعة. فهل كان أعضاء جماعة قمران يعبدون الملائكة؟

من المرجّح أن هؤلاء ربطوا بين مفهوم الملائكة كأرواح خلقها «يهوه» وسلّطها على الكون، وبين الكواكب التي تتحرك في كبد السماء، على غرار ما نجده في معتقدات بعض الشعوب أو المذاهب القديمة. فقد كان الاعتقاد سائداً لدى الصابئة[4] أن الملائكة تُسيِّر الكواكب، وأن الكواكب والنجوم هي

١- F. JOSEPHE, *Guerre,* II, viii, 7, § 142.

٢- André CAQUOT, «Le Service des anges», *RQ,* n° 49-52 (1988), p. 427.
ينبثق هذا المفهوم من عقيدة الحرب المقدسة لدى بني إسرائيل. نجد مثالاً على ذلك في (٢ مل ١٠: ٢٩؛ ١١: ٨ و ١٠) حيث تظهر قوى سماوية أمام جيوش بني إسرائيل الذاهبة إلى الحرب. وقد نتج هذا الاعتقاد عن العبادة بحيث انتقل مفهوم الهيكل الى الجماعة التي اعتبرت نفسها بمثابة مَقدِس (M. DELCOR, «Qumran: Doctrine des Esséniens», *DBS,* tome 9, p. 971.).
وربما ترجع هذه العقيدة في الأصل إلى زمن النبي موسى عند إنشاء خيمة الموعد وحلول مجد الرب عليها (خر ٤٠: ١-٣٦). وكانت تلك الخيمة تنصب في وسط المعسكر وتنقل عند ارتحال أسباط إسرائيل الى موضع آخر خلال حروبهم المقدسة.

٣- 1QHª, XV, 6; 1QSa, II, 8-9.

٤- يبلغ عدد الصابئة في زمننا الحاضر ١٥٠ ألف نسمة تقريباً يعيش معظمهم في جنوب العراق في منطقة الأهوار وعلى ضفاف دجلة (أسعد السحمراني، **الصابئة/الزرادشتية/اليزيدية**، منشورات دار النفائس، بيروت، ١٩٩٧، ص ٢٤-٢٥). وقد اختلف المؤرخون العرب في تحديد أصلهم. فنسبهم الطبري إلى صابئ ابن متوشلح (الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، الجزء الأول،

الهياكل المرئية لتلك الأرواح. وهذا ما نجده أيضاً في سفر أخنوخ حيث ورد أن أرواح السماء، أي الملائكة، تحرّك عجلة الشمس وجميع الكواكب[1]. وقد اعتبر الصابئة الكواكب السبعة بمثابة آلهة، فخصصوا لكلٍّ منها يوماً معيّناً من الأسبوع[2]. وربما تأثرت جماعة قمران بتلك المعتقدات، فجاء وصف

منشورات دار القاموس، بيروت، بدون تاريخ، ص ٨٧) وزعم المسعودي أن بوداسف - أي بوذا - هو أول من دعا إلى ملة الصابئين (المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، الجزء الأول، طبعة بربيه دي مينار وبافيه دي كرتاي، عنى بتنقيحها وتصحيحها شارل بلا، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية (١١)، بيروت، ١٩٦٥، ص ٢٦٣). وأشار الشهرستاني إلى وجود فرق متعددة من الصابئة تندرج ضمن فئتين رئيستين: اصحاب الروحانيات وأصحاب الأشخاص أي عبدة الأوثان (الشهرستاني، **الملل والنحل**، ج ٢، ص ٢٥٩). وذكر ابن الأثير أن أصل مذهب الصابئين هو «عبادة الروحانيين وهم الملائكة لتقربهم إلى الله تعالى زُلفى، فانهم اعترفوا بصانع العالم... إلا أنهم قالوا: الواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى معرفة جلاله وإنما نتقرب إليه بالوسائط المقربة لديه وهم الروحانيون وحيث لم يعاينوا الروحانيين تقربوا إليهم بالهياكل وهي الكواكب السبعة السيارة لأنها مدبرة لهذا العالم عندهم، ثم ذهبت طائفة منهم وهم أصحاب الأشخاص حيث رأوا أن الهياكل تطلع وتغرب وترى ليلاً ولا ترى نهاراً إلى وضع الأصنام لتكون نصب أعينهم ليتوسلوا بها إلى الهياكل، والهياكل إلى الروحانيين؛ والروحانيون إلى صانع العالم» (ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، الجزء الأول، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨، ص ٥٤-٥٥). وعُرف عن الصابئة أنهم «عبدة الكواكب»، لأنهم كانوا يسمّونها أرباباً وآلهة، ويعتبرون الله تعالى رب الأرباب، وإله الآلهة، ومنهم من جعل الشمس إله الآلهة ورب الأرباب. فكانوا يتقربون إلى الهياكل تقرباً إلى الروحانيات، ويتقربون إلى الروحانيات، تقرباً إلى الباري تعالى، لاعتقادهم أن الهياكل أبدان الروحانيات، ونسبتها إلى الروحانيات نسبة أجسادنا إلى أرواحنا، وهي تتصرف في أبدانها تدبيراً وتصريفاً وتحريكاً، كما نتصرف في أبداننا (الشهرستاني، **الملل والنحل**، ج ٢، ص ٣٥٢-٣٥٣ و٣٤٨-٣٤٩). وقد ورد ذكر الصابئة في **القرآن الكريم** ثلاث مرات (سورة البقرة ٦٢؛ المائدة ٦٩؛ الحج ١٧) وأُدرج اسمهم مع أهل الكتاب. وذكر أرثر كريستنسن ان ما ورد في **القرآن الكريم** يعني أصحاب الروحانيات المتأثرين بالغنوصية (أرثر كريستنسن، **إيران في عهد الساسانيين**، منشورات دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢، ص ٢٩).

١- En, XVIII, 4.

٢- خصص الصابئة لكلّ كوكب من «الكواكب» السبعة يوماً معيّناً من الاسبوع من أجل عبادته. فالأحد هو للشمس والاثنين للقمر والثلاثاء للمريخ والاربعاء لعطارد والخميس للمشتري والجمعة للزهرة (البلخي، **البدء والتاريخ**، ج ١، ص ٣٢٦). ولا تزال آثار هذه المعتقدات ماثلة في اللغات الأوروبية الحديثة: **Sunday** يوم الشمس، **Monday** يوم القمر، **Mardi** يوم المريخ، **Mercredi** يوم عطارد أي مركور الخ...

الملائكة في بعض مخطوطات البحر الميت أنهم آلهة، وذُكر أيضاً أن إله اسرائيل هو «رب الآلهة»[1].

وإذا افترضنا جدلاً أن الأسينيين هم حقاً جماعة قمران، وبحثنا في المصادر المتعلقة بهم عن إشارة تؤكد تأثرهم بعبادة الكواكب كقوى روحانية، لوجدنا لدى يوسيفوس إشارتين ربما كانتا على علاقة بهذا المفهوم: أولهما، إجلال الأسينيين للملائكة وعدم السماح بالبوح باسمائهم، وثانيهما توجههم بالصلاة فجراً نحو الشمس. فهل نجد في مخطوطات البحر الميت ما يدلّ على وجود علاقة بين الكواكب السبعة وملائكة الحضرة السبعة؟ وهل اعتقدت جماعة قمران أن الشمس التي تفيض أشعتها الإلهية[2] على البشر، ترمز إلى ميخائيل «أمير الأنوار» ورئيس الملائكة؟

من خلال مراجعة سفر أخنوخ، يُلاحظ أن اسم رئيس الملائكة ميخائيل يتوسّط لائحة تضمّ أسماء رؤساء الملائكة السبعة، وهم على التوالي: أورئيل - رافائيل - رجوئيل - ميخائيل - سريئيل- جبرائيل - رامئيل[3]. وترد تلك اللائحة في الفصل العشرين من سفر أخنوخ الذي ثبت تواجده بين مخطوطات البحر الميت، ما يؤكد قِدَم العقيدة المرتبطة بها.

وبخصوص إيضاح تلك العقيدة، لا بد من معرفة ما يمثّل رئيس الملائكة ميخائيل بالنسبة إلى جماعة قمران. فقد ورد ذكره في سفر أخنوخ أنه «أحد الملائكة القديسين. وقد أوكل على أهل الخير والشعب»[4]، أي بني اسرائيل. وجاء في مخطوطة نظام الحرب أن إله إسرائيل أرسله ليكون عوناً لأبناء البِرّ، فيضيء عهد إسرائيل فرحاً، ويخضع سلطان الكفر بحيث يبسط «إسرائيل» سلطانه «على كلّ بشر»[5]. فإذا كان ميخائيل، وفق مخطوطات البحر الميت، أمير الأنوار والأرفع شأناً بين رؤساء الملائكة، فكيف يرد اسمه في وسط

١- 1QHa, XV, 28; X, 8; 1QM, XVII, 7; XVIII, 6.

٢- ذكر يوسيفوس ان الأسينيّ، عند إراحة نفسه، كان يستر جسده بردائه كي لا يكشف عورته، وذلك احتراماً منه «لأشعّة النور الإلهي» (JOSEPHE, *Guerre*, II, viii, 9, § 148).

٣- En, XX, 1-8.

٤- En, XX, 5.

٥- 1QM, XVII, 5-8.

قائمة ملائكة الحضرة السبعة؟

يبدو ان هناك علاقة بين رؤساء الملائكة السبعة و«الكواكب السبعة» التي تُرى بالعين المجردة، وهي تدور – وفق المعلومات الفلكية في ذلك الزمان – في سبعة أفلاك: «زُحل في الفلك الأول أو الأعلى، والمشتري في الثاني، والمريخ في الثالث، والشمس في الرابع، والزهرة في الخامس، وعطارد في السادس، والقمر في السابع والأدنى»[١]. وقد أُدرجت الشمس ضمن لائحة الكواكب السبعة نظراً لحركتها الظاهرية.

إذاً، هناك مفهوم شائع لدى الشعوب القديمة مفاده أن الشمس تتوسط الكواكب السبعة، بحيث يتماثل موقعها مع موقع ميخائيل، «أمير الأنوار»، الذي يتوسط بدوره ملائكة الحضرة السبعة، وهو الأرفع شأناً بينهم. وربما يفسّر ذلك إحدى عقائد الأسينيين التي ذكرها يوسيفوس تهكماً حين قال إن هؤلاء كانوا يرفعون الصلوات فجراً وأنظارهم شاخصة نحو المشرق لكي تطلّ الشمس عليهم[٢]. فلميخائيل كما للشمس مركز جليل في معتقدات جماعة قمران، كيف لا وهو «أمير الأنوار»[٣]، كما أن الأسينيين أنفسهم هم «أبناء النور». وقد ورد في مديح مرفوع إلى إله إسرائيل: «طلبتُك، وأنت الصبح الحقيقيّ، فظهرت لي في مطلع الفجر»[٤].

ولا شكّ أن الصراع العقائدي بين ملاكي النور والظلمة الذي صبغ الفكر الديني القمراني بثنائيته، يتجسّد أيضاً بتعاقب النهار والليل، أي بسيادة الشمس (النيّر الأكبر) على النهار وأبناء النور، ثم بسيادة القمر (النيّر الأصغر) على الظلمة وأبنائها. وربما لهذا السبب، عمدت جماعة قمران إلى استبدال التقويم القمري الرسمي المعتمد من السلطات الروحية اليهودية

١- بقي هذا التسلسل في ترتيب «الكواكب السبعة» سائداً لمدّة طويلة لدى العديد من الشعوب القديمة. أنظر: القديس يوحنا الدمشقي، **المئة مقالة**، تعريب الأرشمندريت أدريانوس شكور، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٤، ص ١٠١؛ الشهرستاني، **الملل والنحل**، ج ٢، ص ٣١٨-٣٢٠.

٢- JOSEPHE, *Guerre*, II, viii, 5, § 128; 1QS, X, 1.

٣- 1QS, III, 20; CD-A, V, 18; 1QM, XIII, 10.

٤- 1QH[a], XII, 6.

المعاصرة لهم، بتقويم شمسي قديم[1] كان السامريون لا يزالون يحافظون عليه[2]. واعتبرت الجماعة المذكورة أن أعضاءها هم «أبناء النور»، وأنهم خاضعون لسلطة ميخائيل، أمير الأنوار الذي يسود على النيّر الأكبر. أضف إلى ذلك أنهم، بتوجههم في صلواتهم نحو الشمس، خالفوا فريضة مهمة من فرائض الديانة اليهودية التي كانت تحرّم أن تكون وجوه المصلّين متجهة نحو الشرق، وظهورهم نحو الهيكل[3].

ويعتقد مارشال أن إيمان الأسينيين بإله إسرائيل ينفي عبادتهم للشمس[4]، غير أن ممارستهم لهذا الطقس تحوّلت مع مرور الزمن إلى عبادة للشمس ذاتها، كما حصل مع «السامبسيين» وغيرهم من المذاهب اليهودية-النصرانية الهرطوقية التي تأثرت بالأسينيين.

١- اعتمدت جماعة قمران على سنة شمسية تتألف من ١٢ شهراً، وكل شهر من ٣٠ يوماً، بحيث تتوزّع الشهور على أربعة فصول مؤلفة من ٥٢ أسبوعاً. وكانت تضاف أربعة أيام إلى السنة، بمعدل يوم واحد في نهاية كل فصل، فيصبح مجموع أيام السنة ٣٦٤ يوماً. وبفضل هذا التقويم، تمكّن هؤلاء من ضبط جميع أعيادهم بشكل دقيق بحيث أصبحت تقع في اليوم ذاته من كل سنة. تبدأ السنة دورياً يوم أربعاء. ولهذا اليوم مغزى معيّن لدى الأسينيين. ففي اليوم الرابع لنشوء العالم «صنع الله النيّرين العظيمين: النيّر الأكبر لِحُكمِ النهار، والنيّر الأصغر لِحُكمِ الليل... وجعلها الله في جلد السماء لتضيء على الأرض وتفصل بين النور والظلام» (تك ١: ١٦-١٨).

٢- B. RIGAUX, «Esséniens», *Dictionnaire d'Histoire et de Géographie Ecclésiastiques,* sous la direction de R. AUBERT et E. van GAUWENBERGH, tome 15, Paris, 1963, p. 1028.

٣- حز ٨: ١٦.

٤- L. MARCHALL, «Esséniens», *DBS,* tome 2, Paris, 1934, p. 1116.

كانت عبادة الشمس واسعة الانتشار في العالم القديم. فقد عبد المصريون إله الشمس «رع»، كما كانت عبادة الاله «شمش» منتشرة في بلاد ما بين النهرين. وعُبِدت الشمس أيضاً في بلاد كنعان. وكان الفرس يقدمون الذبائح للشمس. وفي بداية العصر المسيحي، كانت عبادة الشمس لا تزال منتشرة في عسقلان وغزة ودمشق وحران. وقد حرّمت الشريعة الموسوية عبادة الشمس والسجود لها وعاقبت من يخالف هذه الوصية بالموت رجماً (تث ٤: ١٦-١٩؛ ١٧: ٣-٥).

رابعاً- الذبائح

لم يكتفِ الأسينيون بمخالفة سنن الآباء بسبب التوجه بالصلاة نحو الشمس، بل خالفوا أيضاً أهم الفرائض التي نصّت عليها الشريعة الموسوية، وهم الذين تشدّدوا بالدعوة لتطبيقها، فكانوا لا يقدمون الحيوانات قرابين لله وفق ما أورده فيلون اليهودي[1] وأكده يوسيفوس بقوله إنهم «يقدّمون قرابينهم على حدة»[2].

ويتوافق مضمون بعض مخطوطات البحر الميت مع ما ذكرته المصادر المتعلقة بالأسينيين حول هذا الموضوع، إذ نجد في «نظام الجماعة» دعوة للتكفير عن «العصيانات المسيئة والخيانات الخاطئة... لا بلحم المحرقات ولا بشحم الذبائح، بل ان تقدمة الشفاه في احترام القوانين تكون رائحة بِرّ مرضية، وكمال الطريق يكون العطيّة الطوعيّة لتقدمة لذيذة»[3]. فالمديح الالهي والسلوك الكامل يكفيان للحصول على رضى «يهوه» ويحلاّن محل الذبائح الدموية.

وربما تأثر الأسينيون لهذه الناحية بنبوّة أشعيا التي جاء فيها: «ما فائدتي من كثرة ذبائحكم يقولُ الربُ؟ قد شبِعتُ من مُحرَقاتِ الكباش وشحم المسمّنات وأصبح دمُ الثيران والحُملان والتيوس لا يُرضيني»[4]. وجاء في نبوّة هوشع أيضاً أن الله يريد «الرحمة لا الذبيحة»[5].

وتؤكد مخطوطات البحر الميت ان الذبائح الدموية لم تكن مرفوضة بشكل مطلق، فدرج الهيكل مثلاً يكرّس فصلاً مهماً للمحرقات اليومية والاسبوعية والشهرية[6]. كما أن مخطوطة «المزامير» تشير إلى الأناشيد التي تُرتّل أمام مذبح محرقة الذبيحة الدائمة في كل يوم من أيام السنة، وفي أثناء تقدمات

١- PHILON, *Quod Omnis,* 75.
٢- JOSEPHE, *Ant. Jud.,* XVIII, i, 5, § 19.
٣- 1QS, IX, 4-5.
٤- اش ١: ١١.
٥- هو ٦: ٦.
٦- 11Q19, XIII, 9 ss.

السبوت وأوائل الشهور والأعياد[1]، ما يعني أن امتناعهم عن تقدمة الذبائح كان أمراً مؤقتاً بانتظار مجيء أورشليم الجديدة التي كانوا يحلمون بمجيئها.

ولكن بماذا استعاض الأسينيون عن ذلك؟

من المرجّح أن المأدبة الطقسية حلّت محلّ الذبائح الدموية.

خامساً - المأدبة الطقسية

تميّزت مآدب الطعام المشتركة في قمران بطابع ديني[2]. وكانت تعتبر مقدّسة، لا بل أكثر قداسة من التطهّر. فلا يحق لطالب الدخول الاشتراك في المأدبة المقدسة إلاّ بعد سنتين من الاختبار، بينما يمكنه الاشتراك في مياه التطهير بعد سنة واحدة فقط[3]. وكان إعداد تلك المآدب يتم بإشراف الكهنة أنفسهم. فالكاهن هو الذي يبارك المأدبة ويتلو الصلاة قبل تناول الطعام وبعده، وهو الذي يحق له أن يمدّ يده أولاً إلى الخبز والخمرة الجديدة[4]. وكان من الواجب على الأعضاء الحاضرين أن يتطهّروا قبل الاشتراك بالمأدبة المقدسة التي يُقصى عنها كل غريب عن الجماعة[5]. كما وجب عليهم ارتداء اللباس الأبيض دلالةً على الطهارة. وهذا ما أضفى على مآدبهم المشتركة مسحة إضافية من القداسة.

كانت المأدبة المقدسة تحصل مرتّين في اليوم: عند الظهر وقبيل الغروب. وكان أفراد جماعة قمران المنتشرين في أنحاء فلسطين يتجمعون في أخويات للاشتراك بالمأدبة المقدسة، شرط ألاّ يقلّ عدد المجموعة الواحدة عن عشرة أشخاص، بينهم كاهن. ولا شك أن تلك المآدب هي استباق للمأدبة الاسكاتولوجية الكبرى التي ستُقام عند مجيء مسيحي هارون واسرائيل في

١- 11Q XXVII, 5-9.

٢- M. DELCOR, «Repas Cultuels Esséniens et Thérapeutes, Thiases et Haburoth», *RQ*, n° 23 (1968), p. 402.

٣- *Ibid.*, p. 418.

٤- 1QS, VI, 4-6; JOSEPHE, *Ant. Jud.*, XVIII, i, 5, § 22.

الخمرة الجديدة (تيروش) هي عصير العنب قبل التخمّر.

٥- JOSEPHE, *Guerre*, II, viii, 5, § 129.

نهاية الأزمنة للمشاركة بها[1].

سادساً- القيامة وخلود النفس

سبقت الإشارة إلى ما ذكره يوسيفوس حول إيمان الأسينيين بخلود النفس، واعتقادهم أن وجودها سابق لوجود الجسد[2]. ويرى مارشال أن الرأي القائل بتواجد النفس السابق لاتحادها بالجسد يتناقض مع المعتقدات اليهودية حول خلود النفس. وهو يدل أيضاً على وجود تأثير خارجي[3]. من جهة ثانية، ذكر هيبوليتس أن الاسينيين يؤمنون بقيامة الأجساد. فأين الحقيقة من هذه المسألة؟

يعتقد «اميل بويش» أن المعطيات الأركيولوجية بالإضافة إلى المعطيات التي قدّمتها مخطوطات البحر الميت وخاصةً «الرؤيا المشيحية» و«منحول حزقيال»، تؤكد إيمان جماعة قمران بقيامة الأجساد، وستتحقق تلك القيامة بمجد، بحسب اعتقادهم، على مثال المجد الذي كان فيه آدم قبل وقوعه في الخطيئة[4].

ويبدو أن أعضاء جماعة قمران تأثّروا بنبوءة حزقيال حول العظام اليابسة التي ترمز إلى بيت إسرائيل بأجمعهم، وقد ورد فيها أن الله سوف يُصعدهم من قبورهم ويجعل روحه فيهم فيحيون[5]. وتشكّل تلك النبوّة، بحسب «ديفوره ديمانت»، رمزاً لقيامة شعب إسرائيل في البُعد السياسي الوطني. لكن كاتب «منحول حزقيال» أعطى ذلك البُعد معنىً جديداً قصد به قيامة حقيقية للجسد بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى[6].

١- 1QSa, II, 17-22.

٢- JOSEPHE, *Ant. Jud.*, XVIII, i, 5; Id., *Guerre*, II, viii, 11, § 154.

٣- L. MARCHAL, «Esséniens», *DBS*, tome 2, p. 1117.

٤- E. PUECH, «Messianisme, eschatologie et résurrection dans les manuscrits de la mer Morte», *RQ*, n° 70 (1997), p. 290-291 et 297; 4Q521, frag. 2, II, 12.

٥- حز ٣٧: ١١-١٤.

٦- Devorah DIMANT, «Resurrection, restoration and time-curtailing in Qumran, early Judaism and Christianity», *RQ*, n° 76 (2000), p. 532; 4Q385, frag. 2, 5-8.

سابعاً - الـ«بقية» و«العهد الجديد»

اعتقد أفراد الجماعة أنهم «البقيّة»[1] المختارة من شعب اسرائيل. هذه «البقية» تدلّ عند عاموس وحزقيال على الجزء المقدس من الشعب الذي أفلت من الضربات التي استحقتها خيانات الشعب عامةً[2]. فبسبب الخيانة التي اقترفوها حين تركوا يهوه، «مال بوجهه عن إسرائيل وعن هيكله وأسلمهم إلى السيف. ولكن حين تذكر عهد الأولين، ترك بقيّة لإسرائيل ولم يسلمهم إلى الدمار»[3].

وقد تحدّث النبي صفنيا عن تلك «البقية» المختارة في أثناء كلامه على يوم دينونة أورشليم، فقال: «في ذلكَ اليوم... أبقي في وَسطك شعباً وضيعاً فقيراً، فتعتصِمُ باسم الربِّ بَقِيّةُ إسرائيل. لا يرتكبونَ الظلم ولا ينطقون بالكذب ولا يوجدُ في أفواهِهم لِسانُ مَكرٍ...»[4]

ربما اعتقد أعضاء جماعة قمران أنهم المقصودون بالآيات المذكورة أعلاه. فكلمة «فقراء»[5] (ابيونيم)، هي من الأسماء المحبّبة لديهم، خاصةً لِما اشتهروا به من تقشّف وتواضع وبساطة في الحياة. وقد اعتقدوا أنهم «حصة إيل»[6]، المحافظون على عهده والعاملون بمشيئته.

ويوجد ارتباط وثيق بين مفهومي «البقية» و«العهد» مع إله إسرائيل، بالنسبة إلى جماعة قمران. فقد ذكر كاتب وثيقة دمشق أنه «بفضل الذين ظلّوا متمسّكين بوصايا إيل وظلّوا بقيّة على قيد الحياة، أقام إيل عهده مع إسرائيل إلى الابد»[7]. وباعتقاد هؤلاء أنهم يمثّلون «العهد الجديد»[8] الذي تنبأ

١- 4Q161frag. 1, 23; 1QHª, VII, 26; 1QM, XIII, 8; XIV, 8-9; CD-A, I, 4; II, 11-13.

٢- عا ٥: ١٥؛ ٩: ٨-١٠؛ حز ٦: ٨-١٠؛ ٣٣: ٢٣-٢٩.

٣- CD-A, I, 3-5.

٤- صف ٣: ١١-١٣

٥- 4Q171, I, 21; III, 10; 4Q418, frag. 9, 6.

٦- 1QS, II, 2.

٧- CD-A, III, 12-13.

٨- CD-A, VI, 19 ; VIII, 21; 1QpHab, II, 3.

به إرميا عند حلول آخر الأزمنة[1].

انطلاقاً من هذا المعتقد، تصوّر أعضاء الجماعة أن «يهوه» كشف لهم الشريعة الحقيقية المتجسّدة في هذا العدد الهائل من المخطوطات التي تُدرج عادةً تحت اسم «المخطوطات التوراتية المنحولة». وبفضل العهد الجديد الذي ارتبط به «يهوه» معهم، كشف لهم الخفايا التي بسببها ضلّ إسرائيل كلّه، أي سبوته المقدّسة وأعياده المجيدة[2].

ثامناً- الأعياد

أعياد الأسينين هي بشكل عام الأعياد اليهودية التقليدية، وهي كما يلي:

- الفصح : مساء الثلاثاء في الرابع عشر من الشهر الأول.
- الحزمة الباكورة: يوم الأحد، في السادس والعشرين من الشهر الأول.
- الفصح الثاني: مساء الرابع عشر من الشهر الثاني. ويحتفل اليهود بهذا العيد في حالات خاصة[3].
- عيد الاسابيع: الأحد، في الخامس عشر من الشهر الثالث. وهو العيد الأهمّ بنظر الأسينين لأنه يوم تجديد العهد.
- يوم التذكار: الأربعاء، في اليوم الأول من الشهر السابع.
- يوم التكفير: الجمعة، في اليوم العاشر من الشهر السابع.
- عيد الأكواخ: الأربعاء، في الخامس عشر من الشهر السابع[4].

وهناك أعياد أخرى، منها:

- عيد «الخمرة الجديدة»: يقع يوم أحد، في اليوم الثالث من الشهر الخامس.

١- جاء في نبوءة إرميا: «ها إنها تأتي أيام، يقول الرب، أقطع فيها مع بيت إسرائيل (وبيت يهوذا) عهداً جديداً، لا كالعهد الذي قطعته مع آبائهم، يوم أخذت بأيديهم لأخرجهم من أرض مصر... ولكن هذا العهد... هو أني أجعل شريعتي في بواطنهم وأكتبها على قلوبهم، وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً» (ار ٣١: ٣١).

٢- CD-A, III, 14.

٣- 1QSb, I, 1-3؛ عد ٩: ٩-١٢.

٤- M. DELCOR, «Qumran: Doctrine des Esséniens», *DBS*, tome 9, p. 959.

ولا ذِكر لهذا العيد في كتب التوراة[1].

- عيد الزيت: يقع في الثاني والعشرين من الشهر السادس، وهو ذو طابع زراعي.

والجدير ذكره أن أيام الاحتفال بالأعياد المذكورة أعلاه كانت محدّدة وثابتة على مدار السنة بسبب اعتماد الأسينيين على تقويم شمسي جعل من السنة ٣٦٤ يوماً ومن الفصل الواحد ١٣ اسبوعاً أي ما مجموعه ٩١ يوماً، بحيث كان يُعرف مسبقاً اليوم الذي يقع فيه كل عيد[2]. وقد أشار كاتب «نظام الجماعة» إلى الدقة المتناهية في تعيين الأعياد وبدايات السنين والفصول، فقال: «أبارك (إيل) بتقدمة الشفتين، حسب المرسوم الذي نُقش إلى الأبد: في بدايات السنين وفي دوران الفصول السنوية، ساعة يتمّ المرسوم الذي يعيّن للفصول تاريخاً محدداً، في يوم منظّم لكل منها...»[3].

من جراء اعتماد الأسينيين على التقويم الشمسي، تغيّرت أوقات احتفالاتهم بالأعياد المشتركة بينهم وبين الطوائف اليهودية المعاصرة لهم، لأن تلك الطوائف كانت تعتمد على التقويم الرسمي القمري. وهذا أحد أوجه الخلاف بين الأسينيين وكهنة الهيكل.

تاسعاً- معلم البرّ، النبي، وعقيدة الإمامة

معلّم البرّ هو مؤسس جماعة قمران، وقد أقامه «يهوه» لكي يبني له جماعة مختاريه[4].

تنحصر رسالة معلّم البرّ بإعلان مجيء نهاية الأيام التي تنبّأ بها الأنبياء.

١- 11Q19, IXX, 11-15; A. CAQUOT, «Rouleau du Temple», *B.E.I.*, p. 80, note 14.

٢- J. van der PLOEG; D. BARTHELEMY, O. BETZ (et al.), *La secte de Qûmran et les origines du Christianisme,* (Journées bibliques de Louvain, 9, 1957), (Recherches Bibliques, IV), Paris, 1959, p. 114.

٣- 1QS, X, 6-7.

٤- 4Q171, III, 15-16.

وتعتقد الجماعة أنه تلقى تعاليمه من فم الرب، كالأنبياء تماماً[١]. وربما كان معلّم البرّ النبي المقصود في مخطوطة «نظام الجماعة»[٢] فقد كان كاهناً[٣] منحه «إيل» موهبة المعرفة، فعَلِمَ بواسطة الوحي الإلهي تفسير النبوءات[٤]. ومن المرجح أنه كان متشدّداً في تطبيق الشريعة الموسوية. وقد آمن عدد من الناس برسالته، ولم يصدّقه آخرون. وكان أعضاء الجماعة واثقون بوجود مسافة لامتناهية تفصله عن إله اسرائيل[٥]؛ كما أنهم كانوا على يقين تام أنه ليس المسيّا المنتظر.

درّب معلّم البرّ صحابته على معرفة «الأسرار العجيبة»[٦] وأوضح لهم جوهر الشريعة وكيفية تطبيقها بشكل صحيح، فتعرّض للاضطهاد على يد «الكاهن الشرير»[٧]. ويرمز هذا الأخير إلى كبير الكهنة في هيكل أورشليم[٨]، وربما أيضاً إلى منصب كبير الكهنة بشكل عام. وتذكر بعض المخطوطات أن الكاهن الشرير «ترصّد البار وقتله»[٩]. ويظهر أن «بيت أبشالوم»، وهم من صحابة معلّم

١- J. DANIELOU, *Les manuscrits de la mer Morte et les origines du Christianisme*, Paris, 1974, p. 53-54.

٢- ورد في نظام الجماعة (1QS, IX, 10-11) ما معناه أن أعضاء الجماعة كانوا يسيرون بموجب الترتيبات الأولى التي بدأوا فيها يتعلمون «حتى مجيء نبيّ ومسيحي هارون وإسرائيل». هذا الاعتقاد بمجيء النبي هو توراتي المصدر (تث ١٨: ١٥). فالنبي يمهّد لمجيء مسيحي هارون وإسرائيل المتوقع في نهاية الأيام، فهو ينذر بمجيئهما في حين أنهما يأتيان فعلاً في زمن واحد. وبالتالي فإن معلم البرّ والنبي هما ممهدان لمجيء نهاية الأزمنة. والجدير ذكره أن مخطوطة نظام الجماعة تتحدث فقط عن ثلاث شخصيات اسكاتولوجية: النبي ومسيحي هارون وإسرائيل؛ وبالمقابل فإن وثيقة دمشق تتحدث عن معلم البر ومسيحي هارون وإسرائيل، كما أنها تتوقع مجيء معلم برّ في نهاية الأيام (CD-A, 6:11)، دون أن تشير مطلقاً إلى مجيء النبي في الفترة المذكورة. لذلك يحتمل ان يكون معلم البر والنبي شخصية واحدة.

٣- 1QpHab, II, 8; 4Q171, III, 15.

٤- 1QpHab, VII, 4-5.

٥- J. DANIELOU, *op. cit.*, p. 59 et 79.

٦- $1QH^a$, X, 13; XII, 27; XIII, 25.

٧- 1QpHab, 11: 4.

٨- BURROWS, *Manuscrits*, p. 160-161.

٩- 4Q171, IV, 8.

البر، آثروا الصمت حين جرى عقابه[1]. لكن «يهوه» جازى الكاهن الشرير فسلّمه «إلى أيدي لصوص الأمم ليمارسوا فيه الانتقام»[2].

وتتحدث وثيقة دمشق في نصّين مختلفين عن معلّم البِرّ، نوردهما من أجل تحديد العقيدة المرتبطة بهما. جاء في النصّ الأول ما يلي:

«...وفي زمن الغضب، **ثلاث مئة وتسعون سنة بعد أن أسلمهم إلى يد نبوخذنصر**، تفقّدهم [إيل] وأنمى من إسرائيل وهارون جذر نبتة لترث أرضه ولتسمن من خيرات ترابه. فهموا شرّهم وأقرّوا أنهم كانوا خطأة. ولكنهم كانوا كعميان وكأناس يتلمّسون طريقهم مدة **عشرين سنة**. ونظر إيل إلى أعمالهم لأنهم طلبوه بقلب كامل. وأقام لهم **معلّم بر** ليقودهم في طريق قلبه، وليعرّف الأجيال الأخيرة ما سيفعله للجيل الآتي، لحلقة الخونة»[3].

أما في النص الثاني من وثيقة دمشق فقد ورد ما يلي:

«فالبئر هي الشريعة... وعصا المشترع هي عصا طالب الشريعة... وأشراف الشعب هم الذين يأتون ليحفروا البئر بعون الفرائض التي أعلنها المشترع لكي يسيروا فيها طوال كل زمن الكفر. وخارجاً عنها لا ينجحون في حفر البئر حتى **مجيء الذي يعلّم البرّ في نهاية الأيام**»[4].

من خلال مقارنة النصّين أعلاه، يبدو معلّم البرّ في النصّ الأول كشخصية تاريخية برزت في إحدى حقبات الاضطهاد السابقة لبني إسرائيل. فمن المعروف أن الملك الكلداني نبوخذنصر الثاني (٦٣٠؟-٥٦١؟ ق.م.) دمّر أورشليم سنة ٥٨٦ ق.م. وسبى اليهود إلى بابل. ويعتبر هذا التاريخ مفصلاً مهماً في تاريخ الشعب اليهودي. وقد استوحى الكاتب الرقم ٣٩٠ من (حز ٤: ٥) ليضفي لمحة نبويّة على أقواله، ثم أضاف مدة الـ ٢٠ سنة التي تلمّست الجماعة فيها طريق الخلاص، ملمّحاً بذلك إلى تواجد معلّم البِرّ التاريخي بعد (٣٩٠+٢٠) سنة من السبي البابلي، فحدّد بذلك زمن تواجد معلّم البرّ التاريخي في الحقبة الممهّدة للحرب المكابية. وربما قصد صاحب النص

١- 1QpHab, V, 9-10.

٢- 4Q171, 4: 9-10.

٣- CD-A, I, 3-12.

٤- CD-A, VI, 8-11.

الإشارة إلى الكاهن متّيا[1] الذي مثّل دوراً مهماً في الحفاظ على الشريعة الموسوية ومنع تهلين الشعب اليهودي خلال تلك الحقبة المضطربة من تاريخ فلسطين.

أما في النص الثاني من وثيقة دمشق، فقد أشار الكاتب إلى مجيء «الذي يعلّم البرّ» في نهاية الأيام. ولا يجد «كرمينياك» في هذه العبارة ما يؤكد عودة معلّم البر نفسه، أي مؤسس الجماعة، في نهاية الأزمنة[2]، لأن هذا الأخير مات في بداية المرحلة التأسيسية لجماعة قمران[3]. فمن المحتمل إذاً أن يكون معلّم البرّ في النص الثاني غير الشخصية التاريخية التي جاء ذكرها في النصّ الأول، إذ تعتقد جماعة قمران أنه في جميع الأزمنة، «أقام [إيل] أناساً سُمّيت بأسماء ليبقي بقيّة على الأرض ويملأ سطح الكون بنسلهم»[4]. فالإيمان بوجود بقيّة في الأزمنة جميعها يتلازم مع الاعتقاد بوجود راعٍ أو معلّم يوجّه تلك البقية في الطريق الصحيح وفق وصايا «يهوه» وفرائضه. وهذا يضعنا أمام عقيدة تشكّل حلقة مفقودة في أصول إحدى العقائد المهمة لدى العديد من المذاهب والأديان، عنينا بذلك عقيدة الإمامة[5].

١- هو متتيا بن يوحنا بن سمعان الذي شنّ حرباً مقدسة على الملك السلوقي انطيوخس الرابع ابيفانس (١٧٥-١٦٤ ق.م.) بسبب دعوة هذا الأخير إلى الغاء الشريعة الموسوية والعودة إلى عبادة الاصنام (١ مك ١: ٤١ وما يليها).

٢- J. CARMIGNAC, «Le Retour du Docteur de Justice à la fin des jours?», *RQ*, n° 2 (1958), p. 247-248.

٣- 1QpHab, XI, 4-5, 4Q171, IV, 8; CD-B, I, 35 - II, 1, 13-15.

٤- CD-A, II, 11-12.

٥- الإمامة، وفق تعريف محمد رضا المظفر، هي «كالنبوّة لطف من الله تعالى، فلا بد أن يكون في كل عصر إمام هادٍ يخلف النبي في وظائفه من هداية البشر وإرشادهم إلى ما فيه الصلاح والسعادة... والإمام كالنبي يجب ان يكون معصوماً من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن، من سنّ الطفولة إلى الموت، عمداً وسهواً. كما يجب أن يكون معصوماً من السهو والخطأ والنسيان، لأن الأئمة حفظة الشرع والقوّامون عليه حالهم في ذلك حال النبي» (محمد رضا المظفر، **عقائد الإمامية**، عُني بنشره السيد مرتضى الرّضوي، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٥٦-٥٧). ويعتقد المسعودي أن عقيدة الإمامة تعود إلى زمن آدم الذي جعله الله إماماً عند الملائكة. ثم انتقل نور الإمامة من بعد آدم إلى ابنه شيث ثم إلى أنوش بن شيث وغيرهم. وقال ما معناه إنه لم يخل عصر من الأعصر من قائم لله بحق، إما أنبياء وإما أوصياء (المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ١، ص ٣٦ و ٤٠-٤١).

الفصل الثاني

الآمال المشيحية والنزعة الأصولية في مخطوطات البحر الميت

أولاً- الجذور التوراتية لمفهوم الزمن المشيحي

كلمة «مسيح» هي لفظة عبرية تعني الممسوح من الله[1]. والمسح في التوراة هو صب الزيت او الدهن المقدس على الشيء لتكريسه لخدمته تعالى. ففي الأزمنة الغابرة، عندما كان بنو اسرائيل يشعرون بوجود خطرٍ يهدّد شريعتهم أو كيانهم، كانت تنتعش الآمال لدى جماعات منهم بقرب مجيء المسيح، أي المسيّا المنتظر، ليحرّرهم من مضطهديهم ويعيد المجد لملكة داود.

تشكّل الحقبة المشيحية (messianisme) التي تنتعش فيها الآمال لدى اليهود بقرب مجيء المسيّا المنتظر، ركناً أساسياً من المرحلة الاسكاتولوجية. كما أن المفهوم اليهودي لنهاية الأزمنة لا يعني نهاية العالم، بل هو محطة مهمة من تاريخ البشرية، تمهّد الطريق لبداية عصر جديد يتحقق فيه الملكوت الأرضي لله، فيصبح ملك العالمين لـ«يهوه» ومسيحه.

١ - المسيّا في التوراة

يوجد في التوراة عدد من النصوص المتعلّقة بالمسيّا الذي يترقّبه اليهود في نهاية الأزمنة. نذكر منها ما جاء في سفر التكوين: «لا يزول الصَّولجان من يهوذا ولا عصا القيادة من بين قدميه إلى أن يأتي صاحِبُها، وتطيعه الشعوب»[2]. وجاء في سفر العدد: «يَخرُج كوكَبٌ من يعقوب ويقومُ صولجانٌ من إسرائيل فيُحطِّمُ صُدغَي موآب وجُمجُمَةَ جميع بني شِيت...»[3]. ويتبيّن من

١- مز ٤٥: ٧ ؛ اش ٦١: ١.

٢- تك ٤٩: ١٠-١٢.

٣- عد ٢٤: ١٧. كان الكوكب يرمز، لدى سكان بلاد ما بين النهرين القدماء، الى الملك المؤلّه (A. GELIN, «Messianisme», *DBS*, tome V, Paris, 1957, p. 1174). كما كان يرمز ظهور نجم جديد عند المجوس الى ولادة ملك (متى ٢: ١-٢).

سفر صموئيل الثاني أن المسيّا هو من صُلب داود وسيكون عَرش مُلكِه ثابت للأبد[1]. وتنبأ حزقيال بمجيء المسيّا، فقال: «خراب خراب خراب، هذا ما سأصنعه، لم يكن مثلُ هذه الحال، إلى أن يأتي الذي له الحُكمُ، فأجعَله له»[2]. ويشير المزمور الثاني إلى أن «ملوك الأرضِ قاموا والعُظماء على الربِّ ومَسيحِهِ تآمروا»، ذلك المسيّا الذي مسحه الله مَلِكاً على جبل صهيون، وأعطاه «الأمَمَ ميراثاً وأقاصي الأرض مِلكاً. بِعصاً من حديدٍ تُكَسِّرُهم وكإناءِ خزّافٍ تُحَطِّمُهم»[3]. فإذا كان المسيّا يكسّر أعداءه بعصا من حديد ويحطّمهم كإناء خزّاف، فهذا يدلّ على اشتراكه في معركة الزمن الأخير التي يشتعل فيها غضب الله على أعدائه.

وتنبأ أشعيا بأنه سوف «يخرج غُصنٌ من جِذع يَسَّى، وينْمي فرعٌ من أصولِه... يَضرِبُ الأرض بقضيب فَمِه، ويميتُ الشرّير بِنَفَسِ شَفَتيه...»[4].

«يسّى» هو والد النبي داود، والمسيّا المقصود في هذه النبوءة هو نسل داود الذي يتربع على عرش داود ومملكته، فيقضي على الشرير ويحقق السلام إلى الأبد.

وتنبأ إرميا حول مجيء المسيّا، فقال: «ها إنّها ستأتي أيَّامٌ، يَقولُ الرّب، أقيم فيها لِداودَ نَبْتاً بارّاً، ويملِكُ ملك يتصرّفُ بفِطنة، ويُجري الحُكمَ والبِرَّ في الأرض. في أيّامِه يُخَلَّصُ يَهوذا ويَسكُن إسرائيل في أمان...»[5].

فمن هذه النصوص وسواها من النبوءات التوراتية تولّدت لدى اليهود عبر العصور عقيدة المسيّا المنتظر. وعندما كانت جماعات منهم ترى في تفاقم الشر سبباً للاعتقاد بحلول الزمن الأخير، كانت ترحل إلى البرّية والأماكن النائية وتستعد لمجيء إله إسرائيل من أجل تجديد العهد بينه وبين شعبه[6]. فاليهود، بشكل عام، يعتقدون أن إله إسرائيل سيعيد المُلك الى أورشليم في

١- ٢ صم ٧: ١٢-١٣ و١٦.

٢- حز ٢١: ٣٢.

٣- مز ٢: ٢ و٦ و٨ و٩.

٤- اش ١١: ١-٤؛ ٩: ٥.

٥- ار ٢٣: ٥-٦.

٦- حز ٢٠: ٣٥؛ ار ٣١: ٣١-٣٤.

نهاية الأزمنة ويقيم «كوخ داود الذي سقط»[1]، وسوف تَسحَقُ مملكة داود جميعَ الممالِك، أما هي فسوف تَثبُتُ للأبَد[2]. ومن أجل إنشاء تلك المملكة، يرسل «يهوه» إلى شعبه وقدّيسيه مَلِكاً من نسل داود، يمتاز بالقوة والحكمة والفضيلة، ويقضي بالعدل. غير أن ملوك الأرض يتآمرون عليه فيحشدون جيوشهم ضدّه ويتهيّأون للمعركة الأخيرة، فينتصر مسيح إسرائيل على جميع أعدائه ويسحقهم. ومع هذا الانتصار يبدأ عصر جديد من السلام والاستقرار، ويغدو المسيّا «راية للشعوب»[3]، وتصير أورشليم محطّ أنظار الدنيا، لأن «يهوه» سوف يستبدل أورشليم القديمة بأخرى جديدة[4]، ثم يأتي ويسكن في وسطها[5].

٢- «يوم الرب» والحرب المقدسة

تعني عبارة «يوم الرب» في الأسفار التوراتية، نكبةً أو خلاصاً تاريخياً يقع عند نقطة محددة من تاريخ يستمر تطوّره كما في السابق[6]. ويتميّز ذلك اليوم العظيم الذي لا مثيل له، بحدثين مزدوجين: عقاب يهزّ البنى الأساسية لشعب إسرائيل ولجميع الأمم، يلي ذلك افتتاح عصر جديد يتميّز بالهناء والاستقرار[7]. وفي ذلك اليوم أيضاً يتحرّر شعب إسرائيل من نير الأغراب المحتلّين للبلاد[8]، وتتوارى الشعوب من أمام رعب الربّ وبهاء عظمته حين يقوم

١- مي ٤: ٨؛ عا ٩: ١١.

٢- دا ٢: ٤٤.

٣- اش ١١: ١٠.

٤- اش ٥٤: ١١؛ حج ٢: ٩.

٥- زك ٢: ١٤.

٦- P.-E. LANGEVIN, *Jésus Seigneur et l'eschatologie: Exégèse de textes prépauliniens,* (Studia, Travaux de recherche, collection dirigée par les Facultés S. J. de Montréal avec la collaboration de l'Université de Sudbury, 21), Bruges-Paris, 1967, p. 125.

٧- *Ibid.*, p. 127.

٨- ار ٣٠: ٨.

ليزلزل الأرض[1]. ويكون ذلك اليوم يوم غضب وانتقام[2]، وفيه يمتلئ سيف الرب دماً[3]. فهو على مثال حرب يشنّها إله إسرائيل ضد أعداء شعبه، وضد الخطأة منهم، في محاولة لإرجاعهم إليه. ويتميّز ذلك اليوم بنتائجه العظيمة، إذ يطال جميع الأمم ويحدّد مصيرها نهائياً[4]، بحيث يصبح «يهوه» مَلِكاً على الأرض كلِّها[5].

لاحظ «لانجفان» أن الله يظهر في أخبار حروب إسرائيل المقدسة كسيّد للمعركة؛ فهو الذي يُعلن الحرب، ويسير على رأس الجيوش، ويتجوّل في المخيم، ويشترك في القتال، ويتصرف كرجل حرب[6]، فيُسلم الأعداء لأيدي شعبه وينصره عليهم. والأمر ذاته ينطبق في الزمن الاسكاتولوجي عند اندلاع حرب آخر الأيام التي تُعتبر خاتمة الحروب المقدسة[7] وأعظمها.

يصف دوفو الحرب المقدسة في تاريخ بني إسرائيل فيذكر أنها تتميّز بطقوس معيّنة. فهي تجري كالاحتفال حيث يلعب الكهنة واللاويون دوراً مهماً. فالشعب هو «شعب الله»، والجنود هم متطوعون مدعوّون لحرب الله. وفي المعركة يُكتب على الأعلام والبيارق: «يمين الله»، «عراك الله»، «مذبحة الله». وفي الواقع، يدعى الله «المِقدام في المعركة». وهو يمشي مع المؤمنين برفقة جيوش من الملائكة، لأن «يد الله مرفوعة ضد بليعال ومملكته»[8].

ويتبيّن من مراجعة النصوص التوراتية أنه عندما كان شعب إسرائيل يستعدّ لحرب مقدسة، يُدعى حينذاك «شعب يهوه» أو «فيالق الله» أو «جيوش يهوه»[9]. ومن فروض تلك الحرب، المحافظة على نقاوة المخيّم وبقاء المقاتلين

١- اش ٢: ١٩.

٢- صف ١: ١٥ و ١٨؛ ار ٤٦: ١٠.

٣- اش ٣٤: ٦.

٤- P.-E. LANGEVIN, *Jésus Seigneur et l'eschatologie,* p. 166.

٥- زك ١٤: ٩.

٦- P.-E. LANGEVIN, *op. cit.,* p. 162-163.

خر ١٥: ٣؛ قض ٤: ١٤؛ ٢ صم ٥:١٤ ؛ تث ١: ٣٠ ؛ ٣: ٢٢؛ ٢٠: ١-٥ .

٧- P.-E. LANGEVIN, *op. cit.,* p. 166.

٨- R. de VAUX, *Les Institutions de l'Ancien Testament,* vol. 2, Paris, 1982, p. 85.

٩- قض ٥: ١٣ و ٢٠: ٢؛ ١ صم ١٧: ٢٦؛ خر ١٢: ٤١.

بحالة طهارة طقسية دائمة[1]. فقد جاء في سفر التثنية:

«إذا خَرَجْتَ في جيش على أعدائك، فاحفظْ نفسك من كلِّ أمرٍ سيِّئ. إذا كان فيك رجل ليس بطاهرٍ من سَيَلانٍ مَنَويٍّ في الليل، فليخرجْ إلى خارج المخيّم ولا يدخل إلى داخله. وعند اقتراب المساء، يستحمّ في الماء، وعند غروب الشمس يدخل إلى داخل المخيّم»[2].

فالماء يطهّر الجسد من نجاسته[3]. والمحافظة على طهارة المخيّم خلال الحرب المقدسة أمر واجب لأن «يهوه» مقيم في وسطهم[4]، وملاك الرب يسير أمام عسكر بني إسرائيل[5].

لذلك، فإن تواجد «يهوه» وملائكته في وسط المعسكر يلزم شعب إسرائيل الطهارة والقداسة والعفة[6]، والابتعاد عن كل رجاسة ودناسة، لكي يبقى المعسكر مقدساً ويتمكن «يهوه» من البقاء مع جنوده[7]، لأن حروب بني اسرائيل هي «حروب يهوه»[8]. وهكذا يذهب المحاربون إلى ساحة القتال وهم واثقون من النصر، لأن إله إسرائيل سوف يسلّم أعداءهم إلى أيديهم[9].

٣- تطوّر عقيدة المسيّا

لاحظ «شورر» أن الوعي الديني لدى الشعب اليهودي مرّ بمرحلتين: الأولى هي على المستوى الوطني، أي أنها لا تتعدى الإطار الجغرافي للأرض المقدسة؛ وفيها كان انتظار المسيّا والدينونة موجهاً بشكل خاص نحو مستقبلٍ أفضل للأمة. فقد كان رجاء أنبياء ما قبل السبي ان تتطهّر الأمة اليهوديّة من الناحية الأخلاقية وتتخلّص من جميع عناصرها السيئة، فتنمو بين الأمم

١- يش ٣: ٥؛ ار ٦: ٤ و ٢٢: ٧.

٢- تث ٢٣: ١٠-١٢.

٣- اح ١٥: ١٦ و ١٦: ٢٨.

٤- تث ٧: ٢١-٢٢.

٥- خر ١٤: ١٩؛ ٢٣: ٢٠؛ ٣٢: ٣٤؛ ٣٣: ٢.

٦- ١ صم ٢١: ٦؛ ٢ صم ١١: ١١.

٧- تث ٢٣: ١٠-١٥.

٨- ١ صم ١٨: ١٧؛ ٢٥: ٢٨؛ خر ١٥: ٣.

٩- يش ٦: ٢؛ ٨: ١.

الوثنية بدون مضايقة، وتنعم بكل احترام، ويتم القضاء على أعدائها أو إجبارهم على الإقرار بشعب إسرائيل وربّه، ويحكم الشعب اليهودي ملك من نسل داود، يكون قوياً وعادلاً وحكيماً، فيسود العدل والسلام والفرح. ثمّ في مرحلة متأخرة غير محدّدة من تاريخ بني إسرائيل، توسّع إطار تلك العقيدة ليشمل العالم بأسره. فالدينونة تحصل على يد الله أو مسيحه، المسيح الملك، الذي يقرر مصير البشر والأمم[1]. كما لاحظ «بونسرفن» أن عقيدة انتظار المسيّا، في كلّ مراحل تطوّرها، مرتبطة بمبدأ التحرّر. فالتحرّر هو العنصر الضروري الرئيس والمحدد للأزمنة المشيحية وفقاً للقول المأثور الصادر عن الرابي صموئيل (المتوفي سنة ٢٥٧ م.): «بين هذا العصر وزمن المسيّا، لا فرق سوى عبودية الأمم»[2].

بعد هذا العرض الموجز لعقيدة المسيّا المنتظر لدى اليهود التي تكوّن محور الحقبة الاسكاتولوجية لا بد من التساؤل عن موقع مخطوطات البحر الميت من العقيدة المذكورة.

ثانياً- موقع مخطوطات البحر الميت من الحقبة الاسكاتولوجية

يتوافق مفهوم جماعة قمران لناحية الآمال المشيحية والحقبة الاسكاتولوجية مع المفهوم اليهودي العام لنهاية الأزمنة، وهو يشكل استكمالاً للنبوءات التوراتية. فمنذ نشوء تلك الجماعة، أدرك أعضاؤها أنهم كانوا يعيشون حقبة «الأيام الأخيرة» التي يرد ذكرها في مخطوطاتهم أكثر من ثلاثة وثلاثين مرة[3].

١- Emil SCHÜRER, *The History of the Jewish People in the Age of Jesus Christ*, vol. 2, Edinburgh, 1979, p. 493.

٢- Joseph BONSIRVEN, *Le Judaïsme palestinien au temps de Jésus-Christ*, Paris, 1950, p. 182.

٣- Annette STEUDEL, «The end of the days in the Qumran texts», *RQ*, n° 62 (1993), p. 227.

١ - الطابع المشيحي الاسكاتولوجي

ترد في مطلع «سفر أخنوخ» فكرة تفقّد إله إسرائيل لشعبه وظهوره في وسط معسكرهم خلال الدينونة الكبرى[١]، كما يصف السفر المذكور دينونة ملوك الأرض والحكام الذين سيفقدون السلطة ويُقتلون بعد وقوعهم بأيدي الأبرار والقديسين[٢]. بعد ذلك يتنعّم الأبرار بالنعمة والسلام ويرثون الأرض[٣]، ثم يُطوى المسكن القديم ويقوم مكانه مسكن جديد، أكبر من السابق[٤]، أي أورشليم الجديدة، فيبدأ عصر من النور لا نهاية له ، لأن الظلمة تكون قد زالت[٥].

وفي «وصية لاوي»، يُلاحظ أن ترقّب اللاويين لتسلّم وظيفة الكهنوت[٦] في أورشليم الجديدة، يتوافق مع ترقّب جماعة قمران لمجيء مسيحي إسرائيل وهارون، أي المسيح الملك والمسيح الكاهن، وبالتالي تندرج تلك المخطوطة ضمن إطار الزمن المشيحي.

وهناك الكثير من العبارات والإشارات في مخطوطة «نظام الجماعة» التي تؤكد ان أعضاء جماعة قمران كانوا يعيشون ضمن حقبة اسكاتولوجية. فهذه المخطوطة تصنّف البشر فئتين: أبناء النور وأبناء الظلمة. وأبناء النور هم أعضاء الجماعة أنفسهم لأنهم حافظوا على العهد[٧] وراحوا يستعدّون ليوم الانتقام[٨] من أعداء «يهوه» ومخالفي عهده.

وتجدر الإشارة إلى أن «ملحق نظام الجماعة» و«كتاب المباركات» يتعلّقان بالزمن المشيحي وآخر الأيام، لأنهما يؤكدان قناعة جماعة قمران باقتراب مجيء المسيح الكاهن والمسيح الملك[٩] اللذين ستخضع لسلطتهما شعوب الأرض

١- En, I, 3-9.
٢- En, XXXVIII, 4-5.
٣- En, V, 7-8.
٤- En, XC, 28-29.
٥- En, LVIII, 3-6.
٦- 4Q213b, 6.
٧- 1QS, I, 16 et 19-20.
٨- IQS, I, 1I; II, 6.
٩- 1QSa, II, 11-17.

في نهاية الأزمنة[1]. كما يدور موضوع «نظام الحرب» حول الحرب الاسكاتولوجية بين أبناء النور وأبناء الظلمة. وقد فصّل الكاتب جميع الخطط الحربية التي يجب اتّباعها خلال مراحل تلك الحرب. وباعتقاده أن مذبحة كبيرة سوف تحصل أمام إله إسرائيل بحيث يتمّ إفناء أبناء الظلمة من على وجه البسيطة. وتلك الحرب الاسكاتولوجية هي مقدّسة، لأنها حرب «يهوه». كما تشير المخطوطة ذاتها إلى حلول يوم الرب العظيم ضدّ أبناء الظلمة الذي حدّد «يهوه» موعده منذ القِدَم[2]؛ فذلك اليوم هو يوم محنة على بني إسرائيل في الحرب التي ستندلع ضد الأمم[3]. وتشير المخطوطة أيضاً إلى المسيّا الذي سيأتي ليضرب الأمم بسيفه، ويملأ أرض شعبه مجداً وبركة، ثم يؤسّس مملكة أبدية تسود أورشليم فيها على الممالك والشعوب، فتأتي اليها كنوز الأمم، ويخدمها ملوك الأرض[4].

وتتضمن مخطوطة «المدائح» إشارة إلى الحرب الإسكاتولوجية الوشيكة الحصول[5]. فقوى الشر المسؤولة عن الاضطهاد اللاحق بأبناء النور، سوف تهجم، في ذروة غضبها، لإحداث الضربة الكبرى. حينئذٍ يسلّط إله إسرائيل سيفه ليدين الأمم، ويستيقظ أبناء الحق كلّهم ليدمّروا[6]. فالحرب هي حرب «يهوه» الذي يظهر قوّته في تلك «البقية» التي اختارها من شعبه[7]، أي جماعة قمران، وهذا يثبت اضطلاع تلك الجماعة بدور عسكري محدّد في حرب نهاية الأزمنة التي اعتقدوا أنها وشيكة الحصول، وتخيّلوا أنها سوف تنتهي بالقضاء على الأشرار جميعاً، فينعم العالم بسلام أبديّ.

وفي «وثيقة دمشق»، تكثر الإشارات الدالّة على أن جماعة قمران كانت تعيش مرحلة الزمن المشيحي وتترقّب مجيء المسيّا الخارج من هارون وإسرائيل[8]؛ كما

١- 1QSb, III, 18; V, 27-28.

٢- 1QM, I, 9-10; III, 2-11; XIII, 14.

٣- 1QM, XV, 1; XVII, 1-2.

٤- 1QM, XIX, 2-8.

٥- 1QH^a, XII, 26.

٦- 1QH^a, XIV, 29-30.

٧- 1QH^a, XII, 8 et 23; XIII, 15.

٨- CD-A, XIV, 19; CD-B, XX, 1.

ترد فيها العبارات التي تؤكد استعداد أعضاء الجماعة للتكفير عن الارض. وتتحدث تلك المخطوطة عن النظم والفرائض التي يجب اتباعها خلال زمن الكفر، إنتظاراً ليوم الدينونة الذي سيتم فيه القضاء على الأشرار[١]. وقد ورد فيها أن إله إسرائيل هو «في محاكمة مع كل بشر، ويمارس دينونته على كل الذين يزدرون به»[٢]. وفي يوم الدينونة المذكور، سوف يزور شعبه لتحقيق خلاصه. وهناك تلميح إلى «التفقّد الأول»[٣] الذي حصل في زمنٍ مضى[٤]، أي عندما نزل الله على جبل سيناء في أيام النبي موسى. غير أن الكاتب توقّع، في العصر الذي عاش فيه، أن يتفقّد «يهوه» مجدداً البقية المختارة من شعب إسرائيل[٥]، لكي يحقق لهم الخلاص.

ويصف «درج الهيكل» بناء الهيكل الجديد في أورشليم الجديدة، فيندرج موضوعه ضمن المرحلة التي ستعقب الحرب الاسكاتولوجية مباشرة، أي بعد انتصار أبناء النور على أبناء الظلمة. وكذلك تفصّل مخطوطة «أورشليم الجديدة» (4Q554) مخطّط المدينة المقدّسة التي سوف تنشأ في آخر الأزمنة.

أما «الدرج النحاسي» الذي يعيّن الأماكن التي خبّأت فيها الجماعة كنوزها، فيتوافق موضوعه مع مرحلة الإعداد للحرب الاسكاتولوجية التي لا بدّ من تأمين مبالغ مالية ضخمة لتمويلها حتى يتمكّن أبناء النور من تحقيق الانتصار النهائي على أعدائهم. ويشير الدّرج المذكور إلى الآنية الثمينة المليئة بالبخور والطيوب وإلى كمية من الثياب الكهنوتية المقدسة. وتلك الأشياء مرتبطة بالطقوس الدينية التي سوف يُحتفل بها في أورشليم الجديدة.

وبالنسبة إلى المخطوطات المتعلقة بتفسير كتب الأنبياء، يُلاحظ أن كاتب «تفسير حبقوق» اختار بعض الآيات الواردة في سفر حبقوق والدالّة على تكاثر الإثم والشرّ، ففسّرها على ضوء واقعه الراهن. فقد رأى أن الدمار والعنف يحيطان به وبأفراد الجماعة، فعلّل حصولهما بسبب أولئك الذين يضطهدون

١- CD-B, XX, 15.

٢- CD-A, I, 2.

٣- CD-A, VII, 21.

٤- CD-A, V, 15-16.

٥- CD-A, XIII, 23.

المختارين في الضيق وعدم الأمانة[1]. ووجد الكاتب وصفاً لحالته في إحدى آيات حبقوق (حب ١: ٤ ب) القائلة إن «الشرير يحاصر الصدّيق»، فشرحها بقوله: «إن الشرير هو الكاهن الشرير، والبارّ (أو الصدّيق) هو معلّم البرّ»[2]، ملمّحاً بذلك إلى شخصيتين مهمّتين تزامن وجودهما مع تأسيس جماعة قمران. وباعتقاد الكاتب أن الزمن الأخير سيكون طويلاً جداً[3]، غير أن جميع الأزمنة سوف تتحقّق في الوقت الذي حدّده إله اسرائيل وأوحى بسرّه إلى معلم البرّ. وقد علّم هذا الأخير أن نبوءات الأنبياء حول نهاية الأزمنة سوف تتحقق في عصره، ما يعني أن كاتب «تفسير حبقوق»، الذي عاش بعد معلّم البر، كان يعيش أيضاً ضمن الحقبة الاسكاتولوجية ذاتها. ففي ذلك الزمن الذي أشار إليه الكاتب، سوف يدين إله اسرائيل المنافقين وجميع الشعوب «بواسطة مختاريه»[4]. ولا شك أن هؤلاء المختارين هم أعضاء جماعة قمران، لاعتقادهم أنهم البقية التي اختارها يهوه للحفاظ على العهد والشريعة. وهذا يؤكد، مرة أخرى، اشتراكهم بحرب نهاية الأزمنة التي كانوا يتوقّعون حصولها ويستعدّون لخوض غمارها.

وتتكرر في «تفسير ناحوم» عبارة «الأيام الأخيرة» بالإضافة إلى الكلمات الدالّة على الحرب والعنف والغضب الإلهي، ما يرجّح أن الكاتب فسّر نبوءة ناحوم على ضوء قناعته أنه يعيش فعلاً مرحلة نهاية الأزمنة[5].

ونجد في تفسيري «أشعيا» و«سفر التكوين» إشارة واضحة إلى عقيدة المسيّا المنتظر الذي سيتربع على عرش داود بالاضافة إلى وجود بعض العبارات التي تتوافق مع السياق الاسكاتولوجي، على مثال «يوم القتل» و«آخر الأيام» و«يوم الدينونة»[6]. كما نقع على عبارة «يوم يهوه» أو «يوم الدينونة» في بعض المخطوطات الأخرى، كتفسير صفنيا وتفسير ملاخي وتفسير ميخا

١- 1QpHab, I, 6.

٢- 1QpHab, I, 13.

٣- 1QpHab, I, 2; VII, 7.

٤- 1QpHab, V, 4-5.

٥- 4QpNah, frags. 3-4, II, 2.

٦- 4Q161, frags. 2-6, II, 6 et 22; 4Q252, V, 2-3.

ووصية قهات[1] وغيرها.

ويصف كاتب «تفسير هوشع» اليهود الذين خالفوا الشريعة بأنهم «جيل الزيارة»[2]، والمقصود بذلك تفقّد إله إسرائيل لشعبه في الأيام الأخيرة. كما يذكر كاتب «تفسير ميخا» عبارة «الجيل الأخير»، موضحاً أن أفراد الجماعة سيخلصون في يوم الدينونة[3].

ويتحدث كاتب «تفسير المزمور ٣٧» عن تفاقم العنف والشر في عصره، متوقعاً إبادة فاعلي الشرّ[4]، وحلول عصر نهائي من السلام، تكون فيه الأرض إرثاً للأبرار[5].

وتشير مخطوطة «مختارات» إلى «الأيام الأخيرة» ومجيء المسيّا، مخلّص إسرائيل، الذي سيعيد المجد لملكة داود في نهاية الأزمنة[6]. كما تضم مخطوطة «شهادات» آيات من التوراة[7] تندرج ضمن الترقّب المشيحي في آخر الأيام؛ وهي تتعلق بالنبي الموعود به، وبالكوكب الخارج من يعقوب الذي يرمز الى المسيح الملك[8].

ويمثّل «ملكيصادق» دوراً رئيساً في المخطوطة التي تحمل اسمه، فيبدو كشفيع لجماعة الأبرار. ويُذكر عنه أنه المخلّص، قاضي اليوم الأخير، أي يوم الانتقام[9].

وتتحدث المخطوطة التي دُعيت «رؤيا مشيحية» (4Q521) عن المسيّا الذي

١- 1Q15, 4; 4Q253a, frag. 1, I, 3; 1Q14, frags. 8-10, 8-9; 4Q542, II, 5, I, 9.

٢- 4Q166, I, 10; II, 1 ss.

٣- 1Q14, frags. 8-10, 8; frags. 17-18, 5.

٤- 4Q171, II, 7-8.

٥- 4Q171, III, 1; IV, 3.

٦- 4Q174, frag. 1, I, 21,2, 2 et 19.

٧- هذه الاستشهادات مأخوذة على التوالي من: تث ٥: ٢٨-٢٩؛ ١٨: ١٨-١٩؛ ٣٣: ٨-١١؛ عد ٢٤: ١٥-١٧.

٨- 4Q175, 12-13.

٩- 11Q13, II, 9-13.

تخضع له السماوات والأرض[١]. كما يوجد نصّ يضمّ مجموعة «صلوات احتفالية» تمجّد إله إسرائيل لينصر شعبه على الأعداء[٢].

ويغلب الطابع المشيحي على المخطوطة المسمّاة «رؤيا آرامية» (4Q246)، حيث يتمتّع المسيّا المنتظر بصفة محارب[٣]، ويتزامن مجيئه مع حرب آخر الأزمنة التي ينتصر فيها على ملوك الأرض المتحالفين ضده.

ويتضمّن «كتاب الأسرار» وصفاً لا ينطبق سوى على المرحلة الأخيرة من الحقبة الاسكاتولوجية وفق المفهوم اليهودي، جاء فيه أن الإثم سيتلاشى أمام البِرّ ويزول إلى الأبد، كما تتلاشى الظلمة أمام النور وتنتشر المعرفة في أرجاء العالم[٤]. وقد ورد في مخطوطة «أرض متجددة» عن هذه المرحلة من الزمن الأخير، أن الشرّ سيُباد نهائياً، ويصبح العالم كجنة عدن، وتنعم الأرض بالسلام الدائم[٥].

٢- مسيحا هارون وإسرائيل

انتظر أعضاء جماعة قمران مسيحين في الزمن الذي اعتقدوا أنه آخر الأيام، وهما: مسيحا هارون وإسرائيل، أي المسيح الكاهن والمسيح الملك. وباعتقادهم أن المسيح الكاهن يتقدّم في المنزلة على المسيح الملك، فهو أول الداخلين للاشتراك بالوليمة الإسكاتولوجية، ثم يليه كهنة هارون، وبعد ذلك يدخل مسيح إسرائيل[٦]. ويعكس مفهوم انتظار المسيح الكاهن لدى أعضاء الجماعة رفضهم لسلطة كبار كهنة الهيكل المعاصرين لهم.

أما المسيح الملك فهو زعيم سياسي، وقائد محارب[٧]، يُقيم عرش داود الذي

١- 4Q521, frags. 2, II, 1.

٢- 1Q34; 1Q34bis, frag. 3, I, 5-6.

٣- EISENMAN-WISE, *Man. Rév.*, p. 75

٤- 1Q27, I, 5-6.

٥- 4Q475, 4-7.

٦- 1QSa, II, 11-22.

٧- R. B. LAURIN, «The problem of two messiahs in the Qumran Scrolls», *RQ*, n° 13 (1963), p. 40.

سقط، ويخلّص اسرائيل[1]. كما أنه يتربع في نهاية الأزمنة على العرش في صهيون، ويحكم منها على ممالك الأرض وشعوبها.

ويصف كاتب درج «المدائح» ولادة مسيح إسرائيل، مستوحياً بعض ما ورد في أسفار التوراة حول هذا الموضوع[2]، فيشبّه أعضاء الجماعة الذين يعانون الاضطهاد بالمرأة التي تعاني آلام المخاض، وسوف تلد ذكراً يحقّق الخلاص بفضل تلك التي حبلت به[3].

وعليه، فإن إيمان جماعة قمران بمجيء المسيّا المنتظر، يقع ضمن إطار المفهوم العام اليهودي لهذه العقيدة، كما وأن سلطته تشمل الشعوب كافة، ولم تعد مقتصرة على فلسطين وما جاورها من أمم غريبة. ومعنى ذلك أن العقيدة المذكورة تنتمي إلى المرحلة الثانية لتطور الوعي الديني اليهودي المشار إليها سابقاً. والجدير ذكره أن تطوّر فكرة المسيّا المنتظر لدى جماعة قمران إلى مسيحيّن، كاهن وعلماني، يشكل دليلاً على حصول هذا التطوّر في مرحلة متأخرة، أي حين لم يعد كهنة الهيكل يمثّلون، بنظر تلك الجماعة، الكهنوت الحقيقي المتحدّر من هارون.

٣- الطهارة ويوم الانتقام

كان أعضاء جماعة قمران يتطهّرون بالمياه مرّات متعددة في اليوم الواحد للحفاظ على نقاوة أجسادهم، وخاصةً قبيل الاشتراك بالمأدبة المقدسة، أو عند إراحة الجسد أو الاحتكاك بأحد الغرباء عن الجماعة. وكانت طهارة الجسد أمراً جوهرياً في حياة تلك الجماعة[4]، بحيث لم يكن بمقدور طالب الدخول الاشتراك بمياه التطهير إلاّ بعد اختباره طوال سنة كاملة. وكانت عملية الاغتسال تُلزم أن تكون المياه نقية ونظيفة، وأن تغمر الجسد بكامله[5].

١- 1Q174, frags. 1, I, 21, 2 et 11-13.

٢- اش ٧: ١٤؛ مي ٥: ٢.

٣- 1QHª, XI, 7-10.

٤- John BOWMAN, «Did the Qumran Sect burn the Red Heifer?», *RQ*, n° 1 (1958), p. 81.

٥- George W. BUCHANAN, «The role of purity in the structure of the Essene sect», *RQ*, n° 15 (1963), p. 402; CD-A, X, 10-11.

ولا شك أن الهدف هو الحفاظ على قدسيّة المخيّم، بسبب الارتباط الوثيق بين مفهوم الطهارة وعقيدة الحضور الإلهي في أثناء الحرب المقدسة[1] التي كانت جماعة قمران تستعد لخوض غمارها. فـ«يوم يهوه» كان مهماً بنظر أعضاء الجماعة الذين تحفل مخطوطاتهم بعبارات تشير إلى «يوم الانتقام» و«الفناء بسيف الله»[2]، وموعد «التفقّد»[3]، أي حين يزور «يهوه» شعبه في آخر الأزمنة مع جيوش ملائكته، لمؤازرتهم في حربهم المقدّسة ضد بني الظلمة. وقد جاء في مخطوطة المدائح: «والروح الفاسد نقّيته من خطيئة عظيمة ليقف مع جيش القدّيسين ويدخل في وحدة مع حلقة أبناء السماء»[4]. ولهذا السبب منع «ملحق نظام الجماعة» كل شخص مصاب بنجاسة بشرية أو بعاهة جسدية من أن يشغل مركزاً في وسط الجماعة[5]. وقد مُنعت النساء من دخول المخيّم قبل البدء بحملة عسكرية لكي يحافظ رجال الحرب على كامل طهارتهم[6]. فانطلاقاً من هذه القاعدة تتّضح لنا العبارة التالية الواردة في درج الهيكل: «إن أقام رجل علاقات جنسية مع امرأته، لا يدخل في أي مكان من مدينة المعبد الذي فيه أقيم اسمي، وذلك خلال ثلاثة أيام»[7]. فالمحافظة على طهارة معسكر من وصفوا أنفسهم بالقدّيسين، سببها الاعتقاد المتوارث أنه إذا اتّبعت القواعد المحددة بخصوص قدسيّة المخيّم، يأتي الله ليسكن في وسط شعبه،

١- خر ١٩: ١٠ و ٣٠: ١٩-٢١.

٢- 1QS, IX, 25; X, 20; 1QM, VII, 5; XV, 3; XIX, 11.

٣- 1QS, 3 :18; 4 :19; 9 :23; 10 :19; 1QM, VII, 5; 1QH^a, IX, 17.

٤- 1QH^a, XI, 21-22.

٥- 1QSa, II, 3-9.

٦- وبهذا المعنى ورد في نظام الحرب ما يلي: «ولا يدخل ولد قاصر ولا امرأة إلى معسكراتهم، حين يخرجون من أورشليم ليذهبوا الى القتال وحتى عودتهم. كل أعرج وأعمى ومخلّع، وكل من يحمل في جسمه عاهة دائمة. وكل مصاب بنجاسة في جسده، كل هؤلاء لا يذهبون معهم إلى الحرب. ويكونون كلهم متطوّعين للحرب، ويكونون كاملي العقل والجسم ومستعدين ليوم الانتقام. وأي إنسان لا يكون في حالة الطهارة بسبب السيلان في يوم القتال، لا ينزل معهم، لأن ملائكة القداسة يرافقون جيوشهم. وتكون مسافة تقارب ٢٠٠٠ ذراع بين كل معسكرهم وموضع الخلاء، فلا يُرى مشين أو قبيح في جوار كل معسكرهم» (1QM, VII, 3-17).

٧- 1Q191, XLV, 11-12.

ويظهر قوّته في كلّ فرد منهم[١]، فيتمكّن هؤلاء من الانتصار على جيش جرّار بعدد قليل من المحاربين[٢].

ثالثاً - الأصولية والنزعة القومية في مخطوطات البحر الميت

تحوي مخطوطات البحر الميت الكثير من الإشارات الدالّة على أصولية تلك الجماعة وعلى نزعتهم القومية، ويتجلّى ذلك في:

- الغيرة على الشريعة الموسوية والعداء الشديد لمخالفيها والرغبة في الاقتصاص منهم في يوم الدينونة.
- الكره الشديد للأغراب الذين يحتلّون البلاد.

١ - الغيرة على الشريعة

ألزم «نظام الجماعة» جميع الأعضاء التعبّد لإله إسرائيل وعمل كل ما هو صالح ومستقيم في نظره وفقاً للشريعة[٣]. ويُعتبر النبي موسى المشرّع الأكبر بنظر جماعة قمران، فقد كان يُفرض على كل عضو عند انتسابه إلى الجماعة، أن يُقسم مؤكداً التزامه بالشريعة الموسوية التزاماً مطلقاً، وفق ما أُوحي بها لأبناء صادوق الكهنة، وأن ينفصل عن الناس الفاسدين الذين يسلكون في طريق الكفر[٤]. فالشريعة محفورة في قلب كل عضو من أعضاء الجماعة؛ فمن يلتزم بها يُعتبر من أبناء النور، ومن يخالفها يُعتبر في عداد أبناء الظلمة.

بدأ تاريخ جماعة قمران في زمنٍ تعاظم فيه الارتداد عن الشريعة، وانحرف رجال الكهنوت في أورشليم عن الصِّراط المستقيم، وتفاقم الشر والفساد بشكل عام في فلسطين. فتوجّه مؤسّسو الجماعة نحو برية اليهودية لإعداد الطريق ليهوه[٥]. فالارتحال إلى البرية يعني، بنظرهم، العودة إلى

١- 1QH^a, XII, 1.
٢- ١ مك ٣: ١٨-١٩.
٣- 1QS, I, 1-3.
٤- 1QS, I, 16-17; V, 8-11.
٥- 1QS, VIII, 12-14؛ اش ٤٠: ٣.

منابع الدين، أي إلى زمن النبي موسى الذي حرّر شعبه من عبودية آل فرعون، فقاده إلى برّية سيناء، استعداداً للدخول إلى أرض كنعان. وعليه، تكون البريّة بنظر جماعة قمران مرحلة إعداد وتطهّر استعداداً ليوم الانتقام والثأر.

استشهد كاتب «وثيقة دمشق» بآية من سفر العدد جاء فيها: «بئر حفرها الرؤساء، حفرها أشراف الشعب بعصيّهم...»[1]، ففسّرها من خلال واقعه الراهن قائلاً:

«البئر هي الشريعة، والذين حفروها هم مرتدّو إسرائيل، هؤلاء الذين خرجوا من أرض يهوذا وأقاموا في أرض دمشق... وعصا المشترع هي عصا طالب الشريعة... وأشراف الشعب هم الذين يأتون ليحفروا البئر بعون الفرائض التي أعلنها المشترع لكي يسيروا فيها طوال كل زمن الكفر...»[2].

فبسبب تفاقم الكفر إذاً، خرج المحافظون على الشريعة من أرض يهوذا وأقاموا في أرض دمشق. ولا يُقصد بكلمة «دمشق» المدينة المعروفة بهذا الاسم، بل إنها اصطلاح يرمز إلى الانتقال إلى مقرّ جماعة قمران الرئيس، الكائن في الطرف الشرقي لبرية اليهودية.

إنطلاقاً من ذلك الموقع استعدّ أعضاء الجماعة للدفاع عن الشريعة والتكفير عن الارض، فوضعوا النظم والفرائض التي وجب عليهم اتباعها في حقبة الأيام الأخيرة التي عاشوا ضمنها. وتشدّدوا في الحفاظ على شريعة السبت، لأنه بنظرهم يوم مقدّس، فلا يجوز التلفّظ فيه بكلمة باطلة، كما يجب الامتناع عن التكلم عن الأعمال المنوي القيام بها في اليوم التالي[3]. وقد وجب على كل عضو أن يكون غيوراً جداً وبلا رحمة تجاه الذين حادوا عن طريق الشريعة[4]. فكل من أهمل نقطةً ما من شريعة موسى أو تجاوزها عمداً، يُطرد من مجلس الجماعة ولا يعود[5]. ويُعتبر مخالفو الشريعة هدفاً لكل انتقام، لأن

١- عد ٢١: ٨.

٢- CD-A, VI, 4-10.

٣- CD-A, X, 17-18.

٤- 1QS, IX, 23; X, 20-21.

٥- 1QS, VIII, 22-23.

«يهوه»، بنظر أعضاء الجماعة، هو إله غيور، وسوف يبيد مخالفي الشريعة على أيدي الذين ينفّذون العقوبات[1].

ولكن من سينفّذ تلك العقوبات؟ إنهم أعضاء الجماعة أنفسهم، لأنهم «شهود الحق من أجل الدينونة ومختارو رضى الله الموكلون بالتكفير عن الأرض وإسقاط العقوبات على الكافرين»[2].

وإذا كانت النصوص المذكورة أعلاه تثبت أصولية الأسينيين، واشتراكهم الفعلي في محاربة الأشرار ومخالفي الشريعة في يوم الدينونة، فكيف نفسّر الفكرة السائدة لدى معاصريهم بأنهم كانوا دعاة محبة وسلام؟

ربما يعطي النص التالي من «نظام الجماعة» الجواب على هذا التساؤل، فقد ورد فيه ما يلي:

«لا أجازي أحداً على الشرّ، بل ألاحقه بالخير، لأن عند الله دينونة كل حيّ، وهو يدفع لكل إنسان جزاءه... أما رجال الهاوية الكثيرون، فلا أتمسّك بهم حتى يوم الانتقام، ولكني لا أردّ غضبي عن الناس الفاسدين ولن ارتاح إلاّ متى دشّن الله الدينونة.»[3]

هذا النص واضح وصريح، وهو يؤكد طابع السلام الذي عُرف به أعضاء الجماعة في المرحلة التي سبقت «يوم الانتقام». فقد كانوا يظهرون أنفسهم لمعاصريهم كأنهم جماعة الحق والتواضع الفاضل والعدالة الحقيقية، كما جمعت بينهم محبة حقيقية، غير أنهم كانوا يضمرون، في السرّ، بغضاً شديداً تجاه كل أبناء الظلمة[4]، ويترقّبون أن ينتقم «يهوه» من الذين يتجاوزون فريضة من الفرائض[5] عندما يحين موعد الدينونة[6]. ففي ذلك اليوم سوف ينهضون لمقاتلة أبناء الظلمة، فلا يظهرون رحمة لكلٍّ من حاد عن الطريق، أي

١- 1QS, II, 6-7; 4Q171, II, 2-4; III, 12-13.

٢- 1QS, VIII, 6-7.

٣- 1QS, X, 17-21.

٤- 1QS, I, 9-10; IV, 5.

٥- 1QS, V, 6-7.

٦- F. M. BRAUN, «L'arrière-fond judaïque du quatrième évangile et la Communauté de l'Alliance», *RB,* tome LXII (1955), p. 19.

عن الشريعة الموسوية التي اشتهروا بتطبيقها وتفوّقوا على معاصريهم اليهود بالتزام فروضها، ما يؤكد أصولية تلك الشيعة وتطرّفها.

ويبدو أن جهل معاصري جماعة قمران لطبيعتها الأصولية، عائد إلى أنها كانت جماعة باطنية، بحيث لم يكن يُعرف عنها إلاّ ظواهر الأمور.

٢- العداء للمحتلّ وللأمم جميعاً

تؤكد مخطوطة «نظام الحرب» أن الحرب الاسكاتولوجية سوف تطال أبناء حام وسام ويافث[١]، أي أبناء نوح الذين يرمزون الى شعوب الأرض. وتشدّد المخطوطة المذكورة على الإفناء الابدي لجميع أمم الكفر[٢]. هذا البغض لجميع الشعوب هو نتيجة حتمية لاعتقاد جماعة قمران أن كل من لا يطبّق الشريعة الموسوية ينتمي حتماً الى أبناء الظلمة، وبالتالي يجب الاقتصاص منه في يوم الدينونة.

ويُظهر الكاتب عداءً شديداً تجاه شعب «كتيم» الذي بسط سيطرته على فلسطين وامتد خوفه ورعبه على جميع الأمم. وكان يتوقع القضاء عليه في يوم الدينونة بحيث لا تبقى منه بقية[٣].

ويبدو كره جماعة قمران واضحاً تجاه شعب الكتيم في عدد آخر من النصوص التفسيرية التي تؤكد أن تلك الجماعة كانت تتوقع زوال سيطرتهم وفناءهم من على وجه الأرض في معركة الزمن الأخير[٤].

وتحدثت مخطوطة «مختارات» عن البيت الذي سيقيمه «يهوه» في نهاية الأيام ولن يدخله لا عموني ولا موآبي، لا ابن زنى ولا غريب ولا ضيف الى الأبد، بل القدّيسون فقط. سيملك الرب على هذا البيت إلى الأبد[٥]. كما ورد في إحدى المخطوطات ما معناه أن يهوه هو السيّد الأوحد، وله المُلْك وحده[٦].

١- 1QM, II, 9-14.

٢- 1QM, XVII, 1.

٣- 1QM, I, 6.

٤- 4QpNah, frags. 1+2, 4-6; 4QpHab, III, 4-5; 4Q161, frags. 8-10, III, 3-7.

٥- 4Q174, I, 2-5.

٦- 4Q462, 7.

وهذه العبارة تدلّ على الطابع الأصولي لجماعة قمران، لأنها مشابهة للشعارات التي أطلقها أنصار حزب الزيلوت خلال حربهم ضد الرومان، ومنها «لا مَلِك إلاّ الله» و«الله مالك هنا». وكان هؤلاء يجاهرون بعدائهم للرومان ورفضهم لسلطتهم، ويفضلّون تحمّل العذاب المرير والموت على مناداة أحد باسم سيّد، لأن إله إسرائيل بنظرهم هو السيّد والمالك الوحيد[1].

وعليه، فإن مخطوطات البحر الميت تعكس قناعة أصحابها أنهم كانوا يعيشون حقبة آخر الأزمنة. وقد تولّدت هذه القناعة لديهم منذ نشأتهم، لأن الآمال المشيحية والميزات الاسكاتولوجية تظهر بوضوح في «نظام الجماعة» الذي يُفترض أنه كُتب في المراحل التأسيسية الأولى. ويجب أخذ هذه الميزة بعين الاعتبار عند مقارنة مضمون مخطوطات البحر الميت مع المصادر الكلاسيكية بغية التثبّت من أن جماعة قمران والأسينيين هم جماعة واحدة.

١- JOSEPHE, *Ant. Jud.*, XVIII, i, 6, § 23-25.

الفصل الثالث

الآمال المشيحية والنزعة الأصولية في المصادر الكلاسيكية

من أهم الفروقات بين المصادر المتعلقة بالأسينيين وبين مخطوطات البحر الميت، أن المصادر تشدّد على تزهّد الأسينيين وقداستهم ومحبتهم للسلام واحترامهم للسلطات القائمة، في حين أن المخطوطات تؤكّد النزعة الأصولية لجماعة قمران، وتثبت اعتقادهم أن الزمان الذي عاشوا فيه هو آخر الأزمنة. ولا شكّ أن التباين بين الأصول والمصادر حول هذا الموضوع، كان من الأسباب الرئيسة التي جعلت بعض الباحثين يترددون في اعتبار الجماعتين جماعة واحدة، بالرغم من أوجه التشابه الكثيرة القائمة بينهما. فهل كان الأسينيون من الجماعات الأصولية، وهل يمكن العثور في المصادر الخاصة بهم على إشارات تؤكد أنهم كانوا يعيشون فعلاً الآمال المشيحية في زمن الدينونة الشاملة؟

لقد كان هيبوليتس في طليعة الناقدين لتجاهل كلٌّ من فيلون الاسكندري ويوسيفوس ذكر الآمال المشيحية لدى الأسينيين، وذلك عندما أكّد أن جميع الطوائف اليهودية المعاصرة للحرب اليهودية الكبرى ضد الرومان كانت تنتظر مجيء المسيّا. وقد علّل طومسون هذا الأمر بقوله ان فيلون الاسكندري ويوسيفوس كتبا مؤلفاتهما باليونانية ووجّهاها الى الوثنيين، فلو تحدّثا عن ترقّب الأسينيين لمجيء المسيّا الآتي لحكم العالم، لعُدَّ ذلك خيانةً وصار ولاؤهما أمراً مشكوكاً فيه[1].

وباعتقادنا أن يوسيفوس حاول المحافظة على الصورة المسالمة التي كوّنها معاصروه عن الأسينيين لأسباب عديدة، أهمها:

- احترامه لتلك الجماعة التي كان ينوي الانتساب إليها في مطلع شبابه

---

١ - J. E. H. THOMSON, «The Essenes», *The International Standard Bible Encyclopaedia*, vol. 2, p. 1000.

(سنة ٥٣ م. تقريباً).

- صدرت مؤلفات يوسيفوس وما حَوَتْهُ من نصوص حول الأسينيين بُعيد انتهاء الحرب اليهودية الكبرى ضد الرومان التي أدّت إلى نكبة الشعب اليهودي وبدء مرحلة مهمة من الشتات. لذلك فإن التحدث عن الاستعدادات العسكرية للأسينيين خلال الحرب اليهودية، كان سيشكّل دون ريب حجةً للذين اتّهموا اليهود بالتمرّد على الرومان وبتصميمهم المسبق على محاربة أسيادهم، ما يؤدي إلى زيادة اضطهاد الرومان للأمة اليهودية المنكوبة، في حين أن يوسيفوس كان يحاول بلسمة جراحها بفضل ما ناله من حظوة لدى الإمبراطور فسبزيانوس، لعلّه يكفّر بذلك عن اتّهام بعض اليهود له بالخيانة[١] إثر استسلامه للرومان في بداية تلك الحرب. وتأكيداً لهذا الرأي، نورد ما ذكره يوسيفوس في الصلاة التي رفعها إلى ربّه عشية استسلامه، قال: «يا خالق الشعب اليهودي، بما أنه حَسُنَ لديك أن تحطّم ما صنعت... فإني بملء إرادتي أسلم نفسي إلى الرومان، راضياً بالعيش. وأتخذك شاهداً على أنني ماضٍ إليهم، ليس كخائن، إنما بصفة خادم لك»[٢].

وبالرغم من أن يوسيفوس حاول التعتيم على الدور العسكري الذي قام به الأسينيون خلال الحرب اليهودية الكبرى، فإننا لا نزال نجد، في النصوص التي كتبها عنهم، بعض الإشارات والأخبار التي لا تُفهم إلاّ على ضوء استعدادهم لخوض حرب مقدسة.

أولاً - اشتراك الأسينيين بالحرب اليهودية الكبرى

خلافاً لما ذكره فيلون عن الأسينيين أنهم لا يتعاطون تجارة أدوات الحرب أو صناعتها[٣]، وذلك رغبة منه في التشديد على الطابع السلمي لتلك الطائفة،

١- عندما عَلِمَ يهود أورشليم بخبر استسلام يوسيفوس للرومان والمعاملة الحسنة التي تلقاها من الامبراطور فسبزيانوس وابنه تيطس، اتهمه بعضهم بالجبن والبعض الآخر بالخيانة.
أنظر: JOSEPHE, *Guerre,* III, ix, 6, § 439.

٢- *Ibid.,* III, viii, 3, § 354.

٣- PHILON, *Quod Omnis,* 78.

فقد أكّد يوسيفوس أن الأسينيين كانوا يحملون أسلحتهم عند انتقالهم إلى الأماكن البعيدة. وعلّل هذا الأمر بخوفهم من تعدّي اللصوص[1]. لكنّ هذا الرأي لا يتوافق مع الحقيقة. فلماذا يهاب الأسينيون اللصوص؟ أخوفاً من السرقة وهم، عند تنقّلهم بين بلدة وأخرى، لا يحملون مالاً ولا حتى زاد الطريق، إذ كان لديهم في كل مدينة أخوة يدبّرون أمورهم[2]؟! كما أن ثيابهم البخسة الثمن في الصيف والخشنة في الشتاء لم تكن تثير اهتمام اللصوص. فحمل السلاح إذاً من قبل الأسينيين، ربما كان له طابع عسكري حاول يوسيفوس التستّر عليه مشدداً فقط على إظهار فضائلهم التي تميّزوا بها فعلاً.

وتجدر الإشارة إلى أن يوسيفوس روى عن الأسينيين بعض الأخبار المتفرقة، التي تثبت اضطلاعهم بدور عسكري معيّن خلال الحرب اليهودية الكبرى. وأهمية تلك الأخبار أن المؤرخ المذكور كان شاهد عيان لتلك الحرب، وكان له فيها دور عسكري مهم بفضل تعيينه قائداً للجبهة الشمالية.

ذكر مؤرخ الحرب اليهودية انه بعد أن تمكن الثوار من تحرير أورشليم والتغلب على جيوش كستيوس غالوس والي سوريا الروماني في السنة الأولى من الحرب (٦٦ م.)، راحوا ينظّمون أنفسهم لمواجهة هجوم مرتقب من الجيوش الرومانية. ثم اجتمعوا في الهيكل واختاروا عدداً من القادة لإدارة أمور الحرب، فانتخبوا يوسف بن غريون وحنانيا، كبير الكهنة، زعيمين على المدينة المقدسة. وعيّنوا على منطقة أدوم اليعازر، إبن الكاهن الأعظم حنانيا، ويشوع بن صفا، وهو من كبار الكهنة. كما جرى تعيين يوسف بن سمعان حاكماً على أريحا، ومناسى حاكماً على منطقة بيرة[3] (Pérée). ثم أضاف يوسيفوس قائلاً:

«... عُيّن يوحنا الأسيني حاكماً على منطقة تمنة[4] وألحقت بسلطته مدن اللدة ويافا

١- JOSEPHE, *Guerre*, II, viii, 4, § 125.

٢- *Ibid.*, II, viii, 4, § 124.

٣ – تقع منطقة «بيرة» في الجهة الشرقية من الجزء الجنوبي لنهر الاردن والشاطئ الشمالي الشرقي للبحر الميت.

٤- تقع «تمنة» في جبل إفرائيم الكائن شمال-غرب أورشليم.

وعماوس. كما عُيّن يوحنا بن حنانيا حاكماً على مناطق غفنة وأكرَبَتان. واختير يوسيفوس بن متّيا [وهو المؤرخ نفسه] حاكماً على منطقتي الجليل ومدينة جَمَلَة، وهي أكثر المدن تحصيناً في تلك النواحي»[١].

هذا النص هو على درجة كبيرة من الأهمية لأنه يظهر صفة جديدة من مميّزات الأسينيين تتناقض مع ما عُرِف عنهم سابقاً. فقد ذكر يوسيفوس أن الأسينيين اشتهروا بالمحبة والمسالمة وأنهم لا يلحقون ضرراً بأحد لا طوعاً ولا إكراهاً، وشدّد أيضاً على احترامهم للسلطات القائمة[٢]؛ فإذا به من خلال النص أعلاه يناقض نفسه ومن سبقه بقوله إن «يوحنا الأسيني» كان أحد القادة الذين اشتركوا معه بالثورة اليهودية الكبرى ضد روما.

وفي سياق الحديث عن الانتصار الذي حققه الثوار اليهود في المرحلة الأولى من حربهم ضد الرومان، روى يوسيفوس أنهم جمعوا بعد ذلك أفضل مقاتليهم على جناح السرعة وانطلقوا لفتح مدينة عسقلان التي اختاروها لكي تكون هدف هجومهم الأول. وقد ترأس تلك الحملة ثلاثة من القادة الذين تميّزوا بالبأس والقدرة، وهم: «نيجر من بيرة، وسيلاس البابلي، **ويوحنا الأسيني**»[٣]. غير أن جرأة المهاجمين لم تنفع أمام أسوار عسقلان المنيعة، فتمكن الخيّالة الرومان من دحرهم وتشتيتهم. فقُتل في تلك المعركة عشرة آلاف مقاتل من اليهود مقابل عدد قليل من الجرحى في صفوف الرومان. وعُثر بين القتلى اليهود «على جثتي القائدين **يوحنا** [الأسيني] وسيلاس»[٤].

إذاً، لقد اشترك الأسينيون فعلاً في الحرب اليهودية الكبرى. ولا يمكن فهم بعض النصوص التي أشاد فيها يوسيفوس ببطولتهم إلاّ على ضوء هذا الواقع. قال:

«**سجّلت حربنا ضدّ الرومان أدلة وافرة على عظمة نفوسهم في المحنة. فإنهم** على الرغم من **تعذيبهم وتشويههم وإحراقهم وتقطيعهم إرباً**، وعلى الرغم من

١- JOSEPHE, *Guerre,* II, xx, 4, § 567-568.

٢- *Ibid.,* II, vii, 4 § 140.

٣- *Ibid.,* III, ii, 1, § 9-12.

٤- *Ibid.,* III, ii, 2, § 19-21.

تعريضهم إلى جميع أنواع العذاب ليجدّفوا على مشترعهم أو ليأكلوا ما حُرّم عليهم، فإنّ معذبيهم لم يفلحوا في إكراههم على أحد هذين الأمرين حتى ولا مرَّة واحدة... ولم تتساقط لهم دمعة واحدة بل ابتسموا في آلامهم وهزئوا بمن عذّبهم وأسلموا أرواحهم برغبة شديدة كأنهم انتظروا تسلمها مرة ثانية»[1].

يثبت النص المذكور أعلاه اشتراك الأسينيين بالحرب ضد الرومان، كما يؤكد أصوليتهم وتعصبهم الزائد للشريعة الموسوية. فقد كان الأسينيون يحكمون بالموت على من يجدّف على مشرِّعهم[2]، أي النبي موسى. وكانوا يفضلون الموت على مخالفة أحكام الشريعة، وهذه سمة مشتركة بينهم وبين جماعة قمران الأصولية. فقد ألزم «نظام الجماعة» الأعضاء أن يعملوا وفقاً لوصايا إله إسرائيل وألاّ يحيدوا عنها «بسبب **خوف** أو رعب أو **محنة** ما»[3]. كما ورد في «وثيقة صادوق» ما يلي: «كل قسم يجبرنا في شيء به نُلزم نفوسنا بأن نمارس شيئاً من الشريعة، لا نتراجع عنه **ولو كلّفنا حياتنا**. وكل ما نُلزم به نفوسنا بأن نحيد عن الشريعة، لا ننفّذه ولو كلّفنا حياتنا»[4].

وبرأينا أن يوسيفوس كان على معرفة تامة بتطلعات الأسينيين الاسكاتولوجية، غير أنه حاول أن يلطّف من كلامه بشأنهم دفاعاً منه عن الأمة اليهودية التي كانت تعاني من آثار النكبة الخطيرة التي ألمّت بالشعب اليهودي إثر فشل الثورة اليهودية ودمار الهيكل.

ولنا مثالٌ آخر على هذا التوجّه لدى يوسيفوس، فقد وصف الحزب الأصولي الذي أسسه يهوذا الجليلي حوالي سنة ٦ ب.م.، إثر معارضته للوجود الروماني وللسياسة الضرائبية المفروضة، بأنه «الشيعة الفلسفية الرابعة»[5] الى جانب الأسينيين والصدوقيين والفريسيين. لكن الحزب الذي أسسه يهوذا المذكور، ليس مذهباً فلسفياً على الاطلاق، بل هو حزب ديني متطرّف، جاهر أنصاره بمناوأة الرومان والغيرة عن الشريعة الموسوية. لهذا السبب

١- JOSEPHE, *Guerre,* II, viii, 10 § 152.

٢- *Ibid.,* II, viii, 9, § 145.

٣- 1QS, I, 16-17.

٤- CD-A, XVI, 7-8.

٥- JOSEPHE, *Ant. Jud.,* XVIII, I, 6, § 23-25.

عُرفوا بـ«الزيلوت» أي «الغيورين». وكانوا يزدرون الألم ويفضّلون تحمّل العذاب الشديد حتى ولو طاول أهلهم وأصدقاءهم، على ألاّ يُجبَروا أن ينادوا أحداً باسم «سيّد»، كما مرّ آنفاً. وقد شهد معاصروهم على صلابتهم التي لا تتزعزع في تحمل جميع تلك الآلام.

والجدير ذكره، أن ما تميّز به الزيلوت لناحية تحمّلهم شتّى أنواع العذاب حفاظاً على معتقداتهم الدينية خلال الحرب اليهودية الكبرى، مشابه تماماً لما سبق وذكره يوسيفوس عن ازدراء الأسينيين العذاب الجسدي الناتج عن اضطهاد الرومان لهم، وإيثارهم الموت في سبيل الحفاظ على الشريعة[1]، ما يثبت أن الأسينيين كانوا على الدرجة عينها من الأصولية التي تميّز بها الزيلوت.

ثانياً- الأسينيون والحقبة المشيحية الاسكاتولوجية

اعتقد الثوار اليهود الذين اشتركوا في الحرب اليهودية الكبرى أنهم يخوضون حرب نهاية الأزمنة التي سيأتي فيها المسيّا المنتظر ليخلّص شعبه من سلطة الأجنبي ويصير سيداً على الممالك والشعوب. وهذا ما أكده يوسيفوس بقوله: «غير أن أكثر ما حفّزهم على الحرب نبوءة غامضة وُجدت أيضاً في الكتب المقدسة، وهي تعلن انه في ذلك الزمن سيصير شخص من بلادهم سيّد العالم»[2].

وبما ان الأسينيين شاركوا بالحرب اليهودية، فمعنى ذلك أنهم عاشوا، كغيرهم من الأصوليين اليهود، الآمال المشيحية التي كانت سائدة في فلسطين خلال تلك الحقبة الزمنية المضطربة. علماً أن يوسيفوس نسب اليهم بعض الأمور التي لا تُفهم إلاّ ضمن سياق حروب بني اسرائيل المقدسة أو الزمن المشيحي الاسكاتولوجي، ومنها ما يلي:

١- JOSEPHE, *Guerre,* II, viii, 10 § 152.

٢- *Ibid.,* VI, v, 4, § 312.

١ - الفأس أو المعول

ذكر يوسيفوس أنه عند التحاق مُريد الدخول بطائفة الأسينيين، كانت تُعطى له فأس صغيرة (αξιναριον). ثم أوضح الغرض من تلك الأداة بقوله:

«... وفي الأيام الأخرى يحفرون بفأس يُعطى لهم لدى دخولهم في الجماعة، حفرة عمقها قدم ويسترون أنفسهم بالثوب، **كي لا يهينوا أشعّة النور الالهي**، ويريحون أنفسهم في تلك الحفرة ثم يعيدون التراب الذي حُفر منها إليها. وحتى هذا أيضاً لا يفعلونه إلاّ في **الأماكن** المنفردة التي ينتقونها للغاية المذكورة»[١].

لا شك أن الأسينيين استعملوا الفأس التي هي أشبه بمعول، استناداً لأحد النصوص الواردة في سفر تثنية الاشتراع، وقد جاء فيه ما يلي:

«إذا خَرَجتَ في **جَيش على أعدائِكَ**، فاحفظ نَفسَكَ مِن كلِّ أمرٍ سَيِّء... ولْيَكن لَكَ **خَلاءٌ خارجَ المخيَّم تَخرُجُ** إليها. ولْيَكن لَكَ **مِعوَلٌ** مع عُدَّتِكَ لِتحفِرَ به عِندما تَختلي، وتَلتفِتَ وتُغَطِّي بِرازَكَ، لأنَّ **الرَّبَّ إلهَك يَتمشى في وَسَطِ مخيَّمِكَ** لِينقِذَكَ ويُسْلِمَ **أعداءَكَ أمامَك**. فلْيَكن مُخَيَّمكَ مقدَّساً، لئلاّ يَرى فيكَ أمراً غيرَ لائقٍ، فينصَرِفَ عنكَ»[٢].

يؤكد النص الوارد أعلاه، وهو النص التوراتي الوحيد الذي يتناول هذا الموضوع، أن الغرض من استعمال المعول أو الفأس مرتبط ارتباطاً وثيقاً بحالة الحرب المقدسة التي كان يشنّها بنو إسرائيل ضد أعداء أمّتهم وشريعتهم. فمن المفاهيم الأساسية للحرب المقدسة لدى شعب إسرائيل أن يكون «يهوه» حاضراً في وسط المخيّم مع ملائكته، لأن الحرب هي «حرب يهوه» الذي يتقدّم جيوش بني اسرائيل لمؤازرة شعبه في القتال[٣] ضد الشعوب الوثنية.

من هذا المنطلق، حافظ الأسينيون على نظافة المخيّم والجوار، إذ كانوا يستعدّون لحرب مقدّسة، ويعتقدون أن «يهوه» سوف يأتي مع جيوش ملائكته ليقيم في وسط معسكرهم ويحارب أعداءهم ومضطهديهم. من هنا وجب الحفاظ على نظافة المخيّم وقداسته لكي يتحقق النصر على الأعداء.

١- JOSEPHE, *Guerre,* II, viii, 9, § 148-149.

٢- تث ٢٣: ١٠ و١٣-١٥.

٣- ١ صم ١٨: ١٧؛ خر ١٥: ٣؛ تث ٢٠: ٤؛ ١: ٣٠؛ ٢٠: ١-٥.

٢- اللباس الأبيض والتطهّر

لم يأخذ الأسينيون فكرة اللباس الأبيض عن المدرسة الفيثاغورية كما زعم يوسيفوس. فاللباس الأبيض بنظر اليهود عامة هو لباس الكهنة[١] والملائكة[٢]، ويرمز إلى النقاوة والقداسة. لذلك وجب على الكاهن أن يغتسل قبل ارتداء ثيابه الكهنوتية[٣]. وتأكيداً لقداستهم وطهارتهم، وجب على الأسينيين التطهّر بالماء قبل ارتداء اللباس الأبيض والاشتراك بالمآدب المقدسة. وكانوا، إذا لمسهم المستجدّون، يهرعون للاغتسال بالماء كأنهم اختلطوا بغرباء[٤].

ولا شك أن رغبتهم في المحافظة على الطهارة الدائمة مرتبطة بقناعتهم أنهم يستعدّون لخوض حرب مقدسة، ونعني بذلك الحرب اليهودية التي ثَبُتَ اشتراكهم فيها، حتى إذا جاء ربّهم لزيارتهم، وجدهم في حالة من النقاوة والطهارة، فيبقى معهم لينصرهم على الأعداء. علماً أن هذا المفهوم توراتيّ المصدر، وهو يرتبط بعقيدة الحضور الإلهي خلال الحرب المقدسة كما ذكرنا آنفاً.

٣- المأدبة المقدسة

كان الأسيني يعود من عمله قبل منتصف النهار بساعة واحدة، استناداً لما رواه يوسيفوس، فيستتر بنقاب أبيض ويغتسل ثم يرتدي لباساً أبيض قبيل الدخول إلى قاعة الطعام. وكان لا يُسمح بالدخول إلى تلك القاعة سوى للإسينيين وحدهم، لأنها بنظرهم مكان مقدس[٥].

وكانوا يجلسون بصمت في تلك القاعة، حول مائدة متواضعة لا يقدّم فيها الطاهي سوى لونٍ واحد من الطعام. ثم تُوضع أمامهم أرغفة الخبز بالترتيب، وفقاً لمنزلة كل واحد منهم. ولا يُسمح لأحد أن يمدّ يده إلى الطعام قبل أن

١- اح ١٦: ٤.

٢- En, LXXI, 1.

٣- اح ٨: ٦؛ ١٦: ٤.

٤- JOSEPHE, *Guerre,* II, viii, 10, § 150.

٥- *Ibid,* II, viii, 5, § 129.

يفرغ الكاهن من تلاوة الصلاة التي كان يعيد تلاوتها أيضاً عند رفع المائدة[١].

والجدير ذكره، أن وصف يوسيفوس للمأدبة المقدسة عند الأسينيين مشابه للمأدبة المقدسة التي كان أعضاء جماعة قمران يحتفلون بها يومياً، ليس فقط في مقرّهم الرئيس وحده، بل أيضاً في مختلف أماكن تواجدهم كمجموعات صغيرة أو أخويات على أرض فلسطين. ولم يكن يُسمح لأحد، خلال تلك المآدب المقدسة، أن يمدّ يده إلى الطعام قبل أن يبدأ الكاهن بالصلاة، ويبارك بواكير الخبز والخمر[٢].

٤- العفّة والامتناع عن الزواج

في زمن حروب بني إسرائيل الغابرة، كان يُبعد الأطفال والنساء عن مخيّم رجال الحرب. فقد جاء في سفر التثنية: «... فاعبُروا مسلَّحين قدَّامَ أخوتِكم بَني إسرائيل، كلُّ رجلِ حرب، إلاّ نِساءَكم وأطفالكم وماشِيَتكم... فليُقيموا في مدنِكم التي أعطيتُكم إيّاها... لا تخافوا [أعداءكم] فإن الرّبَّ إلهَكم هو المُقاتِلُ عنكُم»[٣]. ومن المعروف أن إبعاد المرأة عن المخيّم يحصل بسبب نجاستها، فهي، وفق الشريعة، تبقى سبعة أيام في نجاسة طمثها، وكل من لمسها يكون نجساً. كما وأن العلاقة الجنسية تنجّس الإنسان[٤].

ويجب، عند الاستعداد لمجيء الرب، أن يكون بنو إسرائيل مقدّسين. فعندما أراد إله إسرائيل أن ينزل أمام الشعب كلّه على جبل سيناء، قال لموسى: «إذهَب إلى الشعب وقدِّسه اليوم وغداً وليغسلوا ثيابهم...، فإنه في اليوم الثالث ينزلُ الرَّبُّ أمام الشعب كلّه على جبل سيناء». فلما نزل موسى من الجبل، قدّس بني اسرائيل وأمرهم بغسل ثيابهم وقال لهم: «...كونوا مستعِدِّين لليوم الثالث، ولا تقربوا امرأة»[٥].

من هذا المنطلق، يمكن تفسير ما ذكره يوسيفوس حول وجود فئتين من

١- JOSEPHE, *Guerre*, II, viii, 5, § 131.

٢- 1QSa, II, 17-22.

٣- تث ٣: ١٨-١٩ و٢٢.

٤- اح ١٥: ١٨-١٩.

٥- خر ١٩: ١٠-١١ و١٤.

الأسينيين، تضمّ الأولى الذكور فقط، وتضمّ الثانية رجالاً ونساءً وأولاداً. فالفئة الاولى كانت تستعد لحرب مقدسة، وتترقب زيارة الله الذي لن يأتي للإقامة في وسط معسكراتهم إلاّ في حال المحافظة على قواعد الطهارة التي يجب اتّباعها في أثناء الحروب المقدسة، ولهذا السبب فُرض على تلك الفئة ممارسة العفة المطلقة، وإبعاد النساء عن المعسكرات.

والجدير ذكره أن جماعة قمران كانت تتألف أيضاً من فئتين: تضمّ الأولى الذكور الذين يتميّزون بكمال الجسد والروح والطهارة، استعداداً لخوض الحرب الإسكاتولوجية ضد بني الظلمة. هذه الفئة هي التي كانت تترقّب الحضور الإلهي الذي لن يحدث إلاّ إذا كان المخيّم طاهراً ومقدّساً، وجميع من فيه يتمتّعون بالطهارة والكمال، روحاً وجسداً. إنطلاقاً من هذه العقيدة، ورد في «نظام الحرب» ما يلي: «ولا يدخل ولد قاصر ولا امرأة إلى معسكراتهم، حين يخرجون من أورشليم ليذهبوا إلى القتال وحتى عودتهم»[١]. أما الفئة الثانية فتشمل، بالإضافة إلى النساء، جميع الذكور الذين لا يحق لهم الاشتراك بالحرب المقدسة إلى جانب إخوانهم في الفئة الاولى، كالشيوخ والأطفال أو من يحمل عاهة في جسده[٢]. وقد أُلحق هؤلاء بميليشيات خاصة رديفة.

٥- العشرات والمئات

توزّع أبناء النور في قمران على مجموعات تألفت من ألوف ومئات وخمسينات وعشرات[٣]. وكان طالب الانتساب، بعد خضوعه لفترة اختبار محدّدة والموافقة على قبوله، يُلحق بإحدى المجموعات المذكورة أعلاه ويُسجّل حسب القاعدة في درجته؛ بعد ذلك «يستطيع أن يُدلي برأيه في الجماعة ويعطي حكمه»[٤].

١- 1QM, VII, 3-4.

٢- 1QSa, I, 4-12, 19-22.

٣- 1QS, II, 21-22; 1QM, IV, 1-5; 1QSa, II, 22.

٤- 1QS, VI, 22-23; IX, 2.

أما في ما يتعلق بالأسينيين، فيشير يوسيفوس بشكل مبهم الى مجموعتين من المجموعات الأربعة المذكورة أعلاه، هما مجموعتا المئة والعشرة.

قال يوسيفوس: «فإذا اجتمع عشرة منهم لا يتكلّم أحدهم إذا علم أن التسعة الآخرين لا يتفقون معه في الرأي»[1]. وفي هذا القول إشارة واضحة إلى الأخوية أو الخليّة الصغرى في جماعة قمران[2]. وأضاف يوسيفوس قائلاً: «... ويدققون كل التدقيق في ما يصدرون من أحكام ويعدلون. ولا يصدرون حكماً بتصويت محكمة يقل عدد اعضائها عن المئة. وما يحدّد بهذا العدد يصبح غير قابل للتغيير»[3].

ومن المعلوم أن عدد أعضاء مجلس «السنهدرين»[4]، وهو أكبر سلطة دينية وقضائية عند اليهود في ذلك الزمان، لم يكن يتجاوز الواحد والسبعين عضواً[5]. لذلك، فما أورده يوسيفوس أعلاه لا يُفهم إلاّ على ضوء مخطوطات البحر الميت التي أكّدت أن جماعة قمران كانت تتألف من مجموعات من الألوف والمئات والخمسينات والعشرات. وكان هؤلاء يعيشون حقبة الزمن المشيحي، ويستعدّون «ليوم الانتقام»[6]، وهم ممتلئون غيرة لتطبيق فرائض الشريعة والتكفير عن الأرض[7]. من هنا أهمية الحق المعطى لكل عضو في جماعة قمران بالحكم على الآخرين، فباعتقاد هؤلاء أنهم قضاة العالم وديّانو البشرية.

لذلك يمكن القول إن المجموعة المؤلفة من مئة عضو أسّيني هي مشابهة

١- JOSEPHE, *Guerre,* II, viii, 9, § 146.

٢- CD-A, XIII, 1.

٣- JOSEPHE, *Guerre,* II, viii, 9, § 145.

٤- تأسس مجلس السنهدرين (Sanhédrin) في عهد يوحنا هركانوس (١٣٤-١٠٤ ق.م.)، وكان المرجع الأعلى لليهود بالنسبة إلى المسائل الدينية والقضائية. تألف من ٧١ عضواً برئاسة الكاهن الأكبر. أعضاؤه هم من الشيوخ، رؤساء العائلات الكبيرة، ومن كبار الكهنة السابقين، ومن الصدّوقيين الكهنة والفرّيسيين الكتبة. وكان هذا المجلس يجتمع على مدار السنة في هيكل أورشليم، بمعدل مرتين في الأسبوع وبرئاسة الكاهن الأعظم.

٥- Xavier LEON-DUFOUR, *Dictionnaire du Nouveau Testament,* p. 483.

٦- 1QS, IX, 23.

٧- 1QSa, I, 3.

لمجموعة المئة في قمران. وإذا كانت أحكام مجموعة المئة مبرمة ونهائية، فهذا عائد إلى أن الأسينيين كانوا بدورهم يترقّبون مجيء المسيّا، ويعتقدون أن زمن الدينونة قد حان.

هذا في ما خصّ يوسيفوس، أما بالنسبة إلى فيلون الاسكندري، فيبدو أن التلميحات الاسكاتولوجية الواردة في حديثه عن الأسينيين ضئيلة جداً. لكن بعض الوقائع التي ذكرها عنهم تُعتبر من العناصر المميّزة للزمن المشيحي، على مثال تعصّبهم للشريعة الموسوية التي كانوا يدرسونها في كل الأوقات وخاصةً في السبوت، لأن اليوم السابع مقدّس بنظرهم. أضف إلى ذلك تقيّدهم بفروض الطهارة طوال الأيام، وارتباط هذا المفهوم بعقيدة تفقّد إله إسرائيل لشعبه في زمن الدينونة، كما سبق بيانه. كذلك الحال بالنسبة إلى التزهد والبساطة في المأكل والمشرب وغير ذلك من الأمور التي تهدف إلى تطهير النفس والجسد، والتي ربما تكون على علاقة وثيقة بمفهوم الصراع بين النور والظلمة. لقد أثّرت تلك العقيدة بجماعة قمران كما رأينا سابقاً، بحيث أن كل ما ينتمي إلى عالم المادة كان يُعتبر بنظر هؤلاء مظهراً من مظاهر الشر، كالغنى والأطعمة الفاخرة والملذات وغير ذلك من الأمور التي تقيّد الجسد وتستعبده. وربما انطلاقاً من هذا المفهوم، ذكر فيلون، في نبذته الدفاعية عن اليهود، أن مآدب الأسينيين المشتركة كانت تحصل بعد مغيب الشمس[1]. فالأمور المادية التي يحتاج اليها الجسد تنتمي، بنظره، إلى عالم الظلمة.

وفي ما يتعلق ببقية المصادر، فإن ما ذكره بلينوس الكبير لناحية إقامة الأسينيين في أطراف برية اليهودية، يتوافق مع إحدى الركائز الأساسيّة لعقيدة الحرب المقدسة لدى بني إسرائيل، أي الرحيل إلى البرّية من أجل إعداد الطريق ليهوه. كما أن التزهد والابتعاد عن النساء يندرجان ضمن مفهومي النقاوة والقداسة اللذين يوجبان تحرير الجسد من روابطه المادية وتجنّب كل نجاسة استعداداً ليوم الرب العظيم، أي يوم الدينونة.

وبالرغم من أن بورفير نقل عن يوسيفوس ما ذكره عن الأسينيين، غير أن شهادته تؤكد مرّة أخرى الدور الأصولي الذي مثّله هؤلاء خلال الحرب

١- EUSEBE, *Prép. Ev.*, VIII, 2, 7.

اليهودية ضد الرومان. وبالفعل، فقد مارس الأسينيون القداسة والطهارة والزهد لا لمجرّد التنسّك والتعبّد للخالق، بل لأنهم من الجماعات الأصولية التي شاركت في الحرب اليهودية الكبرى، اعتقاداً منهم أن الزمن الذي كانوا يعيشون فيه هو آخر الأزمنة.

وقد أصاب هيبوليتس الحقيقة عندما أكّد أصولية الأسينيين وآمالهم المشيحية، غير أنه أخطأ عندما ربط بينهم وبين حزب الزيلوت. فالفارق بين الجماعتين كبير، لأن الأسينيين كانوا يستعدون في السرّ لمحاربة روما، نظراً لباطنيّتهم، في حين أن الزيلوت جاهروا بعدائهم للرومان. ولهذا السبب أفرط يوسيفوس في الثناء على الأسينيين في مؤلفاته، لكنه صبّ جام غضبه على الزيلوت وعلى جميع الأصوليين الذين جاهروا بعدائهم للرومان، فحمّلهم مسؤولية دمار الأمة اليهودية وخراب الهيكل، ووصفهم بأنهم «قطّاع طرق ولصوص»[1].

بعد اتضاح أصولية الأسينيين والتثبّت من أنهم كانوا يترقّبون مجيء المسيّا، على مثال الجماعات الأصولية اليهودية المعاصرة للحرب اليهودية الكبرى، وباعتبار أن الأسينيين شاركوا فعلاً في تلك الحرب، لا بد من موافقة آراء الباحثين القائلين بأن الأسينيين هم اصحاب مخطوطات البحر الميت وأنهم وجماعة قمران جماعة واحدة. وسوف نجد، عند تحليلنا لتلك المخطوطات الكثير من القواسم المشتركة التي تثبت هذا القول حتى في أصغر التفاصيل[2].

١- Emile SCHÜRER, *The History of the Jewish People in the Age of Jesus Christ,* vol. 1, p. 462.

٢- كان الأسينيون يمتنعون عن البصق فيما بينهم أو إلى يمينهم. كما كان يحرّم على أعضاء جماعة قمران البصق خلال الاجتماعات.
أنظر: JOSEPHE, *Guerre,* II, viii, 9, § 147; 1QS, VII, 13.

الفصل الرابع

المجتمع الأسيني المدني والعسكري

أولاً- الانتساب إلى جماعة قمران

في حقبة مضطربة من تاريخ بني اسرائيل، تميّزت بدايتها بنشوء ظروف شكّلت تهديداً للشريعة الموسوية، وكانت فلسطين خلالها رازحة تحت احتلال الأغراب، بدأ المتطوعون من «بني إسرائيل»[1] يتوافدون إلى منطقة قمران للانضمام إلى الأسينيين. وكان المراقب، الذي هو على رأس الجماعة، يفحص كل راغب بالانتساب، فإن وجده جديراً بالنظام وبالدخول في العهد أمره باتباع أسلوبهم في العيش لمدة سنة كاملة دون اعتباره واحداً منهم، وبعد ذلك يتشاور الأعضاء في أمره، وبحسب قرارهم كان يقترب أو يبتعد عن الجماعة. فإن اقترب من الجماعة لا يحق له مشاركة الأعضاء في مياه التنقية قبل أن ينهي سنة كاملة من الاختبار، بعدها يتشاورون مجدداً في أمره. فإذا قرر الكهنة وأكثرية الأعضاء أنه يحق له معاشرة الجماعة، تُلقى أمواله ومداخيل عمله في يد المراقب، أي الوكيل، الذي يسجّل تلك الأموال على حدة، ولا يصرف منها في سبيل المجموعة حتى يُنهي طالب الدخول سنة ثانية يكون خلالها قد سار بموجب الأنظمة والقواعد المتّبعة. وبعد فحصه مجدداً وموافقة الكهنة وأكثرية الأعضاء على قبوله، يُسجّل في درجته في مجلس الجماعة. بعد ذلك يستطيع ان يدلي برأيه ويعطي حكمه[2].

ووجب على العضو الجديد أن يقسم أمام الكهنة ومجلس الجماعة فيلزم نفسه بالارتداد «إلى شريعة موسى بحسب كل ما تفرضه، وذلك من كل قلبه وكل نفسه»[3]. وكان يتمّ تسجيل الأعضاء بالترتيب وفقاً لتاريخ انتسابهم إلى

١- ورد في «نظام الجماعة» (1QS, VI, 13-14) أن الأعضاء هم من اليهود، لكن «وثيقة دمشق» (CD-A, XIV, 6) سمحت بانضمام «الدخلاء» (Prosélytes)، أي الوثنيين الذين اعتنقوا الديانة اليهودية وطبّقوا أحكام الشريعة.

٢- JOSEPHE, *Guerre,* II, viii, 7 § 137-138; 1QS, VI, 13-23.

٣- 1QS, V, 8-9.

الجماعة، مع الأخذ بعين الاعتبار قدراتهم العقلية وأعمالهم، فيخضعون كلهم الواحد للآخر، الأدنى للأعلى. وكانت أعمالهم تُفحص سنة بعد سنة، بحيث يتقدّم الواحد منهم بفضل كمال سلوكه، أو يتأخر بحسب الأخطاء التي اقترفها[١].

وقد توجّب على الأعضاء الابتعاد عن الفاسدين والكافرين، فلا يجوز الاشتراك معهم في عمل أو في مال، أو في مشاركتهم مآدبهم، كما لا يُقبل إطلاقاً من يدهم أي شيء دون أن يُدفع ثمنه[٢].

وكان الوكيل المسؤول يعلّم الأعضاء مبادئ الجماعة وعقائدها والقواعد الخاصة بكل زمن. والويل ثم الويل لمن يخالف سهواً أو عمداً الشريعة الموسوية. فإن حصل ذلك سهواً، يُحرم المخالف من مياه التنقية، ويُبعد عن مجلس الجماعة فلا يشاركه أحد لا في أمواله ولا في مشورته إطلاقاً، وذلك خلال سنتين كاملتين. أما إذا حصلت مخالفة الشريعة عمداً، فيُفصل صاحب المخالفة نهائياً عن الجماعة ولا يحق له العودة إليها أبداً[٣].

ثانياً- الأسينيون والحياة المدنية

لم تكن أبنية قمران سوى محطة رئيسة لإعداد الراغبين بالدخول إلى الجماعة، فالتنقيبات الأثرية في خربة قمران أثبتت أن غرف المنامة لا يمكن أن تأوي الأسينيين الذين بلغ عددهم أربعة آلاف شخص تقريباً، استناداً إلى ما ذكره فيلون ويوسيفوس. أما راغبو الدخول في العهد فكانوا يقيمون في الاماكن المجاورة الممتدة بين موقع خربة قمران وواحة عين فشخة. وكان بعضهم يسكن المغاور العديدة الكائنة في منطقة قمران.

بعد قبول الأعضاء نهائياً في مجلس الجماعة، كانوا يعودون إلى مناطقهم، فيتوزعون على قرى فلسطين ومدنها، ويتجمّعون في أخويّات لا يقلّ عدد الواحدة منها عن عشرة أعضاء. وقد أكدت بعض مخطوطات البحر الميت ما ذكرته المصادر حول عيشهم المشترك وما تميّزوا به من تواضع وبرّ

١- 1QS, V, 23-24.

٢- 1QS, V, 14-17.

٣- 1QS, VIII, 21– IX, 1.

وصدق وسلوك حسن، وغير ذلك من الفضائل بما فيها الاعتناء بالمرضى وكبار السن من إخوانهم. كما تميّز هؤلاء بالمحبة الفائقة لبعضهم البعض[١]. وكان سعيهم نحو القداسة والكمال مثار اعجاب الذين يعرفونهم، وخاصةً اهتمامهم بالمرضى والمسنين من أفراد الجماعة، وقيامهم بأعمال الرحمة ومساعدة المحتاجين، وهي من الأمور التي كان يحقّ لهم القيام بها تجاه الغير دون استئذان نظّارهم[٢].

اهتم الأسينيون بالاعمال الزراعية وسوق الماشية وتربية النحل ومارسوا مهناً مختلفة، بحيث كانوا لا يرفضون أيّة وسيلة شريفة للحصول على الموارد. وكانوا يعملون على قدر ما يكفي لتلبية حاجاتهم الحياتية وتغذية صندوقهم المشترك. لم يكن هدفهم جمع الأموال والغنى، لذلك تجنّبوا التجارة والملاحة وتملّك الأراضي الواسعة، كما امتنعوا أمام الناس عن ممارسة جميع المهن المرتبطة بصناعة السلاح، رغبة منهم في الحفاظ على الطابع السلمي الذي أشاعوه حول أنفسهم، بالرغم من استعدادهم سرّاً للاشتراك في حرب آخر الأيام، كما هو ثابت في مخطوطات البحر الميت.

وعندما يصبح مريد الدخول عضواً في تلك الجماعة، كانت توضع أمواله وأملاكه بتصرّف المجموعة، بحيث انتفت لديهم الملكية الخاصة، وصار كل شيء عندهم شائعاً فيما بينهم. فقد عاشوا ضمن أخويات، وكان لهم صندوق مشترك يغذّونه بمقتنياتهم وأجور أعمالهم اليومية، ويأخذون منه ثمن احتياجاتهم من كساء ودواء. وفي قول فيلون إن «ما يتلقونه كأجر عن أعمالهم اليومية، لا يحتفظون به لأنفسهم، إنما يضعونه بتصرف المجموعة»[٣]، دلالة على وجود علاقة عمل بين الأسينيين والغرباء عن طائفتهم، لأن الأسيني لا يقبض أجراً من أخيه الأسيني، كونهم يعيشون جميعاً حياة مشتركة، بعدما تخلّوا عن أموالهم إلى الوكلاء المسؤولين. ولا شك أن ما كان يُصرف على معيشتهم هو أقل بكثير مما كانوا يقدمونه للجماعة لأنهم عاشوا حياة تقشّف وتزهّد.

١- 1QS, I, 9; V, 4-5; VII, 3-4; XI, 1-2.

٢- JOSEPHE, *Guerre,* II, viii, 6, § 134.

٣- PHILON, *Quod Omnis,* 86.

ثالثاً- هيكلية جماعة قمران

نظام المجتمع القمراني هو نظام تيوقراطي ذو وجه عسكري، يقوم على التراتبية التالية:

١- الكهنة

كهنة قمران هم «أبناء صادوق» و«مرتدّو إسرائيل الذين خرجوا من أرض يهوذا»[١] للدفاع عن الشريعة حين تخلّت جماعة من اليهود عن تطبيق أحكامها، وزاغت قلوب كهنة الهيكل فخانوا الوصايا طمعاً بالمال، وتعاونوا مع الغريب المحتلّ. وبفضل اعتقادهم أنهم «أبناء هارون» الموكلين بالحفاظ على العهد[٢]، ذهبوا إلى برية اليهودية ليُعِدّوا جماعة من القديسين من أجل التكفير عن الأرض والقضاء على الأشرار.

تبوّأ الكهنة في قمران المراكز القيادية، فكان الجميع تحت إمرتهم. وترأسوا اجتماعات مجلس الجماعة والمجلس المصغر. وألزمت قوانينهم وأنظمتهم أن يكون على رأس كل جماعة من الأسينيين المنتشرين في أنحاء فلسطين، كاهن يخضع الجميع لأوامره. ولم يكن يُقبل العضو نهائياً في الجماعة إلاّ بعد موافقة كهنة بني صادوق. وكان هؤلاء يرفعون الصلاة خلال ثلاثة أيام عند إعطاء الأمر لمجلس الجماعة للاجتماع أو لممارسة القضاء[٣].

انطلاقاً من عقيدة المسيّا المنتظر، توقّع الأسينيون أن يكون كبير الكهنة في قمران المسيح الكاهن، نسل هارون. لهذا نراه خلال الوليمة الإسكاتولوجية الكبرى متقدّماً في المنزلة على مسيح إسرائيل، أي المسيح الملك[٤]. وقد خصص كتاب «المباركات» مديحاً لكبير الكهنة في قمران توافقاً مع تلك العقيدة، جاء فيه: «ليضع على رأسك التاج وليقدّس نسلك لمجد أبديّ. ليعطِك

١- CD-A, IV, 2-3.

٢- 1QS, V, 9; 1QSa, I, 24; II, 13.

٣- 1QS, I, 18-19; V, 2-4; VI, 8; VIII, 1; 1QSa, I, 2, 15-26.

٤- 1QSa, II, 11-14 , 19-21.

السعادة الأبدية والملك... وليحارب أمام ألوفك... ليخضع لك الشعوب العديدين»[1].

وجاء في «نظام الحرب» أنه عند بدء حرب آخر الأزمنة، يجب أن يقف رئيس الكهنة ويقرأ صلاة زمن الحرب على مسامع الكهنة واللاويين وجميع رجال النظام، فيشدّد عزائمهم مذكّراً إياهم بما ورد في سفر التثنية: «اسمع يا إسرائيل، أنتم تقتربون اليوم لتقاتلوا أعداءكم. فلا تخافوا. ولا يضعف قلبكم. لا تخشوا ولا ترتعدوا أمامهم، لأن إلهكم يسير معكم ليقاتل عنكم أعداءكم، لكي يخلّصكم»[2].

والجدير ذكره أن دور كهنة قمران خلال الحرب الإسكاتولوجية، لم يكن دوراً قتالياً بل طقسياً، بحيث وجب على الكاهن الأول أن يرتدي لباساً من الكتان الأبيض الناعم ويسير على رأس جميع المقاتلين ليرفع معنويّاتهم في الحرب. وكان يسير وراءه ستة من الكهنة أوكلت إليهم مهمة النفخ في أبواق الحرب المتعلقة بمختلف العمليات العسكرية[3]. وعند سقوط القتلى، كان الكهنة ينفخون بأبواقهم من بعيد ولا يأتون إلى مكان سقوط القتلى «لئلاّ يدنّسوا زيت مسحة كهنوتهم بدم الأمم الباطلة»[4].

٢ - اللاويون

انحصر دور اللاويين أيام النبي موسى بخدمة خيمة الموعد وحمل تابوت العهد[5]، وصاروا فيما بعد خدّام الهيكل. وقد حافظوا على دورهم هذا في قمران بحيث جاءت مرتبتهم بعد الكهنة مباشرة؛ فكان كل واحد من بني لاوي يقف في مركزه منتظراً أوامر الكهنة أبناء هارون لكي يُدخل ويُخرج أفراد الجماعة، وفقاً لمنزلة كل واحد منهم[6]، كأن الجماعة أمست هيكلاً للعهد الجديد.

١- 1QSb, III, 1-21.

٢- 1QM, X, 3-4; XV, 4-15؛ تث ٢٠: ٢-٤.

٣- 1QM, VII, 9-15.

٤- 1QM, IX, 7-8.

٥- تث ١٠: ٨؛ عد ١٨: ١-٧.

٦- 1QSa, I, 22-25; CD-A, XIV, 4.

ولم تسمح الأنظمة للاّويين بتولّي المهام القيادية في المخيّم إلاّ في بعض الحالات الخاصة. فقد جاء في «وثيقة دمشق» أنه «حيث يكونون عشرة، لا ينقصهم رجل يكون كاهناً متعلّماً في كتاب التأمل. فلأوامره يخضعون جميعاً. وإن لم يكن خبيراً بكل هذه الأمور، ساعة يكون أحد اللاويين خبيراً في تلك الجماعة، فمصير أعضاء المخيّم يفرض عليهم أن يروحوا ويجيئوا بحسب أوامر هذا اللاوي...»[١]. واستثنت القوانين حالات البرص، بحيث كان من الضروري استقدام كاهن من بني هارون وإرشاده حول كيفية تطبيق القواعد المتّبعة.

وقد أثبتت «وصية لاوي» تطلّعات اللاويين لنيل درجة كهنوتية في مرحلة التجدد الشامل. هذا الكهنوت الجديد الذي يخالف سنن الآباء، يعكس واقعاً راهناً. فقد كان للأسينيين دور معيّن في الحرب اليهودية الكبرى ضد الرومان التي اعتُبرت في حينه أنها حرب نهاية الأزمنة بنظر الأصوليين اليهود الذين خاضوا غمارها. وبالرجوع الى كتاب «العاديات اليهودية» ليوسيفوس، نقع على حادثة مهمة حصلت في تلك الحقبة بالذات. فقد طلب اللاويون من الملك أغريبا الثاني أن يجمع مجلس «السنهدرين» للسماح لهم بارتداء ملابس كتانية بيضاء على غرار الكهنة، مدّعين أنه يُحدث بذلك تغييراً مهماً في عهده. فوافق الملك على طلبهم[٢].

هذه الحادثة لها معانٍ هامة ومدلولات متعددة. فهي تؤكد، من جهة أولى، أن تفكير القمرانيين باستلام اللاويين درجة الكهنوت هو عملي وواقعي. كما تؤكد، من جهة ثانية، انتماء «وصيّة لاوي» إلى السياق التاريخي العائد للحرب اليهودية الكبرى. فما كتبه يوسيفوس حول هذا الموضوع فريد من نوعه، إذ لا يُعثر في تاريخ اليهود، منذ قرون عديدة قبل الميلاد حتى الحرب اليهودية الكبرى، على أيّة إشارة تاريخية تؤكد مطالبة اللاويين بالكهنوت، سوى هذه. وإذا كان لاويّو هيكل أورشليم في عهد الملك أغريبا الثاني، قد طالبوا بارتداء ملابس كتانية بيضاء على غرار الكهنة، فهذا يعني أنهم كانوا يعيشون بدورهم

١- CD-A, XIII, 2-4.

٢- JOSEPHE , *Ant. Jud.,* XX, 9, 6, § 216-218.

الآمال المشيحية ويعتقدون بدنوّ زمن الدينونة والتجدّد الشامل، تماماً كمعاصريهم الأسينيين. وبما أن الحرب اليهودية الكبرى ضد الرومان اندلعت في زمن الملك أغريبا الثاني، وبعد فترة قليلة من مطالبة اللاويين بارتداء الثياب الكتانية الكهنوتية، فهذا يجعل من تلك الحرب، المعركة النهائية الوحيدة التي ترقّب الأسينيون خلالها القضاء على بني الظلمة ومجيء المسيّا لينصرهم على أعدائهم.

٣- الوكلاء والمراقب الأعلى

انتشر الأسينيون في قرى فلسطين ومدنها، وتجمّعوا في أخوّيات أو مجموعات. وكان يوجد على رأس كل مجموعة مراقب أو وكيل يتراوح عمره بين الثلاثين والستين سنة[1]. وأوجبت الأنظمة أن يكون المراقب كاهناً، لأن أبناء هارون وحدهم «يعطون الأوامر في ما يخصّ القوانين والأموال. وتحت سلطتهم تُلقى القرعة حول كل قرار يتعلّق بأعضاء الجماعة»[2]. أما بالنسبة إلى المجموعات الصغيرة التي تتألف من عشرة أفراد على الأقل، فإذا لم يكن الكاهن كفؤاً وخبيراً بالأمور الموكلة اليه، يجوز لمن تتوفر فيه الكفاءة من اللاويين أن يتولى منصب الوكيل، فيترأس مجموعته ويدبّر أمورها.

وتوجب على الوكيل، بصفته مسؤولاً عن أفراد مجموعته، أن يرشدهم ويعلّمهم أنظمة الجماعة وعقائدها؛ ويكون حنوناً تجاههم كالأب مع أولاده، والراعي مع قطيعه. وكان يُفرض على الأعضاء الانصياع لأوامره وقراراته والمبادرة إلى إعلامه بكل الأمور التي تحصل معهم[3].

ومن واجبات الوكيل الاهتمام بتدبير الأمور المعيشية لأعضاء مجموعته، فيستلم أموالهم ومداخيل أعمالهم[4] ويصرفها على المجموعة. كما يجب عليه أن يكون متعمّقاً بالشريعة ومتمرّساً بجميع فروضها وأحكامها.

١- CD-A, XIV, 6-7.

٢- 1QS, IX, 7.

٣- 1QS, XIII, 7-16.

٤- 1QS, VI, 19-20.

وهناك المراقب الأعلى المسؤول عن جميع المخيمات، وهو كاهن له سلطة كبيرة على الجماعة[1]، ويتراوح عمره بين الثلاثين والخمسين سنة. وكان يتوجب عليه أن يكون عارفاً باللغات التي تتكلّمها مختلف عشائر بني اسرائيل[2]. وربما يعود ذلك إلى أن جماعة قمران كانت تضمّ عدداً من يهود الشتات المقيمين خارج فلسطين؛ بالإضافة إلى عدد من «الدخلاء». غير أن الأخيرين احتلّوا في المجتمع القمراني المرتبة الرابعة بعد الكهنة واللاويين وبني إسرائيل[3]. ويتوافق تواجد «الدخلاء» في مجلس الجماعة في قمران، مع توجهات الجماعة المذكورة للتعبئة العامة استعداداً لمعركة الأيام الأخيرة. وهذا ما عناه كاتب نظام الحرب عندما أشار إلى عودة أبناء النور المنفيّين من «برية الشعوب ليعسكروا في برية أورشليم»[4].

٤- «مجلس الجماعة» و«المجلس المصغّر»

انتظم الأسينيون في مجلس عام دُعي «مجلس الجماعة». ضمّ هذا المجلس كهنة بني صادوق واللاويين، إضافة إلى رؤساء القبائل والعشائر والشيوخ والقضاة وجميع الأفراد الذين توفّرت فيهم شروط الانتساب. وأهم تلك الشروط الحفاظ على الشريعة الموسوية، والكمال في السلوك، وسلامة البنية[5]، والتزهّد، والتطهّر وغير ذلك من الفروض الطقسية الساعية إلى الكمال والمرتبطة أصلاً بعقيدة الحضور الإلهي، بحيث اعتبر الأسينيون أنفسهم «جماعة الرب»، وأن مجلسهم هو «مجلس قداسة»[6]، لأنه يضمّ «القديسين»[7] فقط من بني إسرائيل. ولهذه الناحية، صدق كل من فيلون ويوسيفوس عندما وصفوا الأسينيين أنهم من أهل القداسة.

١- EISENMAN-WISE, *Man. Rév.*, p. 263.

٢- CD-A, XIV, 8-9.

٣- CD-A, XIV, 6.

٤- 1QM, I, 3.

٥- 1QSa, I, 27 – II, 1.

٦- 1QS, II, 22-25.

٧- 1QM, III, 5; X, 10; XII, 4.

ويضمّ مجلس الجماعة أيضاً الشيوخ الذين تأتي مرتبتهم بعد الكهنة واللاويين[1]؛ ومنهم رؤساء القبائل ورؤساء عائلات الجماعة.

بلغ عدد رؤساء القبائل إثنا عشر، تماماً كعدد أبناء يعقوب الذين تشكّلت منهم أسباط إسرائيل. أما عدد رؤساء عائلات الجماعة فهو إثنان وخمسون[2]، ربما توافقاً مع عدد أسابيع السنة الأسينية. ومن المرجح أن يكون دورهم عسكرياً لأنه مشابه للدور الذي مثّله رؤساء القبائل والعشائر زمن التحرّر من عبودية فرعون والخروج إلى صحراء سيناء بقيادة النبي موسى؛ فقد كان من الواجب على رؤساء عائلات الجماعة في قمران أن يختاروا مقاتلين لكل أراضي الأمم من وسط قبائل إسرائيل كلّها، وأن يجنّدوا لهم رجال حرب لينخرطوا في الجيش[3].

وكانت اجتماعات «مجلس الجماعة» منظمة بشكل دقيق بحيث أعطيت الأولوية في حق الكلام استناداً إلى التراتبية التي يقوم عليها المجتمع القمراني. فلم يكن يُسمح للعضو التكلّم «قبل رتبته. فمن تسجّل قبلك يتكلّم قبلك. والذي يُسأل يتكلّم بدوره»[4].

على رأس مجلس الجماعة، هناك «مجلس مصغّر» يتألف من ثلاثة كهنة من بني صادوق واثني عشر علمانيّاً. تولّى الكهنة الدور القيادي في هذا المجلس. أما العلمانيّون فهم رؤساء قبائل إسرائيل الاثني عشر المشاركين في مجلس الجماعة، وذلك تيمّناً بما قاله الرب في برية سيناء عندما خاطب موسى وهارون قائلاً: «... وليكن معكما من كلِّ سِبْطٍ رجلٌ، وذلك الرجل يكون ربَّ بيتِ آبائه»[5]. علماً أن تواجد رؤساء القبائل في سدّة القيادة هو ضروري لأن الحرب الإسكاتولوجية التي كانت جماعة قمران تستعدّ لخوض غمارها

١- İQS, VI, 9.

٢- 1QM, II, 1.

٣- 1QM, II, 7-8.؛ عد ٣١: ٢٦.

٤- CD-A, VI, 10-11.

٥- عد ١: ٤.

تعني بني إسرائيل كافة. وقد أوجبت القوانين أن يكون أعضاء هذا المجلس على معرفة تامة بالشريعة[١].

٥ - القضاة

سبقت الإشارة إلى ما ذكره يوسيفوس حول عدم قابلية نقض الأحكام التي تقرّها محكمة من جماعة الأسينيين لا يقلّ عدد أعضائها عن المئة، ما يدلّ على أن قرارات تلك الجماعة كانت تُتخذ بالأكثرية. وقد ورد في «ملحق نظام الجماعة» أنه يحق لكل أسيني بلغ الثلاثين من العمر «أن يتقدّم ليحكم ويقضي ويجلس وسط رؤساء ألوف إسرائيل، ورؤساء المئات، ورؤساء الخمسينات، ورؤساء العشرات، والقضاة والوكلاء...»[٢]. يتبيّن من هذا النص وجود قضاة يهتمّون بالنظر في الدعاوى المهمّة. كان عدد هؤلاء القضاة عشرة، تختار الجماعة أربعة منهم من قبيلة لاوي وهارون وذلك لمدة محدّدة، ويتم اختيار الباقي من سائر قبائل إسرائيل. ويجب أن يكون هؤلاء على معرفة شاملة بقوانين الجماعة وأنظمتها. كما يجب أن تتراوح أعمارهم بين ٢٥ و٦٠ سنة، وبعد هذه السنّ لا يبقى القاضي في وظيفته[٣]. وكان يحق لهؤلاء القضاة إصدار الحكم بالموت على العضو الذي يخالف أحكام الشريعة، وذلك إذا تكررت المخالفة ثلاث مرات أمام شاهد موثوق به[٤].

رابعاً- جيش أبناء النور والحرب المقدسة

سعى القيّمون على طائفة الأسينيين لجعل «مجلس الجماعة» مجلس قداسة. فسار هؤلاء في دروب الفضيلة سعياً وراء الكمال الروحاني، وانطلاقاً من قناعتهم بأنهم جيش أبناء النور، وأن حربهم هي حرب مقدسة.

وتوجد في المخطوطات عبارات تؤكد أن الأسينيين شكّلوا جيشاً بكل ما لهذه الكلمة من معنى. فبالاضافة إلى العبارات الدالّة على طابع الأسينيين

١- 1QS, VIII, 1-2.

٢- 1QSa, I, 13-16.

٣- CD-A, X, 4-8.

٤- CD-A, IX, 16-20.

الأصولي[1]، أو التي تنمّ عن الكره الشديد لأعدائهم[2]، والرغبة في القضاء عليهم يوم الثأر والانتقام، نجد في بعض النصوص إشارة صريحة إلى «جيش القديسين»[3]، و«التعبئة العامة»، و«جيوش الجماعة»[4]. وكانت تلك الجيوش بإمرة أبناء صادوق الكهنة وجميع رؤساء العائلات[5].

وضع درج «نظام الحرب» الخطة المفصّلة للحرب الاسكاتولوجية المقدسة التي كان الأسينيون يخطّطون لتنفيذها. وما أورده الدّرج المذكور عن نظام الرايات يؤكد الطابع المقدس الذي أُعطي لتلك الحرب، إذ يشكّل اسم «إيل»، أي إله اسرائيل، القاسم المشترك لجميع العبارات المدوّنة على الرايات التي كانت تتقدّم جيوش الأسينيين، ومنها: الراية الكبيرة التي كانت تسير على رأس الشعب كلّه، ورايات رؤساء معسكرات القبائل الثلاث، والقبائل الاثني عشر، والعشائر، والألوف، والمئات، والخمسينات، والعشرات[6].

١ - القادة والمحاربون

خلال تحرّر بني إسرائيل من عبودية مِصر وتنقّلهم في برية سيناء بقيادة النبي موسى[7]، واستعدادهم على مدى جيل واحد لغزو ما اعتبره اليهود «أرض الميعاد»، أقام موسى على الشعب رؤساء جيوش[8]، أي ضباط الجيش، رؤساء الألوف والمئات والخمسين والعشرة[9]. فتيمّناً بتلك الذكرى التي ترمز إلى الخلاص والتحرر من العبودية، ونظراً للظروف التي أدّت في حينه إلى نشأة جماعة قمران، خرج مؤسسو الجماعة من أورشليم إلى الأطراف الشرقية لبرّية اليهودية، فأسّسوا جيش أبناء النور، بقيادة «رؤساء الألوف والمئات

١- 1QS, VIII, 6-7.

٢- 1QS, I, 10-11.

٣- 1QHª, XI, 22.

٤- 1QSa, I, 6 et 26.

٥- 1QSa, I, 24-25.

٦- 1QM, III, 13-19.

٧- خر ١٨: ٢١ و٢٥؛ ٢١:١٨؛ تث ١: ١٥؛ عد ١٠: ٤ و٣٦؛ ٣١: ١٤ و٤٨.

٨- تث ٢٠: ٩

٩- عد ٣١: ١٤؛ تث ١: ١٥.

والخمسينات والعشرات»[1]. علماً أن هذا التنظيم هو دلالة بحدّ ذاته على صفة الأسينيين العسكرية، لأنه لم يكن يُتّبع إلاّ في زمن الحروب المقدسة لبني إسرائيل، تماماً كما حصل خلال الثورة المكابية حين نظمّ يهوذا المكابي جيشه فأقام «قوّاد الشَّعب، رؤساءَ الألفِ والمئةِ والخمسينَ والعَشَرة»[2].

والجدير ذكره أن قادة الألوف والمئات وُكّلوا «على مدن إسرائيل»[3] من أجل الهجوم عليها وفتحها، على مثال يوحنا الأسيني الذي قُتل في مطلع الحرب اليهودية الكبرى أثناء هجومه على مدينة عسقلان.

وقد حدد «نظام الحرب» أعمار مختلف فئات المحاربين. فكانت أعمار الضبّاط تتراوح بين أربعين وخمسين سنة، وقوّاد المعسكرات بين خمسين وستين سنة. أما الذين كُلّفوا بتجريد جثث القتلى وممارسة السلب والنهب والاهتمام بالحفاظ على الأمتعة والمؤن، فكانت أعمارهم تتراوح بين الخمسة والعشرين والثلاثين سنة[4].

تحدث «نظام الحرب» أيضاً عن تكوين فرق القتال، بحيث ضمّت الفرقة الواحدة سبعة خطوط من المقاتلين، بمعدّل ألف رجل في الخطّ الواحد[5]. وهناك سبع تشكيلات من الفرسان يتّخذون مواقعهم عن يمين خطوط القتال وعن يسارها، بمعدل سبعمائة فارس من كل جهة، بحيث يخرج مع كل ألف مقاتل مئتا فارس[6]. وقد لاحظ دوبون-صومر أن تلك التشكيلات العسكرية تتوافق مع نظام الكتيبة الروماني، كما وأن بعض الأسلحة المذكورة في درج «نظام الحرب» مشابه لتلك التي كان يستعملها الجيش الروماني[7].

١- ورد هذا التنظيم العسكري في عدد من المخطوطات، نذكر منها: 1QS, II, 21-22; VI, 3; 1QSa, I, 14-15, 29; 1QM, IV, 1-5; CD-A, XIII, 1-2.

٢- ١ مك ٣: ٥٥.

٣- 11Q19, LVIII, 4-5.

٤- 1QM, VII, 1-3.

٥- 1QM, V, 3.

٦- 1QM, VI, 9.

٧- *B.E.I.*, p. 201 et 203, notes 7-10 et 8-15.

٢- الإحصاء والتعبئة العامة والميليشيات

في برية سيناء، زمن الخروج من مصر والاستعداد لغزو أرض كنعان، تمّ إحصاء «كل جماعة بني إسرائيل بعشائرهم وبيوت آبائهم، بِعَدِّ أسماء الذكور رأساً رأساً من ابن عشرين سنة فصاعداً، كلُّ من يخرج الى الحرب في إسرائيل»[١]. وكان الهدف من ذلك الإحصاء معرفة القدرة العسكرية لبني إسرائيل. وفي برية قمران أيضاً، نصّت قوانين الجماعة وأنظمتها على إجراء إحصاء، سنة بعد سنة. وقد شمل الإحصاء الذكور وحدهم، من ابن عشرين سنة فصاعداً[٢]. ومن المرجح أيضاً أنه كان يهدف إلى معرفة قدرات الأسينيين العسكرية في حال الدعوة إلى التعبئة العامة التي أشار إليها «ملحق نظام الجماعة» بشكل صريح[٣]. والجدير ذكره أن الأنظمة في قمران لم تكن تسمح سوى لمن بلغ الخامسة والعشرين من العمر بأن يجلس بين أسس الجماعة المقدّسة[٤]، فلماذا شمل الاحصاء الذين أتمّوا العشرين من العمر؟

لقد شمل الاحصاء الأسينيين مع أبنائهم الراشدين الذين يشكّلون «كل جيوش الجماعة»[٥]. فإذا التحق امرؤ بجماعة قمران بشكل نهائي «وجب على أبنائه الذين بلغوا السنّ، أن يخضعوا للاحصاء ويلتزموا بقسم العهد»[٦]. ومن كان منهم صغير السنّ يلتحق بالميليشيا الرديفة الخاصة بعشيرته، حيث كان الولد يُلقَّن مبادئ العهد، ابتداءً من سنّ العاشرة لغاية بلوغه العشرين[٧]، وهو العمر الذي يخوّله الخضوع للإحصاء. غير أنه يبقى غير مؤهل للانضمام إلى الجماعة حتى بلوغه الخامسة والعشرين من العمر كما ذكرنا أعلاه.

وكانت جماعة قمران تتألف من فئتين:

١- عد ١: ٢-٣.

٢- 1QS, II, 19-25; 1QSa, I, 8-9.

٣- 1QSa, I, 6, 25-27.

٤- 1QSa, I, 12-13.

٥- 1QSa, I, 6.

٦- CD-A, XV, 5-6.

٧- 1QSa, I, 6-13.

- الفئة الأولى: أعضاؤها من الذكور[1] فقط سواء أكانوا عازبين أم متزوجين. وقد قُبِل هؤلاء في عِداد الجماعة وفق شروط معيّنة، كسلامة البنية، والفهم، والاستعداد المستميت للدفاع عن الشريعة. فشكّلوا جيش أبناء النور، واتّخذ كلّ واحد منهم موقعاً معيّناً ومسؤولية محددة في الحرب المعدّة لهدم الأمم. هؤلاء هم «مجلس الجماعة». وقد استُبعِدت المرأة عن هذا المجلس المقدّس لكي يظلّ دائماً على درجة عالية من الطهارة والكمال.

- أما الفئة الثانية فهي الميليشيا الرديفة التي تألفت من نساء الأسينيين وأولادهم[2]، ومن بسطاء الروح[3]، ومن الذين ألّمت بهم عاهة جسدية أو عقلية ولم يعد يُسمح لهم البقاء في مجلس الجماعة المقدّس الذي يضمّ الكاملين من الذكور فقط.

لذلك تبقى العلاقة بين هاتين الفئتين أو الجماعتين من الأسينيين خاضعة لشريعة النجاسة والدناسة، بالاضافة إلى العمر.

وينعكس هذا المفهوم حتى في طريقة توزّع المدافن في قمران. فهناك مقبرة رئيسة كائنة في الجهة الشرقية من خربة قمران وتبعد عنها ٥٠ متراً، وهي تضم حوالى ١١٠٠ قبر. وكانت تلك المقبرة مثوى الذكور فقط[4]، وهم بدون أي شك من الفئة الأولى من الأسينيين. كما أكدت التنقيبات الأثرية وجود مقبرتين ثانويتين، تقع الأولى على الجلّ الحوّاري إلى الشمال من الخربة، والثانية في جنوب وادي قمران، بالإضافة إلى وجود بعض القبور غير المنظمة والمنتشرة على المنحدرات الشرقية التي لا يزيد عدد مجموعها عن المائة. ويبدو أن تلك المقابر كانت تخصّ الفئة الثانية من الأسينيين بدليل العثور فيها على سبعة هياكل عظمية لعدد من النساء والأطفال[5].

١- تألفت الفئة الأولى من الذكور فقط لدواعٍ حربية متعلقة بعقيدة الحضور الالهي خلال الحرب المقدسة. وللسبب عينه، فرض «نظام الحرب» أن تكون المطايا التي تخرج إلى القتال «جياداً ذكوراً، سريعة الخطو، نحيفة الفم... ومدربة على القتال ومهيّأة لتسمع الصرخات... والذين يمتطون هذه الجياد، يكونون اناساً قديرين على القتال...» (1QM, VI, 11-13).

٢- 1QM, I, 45.

٣- 1QS, I, 19-22.

٤- De VAUX, *L'Archéologie,* p. 38.

٥- *Ibid,* p. 25.

الباب الثالث

نشأة الأسينيين والبحث عن ظلالهم في السياق التاريخي

الفصل الأول

نشأة الأسينيين بين الأصول والمصادر

أولاً - المدة الزمنية التي كُتبت فيها مخطوطات البحر الميت

لا شك أن المدة الزمنية التي استغرقتها جماعة قمران لكتابة المخطوطات الخاصة بها ونسخها، تبدأ منذ نشوء الجماعة في موقع قمران وتنتهي عند إخفاء المخطوطات في المغاور (حوالى ٦٨ م.)، يُستثنى من ذلك الأسفار التوراتية التي حملها مؤسسو الجماعة معهم عند مجيئهم الى قمران؛ إذ لا يُعقل أن تأتي جماعة أصولية الى برّية نائية، اختارتها كمركز رئيس للدفاع عن الشريعة، دون أن تحمل معها كتبها الدينية المقدسة التي استقت منها عقائدها، وبخاصة أسفار الشريعة والأنبياء والمزامير.

لذلك لا بدّ من مناقشة آراء عدد من أهل الاختصاص حول زمن كتابة المخطوطات الخاصة بجماعة قمران بالإضافة إلى ما ذكرته المصادر الكلاسيكية حول هذا الموضوع.

١ - آراء عدد من أهل الاختصاص في عمر المخطوطات

تعدّدت آراء أهل الاختصاص حول الفترة الزمنية التي كُتبت خلالها مخطوطات البحر الميت؛ ولا شك أن تلك الآراء تأثّرت بالفكرة المسبقة المكوّنة عن المصادر الكلاسيكية والقائلة بنشأة الأسينيين منذ زمن بعيد، كما تأثّر الباحثون بنتائج الحفريات الأثرية في خربة قمران التي أثبتت عدم تبدّل الناحية العمرانية في ذلك الموقع بشكل جوهري خلال الحقبتين السكنيتين الأولى (ب) والثانية، أي منذ الثلث الأخير من القرن الثاني ق.م. حتى سنة ٦٨ ميلادية.

اعتقد «ميليك» أن مخطوطات البحر الميت كُتِبت منذ أواخر القرن الثالث ق.م. لغاية سنة ٦٦ م. وشدّد على ان القسم الأكبر منها صُنّف في القرن الأول

قبل الميلاد والقرن الميلادي الأول[1]. ولعلّه قصد بعبارة «القسم الأكبر»، المخطوطات الخاصة بجماعة قمران بما فيها النصوص التوراتية التي أُعيد نسخها في قاعة الكتابة الكبرى.

وبحث «كروس» في الناحية الباليوغرافية للمخطوطات، أي لناحية تطوّر أشكال كتابة الحروف عبر الزمن، فقال بوجود ثلاث حقبات من الكتابة، وهي التالية: الحقبة القديمة (٢٠٠-١٥٠ ق.م.)، والحقبة الحشمونية (١٥٠-٣٠ ق.م.)، والحقبة الهيرودية (٣٠ ق.م.-٧٠ م.). وأكّد أن المخطوطات التوراتية تنتمي الى الحقبة القديمة وما بعدها. وباعتقاده أن المخطوطات المتعلقة بجماعة قمران كُتبت ونُسخت خلال الحقبتين الحشمونية والهيرودية.

ورأى «بوروز» أن النصوص غير التوراتية أُلِّفَت جميعها خلال مدّة زمنية تبلغ ١٣٥ سنة، أي منذ سنة ١٧٥ ق.م.، لغاية سنة ٤٠ ق.م. تقريباً. وبرأيه أن مخطوطات «نظام الحرب» و«المدائح» وسفر أشعيا (الجامعة العبرية)، نُسِخَت جميعها خلال النصف الأول من القرن الميلادي الأول. وأكد الباحث المذكور أن «تفسير حبقوق» هو من أحدث مخطوطات البحر الميت[2].

وبفضل الاشارات التاريخية الواردة في «تفسير حبقوق» بخصوص شعب «كتيم»، رأى عدد من الباحثين، وفي طليعتهم «دوبون-صومر»، أن زمن تأليف الدرج المذكور حصل في الفترة التي سبقت مباشرة سقوط أورشليم بيد الرومان سنة ٦٣ ق.م. أو الفترة التالية لها. وقدّر عدد من الباحثين، ومنهم «غيلبير» و«بوروز»، أن «نظام الجماعة» كُتِب بين سنتي ١٧٥ و٧٥ ق.م. كما رجّح «كرمينياك» زمن تأليف درج «المدائح» بين سنتي ٢٠٠ و ١٥٠ ق.م. في حين جعله «دوبون-صومر» بعد سنة ٦٣ ق.م. وتراوحت تقديرات كل من «كرمينياك» و«دوبون-صومر» و«بو رايك» بخصوص زمن تأليف «نظام الحرب» بين عامي ١٧٥ ق.م. و٦٣ ق.م.، بينما حدّد «يادين» تاريخ تأليف الدرج بين سنتي ٦٣ و ٤ ق.م.، واعتقد «لينييه» أن زمن تأليف «منحول

١- J. T. MILIK, *Dix ans de découvertes dans le désert de Juda,* p. 88.

٢- BURROWS, *Manuscrits,* p. 100, 139, 193 et 230.

التكوين» يقع بين نهاية القرن الأول قبل الميلاد وبداية القرن الميلادي الأول[1].

وبحث «درايفر» في المخطوطات مستنداً إلى دلائل الإملاء والخصائص اللغوية، فاعتبر أن زمن كتابتها يتراوح بين مطلع القرن الثالث وأواخر القرن الخامس بعد الميلاد مع ترجيحه الفترة الأخيرة من الحقبة المذكورة. واعتقد «تايتشر» (Teicher) أن المخطوطات لم تصدر عن شيعة يهودية، إنما عن شيعة قديمة من اليهود-النصارى، تُعرف باسم الأبيونيين[2].

وقد أصاب «بوروز» عندما رفض آراء جميع الباحثين الذين اعتقدوا أن مخطوطات البحر الميت كُتبت منذ أواخر القرن الميلادي الأول فصاعداً، لأن حججهم سقطت بفضل شهادة علم الآثار التي أكدت استحالة أن تكون إحدى المخطوطات قد صيغت بعد سنة ٧٠م. وأضاف أن نتائج الأبحاث المتنوّعة تتوافق حول حقبة تاريخية تقع بين سنتي ٣٠٠ ق.م. و ٧٠ ميلادية، جرى خلالها تأليف المخطوطات ونسخها[3].

٢- نقد آراء أهل الاختصاص

هناك تضارب ملحوظ في آراء أهل الاختصاص لناحية زمن تأليف المخطوطات، ربما يكون ناتجاً عن غموض المصادر الكلاسيكية بالنسبة إلى تحديد زمن نشأة الأسينيين بشكل دقيق. وللدلالة على تردد العلماء وحيرتهم حول هذا الموضوع، نشير الى آراء عدد منهم بخصوص ثلاث مخطوطات

١- J. CARMIGNAC - P. GUILBERT, *Les Textes de Qumran traduits et annotés,* vol. 1, p. 15, 57, 85 et 136; J. T. MILIK, *Dix ans de découvertes dans le désert de Juda,* p. 82; BURROWS, *Manuscrits,* p. 50, 100, 132, 212, 213 et 215; J. CARMIGNAC - E. COTHENET - H. LIGNEE, *Les Textes de Qumran traduits et annotés,* (Autour de la Bible), vol. 2, Paris, 1963, p. 56 et 215.

٢- مذهب يهودي-نصراني شرقي متأثر جداً بالمعتقدات اليهودية، كما تأثر بالأسينية والغنوصية والمسيحية. نشط هذا المذهب خاصةً في منطقة بيرة خلال القرنين الثاني والثالث للميلاد. أنكر أتباعه ألوهية يسوع وأقرّوا فقط أنه آخر الأنبياء. كما اعتبروا بولس الرسول مارقاً لأنه قال إن المسيحية هي أرفع شأناً من الشريعة الموسوية. بقي أثر هذا المذهب في بعض مناطق سوريا وفلسطين حتى القرن الخامس للميلاد.

٣- BURROWS, *Manuscrits,* p. 114 et 139.

مهمّة، وهي: «نظام الجماعة» و«نظام الحرب» و«المدائح».

يعتقد معظم الباحثين أن «نظام الجماعة» هو من أقدم مخطوطات البحر الميت، باعتباره يضع الأسس التنظيمية لأصحابها الأسينيين؛ وهم يقدّرون زمن تأليفه بين سنتي ١٧٥ و٧٥ ق.م.، نظراً للاعتقاد السائد بتواجد الأسينيين في تلك الحقبة.

وقد لمس كرمينياك قرابة في المفردات والأسلوب الأدبي بين «نظام الجماعة» وعدد آخر من المخطوطات، فأكّد أن الدراسة الدقيقة للمفردات والأسلوب الأدبي والاستشهادات التوراتية وبعض المواضيع المشتركة تدلّ على قرابة مدهشة بين «نظام الحرب» و«نظام الجماعة» و«ملحق نظام الجماعة»، وخاصةً بين «نظام الحرب» و«المدائح»، ما يعني أن تلك النصوص صادرة عن كاتب واحد. علماً أن كرمينياك رجّح زمن تأليف «نظام الحرب» سنة ١١٠ ق.م. تقريباً، وباعتقاده أيضاً أن «نظام الجماعة» و«المدائح» كُتبا بين سنتي ٢٠٠ و ١٥٠ ق.م.[١]

ويرى عدد من أهل الاختصاص أن زمن تأليف «نظام الحرب» حصل بعد سنة ٦٣ ق.م.، لأنه يشير إلى «الكتّيم» أي الرومان. فإن صحّ هذا الرأي، من المفترض أن يكون «نظام الجماعة» و«المدائح» كُتبا أيضاً في أواسط القرن الأول قبل الميلاد على أبعد تقدير، أي بعد وقوع فلسطين تحت سيطرة روما، وذلك بسبب التشابه في الأسلوب الأدبي بين النصوص المذكورة أعلاه. وهنا لا بد من التساؤل: كيف يمكن أن تكون جماعة قمران نشأت في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد في حين أن النظام الذي سارت بموجبه كُتب بعد مدة طويلة من الزمن؟ وهذا الأمر يدل على التناقض في الاستنتاجات التي توصل إليها الباحثون، نظراً لعدم تمكنهم من تحديد زمن نشأة الجماعة بشكل دقيق.

واستطراداً نشير إلى أن آراء الباحثين القائلين بأن المخطوطات الخاصة بالجماعة صدرت خلال القرنين السابقين للميلاد، هي غير ثابتة وغير أكيدة نظراً للأمور التالية:

١- J. CARMIGNAC, *La Règle de la guerre des Fils de Lumière contre les Fils des Ténèbres,* (Autour de la Bible), Paris, 1958, p. XIII.

١- لا يمكن الركون بكل ثقة إلـى النتائج التي توصل إليها المتخصصون في علم الباليوغرافيا. فهذا المنهج العلمي متطوّر بالنسبة إلـى الكتابات اليونانية واللاتينية، لوفرة النصوص. أما لناحية الكتابات الساميّة، فإن تطوّر أشكال حروف الكتابة فيها لم يحدّد بشكل دقيق حتى يومنا الحاضر، لكي يتمكن العلماء من التوصل الـى نتائج مضمونة.

٢- إن الاعتقاد السائد لدى الباحثين بأن مخطوطات البحر الميت صيغت واستنسخت خلال حقبة من الزمن تنوف عن مائة وعشرين عاماً، أي أنها نتاج ثلاثة أجيال، هو اعتقاد خاطئ. فلو صحّ هذا الرأي لانعكست الأحداث المهمة في تاريخ فلسطين طوال مدة ثلاثة أجيال على المخطوطات، لأن الوثيقة التاريخية مرآة لعصرها. لكن إذا تناولنا حدثاً مهماً حصل في أواخر الحقبة السكنية الأولى (ب)، نعني به الزلزال الذي أحدث أضراراً مهمة في أبنية قمران حوالى سنة ٣١ ق.م.، وأجبر سكان ذلك الموقع على الرحيل عن مقرّهم الرئيس وعن واحتهم الغنّاء في عين فشخة، فإننا لا نقع في مخطوطات البحر الميت على أيّة إشارة تاريخية تعكس هذا الحدث، ما يعني أنه لا يندرج ضمن تاريخ أصحاب المخطوطات.

٥- إن النتاج الأدبي لأجيال متعددة يكون بدوره متعدد المواضيع والمحاور نظراً لاختلاف الاهتمامات بين جيل وآخر. غير أن مخطوطات البحر الميت كُتِبَت خلال حقبة اسكاتولوجية واحدة، لأن مواضيعها تدور حول محور واحد ألا وهو بدء الزمن المشيحي الاسكاتولوجي الذي شكّلت وفاة معلّم البرّ محطّته الأولى. أما المحطة الأخيرة فتتوافق مع مجيء مسيحي هارون وإسرائيل لإبادة الأشرار وإنشاء ملكوت الله الأرضي. فهل شملت هذه الحقبة الاسكاتولوجية جيلاً واحداً من الشعب اليهودي أم أجيالاً متعددة؟ وماذا تقول المخطوطات عن مدة الحقبة الاسكاتولوجية المشار اليها؟

ثانياً- المحطات الكبرى في تاريخ الأسينيين ومدة الحقبة الاسكاتولوجية

يعتقد «إميل بويش»، وهو أحد المتخصصين في الدراسات القمرانية، أن الأسينيين ميّزوا المراحل التالية من تاريخهم:

١- المرحلة السابقة لسكنهم في قمران.
٢- المرحلة الفعلية لتواجدهم في قمران وهي تمتد خلال فترة زمنية معيّنة كتبت الجماعة فيها مخطوطاتها.
٣- مرحلة العودة إلى اورشليم حيث كان على المؤمنين شنّ الحرب الاسكاتولوجية.
٤- وأخيراً حقبة السلام التي تتوّج نهاية الحرب الاسكاتولوجية[1].

وفي ما يلي جدول بأهم المواضيع التي تناولتها مخطوطات البحر الميت لتبيان مواقعها من المراحل المذكورة أعلاه:

الموضوع	المحطات التاريخية
سيطرة شعب «كتيم»، أي المحتل الأجنبي، على فلسطين - بداية تفاقم الشرّ في المجتمع اليهودي وانحراف قسم منه نحو مخالفة الشريعة الموسوية (تنتمي مخطوطة أشعيا دير مار مرقس وغيرها من المخطوطات التوراتية القديمة إلى هذه المرحلة وما قبلها).	المرحلة ١
ظهور معلّم البرّ الذي أسس شيعة الأسينيين وبشّر ببدء مرحلة نهاية الأزمنة- الاضطهاد الذي مارسه الكاهن الشرير على معلّم البر وموت هذا الأخير- نشوء الجماعة في البرية وانتعاش الآمال المشيحية. شهدت نهاية هذه المرحلة كتابة بعض النصوص التنظيمية الخاصة بالجماعة.	بداية المرحلة ٢
انتساب أعضاء جدد إلى جماعة قمران - انتشارهم في قرى فلسطين - الاستعداد والتحضير للحرب الاسكاتولوجية - كتابة المخطوطات الخاصة بجماعة قمران ومن ضمنها المخطوطات التوراتية المنحولة - استنساخ بعض المخطوطات التوراتية.	المرحلة ٢
عودة الأسينيين الى مدن فلسطين وإلى مدينتهم المقدسة اورشليم[2] - نشوء الميليشيات الرديفة التي تتألف من نساء الأسينيين وأولادهم	المرحلة ٣

١- Emile PUECH, «Messianisme, eschatologie et résurrection dans les manuscrits de la mer Morte», *RQ,* n° 70 (1997), p. 257-258.

٢- من المؤكد أن عودة الأسينيين إلى اورشليم لم تحصل في بداية المرحلة ٢، وربما حصلت في نهاية المرحلة المذكورة أو خلال المرحلة ٣. وقد أكّد فيلون في أولى كتاباته عن الأسينيين أنهم كانوا يسكنون القرى ويهجرون المدن. ثم عاد في مرحلة تالية ليؤكد ان الانتشار الأسيني شمل المدن أيضاً.

وغيرهم ممّن لا يحق لهم الانضمام إلى «مجلس الجماعة» - بداية الحرب الاسكاتولوجية واشتراك الأسينيين الفعلي فيها - مجيء المسيّا المنتظر للاشتراك بالمعركة الاسكاتولوجية الكبرى[1] - شهدت بداية هذه المرحلة تأليف بعض المخطوطات التفسيرية وسواها من المخطوطات التي تعبّر عن الواقع الراهن، بالاضافة إلى كتابة واستنساخ عدد من المخطوطات الخاصة بجماعة قمران.	
بداية مرحلة السلم الدائم التي تشكل خاتمة الحرب الاسكاتولوجية[2] - أورشليم الجديدة.	المرحلة ٤

استناداً إلى مضمون المخطوطات، يمكن الاستنتاج أن تاريخ الأسينيين ينحصر بين بداية المرحلة (٢) ونهاية المرحلة (٣). ولا شك أن جميع المخطوطات الخاصة بهم تندرج ضمن المرحلتين المذكورتين، إذ لا توجد فيها إشارة إلى انتصار مسيحي هارون وإسرائيل على أعداء الأسينيين وبداية مرحلة السلام النهائي التي من المفترض أن تتوّج الحرب الاسكاتولوجية المقدسة. فجميع المخطوطات تقف عند هذا الحدّ دون أن تتعدّاه.

وبرأينا أن الأسينيين خاضوا المعركة الاسكاتولوجية النهائية التي استعدّوا لها منذ تأسيسهم، لكنهم هُزِموا فيها، إذ لو تحقق لهم الانتصار لانعكس ذلك على نتاجهم الأدبي. كما وأن سنة ٦٨ م. التي حدّدها علماء الآثار كتاريخ لإخفاء المخطوطات في المغاور وسقوط موقع قمران بيد الرومان، تتوافق مع المرحلة (٣) من تاريخ الأسينيين، أي في الزمن الذي لم تكن فيه الحرب الاسكاتولوجية قد حُسمت نهائياً.

١- لا شك أن عملية ترقب مجيء المسيّا المنتظر تزامنت مع نشوء الجماعة. ولكن الاعلان عن مجيئه الفعلي حصل، على الأرجح، في المرحلة الثالثة عند اندلاع الحرب الاسكاتولوجية، إذ يُلاحظ أن «ملحق نظام الجماعة» (1QSa) الذي يتحدث عن اشتراك مسيحي هارون واسرائيل بالمأدبة الاسكاتولوجية الكبرى، كُتب بعد «نظام الجماعة» (1QS). ومن المرجح أن الكاهن الأكبر وأمير الجماعة في قمران شغلا المنصبين المذكورين عند اندلاع الحرب الاسكاتولوجية في فلسطين، أي الحرب اليهودية الكبرى.

٢- يشير تفسير المزمور ٣٧ إلى مرحلة السلام الدائم (4Q171, III, 1-2) التي ستعقب نهاية الحرب الاسكاتولوجية الظافرة. وربما ارتبط هذا الاعتقاد بفكرة الفردوس الأصلي، عندما كان آدم لا يزال على اتفاق مع ربّه، وكان العالم إرثاً له.

وقد جرى إخفاء المخطوطات في المغاور قبل سقوط موقع قمران بيد الجيش الروماني، والتحق الأسينيون الناجون بإخوانهم الذين كانوا يدافعون عن أسوار أورشليم، مدينتهم المقدسة، وقاوموا الرومان انطلاقاً من المحلّة المعروفة بباب الأسينيين. وبعد سقوط أورشليم بيد الرومان سنة ٧٠ م.، تحصّن عدد من الأسينيين مع جماعات أصولية أخرى في قلعة مسعدة، بهدف متابعة المقاومة ضد المحتلّ الغريب. فلما شارفت تلك القلعة على السقوط، آثر جميعهم الموت انتحاراً على الاستسلام للرومان والاعتراف بهم أسياداً عليهم، كما سنرى لاحقاً.

تشكّل المراحل التي سبق تعدادها حقبة اسكاتولوجية واحدة، ابتداءً من إعلان معلّم البر بداية مرحلة نهاية الأزمنة وانتهاءً بخسارة الأسينيين حربهم الاسكاتولوجية التي تجسّدت فعلياً بالحرب اليهودية الكبرى. وتؤكد بعض المخطوطات أن مدة تلك الحقبة هي حوالى الأربعين سنة. فقد ورد في وثيقة دمشق ما يلي:

«... ولا يُسجَّلون في سجلّهم منذ اليوم الذي انضمّ فيه المعلّم الأوحد، حتى مجيء المسيح الخارج من هارون واسرائيل... فمنذ اليوم الذي انضمّ فيه المعلّم الاوحد حتى زوال جميع المقاتلين الذين عادوا إلى الوراء مع رجل الكذب، تكون قرابة **أربعين سنة**»[1].

يؤكد النصّ المذكور أعلاه أن المدة الزمنية الفاصلة بين انضمام معلم البرّ إلى آبائه حتى إبادة جميع بني الظلمة على أيدي مسيحي هارون وإسرائيل، تقارب الأربعين سنة. وهذه المدة تساوي جيلاً واحداً من الزمن، وتشمل كامل المرحلتين (٢) و(٣) ابتداءً من نشوء الجماعة في البرّية. وتأكيداً لهذا الرأي، نشير إلى ما ورد في «تفسير المزمور ٣٧» تعليقاً على الآية (مز ٣٧: ١٠) التي جاء فيها: «عمّا قليل لا يكون المنافق». قال المفسّر: «تفسير هذا يعني جمع النفاق بعد **أربعين** سنة، لأنهم يُستأصلون ولن يوجد على الأرض انسان واحد منافق»[2].

١- CD-B, XIX, 35 – XX, 1, 13-15.

٢- 4Q171, II, 7-8.

وتحدّد مخطوطة «نظام الحرب» أيضاً مدة الحقبة الإسكاتولوجية بأربعين سنة تقريباً[1]، موزعة كما يلي:

– ست سنوات للتهيئة، تتوافق مع ارتحال مؤسسي الجماعة الى موقع قمران في مطلع الحقبة السكنية الثانية (ب)، وبدء الاستعداد لاستقبال المتطوعين، بالإضافة إلى وضع النظم الخاصة بالجماعة، ومنها «نظام الجماعة» و«نظام الحرب» وبعض المدائح التي تُنشد خلال الحرب الإسكاتولوجية[2].

– تسع وعشرون سنة من الجهاد الفعلي ضد الأشرار، وهي على الشكل التالي: تسع سنوات ضد أبناء سام، وعشر سنوات ضد أبناء حام، وعشر سنوات ضد بني يافث. ومن المعروف أن سام وحام ويافث هم أبناء نوح، ويرمزون إلى البشرية جمعاء بعد الطوفان. وهذا ما يؤكد عداوة الأسينيين للجنس البشري بكامله.

– تتخلل مدة الحرب خمس سنوات سبتية لا يُسمح القيام فيها بأي عمل حربي، توافقاً مع قناعة الأسينيين بوجوب الحفاظ على شريعة السبت، وذلك طوال سنيّ الحرب.

تؤكد المخطوطات المشار إليها آنفاً أن مدة الحقبة الاسكاتولوجية ابتداءً من تأسيس الجماعة على يد معلّم البر، حتى إبادة جميع الأشرار من على وجه البسيطة، هي حوالى الأربعين سنة، أي ما يعادل جيلاً واحداً وفق المفهوم اليهودي[3].

وبما أنه لا توجد في مخطوطات البحر الميت إشارة يُستدلّ منها أن الأسينيين جدّدوا انتظارهم مرة ثانية أو ثالثة لمجيء المسيّا، أو إلى انتصارهم أو خسارتهم حرب نهاية الأزمنة ضد الأشرار ومحتلّي البلاد.

وبما أن الحرب اليهودية الكبرى تشكل محطة رئيسة في تاريخ الأسينيين كما هو ثابت من التنقيبات الأثرية في خربة قمران ومن خلال بعض المصادر

١- 1QM, II, 9-14.

٢- 1QM, XV, 7.

٣- *The New Bible Dictionary,* Norwick, U.K, 1975, p. 898.

التي أكّدت اشتراكهم الفعلي في تلك الحرب أو تواجدهم في تلك المنطقة، كما مرّ آنفاً. فهذا يعني أن تاريخ الأسينيين، منذ تأسيسهم حتى القضاء عليهم كجماعة منظّمة، يمتد طوال جيل واحد من الزمن.

واذا كانت الحرب اليهودية الكبرى محطة رئيسة من الحقبة الاسكاتولوجية التي عاشها الأسينيون، فهذا يثبت ان السياق التاريخي الممهّد لتلك الحرب هو الإطار التاريخي الصحيح الذي نشأت فيه جماعة قمران ومثّلت فيه دوراً معيّناً في تاريخ فلسطين. فخلال تلك الحقبة من الزمن التي تتوافق برأينا مع الحقبة السكنية الثانية (ب) في قمران، جرى تأليف المخطوطات الخاصة بالأسينيين ونسخها. وفي تلك الحقبة المضطربة من تاريخ فلسطين في القرن الميلادي الأول، ترقّب الأسينيون المسيّا الآتي لحكم العالم. فكيف نوفّق بين هذه المعطيات التي تؤكدها مخطوطات البحر الميت وبين ما ذكرته المصادر حول تواجد الأسينيين منذ أمد بعيد؟

ثالثاً- مصداقية المصادر بالنسبة إلى زمن نشأة الأسينيين

من المعروف أن فيلون ويوسيفوس وبلينوس الكبير هم أصحاب أقدم المصادر التي تحدثت عن الأسينيين. وقد عاش هؤلاء جميعاً في القرن الميلادي الأول. ولا يوجد في مؤلفاتهم أو في المصادر اللاحقة أي تلميح يدلّ على وجود مصادر أخرى عن الأسينيين كُتِبَت في القرون السابقة للميلاد.

هذا الواقع هو دليل من الصمت يضع علامة استفهام حول تواجد الأسينيين الفعلي في القرون السابقة للميلاد.

من جهة أخرى، نلاحظ عدم دقة المصادر لناحية زمن نشأة الأسينيين؛ إذ لمّح فيلون إلى تواجدهم في فلسطين منذ أمد بعيد من خلال كلامه على احترام الحكام لهم عبر العصور. وربما استند بلينوس الكبير إلى رأي فيلون اليهودي ليؤكد بدوره تواجد الأسينيين في فلسطين منذ ألوف الدهور. أما يوسيفوس فقد أكد تواجد الأسينيين إلى جانب الصدّوقيين والفريسيين في عهد يوناثان[1] (١٦٠-١٤٣ ق.م.)، شقيق يهوذا المكابي. غير أنه لم يتحدث عن الأسينيين معرّفاً بنظمهم وعقائدهم، إلاّ من خلال عرضه لتاريخ اليهود في

١- JOSEPHE, *Ant. Jud.*, XVIII, v, 9 § 171-173.

مطلع القرن الميلادي الأول. وهذا لا يعني أن نشأتهم حصلت في مطلع القرن المذكور على الاطلاق، لأن تلك النبذة تبدو كأنها مقحمة على النص، إذ تقطع تسلسل الأفكار وسياق الكلام، كما أشرنا سابقاً.

وإثباتاً لهذا الرأي، نقدّم البراهين التالية:

لا يتوافق كلام يوسيفوس حول تواجد الأسينيين في عهد يوناثان مع المصدرين المهمّين التاليين:

١- سفر المكابيين الأول، وهو يسرد أخبار الحرب المكابية ومرحلة مهمة من العهد الحشموني حتى آخر ولاية يوحنا هركانوس (١٣٥-١٠٤ ق.م). هذا المصدر يؤكد تواجد طائفة «الحسيديين» في تلك الحقبة[1]. فلماذا تغافل يوسيفوس عن ذكرها عندما عَدَّدَ الطوائف اليهودية في أيام يوناثان؟ ومن المعروف أن الحسيديين شاركوا في الحرب المكابية التي اندلعت بسبب رغبة السلوقيين بتهلين المجتمع اليهودي والقضاء على الشريعة الموسوية. ومثل هذا الحافز كان يستدعي مشاركة الأسينيين في الحرب المكابية لو تواجدوا فعلاً في تلك الحقبة، نظراً لتعصّبهم للشريعة واستعدادهم للقضاء على مخالفيها. والجدير ذكره أن يوسيفوس لم يُشِر أبداً إلى اشتراكهم بالحرب المكابية أو اضطلاعهم بدور عسكري خلال العهدين الحشموني والهيردوي.

٢- تحدّث صاحب كتاب «تاريخ يوسيفوس اليهودي»، المنسوب إلى يوسيفوس نفسه، عن الطوائف اليهودية التي كانت موجودة في عهد يوحنا هركانوس، فأشار إلى تواجد الحسيديين إلى جانب الفريسيين والصدوقيين دون أن يذكر الأسينيين على الإطلاق. فبعد عنوان مطوّل عن «ذكر فرق اليهود وسبب انتقال هركانوس من الفرقة التي كان هو وأبوه منها إلى غيرها وما جرى من العداوة والحروب بسبب ذلك»، قال المؤلف:

«كان اليهود في ذلك الزمان ثلث [ثلاث] فرق الواحدة تسمى الفروسمر[2] وهم

١- ١ مك ٢: ٤٢؛ ٧: ١٣.

٢- من المرجح أن تكون كلمة «فروسمر» قراءة مغلوطة لكلمة «فروشيم» العبرية التي تعني «الفريسيين»، وقد نقلها المعرّب مثلما جاء لفظها في لغتها الأصلية، ثم فسّر معناها. ويبدو أن أحد النسّاخ أخطأ في قراءة الحروف العربية لتلك الكلمة التي امّحت عنها نقاط «الشين» و«الياء»، واعتقد أن حرف «الميم» الأخير هو «ميم» و«راء».

الفريسيون ويسمون أيضاً المعتزلة والفرقة الثانية يسمون **الصدوقيين** نسبةً إلى رجل فقيه من أصحاب العلماء يسمى صادوق. أما الفرقة الثالثة فيسمون **الحسيديم** وتأويل هذا الاسم **الصالحون** لأنهم كانوا يذهبون إلى العمل بما هو افضل وهو الاخذ من هذين المذهبين ما هو أحوط في الدين وأسلم في التوقي وهم المشتغلون بالتسبيح المنعكفون على العبادة...»[1].

وفي موضع آخر من «تاريخ يوسيفوس اليهودي» روى صاحب الكتاب حادثة حصلت مع شيخ من فرقة «الصالحين»، أي الحسيديين، كان مشهوراً بموهبة التنبؤ. فقد تنبأ الشيخ المذكور بمقتل انتيغونس، شقيق الملك أرسطوبولس الأول، بالقرب من برج سطرون، وقد تحققت نبوءته[2]. هذه الرواية مذكورة أيضاً في كتاب «الحروب اليهودية» الذي نشره يوسيفوس باليونانية، غير أن صاحب النبوءة في الكتاب الأخير لم يكن شيخاً من فرقة الحسيديين، بل كان من طائفة الأسينيين، واسمه يهوذا[3].

وروى يوسيفوس في كتاب «العاديات اليهودية» أن أحد شيوخ الأسينيين تنبّأ لهيرودس بأنه سوف يملك على أمة اليهود[4]. غير أن الرواية عينها ترد في كتاب «تاريخ يوسيفوس اليهودي»، وقد ورد فيها أن الشيخ الذي تنبأ بمستقبل هيرودس هو من جماعة الصالحين، أي الحسيديين[5].

وتحدّث يوسيفوس في «الحروب اليهودية» عن حلم رآه أرخلاوس بن هيرودس الكبير، شاهد فيه سنابل تلتهمها الثيران. فاستعان أرخلاوس بجمهرة من العلماء لتفسير حلمه، فتمكّن **سمعان الأسيني** وحده من تفسير الحلم بشكل صحيح. والرواية ذاتها ترد أيضاً في «تاريخ يوسيفوس اليهودي» دون أيّ ذِكر لسمعان الأسيني على الاطلاق[6].

يتّضح مما تقدّم ذكره أن «تاريخ يوسيفوس اليهودي» لا يأتي على ذكر

١- يوسيفوس، **تاريخ يوسيفوس اليهودي**، ص ٩٣. وقد أكد سفر المكابيين الرابع وجود الحسيديين إلى جانب الفريسيين والصدوقيين في الفترة المشار اليها (٤ مك ١٥: ١-٤).

٢- يوسيفوس، المصدر السابق، ص ٩٧-١٠٠.

٣- JOSEPHE, *Guerre,* I, iii, 5, § 78.

٤- JOSEPHE, *Ant. Jud.*, XV, x, 5.

٥- يوسيفوس، المصدر السابق، ص ١٧٨-١٨٠.

٦- يوسيفوس، المصدر السابق، ص ٢١٣. أنظر: JOSEPHE, *Guerre,* II, vii, 3.

الأسينيين على الاطلاق. كما يتبيّن، عند مقارنة النصوص المتعلقة ببعض مشاهير الأسينيين والواردة في مؤلفات يوسيفوس المنشورة باليونانية، بالنصوص الموازية لها في كتاب «تاريخ يوسيفوس اليهودي»، أن بطل الرواية الواحدة هو من طائفة الأسينيين في المصدر اليوناني، بينما هو من طائفة الحسيديين في الكتاب المعرّب عن مصدر عبري.

وقد سبقت الإشارة إلى احتمال أن يكون «تاريخ يوسيفوس اليهودي» معرّباً عن الكتاب الذي ألّفه يوسيفوس بلغة قومه بعد انتهاء الحرب اليهودية الكبرى مباشرة. فإذا صحّ هذا الرأي، فهذا يعني وجود تحريف للحقيقة في المؤلفات التي نشرها الكاتب نفسه باللغة اليونانية في مرحلة لاحقة. وباعتقادنا أنه كان من الصعب جداً على يوسيفوس أن يُقنع معاصريه اليهود بتواجد الأسينيين - وليس الحسيديين - في أواسط القرن الثاني ق.م. إلى جانب الصدوقيين والفريسيين، لأن هؤلاء كانوا يعرفون تاريخ طوائفهم، ويُدركون وجود مصادر تثبت تواجد الحسيديين إلى جانب الفريسيين والصدوقيين في الفترة ذاتها، كسفر المكابيين الأول على سبيل المثال. غير أنه كان من اليسير جداً على المؤرخ المذكور أن يدّعي قِدَم الأسينيين في التاريخ في مؤلفاته المنشورة باليونانية، لأن قرّاء تلك اللغة المعاصرين له، كانوا يجهلون التفاصيل الدقيقة المتعلّقة بتاريخ الطوائف اليهودية، ولم يكن بإمكانهم التمييز بين الأسينيين والحسيديين، خاصةً إذا كانت أبنية قمران التي شغلها الأسينيون مقرّاً سابقاً لطائفة الحسيديين.

إذاً، هناك علامة استفهام حول زمن نشأة طائفة الأسينيين وتواجدهم في القرون السابقة للميلاد. ومن المرجح أن التضليل الذي مارسه فيلون الاسكندري بالنسبة إلى زمن نشأتهم، كان يهدف إلى تمويه الاستعدادات العسكرية في قمران ضد المحتلّ الروماني. أما يوسيفوس، فقد حاول إقناع السلطات الرومانية بعدم وجود استعداد مسبق لدى الشعب اليهودي لشنّ حرب ضد الرومان، معتبراً أن مسؤولية اندلاع الحرب تقع على قطاع الطرق من الزيلوت وغيرهم من الأصوليين اليهود، بالإضافة إلى سوء إدارة بعض الولاة الرومان، وذلك رغبةً منه في تخفيف حدّة الاضطهاد الذي لحق بالشعب اليهودي إثر سقوط أورشليم وفشل الحرب اليهودية ضد الرومان.

وبرأينا، ان طائفة الأسينيين نشأت في بداية الجيل اليهودي الذي مهّد لاندلاع الحرب اليهودية الكبرى وعاصرها. فقد اعتُبرت تلك الحرب بمثابة حرب نهاية الأزمنة بنظر الثوار اليهود المشاركين فيها. هذا ما أكّده يوسيفوس نفسه عندما حاول أن يُلطّف من الدور العسكري الذي قام به الأسينيون خلال الحرب المذكورة، بالرغم من اعترافه بتعيين يوحنا الأسيني قائداً على منطقة تمنة في بداية الحرب، ومشاركة هذا الأخير بالحملة العسكرية ضد مدينة عسقلان. أضف إلى ذلك أن جميع المصادر المتعلقة بالأسينيين لا تشير أبداً إلى اشتراكهم بأية حرب أخرى من حروب بني اسرائيل سوى ما ذُكر، ولو تلميحاً. وهذا ما يثبت أن الحرب اليهودية الكبرى شكّلت إحدى المحطات التاريخية الرئيسة بالنسبة إلى الأسينيين.

وربّ سائل يسأل: إذا كان الأسينيون قد نشأوا في تلك الحقبة من الزمن، فكيف اقتنع أهل ذلك الزمان، وخاصةً بلينوس الكبير، بوجودهم في فلسطين منذ ألوف الدهور؟

الجواب هو أن طائفة الأسينيين تأسست في موقع خربة قمران التي كانت صالحة للسكن منذ فترة طويلة، فأضفى قِدَمُ الموقع على عمر الجماعة خلفيةً تاريخيةً تمكّن الأسينيون بفضلها من الادّعاء بقِدَم نشأتهم. وظنّ أهل ذلك الزمان أنهم يشكّلون استمرارية للذين سبقوهم في الإقامة في موقع قمران عبر العصور. وربما ساعدت تلميحات فيلون الغامضة عن قِدَم الأسينيين في ترسيخ تلك الفكرة، وذلك خلال سعيه إلى الدفاع عن القضية اليهودية في زمن تصاعد فيه بغض الوثنيين لليهود بسبب انعزاليتهم الدينية ورفضهم الاشتراك بعبادة الأباطرة. كما أن وقوع خربة قمران في أطراف برية اليهودية، بعيداً عن عيون المراقبين، ساهم في اعتقاد معاصريهم أنهم يشكّلون استمرارية للجماعات التي سكنت قبلهم في أبنية قمران. وربما كانت خربة قمران، قبل أن يسكنها الأسينيون، مقرّاً لمن تبقّى من الحسيديين الذين اشتهروا أيضاً بالورع والتقوى وشدّة البأس والغيرة على الشريعة[1]. فكان من السهل عند العامة الخلط بين الجماعتين والاعتقاد بتجذّر شيعة الأسينيين في التاريخ.

١- ١ مك ٢: ٤٢.

الفصل الثاني

الإشارات التاريخية حول شعب «كتيم»

تساهم الإشارات التاريخية (Allusions historiques) في تقديم براهين صحيحة وأكيدة عن العصر الذي كُتبت فيه مخطوطة معيّنة، شرط أن تتضمن المخطوطة إشارات محدَّدة وكافية. فالإشارة إلى الحكام الذين يتولّون زمام السلطة، أو إلى القوى الكبرى المعاصرة، أو إلى أشخاص، أو أحداث خاصة، غالباً ما تقدّم براهين قاطعة عن زمن كتابة المخطوطة[1]. فالنص التقويميّ (4Q324a) مثلاً هو من المخطوطات النادرة التي تذكر أسماء شخصيات تاريخية معروفة على مثال اميليوس[2]. وهذا الأخير هو اميليوس سكوروس، أحد قادة بومبيوس خلال حصار أورشليم سنة ٦٣ ق.م. وقد عُيِّن فيما بعد والياً على سوريا وفلسطين. ويذكر نصّ تقويميّ آخر[3] اسم شالومه، وهي سالومه الكسندرة، أرملة اسكندر حناني، المتوفاة سنة ٦٧ ق.م. كما يرد اسم ولدها البكر هركانوس (الثاني) الذي حكم عليه هيرودس الكبير بالإعدام سنة ٣٠ ق.م. ويبدو أن الأحداث التي يعكسها هذا النصّ تنتمي إلى الماضي[4]، ما يدلّ على أن الكاتب عاش في فلسطين بعد مرور فترة زمنية على تلك الأحداث.

وبشكل عام، إن الإشارات التاريخية في مخطوطات قمران غامضة وغير محددة. ويعتقد «بوروز» أنّ كُتّاب قمران تعمّدوا الإبهام في إشارتهم إلى الأحداث المعاصرة لهم وإلى الشخصيات المعروفة في أيامهم، وذلك خوفاً من مراقبة السلطات واضطهادها لهم[5]. وباعتقادنا أن سبب الغموض في تفسير معظم الإشارات التاريخية في مخطوطات البحر الميت يعود الى قراءة

١- BURROWS, *Manuscrits,* p. 136.

٢- 4Q324a, frag. 2, 4.

٣- 4Q322, frag. 2, 4-6.

٤- EISENMAN-WISE, *Man. Rév.,* p. 141-143.

٥- أسد رستم، **مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران**، ص ٢٩.

الباحثين لتلك المخطوطات خارج إطارها التاريخي الصحيح، وذلك بسبب الفكرة المسبقة القائلة بنشأة الأسينيين في العصور السابقة للميلاد، استناداً إلى المصادر الكلاسيكية التي ثبت وجود علامة استفهام حول صحّتها بالنسبة إلى هذا الموضوع.

ولن نعالج في هذا الفصل مسألة تحديد هوية كل من معلّم البرّ والكاهن الشرير وغيرهما من الشخصيات أو الجماعات التي تلمّح إليها بعض المخطوطات، نظراً لارتباط هوّيتهم بتحديد زمن نشأة الأسينيين بشكل دقيق، بل سنبحث فقط في معنى كلمة «كتيم» التي ترمز إلى الشعب الغريب الذي كان يحتلّ فلسطين في الزمن الذي كُتبت فيه المخطوطات.

أولاً- «الكتّيم» في النصوص التوراتية

ترد كلمة «كِتّيم» في نصوص مختلفة من التوراة، وهي تحمل معانٍ متعددة. فقد جاء في سفر التكوين أنّ أبناء ياوان هم «أليشة وترشيش والكتّيم، والرّودانيم»[1]. وفي سفر أشعيا يظهر اسم «كِتّيم» في نبوءة حول دمار مدينة صور[2]. كما ترد تلك الكلمة في سفر العدد ونبوءة إرميا[3] حيث ترمز إلى جزيرة قبرص. ويتوسع مضمون الكلمة ذاتها في نبوءة حزقيال[4]، فيشمل المعنى سكان قبرص وجزر البحر المتوسط الشرقي وشواطئه. وفي سفر المكابيين الأول[5]، ترد لفظة «كِتّيم» بمعنى بلاد مقدونية. غير أن عبارة «...تأتي سفن من كِتّيم»، الواردة في سفر دانيال (دا ١١: ٣٠)، تعني الرومان بشكل مؤكد، وفقاً لآراء عدد من أهل الاختصاص[6].

أمام هذا الواقع، انقسم العلماء حول معنى كلمة «كِتّيم» في نصوص البحر الميت، فقال بعضهم إنها ترمز إلى السلوقيين، خلفاء الاسكندر المقدوني على

١- تك ١٠: ٤.

٢- اش ٢٣: ١ و ١٢.

٣- عد ٢٤: ٢٤؛ ار ٢: ١٠.

٤- حز ٢٧: ٦.

٥- ١ مك ١: ١.

٦- BURROWS, *Manuscrits*, p. 140.

سوريا وبابل وبلاد فارس، بينما قال آخرون إنها تعني الرومان.

ولتقرير المعنى الصحيح الذي ترمز إليه كلمة «كِتّيم» لا بد من الرجوع إلى بعض نصوص البحر الميت لمعرفة أهم الصفات التي يتمّز بها هذا الشعب.

ثانياً- الكتيم في «تفسير حبقوق»

تصف هذه المخطوطة أبناء «كتيم» بشكل مفصّل. فهم يتميّزون بالشجاعة والبأس، وقد أهلكوا أعداداً كبيرة من البشر، وامتدّ خوفهم ورعبهم على جميع الأمم. يأتي قوّادهم، الواحد بعد الآخر، على رأس جيوش كثيرة من الجزر البعيدة، فيدوسون الأرض بخيولهم وبهائمهم، ويقتلون بالسيف عدداً كبيراً من الناس بمن فيهم الشيوخ والنساء والأطفال. وهم يسخرون من الملوك والحكام والشعوب. ولا تعصى الحصون المنيعة عليهم، فيهدمون أسوارها، ويجمعون غنائمهم وأسلابهم كسمك البحر. كما أنهم يذبحون لراياتهم، وسلاح حربهم هو موضوع ديانتهم[1].

ربَّ قائل إن الأوصاف الواردة أعلاه قد تنطبق على السلوقيين والرومان في آنٍ معاً. لكن بوروز أشار إلى عدم وجود أيّ دليل في مخطوطات البحر الميت يثبت أن كلمة كِتّيم تعني السلوقيين. وأضاف أن عبارة «يذبحون لراياتهم، وسلاح حربهم هو موضوع ديانتهم»، الواردة في تفسير حبقوق، تشير إلى العصر الروماني وليس إلى العصر السلوقي[2]. وقد أكّد «فنسان» أيضاً أن تقديس الرايات والأسلحة كان شائعاً بين الجيوش الرومانية، ولا تمارسه الجيوش السلوقية[3].

وبرأينا، ان القول بأن كلمة «كتيم» ترمز إلى السلوقيين، يتنافى مع بعض المعطيات التاريخية. فلدى مراجعة تاريخ فلسطين منذ مطلع القرن الثاني ق.م.، عندما كانت تلك البلاد خاضعة للحكم السلوقي، حتى سقوطها بيد الرومان سنة ٦٣ ق.م.، يتبين أن أوصاف «الكتيم» في «تفسير حبقوق» وغيره

١- 1QpHab, VI, 2-5.

٢- BURROWS, *Manuscrits,* p. 144 et 146.

٣- A. VINCENT, *Les Manuscrits hébreux du désert de Juda,* Paris, 1955, p. 102.

من مخطوطات البحر الميت لا تنطبق على السلوقيين، إذ تصف المخطوطات شعب الكتيم بأنه لا يُقهر، بينما تؤكد الأحداث التاريخية أن يهوذا بن متّيا حقّق، خلال الحرب المكابية، انتصارات مهمة على أعدائه السلوقيين[١]، بالرغم من قلّة عديده وعدّته[٢]. كما لا يمكن أن يكون «تفسير حبقوق» قد صُنّف خلال العهد الحشموني الذي تنعّم اليهود خلاله بالاستقلال، لأن ذلك يتعارض مع جوهر مخطوطات البحر الميت التي تؤكد أن فلسطين كانت آنذاك واقعة تحت سيطرة بني «كِتّيم».

أضف إلى ذلك أن مملكة السلوقيين لم تشكّل، منذ مطلع القرن الثاني ق.م. فصاعداً، القوّة السياسية والعسكرية العظمى التي تنطبق عليها جميع الأوصاف المذكورة في تفسير حبقوق. فمنذ تلك الفترة بدأت روما الجمهورية تحتلّ المرتبة الأولى سياسياً وعسكرياً في العالم[٣]. وكانت روما قد سيطرت على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط[٤] بعد انتصارها على هنيبعل في معركة زاما سنة ٢٠٢ ق.م.، وألزمت قرطاجة بأن تتنازل لها عن ممتلكاتها في أسبانيا وتقدّم لها فِيَلَتِها ومعظم سفنها، وتتعهد بأن تدفع لها عشرة آلاف وزنة خلال خمسين عاماً[٥]. بعد ذلك انتصرت روما على فيليبس الخامس، ملك مقدونية، في معركة «قينوسيفاليس» سنة ١٩٧ ق.م، فاستولت على معظم أسطوله الحربي وحرّرت اليونان من وصاية المقدونيين، كما أجبرته على التنازل عن ممتلكاته في آسية الصغرى وتراقيا وجزر بحر ايجه. ثم في سنة ١٦٨ ق.م. عادت روما وسحقت جيوش ابنه «بارسيه»، في معركة «بِدنَه». وكان الرومان قد تغلّبوا على جيش انطيوخس الثالث في «ترموبيل» في اليونان سنة ١٩١ ق.م.، ثم في موقعة «ميونيسوس» البحرية سنة ١٩٠ ق.م، فسيطروا بذلك على البحر الأبيض المتوسط سيطرة تامة. وفي السنة ذاتها انتصر

١- ١ مك ٣: ١٠-١٢ و ٢٣؛ ٤: ١٤-١٥ و ٣٤-٣٥؛ ٦: ٥-٦.

٢- ١ مك ٣: ١٧-١٨؛ ٤: ٦-٨؛ ٤: ٢٨-٢٩.

٣- ١ مك ٨: ١-١٦.

٤- M. BORDET, *Précis d'Histoire Romaine,* (Histoire Ancienne), Paris, 1972, p. 78.

٥- *Ibid.*, p. 73-74.

الرومان بقيادة لوكيوس كورنيليوس سكيبيون على جيوش أنطيوخُس الثالث في معركة «مغنيسية». وقد أدّى هذا الانتصار إلى حذف مملكة السلوقيين من قائمة الدول العظمى[1]، وبخاصة بعد أن وقّع الطرفان صلح أفامية سنة ١٨٨ ق.م. الذي قضى بأن يُخلي أنطيوخس الثالث جميع المدن في أوروبا وآسية الصغرى حتى جبال طوروس وأن يقدّم جزية إلى روما مقدارها خمسة عشر ألف وزنة على مدى اثنتي عشرة سنة، وأن يعطي الرومان فِيَلَته ومعظم سفنه الحربية. كما توجب عليه إرسال عشرين رهينة من وجهاء السلوقيين إلى روما، ومن ضمنهم ابنه المدعو أيضاً أنطيوخس. وفي عهد سلوقوس الرابع (١٨٧-١٧٥ ق.م.)، تقلّصت مساحة مملكة السلوقيين فشملت سوريا وكيليكيا والعراق وقسماً من بلاد فارس. وكان ديمتريوس، ولي عهد سلوقوس الرابع، قد أُرسل رهينة إلى روما منذ سنة ١٧٥ ق.م.، فأطلقت روما سراح أنطيوخس الذي دُعي أنطيوخس الرابع ابيفانس بعد تربّعه على عرش المملكة السلوقية. ولما قرّر هذا الأخير أن يستعيد أمجاد أمّته الغابرة، زحف على مملكة البطالسة في مصر واستولى على مدنها الحصينة وسلب منها غنائم كثيرة[2]. غير أن مجلس الشيوخ الروماني هدد الملك السلوقي وأجبره على إجلاء جيوشه فوراً عن مصر[3]، ففعل ذلك خوفاً من بطش روما.

وتوالت انتصارات روما وفتوحاتها. ففي سنة ١٤٨ ق.م. جعلت مقدونية ولاية رومانية. وبعد سنتين، ضمّت أراضي قرطاجة إلى ولاية أفريقيا الرومانية، وأكملت سنة ١٣٣ ق.م. احتلال اسبانيا. كما احتلّت سنة ١٢٥ ق.م. المنطقة الساحلية للبحر المتوسط الواقعة بين جبال البيرينيه وجبال الألب، وجعلت منها ولاية «الناربونيز». وبدأت روما تتوسع في سواحل المتوسط الشرقي، فأنشأت ولاية آسية على أراضي مملكة برغامُس التي أوصى بها ملكها أتال الثالث إلى روما قبل وفاته سنة ١٣٣ ق.م. وتمّ إنشاء ولاية كيليكيا حوالى سنة ١٠٠ ق.م. في الجنوب الشرقي من آسية الصغرى[4]. وفي سنة ٦٥

١- T. MOMMSEN, *Histoire Romaine,* tome 1, Paris, 1985, p. 529 et 547.

٢- ١ مك، ١: ١٦-١٩.

٣- M. BORDET, *Précis d'Histoire Romaine,* p. 82.

٤- *Ibid,* p. 85, 117 et 302.

ق.م. جرى إنشاء ولاية البنطس-بيثينيا، شمالي آسية الصغرى[1]. ثم في السنة التالية احتلّ القائد الروماني بومبيوس سوريا، فكرّس بذلك سقوط المملكة السلوقية وزوالها.

والجدير ذكره أنه في سنة ٥٢ ق.م. فتح يوليوس قيصر بلاد الغال، كما خضعت مصر لسيادة روما بعد موقعة أكسيوم البحرية سنة ٣١ ق.م. وتابع أباطرة روما سياستهم التوسعية خلال القرن الميلادي الأول، فصارت جميع الشعوب التي تعيش حول حوض البحر الأبيض المتوسط خاضعة للإمبراطورية الرومانية. وقد جاء في «تفسير حبقوق» أن الكِتّيم يَصِلون «من جزر البحر ليأكلوا جميع الشعوب كالنسر ولا يشبعون»[2]. ومن المعلوم أن النسر هو شعار الإمبراطورية الرومانية، ما يعني أن هذه الكلمة ترمز إلى الرومان دون غيرهم من الشعوب.

أما لناحية ما ذُكر عن بسالة «الكتيم» في الحروب وشغفهم بالحصول على الغنائم، فالتاريخ يؤكد تفوّق الجيوش الرومانية في الفنون الحربية على الجيوش السلوقية، كما أن طمع الرومان بالحصول على الغنائم هو من أهم أسباب الفتوحات الرومانية[3]. والأمثلة التاريخية كثيرة للدلالة على ذلك: فقد وُشّحت هياكل روما بالذهب بعد معركة «بِدنه» في مقدونية (١٦٨ ق.م.)، كما أُعفي الشعب الروماني من دفع الضرائب[4]. وكانت روما تعيش من الجزية التي تفرضها على الشعوب الخاضعة لها.

وبالنسبة إلى العبارة الواردة في «تفسير حبقوق» التي ورد فيها أن قوّاد كتيم «يزولون بمشورة بيتهم الخاطيء الواحد أمام الآخر. يأتي قوّادهم، هذا بعد ذاك، ليدمّروا الأرض»[5]، فمن المرجح أنها تشير إلى المحصّلين الرومان الذين تعاقبوا على حكم اليهودية خلال القرن الميلادي الأول.

أما بخصوص ما ذُكر عن الكِتّيم بأنهم «يحتقرون حصون الشعوب

١- M. BORDET, *Précis d'Histoire Romaine,* p. 119.

٢- 1QpHab, III, 11-12.

٣- M. BORDET, *op. cit.,* p. 78.

٤- *Ibid.,* p. 87-88.

٥- 1QpHab, IV, 9-13.

ويضحكون عليها بوقاحة. بجيش كبير يحيطون بها ويحتلّونها. وبتأثير الرعب والخوف تستسلم إلى أيديهم، فيدمّرونها بسبب شرّ سكانها»[1]، فهناك أمثلة عديدة على مهارة الرومان في دكّ القلاع والحصون المنيعة، وتدمير المدن التي تحاول الخروج عن طاعتهم. فقد دمّرت الجيوش الرومانية مدن قرطاجة (١٤٦ ق.م.)، وكورنتس (١٤٦ ق.م.)، ونومانس في إسبانيا (١٣٣ ق.م.)، كما دمّرت مدينة أورشليم بشكل كامل سنة (١٣٥ م.).

ولا شك أن كلمة «كتّيم» الواردة في «تفسير حبقوق» تحمل المعنى ذاته في جميع أماكن ورودها في مخطوطات البحر الميت، بحيث أنها ترمز إلى المحتل الأجنبي نفسه. ويتفق معظم الباحثين على أن «تفسير حبقوق» هو من أحدث مخطوطات البحر الميت. وبما أنه لم يُعثر بين تلك المخطوطات على نسخة أخرى منه، يجوز الافتراض أن «تفسير حبقوق» هو النص الأصلي وليس نسخة عن الأصل. أضف إلى ذلك ان الاختبار بواسطة الكاربون ١٤ الذي أجري سنة ١٩٩٧ في أريزونا، الولايات المتحدة، أشار إلى أن الجلد الذي كُتب عليه «تفسير حبقوق» عائد لسنة ٢ ب.م. تقريباً، ما يعني أن النص المدوّن على الجلد المذكور كُتب بعد هذا التاريخ[2]، أي في أثناء الاحتلال الروماني لفلسطين. فمن المرجح إذاً أن ترمز كلمة كتيم، الواردة في مخطوطات البحر الميت، إلى الرومان.

ثالثاً- «الكتّيم» في «تفسير ناحوم»

يقترن الكلام على شعب «كتّيم»، في «تفسير ناحوم»، بالحديث عن يوم الدينونة أيضاً. ففي ذلك اليوم سوف يمارس الله «عليهم القضاء... ليفنيهم من على وجه الأرض... هي زمرة بني كتيم مع جميع قوّادهم الذين سيفنى ملكُهم»[3]. وتعليقاً على النص الوارد في نبوءة ناحوم (نحو ٢: ١٢ب) الذي جاء فيه:

١- 1QpHab, IV, 5-8.

٢- R. van der WATER, «Reconsidering palaeographic and radiocarbon dating of the Dead Sea Scrolls», *RQ*, n° 75 (2000), p. 427.

٣- 4QpNah, frags. 1+2, 4-5.

«ذهب أسد ليدخل إليه جرو أسد، فلم يذكره أحد»، قال المفسّر: «تفسير هذا يعني ديمتريوس ملك ياوان الذي طلب أن يدخل إلى أورشليم بناء على نصيحة الذين يطلبون التملّق. ولكنه لم يدخلها، لأن الرب لم يسلمها إلى يد ملوك ياوان منذ انطيوخس حتى قيام قوّاد كتّيم. ولكن بعد ذلك ستدوسها أرجل كتّيم...»[1].

هذا النص يشير إلى شخصيتين تاريخيتين هما الملكين السلوقيين أنطيوخس الرابع إبيفانُس و ديمتريوس الثالث. ويلمّح الكاتب إلى حدثين تاريخيين هما:

١- دخول أنطيوخس الرابع ابيفانس بجيوشه إلى أورشليم سنة ١٦٩ ق.م. وقيامه بتدنيس هيكلها. غير أن المكابيين تمكنوا فيما بعد من تحرير أورشليم التي بقيت حرّة حتى نهاية الدولة الحشمونية. علماً أن ديمتريوس الثالث اجتاح فلسطين سنة ٨٨ ق.م. دون أن يتمكن من فتح أورشليم.

٢- بداية الاحتلال الروماني لفلسطين بعد سقوط مدينة أورشليم سنة ٦٣ ق.م. بيد القائد الروماني بومبيوس الذي دخل الهيكل ودنّسه. وقد احتفظ الرومان بحامية رومانية في أورشليم، تمركزت لاحقاً في قلعة أنطونيا المحاذية للجهة الشمالية-الغربية من الهيكل، والتي بُنيت في عهد الملك هيرودس الكبير (٣٧-٤ ق.م.).

على ضوء هذا الواقع التاريخي يمكن فهم ما عناه المفسّر بقوله: «لأن الرب لم يسلمها إلى يد ملوك ياوان منذ انطيوخس حتى قيام قوّاد كتّيم...». ويلاحظ أن المفسّر استعمل كلمة «ياوان» للدلالة على السلوقيين، ثم لمّح إلى مجيء الكتّيم من بعدهم، ما يؤكد أن كلمة «كتّيم» في «تفسير ناحوم» تعني الرومان[2] ، كما أنها تحمل المعنى ذاته في مخطوطات البحر الميت كافة. علماً أن الكاتب صنّف هذا التفسير بعد فترة زمنية من حصول الحدث الاخير الذي أشار إليه، أي عندما كانت بلاده واقعة حتماً تحت سيطرة روما.

١- 4QpNah, frags. 3+4 col. I, 1-3.

٢- Asher FINKEL, «The Pesher of Dreams and Scriptures», *RQ*, n° 15 (1963), p. 361.

رابعاً- «الكتيم» في «نظام الحرب»

ترد كلمة «كتيم» في نصوص متعددة من نظام الحرب، ومنها ما يلي:

«يوم يسقط الكتيم، تكون معركة ومذبحة قاسية أمام إله اسرائيل، الذي حدّد ذلك اليوم منذ زمن بعيد لحرب إفناء أبناء الظلمة. في ذلك اليوم تقترب لمذبحة كبيرة جماعة الآلهة وجماعة البشر. فيتقاتل أبناء النور مع أبناء الظلمة من أجل قدرة الله وسط جلبة جمهور عظيم وصرخات الآلهة والبشر في يوم الشرّ. ويكون هذا زمن ضيق لكل الشعب الذي افتداه الله. ففي جميع ضيقاتهم، لن يكون ضيق مثل هذا منذ البداية حتى تمام الفداء النهائي. وفي يوم حربهم ضد **كتيم** ينجّيهم من المذبحة في ذاك القتال...»[1].

يؤكد النص المذكور أعلاه أن حرب أبناء النور ضد الكتيم وضد أبناء الظلمة هي حرب آخر الأزمنة. ويمكن استخلاص مميّزات تلك الحرب الاسكاتولوجية بوضوح منه ومن غيره من النصوص الواردة في «نظام الحرب». فقد حدّد الله موعد الدينونة منذ زمن بعيد. وسوف يشترك الآلهة (أي الملائكة) وجماعة من البشر (أي الأسينيون) في تلك المعركة التي سيتمّ فيها الإفناء الأبدي لأمم الكفر و«يُقطّع كتيم إرباً فلا يبقى منه باقٍ»[2]. أما الأسينيون فسوف يفتديهم الله وينجّيهم من المذبحة الكبيرة في يوم حربهم ضد الكتيم.

تندرج هذه المفاهيم ضمن مرحلة الحرب الاسكاتولوجية المقدسة التي تتوافق، استناداً إلى المعطيات الأركيولوجية، مع دمار أبنية قمران سنة ٦٨ م. على يد الجيش الروماني، خلافاً لما توقّعه الأسينيون. كما تتوافق أيضاً مع بعض المصادر المعروفة، وبخاصة مع ما ذكره يوسيفوس لناحية تعرّض الأسينيين للاضطهاد الشديد على أيدي الجنود الرومان خلال الحرب اليهودية الكبرى. وتلك الحرب هي الوحيدة التي يقترن بها اسم الأسينيين دون غيرها من حروب بني اسرائيل المقدسة، ما يعني أن كلمة كتيّم تعني الرومان.

وقد ورد أيضاً في «نظام الحرب» ما يلي:

١- 1QM, I, 9-13.

٢- 1QM, XVII, 1-2; XVIII, 2-3.

«...وتعسكر كلّ فرقة المقاتلين تجاه **ملك كتيم** وتجاه كل جيش بليعال المجتمع لديه ليوم الفناء بسيف الله. ويقف رئيس الكهنة واخوته الكهنة واللاويون وجميع رجال النظام معه. ويقرأ على مسامعهم صلاة زمن الحرب... والكاهن الذي عيّن لساعة الانتقام بقرار جميع اخوته، يتقدّم ويشجّع قلوب المقاتلين...»[1]

يحتوي النص الوارد أعلاه على مؤشر ضمني يحدد بجلاء تأريخ الاحداث الدائرة في ذلك الوقت. فحين يأتي النص على ذكر الكتيم فهو يشير بوضوح إلى ملكهم، ما يعني ضمناً أن الجند المشار اليهم في المخطوطة، ليسوا أولئك الذين قاموا، بقيادة بومبيوس، بغزو فلسطين عام ٦٣ ق.م. فروما كانت حينها جمهورية ليس لها أو لجنودها أي ملك، بينما تشير المخطوطة إلى ملك للجند ما يدل على أن الغزاة كانوا يتبعون هذه المرة روما الإمبراطورية وليس الجمهورية. ولهذا يصر الباحثون الجدد على ضرورة دراسة نظام الحرب بعناية، وفي سياق القرن الميلادي الأول[2].

خامساً- معنى كلمة «كتيم» في «تاريخ يوسيفوس اليهودي»

من الملاحظ أن كلمة «كتيم» لا ترد أبداً في جميع مؤلفات يوسيفوس المنشورة باليونانية، بينما يتكرر ذكرها في كتاب «تاريخ يوسيفوس اليهودي». فهل يُعقل والحالة هذه أن يكون الكتاب المذكور تلخيصاً لمؤلفات يوسيفوس الصادرة باليونانية، وهي لا تحتوي على هذا المصطلح المهمّ الذي كان معروفاً لدى يهود فلسطين في القرن الميلادي الأول لوروده في مخطوطات البحر الميت؟ والجدير ذكره أن وجود لفظة كتيم في «تاريخ يوسيفوس اليهودي» يشكّل دليلاً على أن هذا الكتاب كان موجّهاً في الأصل إلى جماعات يهودية تفقه معنى المصطلح المذكور.

قال صاحب الكتاب:

«... فلما شتت الله بني ادم وفرقهم في الارض مضى بنو **كتيم** إلى ارض اسبانيا واقاموا بها ومضى بنو توبال إلى ارض يوسينا واقاموا هناك وبنوا مدينة وسموها **اسبانيا** على اسم البنّاء الذي بناها وكانوا يرغبون في مصاهرة اعمامهم بني توبال

١- 1QM, XV, 2-7.

٢- هالة العوري، أهل الكهف: قراءة في مخطوطات البحر الميت، ص ٣٢٨.

ويطلبون منهم ان يزوجوهم بناتهم وكان بنو توبال يكبرون عليهم ولا يريدون ان يزوجوهم. فلما كان في بعض السنين خرج بنو توبال في زمن الحصاد ليحصدوا زرعهم وخلت مدينة اسبانيا من الرجال فاجتمع جماعة من الكتيم ومضوا إلى المدينة فدخلوها وسبوا من وجدوا فيها من البنات ومضوا بهم إلى حصون لهم في جبل منيع فلما علم بنو توبال بذلك حضروا مسرعين إلى الكتيم ليحاربوهم فلم يقدروا عليهم فانصرفوا عنهم في تلك السنة وعادوا اليهم في السنة الاخرى فلما علم الكتيم بمجيئهم اخذوا الاولاد الذين ولدوا لهم من بنات توبال في تلك المدة واصعدوهم على سور المدينة ثم قالوا لبني توبال نحن لا نريد ان نحاربكم وان قاتلتم انما تقاتلون اولادكم واصهاركم الذين هم اقرب الناس اليكم فكف بنو توبال عن القتال وانصرفوا.»[1]

يتعلّق هذا النص بأسطورة بناء مدينة روما. ومن المؤكد أن الذي نقل «تاريخ يوسيفوس اليهودي» إلى اللغة العربية، أخطأ في هذا الموضع، فاستبدل كلمة «سابينا» (Sabine) بـ«اسبانيا» بسبب وجود جذر مشترك لكلا اللفظتين (س ب ن)، وربما أيضاً لأن المخطوطة التي قام بتعريبها عائدة في أصلها إلى الحقبة التي كانت اللغات السامية فيها تُكتب بحروف ساكنة دون حروف العلّة. وكانت «سابينا» مقاطعة في ايطاليا الوسطى، وقد شيّد فيها السابينيون مدينة حَمَلَت أيضاً الاسم ذاته. تقول الاسطورة أنه لما عمد رومولوس إلى بناء مدينة روما، أنشا حصناً على تلّة الكابيتول أسكن فيه الأشقياء وأهل السوء من الجوار بالإضافة إلى العبيد الفارين. لكن سكان المدينة بدأوا يتناقصون لعدم وجود نساء بينهم. فاعتمد رومولوس الحيلة، وأشاع في أطراف البلاد عن إقامة ألعاب واحتفالات في روما على شرف الاله «كونسوس»[2]. ودعا جيرانه السابينيين لحضور احتفالات العيد، فلبّوا الدعوة. وفي غمرة الاحتفالات، ذهب رجاله خلسة إلى مدينة سابينا وقاموا بخطف نسائها.

١- يوسيفوس، **تاريخ يوسيفوس اليهودي**، ص ٤-٥.

٢- كونسوس (Consus) هو أحد آلهة العالم السفلي استناداً إلى الميتولوجيا الرومانية. كان مكلفاً بحماية المحاصيل الزراعية من التلف بسبب سوء حالة الطقس والطفيليات.

أنظر: J. SCHMIDT, *Dictionnaire de la mythologie grecque et romaine*, Paris, 1985, p. 82.

فاندلعت الحرب بين الطرفين إلى أن انتهت بانصهارهما في شعب واحد.

وتحت عنوان «ذكر من ملك على الكتيم بعد صفو المذكور»، عدّد كاتب «تاريخ يوسيفوس اليهودي» ملوك الكتيم، فذكر بينهم رومانوس -أي رومولوس- وأشار إلى أن هذا الأخير بنى سوراً عظيماً وجعل داخل السور «مدينة واحدة سمّاها رومية مشتقة من اسمه وهي رومية المشهورة... وسمى أهلها رومانيين بنسبتهم اليها وهم الروم ...»[1]

ولا بد من التساؤل عن السبب الذي جعل اليهود يتوسّعون في معنى كلمة «كتيم» التي كانت تشمل في الأصل قبرص وسواحل آسية الصغرى الغربية وجزرها وبلاد الأغريق لكي تشمل فيما بعد سكان شبه الجزيرة الإيطالية وجزيرة صقلية. من المرجّح أن تعدّد معاني اللفظة المذكورة عائد إلى أمرين:

أ- الاستعمار الاغريقي، بدءاً من القرن الثامن قبل الميلاد، للمناطق الشرقية والجنوبية من جزيرة صقلية، بالاضافة إلى المناطق الجنوبية من شبه الجزيرة الايطالية[2]، حيث شكّلت الحواضر الاغريقية ما اصطلح على تسميته «بلاد الإغريق الكبرى». وقد مثّلت المدن الإغريقية دوراً كبيراً في نشر الحضارة «الهلينية» في تلك الأصقاع.

ب- يتحدّر رومولوس، مؤسس روما، من «إينيه» (Enée) أحد أبطال مدينة طروادة وأشرافها. وتقع مدينة طروادة على الشاطيء الغربي لآسية الصغرى، أي ضمن الدائرة الجغرافية التي كان اليهود يطلقون على شعوبها لفظة «كتيم».

يروي الشاعر اللاتيني فرجيل (٧٠-١٩ ق.م.) في «الإنياذة»، أن «إينيه» غادر طروادة، إثر سقوطها بيد الإغريق، على ظهر سفينة حاملاً والده الضرير ومصطحباً ابنه. وظل هذا البطل الطروادي تائهاً سنوات عديدة، متنقّلاً بين شاطئ وآخر، إلى أن وصل أخيراً إلى مصبّ التيبر في إيطاليا؛ فصعد النهر واستقرّ في منطقة اللاتيوم[3]. لذلك من المحتمل أن تطلق جماعة

١- يوسيفوس، **تاريخ يوسيفوس اليهودي**، ص ٨-١٠.

٢- من أهم الحواضر الإغريقية، نذكر على سبيل المثال مدينتي «سيراكوزا» و«أغريجانت» في جزيرة صقلية، و«تارنت» و«كوم» و«كروتون» و«سيباريس» في جنوب شبه الجزيرة الايطالية.

٣- J. SCHMIDT, *Dictionnaire de la mythologie grecque et romaine*, p. 109-111.

من اليهود على الرومان لقب «كتّيم» نظراً لتحدّر مؤسس مدينتهم من أحد أشراف مدينة طروادة التي شملها معنى كلمة كتيم في قديم الزمان؛ وربما ساهم في هذا الأمر، توسّع نفوذ روما في جنوب شبه الجزيرة الايطالية واستيلائها على المستعمرات الإغريقية التي كانت تشكّل «بلاد الإغريق الكبرى»[1].

استناداً لما تقدّم، من المرجّح أن كلمة «كتيم» كانت تعني الشعب الروماني، وليس الشعب السلوقي، خلال القرن الميلادي الأول الذي عاش فيه المؤرخ اليهودي يوسيفوس. وقد حَمَلت تلك اللفظة المعنى ذاته في تفسيري ناحوم وحبقوق وهما من أحدث مخطوطات البحر الميت وفقاً لرأي معظم الباحثين. علماً أن كلمة «كتيم» تتضمن معنىً واحداً في مخطوطات البحر الميت كافة.

١- منذ أواخر القرن الرابع ق.م.، اتخذ التوسع الروماني باتجاه الحواضر الإغريقية طابعاً سلمياً في مرحلته الأولى، إذ آثرت بعض المدن المتهلينة أو الإغريقية الخضوع للنفوذ الروماني درءاً لخطر «السمنيين» الذين كانوا يسكنون منطقة (Samnium) الجبلية في أواسط إيطاليا. ثم اتخذ فيما بعد طابعاً حربياً بعدما استنجدت مدينة «تارنت» بـ«بيروس» ملك «أبيروس» (Epire) لحمايتها من التهديد الناتج عن التوسع الروماني. وبسقوط تارنت سنة ٢٧٢ ق.م. أصبحت روما سائدة على ما كان يُعرف بـ«بلاد الإغريق الكبرى».

الفصل الثالث

البحث عن ظلال الأسينيين التاريخية
منذ الاحتلال السلوقي حتى نهاية العهد الحشموني

أولاً- الظلال التاريخية

يترك الحدث التاريخي في واقعه الراهن ردود فعل وانعكاسات[1]، بحيث يمكن تحديد زمن حصول الحدث التاريخي قياساً عليها، نظراً للعلاقة السببية التي تربط الفعل بردود الفعل وما تسبّبه ردود الفعل بدورها من ردود فعل عليها. وترتسم ردود الفعل والانعكاسات الناتجة عنها في النتاج الأدبي المعاصر للحدث التاريخي على شكل تلميحات وإشارات تُنبئ عن جانب معيّن من الحدث وعن موقعها منه، بحيث تكون مميّزات الحدث (الفعل) أكثر وضوحاً في الوثيقة التي تشكّل ردة فعل مباشر عليه، كما تتضاءل الإشارات العاكسة لميزات الحدث تدريجياً في الردود على ردود الفعل كلّما تباعدت علاقة ردود الفعل وانعكاساتها بالحدث الأساس. وبفضل العلاقة التي تربط الحدث بردود الفعل عليه وما يتبعها من انعكاسات، يحصل تطابق وتكامل بين مميزات الحدث والسياق التاريخي العائد له.

لقد اصطلحنا على تسمية مجمل ما تحمله الوثائق من ردود فعل وانعكاسات وإشارات تاريخية عائدة إلى حدث معيّن بـ«الظلال التاريخية»، لأنها بمثابة ظلال للحدث المذكور، تتواجد معه في سياقٍ تاريخيٍ واحد، وتعكس جانباً من خصائصه ومميّزاته. على هذا الأساس، يستحيل القول بحصول حدثٍ في عصر معيّن في حين أن ظلاله التاريخية تتواجد في عصر آخر. والعكس صحيح أيضاً، فإذا تمكن الباحث من تحديد الظلال التاريخية لحدث معيّن وتأكد من توافقها التام مع مميّزاته وخصائصه، توصّل بالتالي إلى تحديد الإطار التاريخي للحدث المذكور.

١- تشكل ردود الفعل بدورها أفعالاً ينتج عنها ردود فعل ثانوية، اصطلحنا على تسميتها انعكاسات.

انطلاقاً من هذه القاعدة، سوف نحاول تحديد الإطار التاريخي لجماعة قمران، أي الأسينيين، لأن تلك الجماعة شكّلت حدثاً مهماً في تاريخ اليهود منذ نشأتها وخلال تواجد أعضائها على أرض فلسطين. ولما كانت آراء الباحثين المتعددة تجعل من بداية القرن الثاني ق.م. حدّاً أقصى لنشأتها، لذلك سوف نقارن بين المعطيات التي تقدّمها الأصول والمصادر، وبين السياق التاريخي العام في فلسطين منذ بداية القرن الثاني ق.م. حتى نهاية الحرب اليهودية الكبرى ضد روما. فالحقبة الزمنية، من تاريخ فلسطين، التي تتكاثف فيها الظلال التاريخية بحيث تتوافق مميّزاتها مع المعطيات التي توفّرها الأصول والمصادر المتعلقة بالأسينيين، تشكل بحد ذاتها الإطار التاريخي الصحيح لنشأة تلك الجماعة وزمن تواجدها على أرض فلسطين. وسوف نعمد في الوقت ذاته إلى مناقشة أهم النظريات حول تحديد هوية معلّم البر، مؤسس الجماعة، والكاهن الشرير الذي اضطهده.

ثانياً- الحكم السلوقي في فلسطين واندلاع الحرب المكابية

وقعت فلسطين خلال القرن الثالث ق.م. تحت نفوذ بطالسة مصر، ثم عادت وخضعت للنفوذ السلوقي حوالى السنة ٢٠٠ ق.م.[١] إثر انتصار أنطيوخُس الثالث الكبير على البطالسة. تمتّع اليهود، في بداية الحكم السلوقي، بحرّية إقامة شعائرهم الدينية[٢]. ثم ما لبث الأمور أن تغيّرت عند تربّع أنطيوخُس الرابع إبيفانُس على العرش. فقد تابع سياسة التهلين التي باشرها الاسكندر المقدوني وحاول تطبيقها كثيرون من خلفائه في الشرق، فحضّ على التخلّق بأخلاق اليونان واقتباس الكثير من عاداتهم وعلومهم وفنونهم، وعلى احترام آلهتهم. وكان يعتبر نفسه تجسيداً للإله زفس[٣]. لذلك جعل هيكل أورشليم على اسم زفس الأولمبي[٤].

١- Bo REICKE, *The New Testament Era, London,* 1978, p. 49.

٢- ٢ مك ٣: ٢-٣.

٣- Bo REICKE, *op. cit.,* p. 54.

٤- ٢ مك ٦: ٢.

وقد أوضح سفر المكابيين الأول أن سياسة التهلين حَسُنَت في عيون عدد من بني إسرائيل فذهبوا إلى الملك، فأذِنَ لهم أن يعملوا بأحكام الأمم. فبنَوا مؤسسة رياضية بدنية في أورشليم، وعملوا لأنفُسهم قُلَفاً وارتدّوا عن العهد المقدّس. كما وأن كثيرين من شعب إسرائيل تركوا الشريعة فقدّموا قرابين للأصنام واستباحوا حُرمَة السبت[١]. وقد فرض الملك السلوقي على اليهود القيام بأعمال تخالف الشريعة الموسوية، ما أدّى إلى اندلاع الثورة المكابية[٢]. ومن تلك الأعمال أن انطيوخُس الرابع، بُعيد رجوعه منتصراً من حملته العسكرية على بطالسة مصر سنة ١٦٩ ق.م.، عَرَج على أورشليم ودخل المقدِس واستولى على مذبح الذهب ومنارة النور مع جميع أدواتها، بالاضافة الى مائدة التقدمة والأباريق والكؤوس وقِصاع الذهب والحجاب والأكاليل والحِلْيَة الذهبية التي كانت على واجهة الهيكل وكل ما وجد من الكنوز. ثم أمر ببناء «شناعة الخراب» على مذبح المحرقات. فكانوا يذبحون على المذبح الذي فوق مذبح المحرقات في الخامس والعشرين من كل شهر. وأمر اليهود بأن يتبعوا سُنَناً غريبة ويستبيحوا حرمة السبوت والأعياد، وينجّسوا المقدس والأقداس، ويشيدوا مذابح وهياكل ومعابد للأصنام كي يَنسوا الشريعة ويغيّروا جميع الأحكام.كما ألزمهم تناول الأطعمة النجسة وعدم ختان أولادهم واقتناء كتب الشريعة وذلك تحت طائلة الموت[٣].

وعندما قَدِمَ إلى مودين[٤] من أوفدهم الملك السلوقي لإجبار الناس على تقديم الذبائح للآلهة، تقدّم رجل يهودي ليذبح للأصنام على المذبح. فثارت في قلب الكاهن متّيا بن يوحنا بن سمعان الغيرة على الشريعة، فوثب عليه وقتله، وقتل أيضاً أحد رجال الملك، وهدم المذبح. ثم صاح في المدينة قائلاً: «من غار للشريعة وحافظ على العهد، فليخرُج ورائي»[٥]. بعد ذلك هرب متّيا

١- ١ مك ١: ١٣-١٥ و٤٣.

٢- ١ مك ٦: ٥٩.

٣- ١ مك ١: ٢١-٢٣، ٤٤-٤٩، ٥٤-٥٩، ٦٠-٦٣.

٤- مودين هي قرية تقع شمالي غربي أورشليم، في منتصف الطريق بين أورشليم والبحر المتوسط.

٥- ١ مك ٢: ٢٧.

إلى الجبال مع بنيه: يهوذا ويوحنا وسمعان واليعازر ويوناثان، فبدأت بذلك ثورة المكابيين. وانضمّ إلى الثوّار عدد من اليهود الذين رفضوا الوضع القائم، كما انضمّت اليهم جماعة الحسيديين وهم من أهل الورع والتقوى والغيرة على الشريعة[١].

حقّق متّيا بعض الانتصارات على السلوقيين، فذاع صيته بين اليهود واعترفوا بزعامته. لكنه ما لبث أن مات، فتزعّم الثورة ابنه يهوذا الملقب بالمكابي (١٦٦-١٦٠ ق.م.).

سمع المكابي ببطش روما وجبروتها، ففاوض الرومان ليثبتوه في جملة مناصريهم[٢]، فأرسلوا إليه كتاباً دوّنوه على ألواح من نحاس ليكون عند يهوذا وشعبه تذكاراً للمسالمة والمناصرة. ثمّ نظّم جيشه، وتمكّن من تحقيق بعض الانتصارات على السلوقيين. فاستطاع أن يحرّر سنة ١٦٢ ق.م. قسماً من أورشليم، أي جبل صهيون والهيكل، ما أتاح للشعب اليهودي ممارسة شعائره الدينية بكل حرية، وذلك بعد أن عمد يهوذا إلى تطهير الهيكل وإحاطته بالأسوار، وتجديد بناء مذبح المحرقات.

ولما كَثُرَ أنصاره، ضرب بني عيسو في أدوم ضربة شديدة، وسحق قبائل بني تيّان وبني عمّون، وحارب الوثنيين في جلعاد. ثم أرسل شقيقه سمعان على رأس جيش لمحاربة الأمم الوثنية في الجليل[٣].

تميّز عهد يهوذا بكثرة الحروب بينه وبين السلوقيين الذين تمكنوا من قتل شقيقيه أليعازر ويوحنا. ثم لاقى يهوذا بدوره مصرعه في إحدى المعارك، فتزعّم يوناثان من بعده على اليهود (١٦٠-١٤٣ ق.م.). وحاول هذا الأخير التفاوض مع السلوقيين لكنه وقع أسيراً في قبضتهم فقتلوه. فتولّى قيادة الشعب من بعده شقيقه سمعان، مؤسس الدولة الحشمونية.

١- ١ مك ٢: ٤٢.

٢- JOSEPHE, *Guerre,* I, i, 4, § 38.

٣- ١ مك ٥: ١ وما يليها.

١- أهم النظريات حول هوية معلم البر والكاهن الشرير في العصر المكابي

اعتقد الباحث السويدي «بو رايك»، أن معلم البر والكاهن الشرير الذي اضطهده يرمزان بشكل عام إلى الكهنوت الحقيقي والكهنوت الزائف، وربما إلى بعض كبار الكهنة في الثلث الأول من القرن الثاني ق.م. وأشار إلى أن معلّم البرّ يرمز إلى الكاهن الأعظم أونيّا الثالث الذي خلعه الملك أنطيوخس الرابع ابيفانس من منصبه بين سنتي ١٧٥ و ١٧٤ ق.م. أما الكاهن الشرير فربما يرمز إلى ياسون، شقيق أونيّا الثالث، أو إلى منلاوس الذي خلف ياسون في رئاسة الكهنوت.

ومن المعروف أن ياسون طمع برئاسة الكهنوت، فوفد على أنطيوخس الرابع ابيفانس ووعده بمبلغ كبير من مال الهيكل وبإنشاء مدرسة للترويض وكلية للعلوم اليونانية. فأجابه انطيوخس إلى طلبه وقلّده رئاسة الكهنوت. فعاد ياسون إلى أورشليم كاهناً أعظم وصرف شعبه إلى عادات اليونان وأقام مدرسة للترويض في تلك المدينة، فخالف الشريعة وسنن الآباء. لذلك وصفه كاتب سفر المكابيين الثاني بأنه «كافر» و«قذر»[١]. وبعد سنوات قليلة عيّن السلوقيون منلاوس بدلاً من ياسون في رئاسة الكهنوت. فعمد منلاوس إلى سرقة بعض الأواني الذهبية من الهيكل، فباع قسماً منها في صور، وأهدى القسم الآخر إلى أندرونكس، أحد الأشراف السلوقيين المرموقين. فلامَ أونيا الثالث منلاوس على عمله. فسعى هذا الأخير للتخلّص منه بواسطة أندرونكس الذي قبض عليه وقتله. واستناداً إلى نظرية بو رايك، وفقاً لما نقله بوروز، فإن «بيت أبشالوم» الذين رفضوا مساعدة معلم البر عند اضطهاد الكاهن الشرير له، يرمزون إلى عائلة طوبيا المرموقة التي تبنّى أفرادها أسلوب الحضارة الهلنستية، في حين أن حزب أونيّا كان يدافع للمحافظة بكل دقة على سُنن الآباء[٢].

١- ٢ مك ٤ : ١١ و ١٣ و ١٩.

٢- BURROWS, *Manuscrits*, p. 55-56.

٢- نقد وتحليل

رداً على نظرية بو رايك، نشير إلى أن صاحب هذه النظرية تخلّى عنها بالرغم من أنها لا تزال تستهوي بعض الباحثين، وهذا دليل ضعفها. كما وأن بعض المعطيات التي تقدمها مخطوطات البحر الميت عن معلّم البرّ والكاهن الشرير لا تتوافق مع ما ورد في سفري المكابيين الأول والثاني حول الكاهن الأكبر أونيا الثالث ومن خلَفَه في رئاسة الكهنوت. فلا تذكر المخطوطات مثلاً أن معلم البر هو أحد كبار كهنة الهيكل، وأن الكاهن الشرير هو شقيقه الذي طمع بمنصب رئاسة الكهنوت. كما لا يوجد في سيرة حياة أونيا الثالث ما يثبت اعتقاده ببدء نهاية الأزمنة.

والحقيقة ان الصراع بين حزبي اونيا الثالث ومن خلفه في رئاسة الكهنوت يمثّل الصراع بين اليهود المحافظين على الشريعة الموسوية من جهة، واليهود الذين تأثروا بالحضارة الهلنستية ووافقوا على «الذبح للأصنام»[١]، من جهة أخرى. وقد مثّل هذا العمل ذروة الكفر بالنسبة إلى الغيورين على الشريعة، غير أن تهمة الذبح للأصنام لا وجود لها في سياق الاتهامات التي عدّدها أصحاب مخطوطات البحر الميت ضد مخالفي الشريعة. كما لا نجد أي تلميح في تلك المخطوطات لبعض الأحداث المهمة التي كانت حافزاً لاندلاع الثورة المكابية، على مثال إقامة «شناعة الخراب»[٢] على مذبح المحرقات.

وبالرغم من إلتفاف جميع العاملين بالشريعة حول المكابيين لمؤازرتهم دفاعاً عن الشريعة الموسوية، لا نجد بين أسماء الطوائف اليهودية المعروفة في ذلك العصر أي ذكر لطائفة الأسينيين بمختلف الأسماء والنعوت التي عُرفوا بها. فلو تواجد الأسينيون في العصر المكابي لسجّل التاريخ اسمهم إلى جانب الحسيديين[٣] الذين ثاروا للدفاع عن الشريعة مثلهم. والدليل على ذلك أن يوسيفوس الذي أكّد إشتراك أحد قادة الأسينيين في الحرب اليهودية الكبرى ضد روما، لم يُشِر مطلقاً إلى إشتراك أيّ منهم في الحرب المكابية. وهذا

١- ١ مك ١: ٤٣؛ ٢: ٢٣؛ ٢ مك ٤: ١٩.

٢- ١ مك ١: ٥٤.

٣- ١ مك ٢: ٤٢ و٦٧.

دليل من الصمت يؤكد عدم تواجدهم خلال تلك الحقبة.

ولا شكّ أن بعض مميّزات العصر المكابي يتوافق مع جانب من المعطيات التي تقدّمها مخطوطات البحر الميت، وخاصةً لناحية المدة الزمنية التي استغرقتها الحرب المكابية، ولكونها حرباً مقدسة بنظر الذين شاركوا فيها دفاعاً عن الشريعة وسنن الآباء، وأيضاً لناحية تنظيم يهوذا المكابي جيشه على قاعدة حروب بني اسرائيل المقدسة التي تعود إلى زمن النبي موسى، إذ أقام «قوّاد الشعب، رؤساء الألف والمئة والخمسين والعشرة»[1]. بالرغم من كل ذلك، فإن طابع الحرب الدينية المقدسة الذي تميّزت به الحرب المكابية، يختلف عن مميّزات الحرب الإسكاتولوجية المقدسة التي تتمحور حولها مخطوطات البحر الميت.

وتأكيداً لذلك، نشير إلى أن عقيدة المسيّا المنتظر تبدو، استناداً إلى مصادر الحرب المكابية، أقلّ تطوراً عمّا هي عليه في مخطوطات البحر الميت. صحيح أن بعض التعابير التي استعملها كاتب سفر المكابيين الأول في وصف يهوذا المكابي تتوافق مع شخصية المسيّا المنتظر، على مثال: «البطل مخلّص إسرائيل»، الذي يحارب «حرب إسرائيل»، وهو «كالأسد في مآثره»، و«يتولّى محاربة الشعوب»[2]. وصحيح أيضاً أنه بعد مقتل يهوذا، استلم شقيقه يوناثان الرئاسة والقيادة من بعده، وحقق انتصارات عديدة على أعدائه، فأعاد الطمأنينة إلى البلاد، وجلس على كرسي القضاء وأخذ «يحاكم الشعب»[3]. إن هذه الأوصاف تتوافق مع شخصية المسيا المنتظر؛ غير أنه لا توجد إشارة في سفري المكابيين الأول والثاني تؤكد أن أولاد متّيا لَبِسوا تاج الملك. علماً أن من أهم صفات المسيّا المنتظر، هو أن يكون ملكاً، لأنه نسل داود. إضافة إلى ذلك فبالرغم من الحملات العسكرية التي قام بها يهوذا وأشقاؤه على جيرانهم الوثنيين في أدوم والجليل وجلعاد[4] الخ... تبقى مآثرهم الحربية ضمن إطار

١- ١ مك ٣: ٥٥.

٢- ١ مك ٢: ٦٦؛ ٣: ٢ و٤؛ ٩: ٢١.

٣- ١ مك ٩: ٣٠ و٧٣.

٤- ١ مك ٥: ٣ و٢١ و٦٥.

إعادة الحرية إلى شعب إسرائيل وتحريره من سلطة أعدائه[1]، أي ضمن إطار المرحلة الأولى من تطوّر الوعي الديني اليهودي بالنسبة إلى المسيّا المنتظر، حين كان اليهود ينتظرون مخلّصاً يحرّرهم من نير العبودية، ويمكّنهم من إقامة شعائرهم الدينية وفق الشريعة الموسوية بكل حرية واطمئنان.

أما عن عقيدة المسيّا، كاهن هارون، فلا أثر لها في سفري المكابيين الأول والثاني وسواهما من مصادر الحرب المكابية. كما يُلاحظ أن الحسيديين الذين آزروا المكابيين في المرحلة الأولى من الحرب، لم يتوانوا عن فسخ تحالفهم معهم والإقرار بسلطة الكاهن الأكبر «ألكيمُس» الذي قلّده الملك السلوقي ديمتريوس بن سلوقس رئاسة الكهنوت. وحجّة الحسيديين أن ألكيمس هو «كاهن من نسل هارون»[2]. والجدير ذكره أن عظيم الكهنة ألكيمس يُعتبر من الكفّار بنظر كاتب سفر المكابيين الأول، لأنه تابع سياسة ياسون ومنلاوس في التهلين، فكان أكثر شرّاً منهما[3].

وكان منصب كبير الكهنة في ذلك الزمان يُشترى بالمال[4]، وكان الملك السلوقي يُعيِّن من يختاره في ذلك المنصب. ولم يتردد يوناثان، شقيق المكابي، بارتداء الحلّة الكهنوتية المقدَّسة في تشرين الأول سنة ١٥٢ ق.م. عندما عيّنه اسكندر ابيفانس، ابن أنطيوخس، عظيمَ الكهنة في الأمة اليهودية[5]. وفي هذا الحدث وغيره من الوقائع السابقة، دلالة واضحة على تناقض مميزات الحقبة المكابية مع مميزات مخطوطات البحر الميت التي يظهر فيها مسيح هارون «ممسوحاً» على يد «يهوه» وليس على يد ملك وثني. كما يبدو مسيح إسرائيل ملكاً على الشعوب كلّها وليس أميراً على شعبه فقط. أضف إلى ذلك أن اصحاب مخطوطات البحر الميت كانوا ينتظرون أورشليم جديدة وهيكلاً جديداً في نهاية أزمنتهم، في حين أن يهوذا المكابي أعاد بناء المذبح وجدّد

١- ١ مك ١٤: ٢٦.

٢- ١ مك ٧: ١٣-١٤.

٣- ١ مك ٧ :٩ و٢٢-٢٤.

٤- ١ مك ١٣: ١٥: ٢ مك ٤: ٢٤.

٥- ١ مك ١٠: ٢٠-٢١.

المقدس على شكلهما السابق[1].

فالحرب المكابية إذاً، لم تكن حرباً إسكاتولوجية تشمل العالم بأسره، بل كانت تدور ضمن إطار التحرر من السيادة الأجنبية، وتطهير أورشليم وهيكلها من نجاسة المحتل الأجنبي، وإقامة الشعائر الدينية بكل حريّة وفق الشريعة الموسوية.

ثالثاً- فلسطين في العهد الحشموني

بعد أن تولّى سمعان (١٤٢-١٣٥ ق.م.) الزعامة على الشعب اليهودي، حقّق انتصارات مهمة على السلوقيين وحرّر اليهود من سلطانهم ومن دَفْع الجزية لهم سنة ١٤٢ ق.م.[2]، فنادى به اليهود كاهناً أعظم وقائداً عاماً وأميراً يورّث حقوقه وصلاحياته لإبنائه وأحفاده من بعده. فأسس سمعان الأسرة الحشمونية. وتمكّن اليهود من تأسيس أمة مستقلة في سنة ١٤٢ ق.م. بالرغم من أن تهديد الأمم المجاورة لها كان لا يزال فاعلاً[3].

بعد موت سمعان، تولّى إبنه يوحنا هركانوس الحكم من بعده (١٣٤-١٠٤ ق.م.). وفي عهده، حاصر الملك السلوقي أنطيوخُس السابع (١٣٨-١٢٩ ق.م.) أورشليم التي كادت أن تسقط بقبضته لو لم يبادر يوحنا هركانوس إلى دفع جزية مقدارها ٣٠٠ مثقال[4]، ولو لم تتدخل روما فتهدّد السلوقيين بضرورة فك الحصار والانسحاب وعدم التعرّض لاصدقائها اليهود[5]. ثم خلف أنطيوخُس السابع سلوقي ضعيف هو اسكندر الثاني زبيناس (١٢٨-١٢٣ ق.م.) فاستعاد يوحنا هركانوس استقلاله ووسّع سلطانه، وأنشأ جيشاً من المرتزقة، وتصرّف تصرّف أمير زمني، فازداد الفرّيسيون غضباً وكرهاً لأسرة الحشمونيين[6]. ومن مميّزات عهد يوحنا هركانوس، أنه فرض الدين

١- ١ مك ٥: ١.

٢- Bo REICKE, *The New Testament Era*, p. 61.

٣- *Ibid.*, p. 62.

٤- JOSEPHE, *Guerre*, I, ii, 5, § 61.

٥- Bo REICKE, *op. cit.*, p. 66.

٦- أسد رستم، **مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران**، ص ٤١.

اليهودي والختان على سكان منطقة أدوم في جنوبي فلسطين[1].

بعد وفاة يوحنا المذكور حوّل ابنه البكر، أرسطوبولس، الزعامة إلى ملكية، فكان أوّل ملك على اليهود (١٠٤ ق.م.) بعد السبي البابلي. ومن أهم الأحداث التي حصلت في عهده أنه اجتاح الجليل وأجبر الناس على الاختتان والعيش وفق السنن اليهودية[2].

وكان أرسطوبولس قد قرّب إليه أخاه أنتيغونُس، وأودع باقي أشقائه في السجون. كما أدخل والدته السجن أيضاً بسبب الصراع على السلطة. وبلغت به قساوته أشدّها حين عمل على قتلها جوعاً[3]. واستبدّ المرض بأرسطوبولس فقام الواشون والحسّاد ببذر الشقاق بينه وبين أخيه أنتيغونُس مدّعين أن هذا الأخير يطمع بالعرش. فدبّر الملك أمر اغتياله كما مرّ آنفاً.

ولما مات أرسطوبولس، أخرجت أرملته شقيقه اسكندر حناني من السجن وأجلسته على العرش. وتميّز عهد اسكندر حناني (١٠٣-٧٦ ق.م.) بكثرة الحروب الخارجية والداخلية. وقد حقق بعض الانتصارات بفضل استعانته بالمرتزقة، كما ازدادت في عهده العداوة بينه وبين الفرّيسيين. فقتل منهم عدداً كبيراً[4]. وناصر الصدّوقيون الملك المذكور، فتأصلت العداوة بينهم وبين الفرّيسيين، واتصل النزاع بينهم ست سنوات قُتل فيها من الفرّيسيين خمسون ألف رجل[5].

طلب الفرّيسيون المعونة من السلوقيين، فسار ديمتريوس الثالث افكيروس على رأس جيشه ونزل على شكيم (نابلس). فخرج اليه اسكندر حناني، فهزمه ديمتريوس سنة ٩١ ق.م. وقتل عدداً كبيراً من رجاله. فهرب اسكندر إلى بعض التلال وأعاد تجميع جيشه، فلما صار في عسكر كبير سار إلى ديمتريوس فردّه إلى سوريا. بعد ذلك تتابعت الحروب بين اسكندر حناني والفرّيسيين فهزمهم وقتل منهم خلقاً كثيراً، وأخذ من وجهاء الفرّيسيين

١- Bo REICKE, *The New Testament Era*, p. 66-67.

٢- *Ibid.*, p. 68.

٣- JOSEPHE, *Guerre*, I, iii, 1, § 71.

٤- يوسيفوس، **تاريخ يوسيفوس اليهودي**، ص ١٠٤.

٥- JOSEPHE, *Guerre*, I, iv, 4, § 91.

ثمانمائة رجل فصَلَبهم بعد أن ذبح نساءهم وأولادهم أمام أنظارهم. فخاف أعداؤه منه، وغادر ثمانية آلاف من الفرّيسيين أراضي اليهودية، ولم يرجعوا إليها إلاّ بعد وفاة الملك[1].

وكان اسكندر حناني قد أوصى بالملك من بعده لزوجته ألكسندرة، فلما مات سنة ٧٦ ق.م. أطلقت ألكسندرة جميع الفرّيسيين الذين كانوا في السجون، وردّت اليهم تدبير أمور الناس، وتمسّكت بمذهبهم. وجعلت إبنها الأكبر هركانوس كاهناً أعظم لأنه كان متواضعاً، وجعلت أخاه الأصغر أرسطوبولس قائداً للجيش. ولما قوي أمر الفرّيسيين جاؤوا إلى ألكسندرة ومعهم إبنها هركانوس وطلبوا إطلاق يدهم في قتل رؤساء الصدّوقيين لأن ما حلّ بالفرّيسيين من الأذى في عهد الملك الراحل كان بسببهم، فوافقت على طلبهم. ولما أمعن الفرّيسيون في قتل زعماء الصدّوقيين، طلب هؤلاء من ألكسندرة السماح لهم بالخروج من أورشليم والتفرّق في الضياع البعيدة، فكان لهم ما أرادوا[2].

ثم ماتت ألكسندرة، فتسلّم العرش ابنها البكر هركانوس الثاني الذي أمضى ثلاثة أشهر في سدّة الحكم قبل أن يُجبره شقيقه أرسطوبولس الثاني (٦٧-٦٣ ق.م.) على التنحّي عن العرش.

غير أن الحروب عادت واندلعت بين الشقيقين، فأيّد الفرّيسيون هركانوس وناصر الصدّوقيون أرسطوبولس. وتمرّد أنتيباتروس حاكم منطقة أدوم[3]، فاستغلّ الخلاف بين الشقيقين، وشجّع هركانوس على استرجاع عرشه مستعيناً بالحارث ملك الأنباط الذي جهّز جيشاً وحاصر أرسطوبولس في أورشليم.

في أثناء ذلك، كانت روما قد أطلّت على المنطقة بشخص قنصلها بومبيوس الذي قضى على متراداتس ملك البنطس في شرق آسية الصغرى

١- JOSEPHE, *Guerre,* I, iv, 6, § 97-98.

٢- *Ibid.*, I, v , 3, § 113-114.

٣- أنتيباتروس هو أحد أعيان منطقة أدوم الواقعة في جنوب فلسطين. وكان قد تولّى حكم تلك المنطقة في عهد الملك اسكندر حناني، وتزوج امرأة أدومية ولدت له من البنين أربعة: فزائيل وهيرودس الملك وفيروراس ويوسف، وابنة واحدة تدعى سالومه.

سنة ٦٧ ق.م. ثم انتصر في السنة التالية على تغرانوس ملك الأرمن، واتجه شطر سوريا وفلسطين. فوصل أحد قواده، سكوروس، إلى دمشق في مطلع سنة ٦٤ ق.م.، ثم تبعه بومبيوس في ربيع تلك السنة[١].

فلما سمع اليهود بوصول سكوروس إلى دمشق، أرسل كلّ من هركانوس وأرسطوبولس وفداً من أجل طلب المعونة. كما أرسل أرسطوبولس مع الوفد مبلغاً من المال إلى سكوروس، فأنذر هذا الأخير هركانوس والحارث لرفع الحصار عن أورشليم[٢]. وعند دخول بومبيوس إلى دمشق، وصل وفد يمثل الشعب اليهودي راجياً إنهاء حكم الحشمونيين وإعادة السلطة إلى الكهنة. فأشار بومبيوس بالتريّث ريثما يكون قد فرغ من إخضاع الأنباط. احتار أرسطوبولس في أمره ولم ينتظر، فجمع عسكره ولحق بأعدائه وقتل منهم ستة آلاف، بينهم شقيق أنتيباتروس. فعاد هركانوس وأنتيباتروس يتزلّفان لدى بومبيوس حتى ساءت الأمور بينه وبين أرسطوبولس. فتحصّن هذا الأخير في أورشليم، فهاجمها بومبيوس واستولى عليها عنوة سنة ٦٣ ق.م. بعد حصار دام ثلاثة أشهر[٣]، ثمّ دخل قدس الأقداس فدنّسه. واكتفى بمعاينة الأثاث والأواني المقدّسة، وكلها من الذهب الخالص، لكنه لم يمسّ كنز الهيكل المقدّس الذي قدّر بألفي مثقالٍ من الذهب[٤]. فرض بومبيوس الجزية على أورشليم واليهودية، وأعاد هركانوس إلى مركزه السابق كعظيم كهنة. ثم رجع إلى روما آخذاً معه أرسطوبولس وعدداً من افراد عائلته كسجناء.

١- أهم النظريات حول معلّم البر والكاهن الشرير في العهد الحشموني

تعددت النظريات حول هوية «الكاهن الشرير» خلال الحقبة الحشمونية. ومن أهمها نظرية «كروس» الذي اعتقد أن الكاهن الشرير هو سمعان مؤسس

١- أسد رستم، **مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران**، ص ٤٤.

٢- JOSEPHE, *Guerre,* I, 6, 3, § 128.

٣- *Ibid.,* I, vi, 3, § 130; I, vii, 4, § 149.

٤- *Ibid.,* I, vii, 6, § 152.

الدولة الحشمونية، وشدّد على أهمية ما جاء في سفر المكابيين الأول حيث ورد أن سمعان هو أول عظيم كهنة اختاره الشعب اليهودي ولم يُعَيَّن على أيدي السلوقيين. فتقرّر أن يطيعه الجميع وأن يلبس الأرجوان والذهب ويُذكر اسمه في الوثائق. ولم يكن يحقّ لأي فرد من الشعب أو الكهنة أن ينقض شيئاً من ذلك، أو يخالف شيئاً مما يأمر به، أو يعقد اجتماعاً في البلاد دون علمه. ومن يخالف ذلك، كان يستحق العقاب[1]. وباعتقاد «تشارلزورث» أن تلك القرارات أدّت إلى خلق مناخ صالح لحصول إنشقاق في صفوف الكهنة على يد من توفرت فيهم شروط الارتقاء إلى رئاسة الكهنوت، فهجروا أورشليم وهيكلها، إذ لم يعد يحقّ لأي كاهن أو أي شخص آخر الدعوة إلى اجتماع إلاّ بموافقة سمعان[2].

أما بالنسبة إلى تحديد هوية معلّم البر خلال الحقبة الحشمونية، فقد أشار «تشارلزورث» إلى اتفاق معظم الآراء على استحالة هذا الأمر[3]. وبالرغم من ذلك، حاول «كرمينياك» إثبات نظريته القائلة إن معلّم البر هو يهوذا الأسيني[4]. وقد ذكرنا سابقاً أن يهوذا المذكور كان يعلّم جمهرة من تلاميذه بالقرب من هيكل أورشليم عندما فوجئ بمرور موكب أنتيغونس، شقيق الملك أرسطوبولس الأول، فظنّ أن روح النبوءة لديه قد انطفأت، لأنه تنبأ بمقتل انتيغونس في اليوم عينه بالقرب من برج سطرون، وهو موضع بعيد لا يمكن الوصول اليه في ما تبقى من ساعات النهار. غير أن نبوءة يهوذا تحققت لوجود موضع آخر في أورشليم يحمل اسم «برج سطرون».

وللدلالة على أن معلم البر هو يهوذا الأسيني، انطلق كرمينياك من التساؤلات التالية:

١- ١ مك ١٤: ٣٠-٤٥.

٢- J. H. CHARLESWORTH, «The origin and subsequent history of the authors of the Dead Sea Scrolls: Four transitional phases among the Qumran Essenes», *RQ*, n° 38 (1980), p. 220.

٣- *Ibid.*, p. 218.

٤- J. CARMIGNAC, «Qui était le Docteur de Justice?», *RQ*, n° 38 (1980), p. 246.

١- إذا كان معلّم البرّ قد عاش في زمن سابق ليهوذا الأسيني، فالمسألة تصبح في غاية التعقيد، لأن هذا الأخير كان يتردد على هيكل أورشليم ويعلّم تلاميذه بالقرب منه. وهذا يعني أن الأسينيين تصالحوا مع الكاهن الشرير وكهنة الهيكل الذين اضطهدوهم. وهذا الأمر لا يتوافق مع المعطيات التي تقدمها مخطوطات البحر الميت.

٢- إذا كان معلّم البر قد ظهر في زمن لاحق، أي بعد يهوذا الأسيني، فلا يمكن تفسير ما ورد في «وثيقة دمشق» التي تذكر أن أعضاء الجماعة الأوائل كانوا كالعميان «يتلمّسون طريقهم مدة عشرين سنة»[١]، خاصةً وأن هذا الوصف لا ينطبق على يهوذا المذكور الذي أشاد يوسيفوس بموهبته في التنبؤ، وهي من المواهب المشرّفة لدى الشعب اليهودي.

٣- إذا كان معلّم البر معاصراً ليهوذا الأسيني، فهذا يعني أنه كان لتلك الطائفة رئيسان: مشرّع ونبي، وهما على التوالي معلّم البر ويهوذا الأسيني. وفي هذه الحال يكون الكاهن الشرير متواجداً على أرض فلسطين حوالى سنة ١٠٠ ق.م.

٤- اعتقد كرمينياك أن يهوذا الأسيني هو معلّم البر نفسه، لأن هذا الأمر يوضح بنظره جميع الأمور العالقة؛ إذ لا بدّ من تعليل ما ذكره يوسيفوس عن تواجد الأسينيين في عهد يوناثان، أي في اواسط القرن الثاني ق.م. واعتبر أن نشوء الأسينيين كان نتيجة للانعكاسات التي سببها اضطهاد انطيوخس الرابع أبيفانس لليهود حوالى سنة ١٧٠ ق.م. وإذا كانت الجماعة قد تلمّست الطريق خلال ٢٠ سنة فيكون التحاق معلّم البر بالجماعة حصل سنة ١٥٠ ق.م.، ويكون عمره آنذاك ٢٠ او ٣٠ سنة. وعندما تنبأ عن مقتل انتيغونس كان يتراوح عمره ما بين ٦٧ و ٧٧ سنة، فاستحق لقب الشيخ الجليل الذي أطلقه عليه يوسيفوس.

١- CD-A, I, 9-10.

٢- نقد وتحليل

لا يتوافق مضمون مخطوطات البحر الميت مع نظرية «كرمينياك» حول هوية معلّم البر والظروف التي أدّت إلى نشأة جماعة قمران. فقد اتضح من تلك المخطوطات أن نشأة الجماعة وارتحال أعضائها إلى البرّية، كان نتيجة لتفاقم الشرّ، وخلافهم مع كهنة الهيكل، واضطهاد الكاهن الشرير لمعلّمهم وتسببه بموته. وبما أن يهوذا الأسيني كان يعلّم تلاميذه بالقرب من الهيكل في زمن أرسطوبولس، فتواجده في ذلك الموضع يؤكد أن الاضطهاد الممارس ضد الأسينيين على يد كبير الكهنة لم يكن قد بدأ، وبالتالي فإن ارتحالهم إلى البرية لم يكن قد حصل. فإذا لم يكن الأسينيون قد رحلوا إلى البرية في أيام الملك أرسطوبولس (١٠٤ ق.م.) من أجل تأسيس جماعتهم وتنظيمها، فكيف يعتبر «كرمينياك» أن نشوء الأسينيين كان نتيجة للانعكاسات التي سببها اضطهاد انطيوخس ابيفانس لليهود حوالى سنة ١٧٠ ق.م.؟!

لقد تعدّدت نظريات الباحثين حول تحديد شخصيتي معلّم البر والكاهن الشرير خلال العهد الحشموني دون التوصل إلى رأي موضوعي يحظى بإجماع الآراء. وسبب ذلك أن العلماء يفتشون عن هاتين الشخصيتين في غير عصرهما. فقد سبقت الإشارة إلى أن الطوائف اليهودية المعروفة في عهد يوحنا هركانوس -أي في الثلث الأخير من القرن الثاني ق.م.- هي ثلاث: الصدّوقيون والفريسيون والحسيديون[1]. فلا يُعقل إذاً أن يتواجد الأسينيون في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد، أي في زمن يوناثان، ثم يختفون من الوجود في عهد يوحنا هركانوس الذي امتد طوال ثلاثة عقود من الزمن، ثم يعودون للظهور مرة جديدة على صفحات التاريخ اليهودي خلال الحقبة الممهّدة للحرب اليهودية الكبرى!

وقد سبقت الإشارة إلى أن نبوءة يهوذا حول اغتيال انتيغونس ترد في كتاب «تاريخ يوسيفوس اليهودي» دون أن يذكر الكاتب أن يهوذا ينتمي إلى طائفة الأسينيين، بل بالعكس فقد أكّد انتماءه إلى فرقة الصالحين، أي الحسيديين، ما يعني أن كنية «أسيني» التي أطلقها يوسيفوس على يهوذا في

١- يوسيفوس، **تاريخ يوسيفوس اليهودي**، ص ٩٣؛ ٤ مك ٢٥: ١-٣.

كتاب «الحروب اليهودية»، هي تحريف للحقيقة.

أضف إلى ذلك أن الظلال التاريخية في مخطوطات البحر الميت لا تتوافق مع مميزات العصر الحشموني، فقد كان أصحاب المخطوطات يكنّون حقداً عظيماً ضد الكتيّم، أي الرومان. ولكن عند مراجعة تاريخ فلسطين منذ الفتح السلوقي حتى نهاية العهد الحشموني، لا نجد ما يبرّر الكراهية التي تظهرها جماعة يهودية محافظة على الشريعة تجاه الرومان. فقد تحالف يهوذا المكابي، الغيور على الشريعة، مع الرومان[1] عندما أيقن أن معاهدة الصداقة التي ربطته بهم تساهم في الحفاظ على الشريعة الموسوية من الفناء بسبب سياسة التهلين التي اعتمدها السلوقيون. وقد تجددت معاهدة الصداقة بين المكابيين والرومان في عهد يوناثان[2]، ثم في عهد سمعان[3]. وكانت روما تتدخل لصالح اليهود عند أي تهديد من قبل جيرانهم السلوقيين؛ إلى أن دخل بومبيوس إلى أورشليم واحتلّها ودنّس هيكلها سنة ٦٣ ق.م. فقبل ذلك التاريخ، أي قبل تدنيس الرومان لقدس الأقداس، لا يمكن تبرير أي عداء تجاه روما من الجماعات اليهودية المحافظة على الشريعة.

ولا شك أن فترة الاستقلال التي تمتّع بها اليهود منذ بداية العهد الحشموني، تُعتبر بنظرهم خاتمة مراحل الزمن المشيحي الذي شكّلت الحرب المكابية محوره الأساسي. فاستناداً إلى عقيدة المسيّا المنتظر، ينعم اليهود بالسلام والاستقرار بعد أن يهزم المسيّا أعداء أمّته. ونقع على هذا المفهوم في القصيدة الشعرية التي أوردها كاتب سفر المكابيين الاول للثناء على سمعان، مؤسس الدولة الحشمونية، والتي أكد فيها الشاعر نشوء مرحلة جديدة من السلام والازدهار في فلسطين، بعد أن استأصل سمعان «كل أثيم وشرير»، و«سحقَ الملوك»، و«وسّع أراضي أمّته، وقبض بيده على البلاد، وجمع أسرى كثيرين». «فهدأت أرض يهوذا كلّ أيام سمعان»، و«أحلّ السلم في أرضه وسُرَّ إسرائيل سروراً عظيماً»، فجلس كلّ واحد «تحت كرمته وتينته ولم يكن من

١- ١ مك ٨: ١٧-٣١.

٢- ١ مك ١٢: ١.

٣- ١ مك ١٤: ١٦-١٩ و ١٥: ١٥-٢٤.

يُفزعهم». وكان «الناس يفلحون أرضهم بسلام، والأرض تُعطي غلاتها، وأشجار الحقول ثمارها»[1].

إضافة إلى ذلك، فإن الظلال التاريخية التي تتميّز بها الحقبة الحشمونية لا تتوافق مع المعطيات التي تقدّمها مخطوطات البحر الميت، إذ لا نجد في تاريخ فلسطين، خلال تلك الحقبة، مناخاً عاماً للحرب يتوافق مع مفهوم الحرب الإسكاتولوجية التي تتدرّج على امتداد جيل من الزمن. فالتهديد السلوقي المتقطّع لأورشليم والصراع الدموي الذي نشب بين الفريسيين والصدّوقيين لا يعكس المناخ الاسكاتولوجي العام الذي تنتظم حوله مخطوطات البحر الميت. كما وأن فترة الاستقلال التي تمتّع بها يهود فلسطين منذ نشوء الدولة الحشمونية (١٤٢ ق.م.) حتى سقوطها بيد الرومان (٦٣ ق.م.) لا تتوافق مطلقاً مع مضمون مخطوطات البحر الميت التي تؤكد أن اليهودية وسائر مناطق فلسطين كانت خاضعة آنذاك لسلطة الغريب المحتلّ.

١- ١ مك ١٤: ٤-١٤.

الفصل الرابع

البحث عن ظلال الأسينيين التاريخية منذ الاحتلال الروماني حتى ظهور المسيحية

أولاً- فلسطين تحت الحكم الروماني

بعد انتهاء الحرب الأهلية التي اندلعت بين بومبيوس ويوليوس قيصر وحُسِمت لصالح هذا الأخير سنة ٤٨ ق.م.، جرى تثبيت هركانوس الثاني في رئاسة الكهنوت وفي منصب الإتنارخية، كما تمّ تعيين انتيباتروس محصّلاً (Procurateur) على اليهودية[1]. وكان انتيباتروس قد استغلّ الصراع على السلطة بين الشقيقين أرسطوبولس الثاني وهركانوس الثاني، فناصر هذا الأخير، وتمكن من وضع ولديه فزائيل وهيرودس في مركز السلطة، جاعلاً من الأول قائداً على منطقة أورشليم العسكرية، ومن الثاني قائداً على المنطقة الشمالية العسكرية، أي الجليل. وبسبب ضعف هركانوس انتقلت السلطة إلى يد أنتيباتروس الذي أصبح حاكم البلاد الفعلي.

ثانياً- عهد الملك هيرودس الكبير

بعد اغتيال يوليوس قيصر سنة ٤٤ ق.م. واندلاع حرب أهلية بين الرومان، وجد انتيباتروس نفسه فجأة تحت سلطة كاسيوس، حاكم سوريا، الذي شارك باغتيال قيصر. وبعد اغتيال انتيباتروس سنة ٤٣ ق.م.، استلم ابنه هيرودس السلطة. فاستطاع بكل حذاقة ودهاء أن يوازن في سياسته تجاه كلّ من كاسيوس والقائد الروماني مارك أنطونيوس الذي جاء لمحاربة قَتَلَة قيصر[2]. وقد منح أنطونيوس هيرودس وشقيقه فزائيل إتنارخية اليهودية على أن

١- JOSEPHE, *Guerre*, I, x, 3, § 199.

٢- انتصر القائد الروماني مارك انطونيوس على بروتس وكاسيوس، قتلة قيصر، في معركة فيليبي. وقد انتحر كاسيوس إثر هزيمته سنة ٤٢ ق.م.

يحتفظ هركانوس بالكهنوت الأعظم[1].

ولما اجتاح البرثيون فلسطين سنة ٤٠ ق.م.، استعان أنتيغونس ابن ارسطوبولس الثاني بهم وتمكن من استعادة عرش والده لوقت قصير، ثم صلم أذني هركانوس الثاني فأمسى هذا الأخير غير صالح للكهنوت[2]. أما هيرودس فلجأ إلى روما حيث منحه مجلس الشيوخ الروماني لقب ملك بدعمٍ من أنطونيوس[3]. فعاد مع قوة عسكرية رومانية تمكّن بمؤازرتها من بسط سلطته على أدوم وإخضاع منطقة الجليل وتطهيرها من عصابات اللصوص الذين استغلّوا الفوضى في البلاد، فاتخذوا من المغاور العاصية منطلقاً لإثارة الذعر بين السكان. ثم حاصر أورشليم واقتحمها وقضى على مناصري أنتيغونس. وقد وقع هذا الأخير أسيراً في قبضة الرومان، فأُحضر مكبلاً بالسلاسل أمام أنطونيوس الذي أمر بقطع رأسه[4]. وتمكن هيرودس من استعادة السلطة فعلياً على البلاد سنة ٣٧ ق.م. بعد ذلك تزوج من مريام، حفيدة هركانوس الثاني والوريثة الأخيرة للعرش الحشموني، فأضفى على سلطته مزيداً من الشرعية.

حَكَم هيرودس فلسطين بين سنتي ٣٧ و٤ ق.م. واستطاع أن يقبض على زمام السلطة بيد من حديد. فأخضع المعارضة، وسحق أعداءه بقسوة، وجعل من المجلس اليهودي الأعلى (السنهدرين) أداة طيّعة بين يديه، خاصةً بعدما أعدم ٤٥ عضواً لتأييدهم أنتيغونس. ثم أمر لاحقاً بإعدام هركانوس وجعل مكانه كاهناً من عوام الكهنة من غير عائلة الحشمونيين، لأنه حرص على أن ينقل رئاسة الكهنوت عن ذلك البيت خوفاً من أن يكون ذلك سبباً لاستعادتهم المُلك[5].

ومال هيرودس إلى الحضارة الهلنستية السائدة في عصره. فزيّن مدينة السامرة بالأبنية على الطراز الاغريقي وسمّاها سبسطية، تكريماً لأوغسطس

١- J. Alberto SOGGIN, *A History of Israel from the Beginnings to the Bar Kochba Revolt A.D 135,* translated by John BOWDEN, Great Britain, 1984, p. 322.

٢- JOSEPHE, *Guerre,* I, xiii, 9, § 270.

٣- *Ibid.,* I, xiv, 4, § 284.

٤- *Ibid.,* I, xviii, 3, § 357.

٥- يوسيفوس، **تاريخ يوسيفوس اليهودي**، ص ١٦٠.

قيصر، وبنى لهذا الأخير معبداً فيها[1]. كذلك بنى على الساحل مدينة قيصرية التي صارت فيما بعد مقرّاً للمحصّل الروماني. وزيّن تلك المدينة بالقصور، وأنشأ فيها مرفأً مهمّاً، شيّد على مقربة منه هيكلاً لأوغسطس كان يحوي تمثالاً ضخماً للإمبراطور. كما أنفق الكثير من الأموال لتزيين المدن الهلنستية على الساحل الشرقي للمتوسط، وأنشأ المعاهد الرياضية في طرابلس وعكا وغيرهما، وزيّن مدينتي بيروت وصور بالهياكل والأروقة والأسواق التجارية، وبنى مسارح في صيدون ودمشق[2]، وسعى للدعاية في الأوساط الأغريقية، فأعاد بناء هيكل الإله أبولون في جزيرة رودس. أما في عاصمة ملكه أورشليم، فقد أنشأ ميداناً لسباق الخيل، ومسرحاً ومدرّجاً. ومن المعروف أن هذه الأعمال لا تتفق مع السُّنن اليهودية، لذلك نظر إليه بعض اليهود على أنه أنطيوخُس إبيفانس الجديد[3].

شرع الملك هيرودس في السنة الخامسة عشرة منذ تسلّمه السلطة[4] بإعادة بناء هيكل أورشليم بسبب تصدّعه، فانتهى البنّاؤون من تشييد بناء الهيكل الأساسي خلال تسع سنوات ونصف؛ أما الأفنية والأبنية الملحقة فاستغرقت عملية بنائها عشرات السنين[5]. وأمر هيرودس بتعليق النسر الروماني المذهّب فوق المدخل الرئيس للهيكل، فأثار حفيظة بعض علماء الشريعة الفرّيسيين، لأن تلك الأمور مخالفة للدين اليهودي، إذ كان يحظّر وضع صور أو تماثيل لكائنات حيّة في الهيكل. فبادر بعض أنصارهم إلى اقتلاعه، فأمر هيرودس بإعدامهم مع محرّضيهم[6].

بشكل عام، لم يكن هيرودس محبوباً من الشعب. فقد كان يُعتبر، بالنسبة

١- JOSEPHE, *Guerre,* I, 21, 2, § 403.

٢- JOSEPHE, *Guerre,* I, xxi, 7, § 414; I, xxi, 11, § 422.

٣- Bo REICKE, *The New Testament Era,* p. 103.

٤- JOSEPHE, *Guerre,* I, xxi, 1, § 401.

٥- يو ٢: ٢٠.

٦- JOSEPHE, *Guerre,* I, xxxiii, 2, § 648-655.

إلى الكثيرين منهم، غريباً ومغتصباً للعرش، لأنه لم يكن ينتمي إلى البيت الملكي الشرعي، بل يمثّل فقط قوّة روما ويميل إلى الحضارة الهلنستية[1].

ثالثاً- فلسطين في عهد أولاد هيرودس الكبير والمحصلين الرومان

توفي الملك هيرودس سنة ٤ ق.م.، فوزّع أوغسطس قيصر مملكته على ثلاثة من أولاده، فأعطى نصفها إلى أرخلاوس وعيّنه إتنارخاً على اليهودية والسامرة وأدوم، ووعده بلقب ملك إذا أثبت جدارته، وثبّت أنتيباس أميراً للربع (Tétrarque) على منطقتي بيرة والجليل، وفيليبس أميراً للربع على الجولان واللجا والبثنية (Batanée) وبانياس.

وبسبب الأوضاع السياسية المتردية في البلاد، ابتداءً من السيطرة الأجنبية والصراع بين الشقيقين أنتيباس وأرخلاوس حول نصيب كلّ واحد منهما، انتعشت آمال الذين كانوا يتوقون إلى الحرية ويرون في تَهلين البلاد مخالفة للناموس. فوجدوا في الظروف الراهنة فرصة لتحرير بلادهم. وكانت الفوضى قد بدأت في أورشليم، عندما أثار الفرّيسيون الشعب والحجاج للتظاهر بسبب ما قام به الملك الراحل عندما أعدمَ الفرّيسيين الذين نزعوا النسر الذهبي عن حجاب الهيكل. وامتدت الفتنة إلى أماكن عديدة من فلسطين، ما حمل فاروس (Varus)، والي سوريا (٦-٣ ق.م.)، على التدخل لإخمادها. وفي أورشليم أيضاً، حصلت معارضة عنيفة لمخططات الوالي الروماني المؤقت سابينوس (Sabinus)، الذي استغلّ عودة فاروس إلى أنطاكية، فاستولى على ثروة هيرودس وقسمٍ من كنز الهيكل[2]. فحاصرت الجموع الوالي في قصر هيرودس مطالبة إياه بالرحيل مع جنوده. وحصلت معارك دامية تسبّبت بإحراق جزءٍ من هيكل أورشليم.

وتكاثرت الأحزاب التي سعى زعماؤها لقيادة الشعب والتربع على العرش[3].

١- Bo REICKE, *The New Testament Era,* p. 103.

٢- JOSEPHE, *Guerre,* II, iii, 3, § 50.

٣- *Ibid,* II, iv, 1, § 55.

فقام يهوذا بن حزقيا[1] في مدينة صفوريس، وهي من مدن الجليل، وقاد جمعاً غفيراً من اليهود مدّعياً أنه المسيّا المنتظر[2]، ثم أغار على مخازن الأسلحة الملكية فنهبها وسلّح أتباعه وراح يهاجم كل من ينافسه على السلطة.

وفي الفترة ذاتها أيضاً، برز أحد عبيد الملك المعتقين في منطقة بيرة، واسمه سمعان، فوضع على رأسه تاج الملك[3]، وراح يجول في البلاد على رأس جماعة من أنصاره، فأحرق القصر الملكي في أريحا والكثير من منازل الموسرين.

وبرز في اليهودية راعٍ يُدعى أثرونجيوس (Athrongéos)، سعى للتربع على العرش، معتمداً على شجاعته وبأسه، وعلى مؤازرة إخوته الأربعة له. فعيّن كل واحد منهم قائداً على عصبة من المسلحين، ووضع على رأسه تاج الملك[4]. وراح يطوف مع إخوانه في الجبال، ويشنّ غارات على الجنود الرومان فيبطش بهم دون أن يوفّر اليهود الذين يقعون في قبضته، وذلك إذا وجد في قتلهم مكسباً له. وقد تمكن في إحدى المعارك من قتل قائد المئة آريوس مع أربعين من رجاله الأشداء.

وبالرغم من صفة اللصوصية التي أطلقها يوسيفوس على هؤلاء الزعماء، وقوله إنهم جعلوا من منطقة اليهودية ساحة لحرب العصابات[5]، لم يكن هؤلاء لصوصاً وقطاع طرق بالمعنى الذي قصده المؤرخ المذكور[6]، بل كانوا من

١- ذكر يوسيفوس، أن حزقيا، والد يهوذا، قام على رأس فرقة من اللصوص بشنّ غزوات على مناطق من البلاد في عهد الملك هيرودس. وقد شملت غزواته بعض النواحي الكائنة بالقرب من التخوم السورية، إلى أن وقع أخيراً في قبضة الملك هيرودس الذي قضى عليه مع عدد من أنصاره. وقد هلّل السكان السوريون في تلك النواحي عند سماعهم خبر مقتل حزقيا، وانتشرت في قراهم ومدنهم الأغاني التي تمدح هيرودس وتجعل منه بطلاً يضمن أمنهم وأملاكهم.
أنظر: JOSEPHE, *Guerre,* I, x, 5, § 204-205; II, 4, 1, § 55-56.

٢- Bo REICKE, *The New Testament Era,* p. 112.

٣- JOSEPHE, *Guerre,* II, iv, 2, § 57.

٤- *Ibid.,* II, iv, 3, § 61-62.

٥- *Ibid.,* II, iv, 3, § 65.

٦- نهج يوسيفوس على اطلاق صفة قطاع طرق ولصوص على الجماعات الأصولية اليهودية المناوئة للرومان. أنظر: Emil SCHÜRER, *The History of the Jewish People in the age of Jesus Christ,* t. 1, p. 462.

الأصوليين اليهود الذين آمنوا بحلول الزمن المشيحي. فمن الملاحظ أن أثرونجيوس هو راعٍ عادي لا يتحدّر من سلالة ملكية، ولا ينتمي إلى الأسرة الحشمونية التي عمد هيرودس إلى القضاء تدريجياً على من تبقّى من أفرادها خشية منازعته السلطة. لذلك فإن وضعه التاج الملوكي على رأسه يقع ضمن إطار عقيدة انتظار المسيّا. وضمن الإطار ذاته، تندرج الغارات على الرومان والمتعاونين معهم من اليهود، التي شنّها آنذاك كل من سمعان ويهوذا بن حزقيا. وربما تندرج ضمن الإطار ذاته أيضاً، الغزوات العسكرية التي قام بها حزقيا، والد يهوذا المذكور، في بداية عهد الملك هيرودس.

وبرأينا أنه منذ تسلّم هيرودس السلطة حتى بعد وفاته، انتعشت الآمال المشيحية في نفوس بعض الجماعات اليهودية، بسبب تردّي الأوضاع السياسية في فلسطين، وفقدان الاستقلال الذي تمتّع به اليهود خلال العهد الحشموني. فقد وقعت فلسطين تحت السيطرة الرومانية، وتلهّى ورثة آخر الملوك الحشمونيين بالصراع على السلطة، فاستنجدوا بالوثنيين لتثبيت مُلكهم ونفوذهم في البلاد. وقد عزّز الرومان قبضتهم على فلسطين بأن ولّوا عليها هيرودس الذي كان نصيراً لهم على الدوام، فشارك في بعض معاركهم وحارب العرب الأنباط لبسط نفوذ روما في تلك المنطقة. وكان متأثّراً بالحضارة الهلنستية، فقام بأعمال مخالفة لسُنن اليهود وشرائعهم. أضف إلى ذلك أن هيرودس هو من منطقة أدوم التي اعتنق سكانها الديانة اليهودية في مرحلة متأخرة.

والجدير ذكره أن الفتنة التي اندلعت في فلسطين بعد وفاة هيرودس سنة ٤ ق.م. والتي نتجت عن حركات التمرّد والتحرر التي قام بها عدد من الزعماء اليهود ضدّ الرومان والمتعاونين معهم، قُمعت بسرعة، فقد تدخل والي سوريا من جديد على رأس حملة عسكرية وأعاد الأمن إلى البلاد بعدما صلب حوالى الفي يهودي.

وظلّت الأحوال هادئة في اتنارخية أرخلاوس بن هيرودس الكبير. لكن أوغسطس قيصر خلعه عن الحكم سنة ٦ م.، ووضع اليهودية والسامرة وأدوم مباشرة تحت سلطته، جاعلاً من تلك المناطق ولاية رومانية. وعيّن عليها كوبونيوس (Coponius) بصفة محصّل لتدبير شؤونها، مانحاً إيّاه السلطات

الواسعة، ومنها سلطة الموت والحياة. ثم كلّف كيرينيوس (Quirinius)، والي سوريا، للإشراف على الإحصاء الضرائبي في تلك المناطق. لكنّ هذا الإحصاء أحدث ردّة فعل مفاجئة، ليس في المناطق التي شملها، إنما في الجليل حيث أسس يهوذا الجليلي[1] حزب الزيلوت بدعمٍ من الفرّيسيين. وقد حرّض يهوذا سكان اليهودية قائلاً «إنه من العار دفع الجزية إلى الرومان واتخاذ أسيادٍ من البشر إلى جانب الله»[2].

إتخذ الثوار من الجليل قاعدة لنشاطاتهم الحربية، وحاولوا إجبار سكان اليهودية على تعطيل الإحصاء الضرائبي، وهيّجوا الشعب ليثور ضد روما. لكن الكاهن الأعظم حنَّان والمعتدلين من أعيان اليهود، قاموا بدور مهم في إطفاء نار الثورة بتعاونهم مع جنود الاحتلال[3].

تنعّمت اليهودية بقسط وافرٍ من الهدوء في زمن المحصلين أمبيفيوس (Ambivius) وروفوس (Rufus) وغراتوس (Gratus) الذين تعاقبوا على السلطة بين سنتي ٩ و٢٦م. وفي السنة الأخيرة، عيّن الإمبراطور طيبريوس قيصر (١٤-٣٧ م.) بيلاطس البنطي محصّلاً على اليهودية (٢٦-٣٦ م.). فأرسل بيلاطس بعض الوحدات العسكرية إلى أورشليم لتتولى حراسة الأمن فيها، كما أرسل معها أعلامها وشعائرها، وكان بين هذه الشعائر ما تضمّن رسم الامبراطور. فاحتجّ سكان أورشليم إذ رأوا في هذا العمل مخالفة للشريعة. وانتشر الخبر بسرعة، فهرع إلى قيصرية[4] جمعٌ غفير من اليهود من أنحاء البلاد واعتصموا لمدة خمسة أيام متتالية حول منزل بيلاطس معبّرين عن استيائهم، غير عابئين بالموت، فأعطى بيلاطس أوامره بسحب الأعلام

١- يهوذا الجليلي هو من بلدة جَمَلة (Gamala) في الجولان. ورد ذكره في سفر أعمال الرسل (رسل ٥: ٣٧). ومن المرجع أنه قُتل خلال الثورة على الإحصاء الضرائبي سنة ٦ م.

٢- JOSEPHE, *Guerre,* II, viii, 1, § 118.

٣- Bo REICKE, *The New Testament Era,* p. 137.

٤- بنى الملك هيرودس مدينة قيصرية على ساحل فلسطين. وكانت مدينة هلنستية في سكانها ونظمها وعاداتها. ولما أصبحت اليهودية محصلية رومانية أصبح قصرا هيرودس في قيصرية وفي أورشليم مقرّين للمحصّل الروماني.

والشعائر التي تحمل صورة قيصر[1].

بعد مدّة، أثار بيلاطس فتنة أخرى عندما شرع بجرّ المياه إلى أورشليم. فقد أخذ من مال القربان ما احتاج إليه لتحقيق هذا المشروع. فغضب اليهود محتجّين على إنفاق ذلك المال لأغراض دنيوية وتجمّعوا صاخبين، فأمر بيلاطس جنوده باستعمال القوة من أجل تنفيذ المشروع، ما أدّى الى مقتل عدد كبير من اليهود، بعضهم تحت ضربات السيوف، والبعض الآخر تحت أقدام الجموع المتدافعة للهرب عبر شوارع أورشليم الضيّقة[2].

ويبدو أن الهدوء عمّ اليهودية بعد الحادث الأخير، إذ لا يلمّح يوسيفوس في كتاب «الحروب اليهودية» إلى حصول فتنة أخرى طوال حكم المحصّل بيلاطس البنطي الذي استمرّ في منصبه حتى سنة ٣٦ م.

وفي عهد بيلاطس المذكور، نشأت المسيحية، غير أنها لم تحدث في أول عهدها سوى بلبلة محدودة في المجتمع اليهودي بحيث أنها لم تهدّد الاستقرار في المجتمع المذكور لكي تتدخل السلطات الرومانية في ما اعتبرته في البدء أموراً دينية يهودية خاصة. كما وأن الاضطهادات التي تعرّض لها المسيحيون الأوائل على يد السلطات الدينية اليهودية كانت محدودة لأن الجماعات المسيحية ظلّت تنعم بالسلام في مناطق اليهودية والجليل والسامرة[3].

رابعاً- نقد أهم النظريات حول تواجد معلّم البر في تلك الحقبة

تشكل الأحداث والظروف السياسية التي رافقت نهاية الدولة الحشمونية وبداية الاحتلال الروماني لفلسطين، برأي دوبون-صومر، الإطار التاريخي لتفسير حبقوق ولتواجد معلّم البر والكاهن الشرير. فقد كان الباحث المذكور واثقاً منذ البداية بأن كلمة «كتيم»، الواردة في تلك المخطوطة، تعني الرومان.

١- JOSEPHE, *Guerre,* II, ix, 2-3.

٢- *Ibid.*, II, ix, 4.

٣- رسل ٩: ٣١.

غير أنه أقرّ بصعوبة تحديد هوية معلّم البرّ[1]، فركّز أبحاثه على تحديد هوية خصمه، أي الكاهن الشرير.

تعتمد نظرية دوبون-صومر على ما ورد عن الكاهن الشرير في تفسير حبقوق حيث قيل إن إله إسرائيل «سلّمه إلى أيدي أعدائه قبل أن يذلّه بضربة قاضية في مرارة النفس، لأنه تصرّف تصرّف الكفر تجاه مختاريه»[2]، فرأى في هذا القول تطابقاً مع سيرة أرسطوبولس الثاني الذي اقتيد مكبّلاً بالسلاسل للمشاركة في مسيرة النصر التي أقيمت في روما تكريماً لبومبيوس بعد فتحه أورشليم.

غير أن دوبون-صومر عدّل نظريته فيما بعد، فرأى أن الكاهن الشرير هو هركانوس الثاني، مستنداً إلى ما جاء في تفسير حبقوق عن الكاهن الشرير الذي سار على دروب الحق في بداية عهده. ولكن حين مارس الحكم في إسرائيل ترفّع قلبه وترك الربّ، وخان الفرائض طمعاً بالغنى، واستولى على المال العام، وسلك سلوكاً مشيناً في كل أنواع الدنس والنجاسة[3]. وجاء في تفسير حبقوق أيضاً ما معناه أن الكاهن الشرير أُسلم إلى أيدي أعدائه، فانقضّوا عليه ليعاقبوه بالنظر إلى قضاء الله الذي يضرب الكفر. وقد صبّ «المدنّسون عليه أشدّ القباحات ومارسوا الانتقام في جسمه ولحمه»[4].

لاحظ دوبون-صومر أن هذه المميّزات تتوافق مع سيرة حياة هركانوس الثاني التي مرّت بمرحلتين: الأولى، عندما تصرّف ككاهن وقور ليهوه، والثانية عندما صار متكبراً جشعاً بعدما سادَ على اسرائيل. وأضاف أنه إذا كان هركانوس الثاني هو نفسه الكاهن الشرير المذكور في تفسير حبقوق، فمن الواضح أن جميع النظريات المتعلقة بمعلم البر تسقط باستثناء تلك التي تقول إنه أونيا الصالح. وكان هذا الأخير رجلاً باراً، وقد مات رجماً على أيدي أنصار هركانوس الثاني أثناء وجوده في معسكر هذا الأخير سنة ٦٥ ق.م.

١- A. DUPONT-SOMMER, *Les Ecrits Esséniens découverts près de la mer Morte,* p. 370.

٢- 1QpHab, IX, 10-12.

٣- 1QpHab, VIII, 9-13.

٤- 1QpHab, VIII, 17 – IX, 2.

غير أن الباحث المذكور اعترف بوجود صعوبات بالنسبة إلى هذا الرأي، لذلك فضّل اتخاذ جانب الحذر وعدم الالتزام به[١].

وبرأينا أنه عندما حاول دوبون-صومر تحديد شخصية الكاهن الشرير، انطلق من قناعته بأن الأحداث والظروف السياسية التي رافقت نهاية الدولة الحشمونية وبداية الاحتلال الروماني لفلسطين، تشكل الإطار التاريخي لتفسير حبقوق ولتواجد الكاهن الشرير. لذلك لن نعمد إلى نقد آرائه حول تحديد تلك الشخصية التي يبدو تردّده حولها جلياً واضحاً، بل سنكتفي بنقد الإطار التاريخي الذي بنى رأيه على أساسه، مع توسيع هذا الإطار لكي يشمل الثلث الأول من القرن الميلادي الأول. فإن تبيّن أن هذا الإطار التاريخي لا يتوافق مع مميزات مخطوطات البحر الميت تصبح نظريات دوبون-صومر وغيره من الباحثين ساقطة حتماً.

يوجد ضمن هذا الاطار التاريخي المذكور أعلاه بعض المميزات التي تتوافق مع خصائص مخطوطات البحر الميت، وهي التالية:

١- بعد انهيار المملكة السلوقية وخضوع فلسطين لسلطة روما إثر احتلال القائد بومبيوس مدينة أورشليم وتدنيسه هيكلها سنة ٦٣ ق.م.، تيقّن اليهود أن المملكة الرابعة التي تنبأ النبي دانيال بمجيئها (دا ٧: ٧) ترمز إلى روما، وفهموا أن كلمة «كتيم» الواردة في سفر دانيال (دا ١١: ٣٠) ترمز أيضاً إلى الشعب الروماني. لذلك فإن رأي دوبون-صومر هو صحيح بالنسبة إلى معنى كلمة «كتيم» في تفسير حبقوق، ولكون تلك المخطوطة كُتبت خلال الاحتلال الروماني لفسلطين.

٢- إن الخصومة الشديدة التي تظهرها جماعة قمران ضد الرومان (الكتيم)، لا مبرّر لها قبل قيام الرومان باحتلال أورشليم وتدنيس هيكلها، إذ لا نجد أيّ تلميح في مؤلفات يوسيفوس أو في المصادر الأخرى، يثبت وجود عداوة بين إحدى الجماعات اليهودية والرومان قبل الفتح الروماني لفلسطين. فبفضل معاهدات الصداقة التي ربطت روما بالمكابيين والحشمونيين، كان

١- A. DUPONT-SOMMER, *Les Ecrits Esséniens découverts près de la mer Morte*, p. 370.

الرومان يظهرون دائماً بمظهر المناصرين للشعب اليهودي أمام التهديدات والاخطار التي كان يتعرض لها اليهود من جيرانهم السلوقيين. ولكن دخول بومبيوس إلى هيكل أورشليم وتدنيسه قدس الأقداس، وهو المكان المحرّم على اليهود أنفسهم[1]، شكّل حافزاً قوياً لمعاداة روما لدى اليهود المحافظين على الشريعة، والذين كانوا يتوقون لمجيء المسيّا ليحقق الخلاص والحرية لشعبه.

وخلاصة القول، انه بالرغم من وجود بعض المميزات التي تتوافق مع مضمون مخطوطات البحر الميت في تاريخ فلسطين منذ بداية الفتح الروماني لغاية الثلث الأول من القرن الميلادي الأول، تبقى أوجه التناقض متعددة، ومنها:

١- ان الصراع بين أبناء النور وأبناء الظلمة هو على امتداد جيل كامل تتخلّله ٢٩ سنة تقريباً من الحروب ضد الأمم وعلى رأسهم الرومان. هذه الميزة الرئيسة لمخطوطة نظام الحرب، والثابتة أيضاً في عدد آخر من المخطوطات، لا تتوافق مطلقاً مع الإطار التاريخي المذكور أعلاه. فحركات التمرّد والعصيان التي قامت بها بعض الجماعات الأصولية اليهودية، سواء في بداية عهد هيرودس أو بعد وفاته، جرى قمعها بسرعة، ولم تتفاعل لتعبث باستقرار فلسطين على مدى جيل من الزمن. إضافة إلى ذلك لا وجود لأيّة إشارة تاريخية تثبت اشتراك الأسينيين في حركات التمرّد المذكورة.

٢- لا شك أن الانتفاضات الأصولية التي أغرقت فلسطين بموجة من العنف والاضطرابات بعد موت الملك هيرودس، تميّزت بطابع مشيحي. غير أن مفهوم انتظار المسيّا في الفترة المشار اليها، لم يكن على درجة التطور ذاتها التي تميّزت بها مخطوطات البحر الميت. فقد كان مفهوم انتظار المسيّا لا يزال في مرحلته الأولى من التطور، أي في مرحلة انتظار مسيحٍ ملك يخلّص اليهود من سيطرة الوثني المحتل. وهذا ما أكده يوسيفوس في أثناء حديثه عن الاضطرابات التي عمّت أورشليم بعد وفاة هيرودس. فأثناء محاصرة الثوّار

١- كان قدس الأقداس محرماً على الكهنة أنفسهم، وكان يحق للكاهن الأكبر فقط الدخول اليه مرة واحدة في السنة.

اليهود للوالي الروماني المؤقت سابينوس، طالبوه بالرحيل مع جنوده «وبعدم اضطهاد أناس يرغبون **باستعادة استقلالهم الوطني المفقود**»[1]. هذا القول هو شهادة واضحة على أن الثوار اليهود كانوا ينتظرون في تلك الحقبة استعادة استقلالهم وتحرير بلادهم من سلطة الوثني كما كانت الحال عليه في زمن الحشمونيين. كما أن المسيح الذي انتظره قادة تلك الحركات الأصولية، سواء في بداية عهد هيرودس أو بعد وفاته، لم يكن، بنظرهم وبنظر أتباعهم، سيّداً على العالم، بل كان قائداً محرّراً للشعب اليهودي، وملكاً على المستوى الوطني فقط. وهذا المفهوم يتناقض مع جوهر مخطوطات البحر الميت التي كان أصحابها ينتظرون مسيحاً تخضع له روما والشعوب جميعها.

وهنا لا بد من التساؤل: إذا صدق ما ذكرته المصادر عن وجود الأسينيين في فلسطين خلال الحقبة السابقة لنشوء المسيحية، فلماذا لا تتوافق مميّزات مخطوطاتهم مع السياق التاريخي العائد لتلك الحقبة؟

١- JOSEPHE, *Guerre*, II, 4, 4, § 53.

الباب الرابع

بداية الحقبة الاسكاتولوجية لدى الأسينيين

الفصل الأول

الأسينيون والمسيحيون الأوائل

أولاً- بداية الحقبة الإسكاتولوجية

من يدقّق في تاريخ فلسطين في الحقبة التي تَلَت نشوء المسيحية وانتهت بنهاية الحرب اليهودية الكبرى ضد روما، يعثر على مكوّنات الزمن المشيحي الإسكاتولوجي الذي تتميّز به مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران. فقد تمتّعت فلسطين بالاستقرار على الصعيد الأمني خلال العقد الرابع من القرن الميلادي الأول، بالرغم من البلبلة التي أحدثتها نشأة المسيحية في الأوساط الدينية اليهودية. لكن منذ أواخر العقد الرابع فصاعداً، يُلاحظ تصاعد تدريجي في وتيرة العنف والأصولية لدى بعض الجماعات اليهودية تجاه الأغراب ومخالفي الشريعة، وما رافق ذلك من دعوة إلى التحرر من سلطة الرومان، كما سنرى لاحقاً.

وبالرغم من وجود حقبة زمنية مشتركة عاشها الأسينيون والمسيحيون الأوائل في فلسطين قبل سقوط أورشليم سنة ٧٠ م.، لا نجد أي ذكر لاسم الأسينيين في النصوص الانجيلية، كما أن مخطوطات البحر الميت لا تشير صراحةً إلى الجماعات المسيحية. علماً أن تواجد المسيحيين والأسينيين في فلسطين خلال الحقبة الزمنية المشار اليها أعلاه ثابت وأكيد من خلال مصادر متعددة.

والدليل على أن الحقبة الزمنية التي تبدأ منذ نشوء المسيحية وانتشارها في العالم الهليني-الروماني حتى نهاية الحرب اليهودية الكبرى، تعتبر حقبة مشيحية إسكاتولوجية بالنسبة إلى معظم الجماعات اليهودية في ذلك الزمان، وخاصةً الأسينيين منهم، هو أن الكثيرين من الثوار اليهود الذين شاركوا في تلك الحرب، كانوا يعتقدون أنهم يحاربون في خضمّ المعركة

الإسكاتولوجية التي سيعقبها مُلك المسيّا[1]. وقد أكد يوسيفوس أن الثوار اليهود الذين كانوا ينتظرون مجيء المسيّا آنذاك، اعتقدوا أنه سيملك على العالم. كما أن المؤرخ نفسه جعل من تلك العقيدة أحد الأسباب الرئيسة التي أدّت إلى اندلاع الحرب اليهودية الكبرى ضد روما[2]. وهذا يعني أن يوسيفوس كان يعلم جيداً أن الحقبة الزمنية التي مهّدت لاندلاع تلك الحرب هي حقبة مشيحية، وأنها تشكّل مع الحرب المذكورة وحدة لا تتجزأ.

ويُستنتج مما ذكره يوسيفوس أيضاً، أن الوعي الديني اليهودي بالنسبة إلى مفهوم المسيّا قد تطوّر خلال تلك الحقبة ليصل إلى مرحلته الثانية، إذ كان من المفترض أن يملك المسيّا المنتظر «على العالم». وهذا يعني توافق مضمون مخطوطات البحر الميت مع السياق التاريخي الخاص بتلك الحقبة المضطربة من تاريخ فلسطين. علماً أن المخطوطات المذكورة أخفيت في مغاور قمران إبّان الحرب اليهودية الكبرى ضد الرومان.

ومن المعروف أنه في زمن يسوع الناصري بالذات، أي قبل نهاية الحرب اليهودية الكبرى بما يقارب جيلاً من الزمن، كانت الجموع اليهودية تترقّب مجيء مسيح ليكون ملكاً على اليهود فقط[3]، وليس ملكاً على جميع الأمم والشعوب. وباعتقادنا أن تطوّر مفهوم المسيّا لدى اليهود وصولاً إلى مرحلته الثانية والأخيرة، حصل بعد توسّع انتشار المسيحية إلى خارج حدود فلسطين وانخراط عدد لا يُستهان به من الوثنيين في الجماعة المسيحية[4]، بحيث صارت المسيحية رسالة عالمية، ولم يعد التبشير بها موجهاً إلى اليهود فقط. وقد شكّل هذا التطوّر الديني المستجدّ تحدياً مهماً بالنسبة إلى الديانة اليهودية والقيّمين عليها. ومع اتساع رقعة التحدي إلى خارج حدود فلسطين، تطوّر الوعي الديني اليهودي تلقائياً إلى ترقّب مسيح ليملك على العالم، إذ

١- Z. WERBLOWSKY, *The Encyclopedia of the Jewish Religion, London,* 1965, p. 259.

٢- JOSEPHE, *Guerre,* VI, v, 4 § 312.

٣- يو ١٨: ٣٣؛ ١٩: ١٤ و١٩ و ٢١.

٤ - من أسباب نجاح البشارة المسيحية بين الوثنيين، هو إعفاؤهم من الختان (رسل ١٠: ٤٤-٤٨؛ ١٥: ٥-٢٩). وقد حافظ المسيحيون من أصل يهودي على ممارسة الختان وفق أحكام الشريعة.

كان من المفترض على هذا المسيح المنتظر أن يقضي على مخالفي الشريعة الموسوية أينما وُجدوا.

فهل تتوافق مميّزات جماعة قمران مع السياق التاريخي العائد للفترة الممتدة منذ نشوء المسيحية حتى نهاية الحرب اليهودية الكبرى؟

ثانياً- مخالفو الشريعة

لا شكّ أن التعصّب الزائد للشريعة الموسوية الذي كان من أبرز مميّزات جماعة قمران هو دليل على أن تلك الجماعة نشأت في ظروف تعرّضت فيها الشريعة لتهديد جَدّي. وبالفعل فإن مخطوطات البحر الميت تحفل بإشارات تاريخية تؤكد وجود جماعات يهودية أخرى تسير سيرةً ماكرة[١]، مخالفةً سُنن الآباء والشريعة الموسوية. فهناك الكثير من «الكفار الذين تجاوزوا العهد»[٢]، والأنبياء الكذبة الذين أغووا الشعب وأضلّوهم[٣]. هؤلاء هم «حلقة الخونة» و«مخترعو الكذب» الذين «حادوا عن الطريق»[٤].

وقد ذكر كاتب «المدائح» أيضاً، أن هؤلاء الخونة هم من الخبثاء الذين يطلبون «يهوه» بقلب مزدوج[٥]، غير أنهم لا يثبتون في الحقّ. وبحثهم عن إله إسرائيل يعني أنهم كانوا من المؤمنين، إنما وفق عقيدة مغايرة لإيمان جماعة قمران[٦]. ويبدو أن تعاليمهم المرتكزة على عدم تطبيق أحكام الشريعة الموسوية وفرائضها تطبيقاً دقيقاً، ومخالفتهم سنن الآباء، كانت من الأسباب الرئيسة التي أدّت إلى تعصّب الأسينيين الزائد تجاه شريعة موسى، ودعوتهم المنضوين في صفوفهم للمشاركة «في القضاء وفي الدينونة المعدّة على الذين يتعدّون على فريضة من الفرائض»[٧].

١- 1QpHab, X, 10.

٢- 1QM, I, 2.

٣- 1QH[a], XII, 13.

٤- CD-A, I, 12-13.

٥- 1QH[a], XII, 14.

٦- Jean CARMIGNAC - Pierre GUILBERT, *Les Textes de Qumran: traduits et annotés,* vol. 1, p. 207, note 20.

٧- 1QS, V, 6-7.

قال المفسّر تعليقاً علىالآية (٣: ٤) من سفر ناحوم:

«تفسير هذا يعني أولئك الذين يضلّون افرائيم، الذين بتعليمهم الماكر ولسان كاذب وشفة منافقة يضلّون عدداً كبيراً، الملوك والأمراء، والكهنة والعوام مع جميع المرتدّين الذين انضمّوا الى اسرائيل. تهلك المدن والعشائر بسبب مشورتهم. والوجهاء والحكّام يسقطون بسبب حدّة لسانهم»[1].

وجاء في بعض المخطوطات أن هؤلاء الأنبياء الكذبة هم «خونة العهد الجديد»[2]، فقد «بادلوا بالشريعة التي حفرتها في قلبي، كلامَ تملّق يوجّهونه إلى شعبك. ومنعوا العطاش من شرب شراب المعرفة. وحين عطشوا أسقوهم خلاًّ»[3]. كما أنهم «بشفاه متوحّشة وبلغة غريبة يكلّمون شعبك فيجعلون كل أعمالهم جهلاً وكذباً... وقالوا عن... الطريق التي يحبها قلبك: ليست هي»[4].

تؤكد العبارات السابقة الدور الكبير الذي مثّلته تلك الجماعات، المناوئة للأسينيين من حيث العقيدة، في نشر أفكارها وتعاليمها، ليس فقط بين الشعب اليهودي[5]، بل أيضاً لدى الملوك والأمراء وذوي السلطة في فلسطين وغيرها من البلدان حيث كانوا يكرزون بلغة غريبة. وقد أكّد كاتب تفسير ناحوم أنه سوف ينكشف شرّ أعمالهم لبني إسرائيل في نهاية الأزمنة، فيبغضونهم ويمقتونهم بسبب وقاحتهم وخطيئتهم. وعندما «ينكشف مجد يهوذا، يهرب بسطاء إفرائيم من وسط جماعتهم، ويتخلّون عن الذين أضلّوهم وينضمّون إلى إسرائيل... وتُحَلُّ حلقتهم فلا يعودون يضلّون الجماعة»[6]، ويسلّمون للسيف «المنتقم للعهد»[7].

إذاً، من المميّزات التي رافقت نشأة جماعة قمران وجود نشاط تبشيري

١- 4QpNah, frags. 3-4 col. II, 8-10.

٢- 1QpHab, II, 3 et 6.

٣- 1QHᵃ, XII, 11.

٤- 1QHᵃ, XII, 16-18.

٥- J. CARMIGNAC - E. COTHENET - H. LIGNEE, *Les Textes de Qumran: traduits et annotés,* vol. 2, p. 89, note 7.

٦- 4QpNah, frags. 3-4 col. III, 3-7.

٧- CD-A, I, 17-18.

لجماعة يهودية تؤمن بإله إسرائيل، غير أن جماعة قمران اعتبرتها بدعةً لعدم ممارسة أعضائها أحكام الشريعة الموسوية بشكل دقيق. وقد حصل ذلك في زمن انحرف فيه رجال الكهنوت في أورشليم عن الصراط المستقيم، بالإضافة الى تفاقم الشر بشكل عام في فلسطين. لهذه الأسباب توجّه مؤسّسو جماعة قمران نحو برية اليهودية لإعداد الطريق ليهوه[١]، والاستعداد للانتقام من مخالفي الشريعة.

فهل أن الإشارات التاريخية الواردة أعلاه تعني الجماعة المسيحية الأولى، وهل تنطبق الاتهامات الواردة في المخطوطات على الجماعة المذكورة؟

ثالثاً- نشأة المسيحية وانتشارها

استناداً إلى الأناجيل وأعمال الرسل وغيرها من النصوص الانجيلية، بدأ يسوع الناصري، مؤسس الديانة المسيحية، يبشّر باقتراب ملكوت السماوات عندما كان بيلاطس البنطي محصِّلاً على اليهودية (٢٦-٣٦م.). خاطب يسوع الجماهير اليهودية بالآرامية، فاعتقد بعضهم أنه نبي على مثال موسى، ومنهم من آمن أنه المسيح المخلّص[٢].

وبعد سنتين تقريباً من التبشير بدءاً من الجليل، جاء يسوع إلى أورشليم، فشكّل مجيئه خطراً على سلطة المجلس اليهودي الأعلى (السنهدرين)[٣]. وكان يسوع قد انتقد بشدّة رياء الكتبة الفرّيسيين الذين تمسّكوا بظاهر الشريعة وأهملوا جوهرها، أي العدل والرَّحمة والوفاء. فتآمر الأحبار والكهنة الصدّوقيّون مع الكتبة الفرّيسيين على يسوع ليقتلوه[٤]، فاتّهمه عظيم الأحبار بالكفر[٥]، ورأى أنه يستوجب الموت. وتذكر الأناجيل أنه صُلب في مدينة

١- 1QS, VIII, 14.

٢- متى ١٦: ١٤؛ مر ٨: ٢٨؛ يو ٦: ١٤ و ٧: ٤٠؛ رسل ٥: ٣١؛ ١٠: ٣٨.

٣- Eugène ALBERTINI, *L'Empire romain,* (Peuples et Civilisations), Paris, 1970, p. 167.

٤- متى ٢٣: ١٢ و٢٣؛ ٢٦: ٤ و٥٩.

٥- متى ٢٦: ٦٥.

أورشليم[1] على عهد بيلاطس البنطي. ويُرجّح أنه مات بين سنتي ٢٨ و٣٠ م[2].

١- مقارنة بين سيرتي حياة معلّم البر ويسوع الناصري

لا شكّ أن سيرة حياة معلم البرّ مشابهة في خطوطها الكبرى لما ذكرته الأناجيل عن سيرة يسوع الناصري، مؤسس الديانة المسيحية. كان تلاميذ يسوع يطلقون على هذا الأخير لقب «المعلّم»، كما أن يسوع نفسه أكد لهم أنه معلّمهم الأوحد[3]. وقد ورد أيضاً في بعض النصوص الإنجيلية أن يسوع هو «البارّ»[4]، وهذا ما يذكّرنا بلقب «معلم البرّ»، مؤسس جماعة قمران.

وإذا كانت الأنظمة قد ألزمت جماعة قمران قولَ الحقيقة دائماً بالإضافة إلى ممارسة الزهد والتقشّف، فقد حَرَّم يسوع القَسَم وطلب من تلاميذه ألاّ يتفوّهوا سوى بالصدق، وألاّ يسعوا وراء المال[5]. وكان يمنع الذين يذهبون برحلات تبشيرية من أخذ حذاءين أو ثوبين[6].

١- متى ٢٧: ٣١-٤٤؛ مر ١٥: ٢٠-٣٢؛ لو ٢٣: ٣٣-٣٤؛ يو ١٩: ١٧-٢٢. حول رواية صلب يسوع، ورد في «تاريخ يوسيفوس اليهودي» ما يلي: «رجل حكيم اسمهُ يسوع ان كان جائزاً ان يُدعَى انساناً وكان صانعاً عجائب كثيرة ومعلماً للذين أرادوا ان يتعلموا الحق وكان له تلاميذ كثيرون من اليهود والامم هو المسيح الذي اشتكى عليه روساؤنا واكابر امتنا وسلمه بيلاطس البنطي للصلب ومع هذا كله الذين تبعوهُ من البداءَة لم ينكروهُ وقد نُظِر اليهِ حيّاً ثلثة ايام بعد صلبِه كما كان قد تنبأ بعض الانبياءِ وصنع معجزات أُخر كثيرة ولم يزل إلى يومنا هذا بعض الناس يدعون مسيحيين الذين يعترفون به رئيساً لهم» (يوسيفوس، **تاريخ يوسيفوس اليهودي**، ص ٢١٤). وهذا النص يرد حرفياً في كتاب «العاديات اليهودية» (JOSEPHE, *Ant. Jud.*, XVIII, iii, 3) حيث اعتبره بعض الباحثين نصّاً مضافاً وأنكروا صحته. والجدير ذكره أن المؤرخ الروماني «تاسيت» أكّد في «الحوليات» (١٥: ٤٤) أن المحصل بيلاطس البنطي أخضع يسوع للعذاب في عهد الامبراطور طيبيريوس. أنظر: *N.H.E.*, p. 112.

٢- Eugène ALBERTINI, *L'Empire romain,* p. 168.

٣- متى ٢٢: ٨؛ ٢٣: ٨ و ٢٦: ١٨؛ يو ٣: ٢ و ١٣: ١٣-١٤.

٤- رسل ٣: ١٤ و ٧: ٥٢ و ٢٢: ١٤؛ ١ يو ٢: ١ و٢٩؛ ٨: ٤٥-٤٦ و ١٨: ٣٧-٣٨.

٥- متى ٥: ٣٧؛ ٦: ٢٤ و ٣١-٣٤؛ ١٩: ٢٣؛ لو ٦: ٢٠ و ١٨: ٢٢.

٦- يو ٤: ٢٣؛ متى ١٠: ١١.

استناداً إلـى إنجيل متى، بشّر يسوع باقتراب ملكوت السماوات[١]، أي ما يتعلّق بالأزمنة الأخيرة. ونجد في مسلكه الكثير من الملامح النبوية، فهو يكشف علامات الأزمنة ويعلن نهايتها[٢]. وقد اعتقد عدد من تلاميذه أنه نبي[٣]؛ غير أن يسوع لم يذكر نفسه بهذا اللقب إلاّ عَرَضاً[٤]. وكان يعلّم بسلطان[٥]، ويتحادث مع الله كمن يخاطب أباه، ويجسر على التصريح أن أسرار الله مكشوفة أمامه، لأنه «الإبن» المتصل اتصالاً فريداً «بالآب»[٦]. وباعتقاده أنه جاء ليكمل الشريعة والأنبياء[٧]. أما بخصوص الكهنوت، فلا ينسب يسوع إلـى نفسه، ولو مرة واحدة، لقب الكاهن، باستثناء ما ورد حول هذا الموضوع في الرسالة إلـى العبرانيين[٨].

وكما لاقى معلّم البرّ الاضطهاد على يد كبير الكهنة في أورشليم، كذلك تآمر الكاهن الأكبر قيافا مع الصدّوقيين والفريسيين وشيوخ الشعب، على يسوع ليقتلوه[٩]. فأرسلوا جنوداً للقبض عليه في مكان عزلته في جبل الزيتون[١٠]، وأحضروه للمحاكمة أمام المجلس اليهودي الأعلى. وقد آثر صحابة معلّم البرّ الصمت أثناء عقابه[١١]، وهذا ما فعله تلامذة يسوع أيضاً أثناء محاكمة معلّمهم، حتى أن تلميذه بطرس أنكر معرفته به[١٢].

وبعكس تلامذة معلّم البرّ القمرانيين، فقد آمن تلامذة يسوع أن معلّمهم

١- متى ٤: ١٧؛ ١٦: ٢٧-٢٨.

٢- **معجم اللاهوت الكتابي**، ص ٨٠٢ و ٨٦٧.

٣- متى ١٦: ١٤؛ لو ٧: ١٦؛ رسل ٣: ٢٢.

٤- متى ١٣: ٥٧.

٥- مر ١: ٢٢.

٦- **معجم اللاهوت الكتابي**، ص ٨٦٨؛ متى ١١: ٢٥-٢٧.

٧- متى ٥: ١٧.

٨- عب ٧: ١٧-١٨.

٩- يو ١٨: ١٤؛ متى ٢٦: ٣-٤.

١٠- لو ٢٢: ٣٩. وقد أشار عدد من النصوص القمرانية إلـى اضطهاد الكاهن الشرير لمعلم البرّ والتسبب بموته. أنظر: 1QpHab, XI, 4-7; 4Q171, IV, 8.

١١- 1QpHab, V, 9-10.

١٢- مر ١٤: ٦٦-٧٢.

هو المسيح ابن الله الحي[1]؛ وأنه خرج من عند الآب لكي يخلّص البشر من سلطان الخطيئة[2]. وتذكر النصوص الإنجيلية أنه عاد بعد موته إلى أبيه السماوي[3].

٢- كنيسة أورشليم الأولى والحياة المشتركة

علّم يسوع تعليماً جديداً عن علاقة المحبّة التي تربط الله بالإنسان، والبشر بين بعضهم البعض. فحافظ تلاميذه على ذكراه وتعاليمه، وانتظموا في جماعات من المؤمنين. وكان المؤمنون في كنيسة أورشليم الأولى يعيشون، على مثال جماعة قمران، حياة بِرٍّ وقداسة[4]، تجمع بينهم روابط المحبة والأخوّة والحياة المشتركة. فقد كانوا قلباً واحداً وروحاً واحدة، لا يدّعي أحد منهم مُلكَ ما يخصّه، بل كانوا يجعلون كلّ ما عندهم مشتركاً بينهم، فيبيعون أملاكهم وخيراتهم، ويجيئون بثمن المبيع، فيُلقونه عند أقدام الرسل ليوزّعوه على قدرِ احتياج كلٍّ واحدٍ منهم[5]. وكانوا يواظبون على الاستماع إلى تعليم الرسل في موضع من الهيكل يُقال له رواق سليمان. وعند اجتماعهم لتناول «عشاء الربّ»، إحياءً لذكرى العشاء الأخير الذي جمع يسوع مع تلاميذه، كانوا يرفعون الصلاة لمباركة الخبز والخمر، تذكاراً لآلام معلّمهم يسوع الناصري، وللعهد الجديد الذي أقامه بدمه، وترقباً للملكوت الذي وعد به في منتهى الدهر[6].

وقد كان من الصعب جداً على السلطات الرومانية التمييز بين الأسينيين والجماعة المسيحية الأولى في فترة تواجدهم المشترك في فلسطين. فالمسيحيون لم يُعرفوا بهذا الاسم إلاّ في فترة لاحقة[7]، كما أننا لا نعثر على

١- متى ٢٦: ٦٤؛ لو ١: ٣٥ و ٢٢: ٧٠؛ مر ١٤: ٦١-٦٢؛ يو ٨: ٥٤؛ رسل ١٣: ٣٣؛ روم ١: ٤.

٢- يو ١٦: ٣٠؛ مر ١٠: ٤٥؛ ١٥: ٣١؛ ١ كور ١٥: ٣؛ طي ١: ٤؛ ٢: ١٣؛ ٢ طيم ١: ١٠.

٣- ١ تس ١: ١٠؛ روم ١٠: ٩؛ ١ بط ١: ٢١؛ رسل ٢: ٣٦؛ ٤: ١٠ و ١٠: ٣٧-٣٨؛ يو ١٦: ٥ و٢٨-٣٠.

٤ – روم ١٥: ٢٥.

٥- رسل ٢: ٤٤-٤٥؛ ٤: ٣٢-٣٥.

٦- رسل ٢: ٤٢؛ ١ كور ١٠: ١٦؛ ١١: ٢٤-٢٥؛ متى ٢٦: ٢٦-٣٠.

٧- رسل ١١: ٢٦.

اسم «أسينيين» في مخطوطات البحر الميت. وكانت تجمع بين هاتين الجماعتين مواهب الشفاء الروحاني والجسدي[1]. وكما كان الأسينيون يترقبون نهاية الأزمنة ومجيء المسيّا، كذلك كان المسيحيون، في العهد الرسولي، يتوقّعون اقتراب مجيء ملكوت الله وعودة المسيح في منتهى الدهر[2].

٣- المسيحيون أبناء النور

ليست المسيحية ديانة ثنائية، غير أن بعض النصوص المسيحية تناولت فكرة الصراع بين النور والظلمة، فوازت بين الخير والنور من جهة، والشر والظلمة من جهة ثانية. ولم يكن هذا المفهوم على درجة التطوّر ذاتها التي ميّزت الأدب القمراني المتأثر بالمعتقدات الزرادشتية، بل ظل محصوراً ضمن المفهوم التوراتي للصراع بين الخير والشر. فالنبي أشعيا، الذي كان له مكانة محترمة في نفوس الأسينيين والمسيحيين على السواء، تناول هذا المفهوم، كما تنبأ أنه في الزمان الأخير، سيمجّد طريق البحر، عبرَ الأردن، جليل الأمم، وسوف يبصر الشعب السائر في الظلمة نوراً عظيماً، كما سيشرق النور على المقيمين في بقعة الظلام[3].

ومع نشوء المسيحية[4] في القرن الميلادي الأول، اعتبر تلامذة يسوع أن «معلّمهم» هو المقصود بنبوءة أشعيا[5]. فقد جاء في انجيل يوحنا على لسان

١- يوجد في النصوص الإنجيلية الكثير من الروايات المتعلقة بالشفاءات التي جرت على أيدي يسوع وتلاميذه. وربما كان للفظة «آسَيَن» علاقة بهذا الموضوع. فمن المعروف أن تلك الكلمة هي سامية الأصل، وقد أطلقها سكان البلاد على أفراد جماعة قمران. وهناك في اللغة السريانية فعل (أسي) بمعنى أبرأ أو طبب، كما أن كلمة (أوسيو) تعني الطبيب. ويتضمن فعل «أسا» في اللغة العربية معنى المداواة والعلاج، فيقال أسا الجرح أسواً وأساً، أي داواه. والأسو والإساء تعني الدواء، والجمع آسية. والآسي هو الطبيب والمعالج، والجمع أساة وإساء (ابن منظور، لسان العرب، منشورات دار صادر، المجلد ١٤، بيروت، بدون تاريخ، ص ٣٤ وما يليها).

٢- ١ بط ٤: ١٧.

٣- اش ٥: ٢٠، و ٨: ٢٣- ٩: ١.

٤- لا نعرف ماذا كان يدعى المسيحيون الأوائل. لكنهم عُرفوا باسم «مسيحيين» للمرة الأولى في مدينة انطاكية (رسل ١١: ٢٦) حوالى سنة ٤٢ م.، لأنهم كانوا، على الأرجح، يبشّرون أن يسوع هو المسيح.

٥- متى ٤: ١٦.

يسوع قوله: «أنا نور العالم. من يتبعني لا يَمشِ في الظلام، بل يكون له نور الحياة». وقال لتلامذته أيضاً: «سيبقى النور معكم وقتاً قليلاً، فامشوا ما دامَ لكم النور لئلا يباغتكم الظلام... آمنوا بالنور ما دام لكم النور، لتصيروا أبناء النور». وأضاف: «جئتُ نوراً إلى العالم، فكلّ من يؤمن بي لا يمكث في الظلمة»[١]. وكان تلامذة يسوع يؤمنون أن يوحنا المعمدان جاء ليشهد للنور[٢]. وقد دعا الرسول يوحنا المؤمنين أن يسيروا في النور، أي في دروب البرِّ والمحبة، وأن يتجنّبوا السير في الظلام، أي في دروب الخطيئة والشرّ، وذلك لكي يتمكنوا من مشاركة الله في ملكوته، لأن الله «نور لا ظلام فيه»[٣].

ويوجد في رسائل القديس بولس الكثير من الأدلة التي تؤكد انتماء الذين يسيرون في طريق البرّ والإيمان إلى عالم النور، في حين أن الذين ينشغلون بملذات هذا العالم وباتّباع شهوات الجسد، يسيرون في الظلمة وإليها ينتمون[٤]. فالمؤمنون الأبرار هم أبناء النور[٥]، وهم لا يكافحون فقط القوى البشرية التي تعيش في عالم الظلمة حيث يسيطر أصحاب الرئاسة والسلطان، بل أيضاً قوىً تفوقها قدرة، وهي الأرواح الخبيثة وعلى رأسها بليعار، أي الشيطان[٦].

٤- بولس الرسول وانتشار المسيحية

بعد موت يسوع، تزايد عدد تلاميذه يوماً بعد يوم[٧]، ما أثار سُخط الصدّوقيين والفرّيسيين عليهم، فاضطهدوهم[٨]. وكانت ذروة الاضطهاد رجم

١- يو ٨: ١٢؛ ١٢: ٣٦؛ ١٢: ٤٦.

٢- يو ١: ٨.

٣- ١ يو ١: ٥.

٤- ١ تس ٥: ٤-٥؛ روم ١٣: ١٢-١٤.

٥- اف ٥: ٨؛ ١ تس ٥: ٥؛ ٢ كور ٦: ١٤.

٦- ٢ كور ٦: ١١-١٦.

٧- جاء في أعمال الرسل انه بعد فترة قصيرة من موت يسوع الناصري، تضاعف عدد المؤمنين في الجماعة المسيحية الاولى في أورشليم من مائة وعشرين إلى ثلاثة آلاف مؤمن، ثم انضم اليهم زهاء خمسة آلاف. وكان بعض هؤلاء من الكهنة (رسل ١: ١٥؛ ٢: ٤١؛ ٤: ٤؛ ٥: ١٤ و ٦: ٧).

٨- رسل ٤: ١؛ ٥: ١٨ و٤٠؛ ٥: ١٧-١٨ و٣٣.

إسطفانوس حوالى سنة ٣٦ م. ثم وقع بعد ذلك اضطهاد شديد على كنيسة أورشليم فتشتّت ابناؤها أجمع، ما عدا الرسل، في نواحي اليهودية والسامرة[١]، وصولاً إلى دمشق وفينيقيا وقبرص وانطاكية[٢]. في تلك الفترة لمع نجم شاول، الذي عُرِف فيما بعد باسم بولس، وهو يهودي من مدينة طرسوس في ولاية كيليكيا[٣]. وبالرغم من كون شاول مواطناً رومانياً بالولادة، فقد كان فرّيسيّاً متعصّباً، ومن أصحاب الغيرة على الدين والشريعة. اضطهد شاول تلامذة يسوع قبل تنصّره. ثم راح، بعد اهتدائه عند أبواب دمشق، يبشّر بالإيمان الذي كان يريد قبلاً تدميره[٤].

ذهب بولس ليبشّر بالمسيح في الشام وبلاد العرب[٥]، وفي أورشليم أيضاً. ثم حرص على ألاّ يبشّر في المناطق التي سبقه إليها الرسل[٦]، فقام بثلاث رحلات رسولية[٧] زار خلالها بعض المناطق في قبرص وولاية آسية وغلاطية وفريجية وبلاد اليونان ومقدونية وغيرها. وكان يقصد مجامع اليهود في المدن التي يزورها، فإن رفضوه تحوّل إلى الوثنيين؛ فآمن من الأخيرين على يده عدد لا يُستهان به. هذا الانتشار التدريجي للمسيحية في المجتمع الوثني سبّب تحدياً كبيراً للقيّمين على الديانة اليهودية بمختلف طوائفهم، ليس فقط لأنهم اعتبروها بدعة وهرطقة[٨]، بل أيضاً لاستقطابها عدداً كبيراً من «متّقي الله» الوثنيين. وكان هؤلاء يتردّدون فيما مضى على مجامع اليهود المنتشرة في أماكن متعددة من الامبراطورية الرومانية، لاعتبارهم اليهودية ديناً

١- رسل ٨: ١.

٢- رسل ٩: ٢ و ١١: ١٩.

٣- صارت كيليكيا ولاية رومانية سنة ٥٧ ق.م. وكانت تقع في القسم الجنوبي الشرقي من دولة تركيا الحالية، وكانت طرسوس أهم مدنها.

٤- رسل ٨: ٣؛ ٩: ١-٢ و٢١؛ ٢٦: ٩-١١؛ غل ١: ١٣ و٢٣. فل ٣: ٥-٦.

٥- غل ١: ١٧. والمقصود ببلاد العرب مملكة الأنباط التي كانت تمتد شرقي فلسطين، من البحر الأحمر حتى حدود دمشق، بما في ذلك جبل سيناء. ومن أهم قواعدهم بترا وصلع وبصرى وصلخد.

٦- رسل ٩: ٢٨-٢٩؛ روم ١٥: ٢٠.

٧- قام بولس بثلاث رحلات رسولية: الأولى من سنة ٤٥ م. لغاية سنة ٤٩، والثانية من سنة ٤٩ لغاية ٥٢، والثالثة بين سنتي ٥٣ و ٥٨.

٨- رسل ٢٤: ١٤.

ساميأ، لكنهم لم يتهوّدوا بسبب بعض السنن المفروضة. وقد استقطبت البشارة المسيحية عدداً كبيراً من هؤلاء خاصةً بعد إعفائهم من واجب الختان وفق الشريعة الموسوية.

إذاً، شكّلت المسيحية تحدّياً للديانة اليهودية، على أرضها أولاً، ثم في أماكن متعددة من الامبراطورية الرومانية، وصولاً إلى روما بالذات. فكان لا بدّ من الردّ على التحدّي، باضطهاد الجماعة المسيحية في فلسطين أولاً[1]، ثم مقاومة انتشار المسيحية في بلدان الشتات[2]. فمالت المسيحية شيئاً فشيئاً إلى الانفصال عن الديانة اليهودية، ونبذ سلطة رجال كهنوتها، والتملّص من بعض الطقوس والعادات اليهودية[3].

٥- البشارة الأخرى والمتهوّدون[4]

تجاه نجاح رحلات بولس التبشيرية إلى الوثنيين، حصلت ردود فعل يهودية ومتهوّدة (Judaïsante)؛ فبعد عودة بولس إلى إنطاكية من رحلته

١- روم ١: ٨؛ رسل ٨ :٤؛ ١٢: ١-٣؛ ٢٣: ١٢-١٦.

٢- رسل ١٣: ٥٠؛ ١٧: ١٣؛ ١٨: ١٢-١٣؛ ٢٠: ١٩؛ ٢٨: ٢٢؛ ١ تس ٢: ١٤.

٣- Eugène ALBERTINI, *L'Empire romain,* p. 169.

٤- عند التمعّن في قراءة رسائل بولس الرسول، نجد الكثير من الإشارات التاريخية التي تدل على وجود تيّار من النصارى المتهوّدين، كانوا يدعون المسيحيين للالتزام بأحكام الشريعة الموسوية. وتشكل الرسالة إلى أهل غلاطية بالاضافة إلى بعض أجزاء الرسالة الثانية إلى أهل كورنتس (٢ كور ٣: ٧-١٧؛ ١١: ١ - ١٢: ١٢) ردود فعل على بشارة هؤلاء المتهوّدين وأعمالهم التحريضية ضد بولس. كما نجد إشارات تاريخية في بعض رسائل بولس تلمح إلى وجود عدد من اليهود-النصارى في الكنائس التي أسسها، يحتمل أنهم كانوا على علاقة بالمتهوّدين. ففي الرسالة إلى أهل قولوسي توجد إشارة إلى أشخاص كانوا يحاولون فرض العادات اليهودية وعبادة الملائكة على الجماعة المسيحية في تلك المدينة (قول ٢: ١٦-١٨). وكان بعض الإخوة الكذبة يثيرون الشقاق في كنيسة روما ويعيثون فساداً بخروجهم على التعليم الصحيح (روم ١٦: ١٧-١٩). وبشّر أنصار الختان بالمسيح في كنيسة فيليبي وذلك بدافع الكيد وعن سوء نية (فل ١: ١٥-١٧؛ ٣: ٢-٣). وفي كنيسة أفسس ادّعى بعض اليهود-النصارى أنهم من علماء الشريعة، وراحوا يعلّمون تعليماً مخالفاً لبشارة بولس (١ طيم ١: ٣-٧). ومن هؤلاء نذكر هومنايس وفيليطس اللذين زعما أن القيامة قد أتت (٢ طيم ٢: ١٧-١٨). ولا شك أن تعليمهما متأثر بالمناخ الاسكاتولوجي الذي كان سائداً في فلسطين لدى الأسينيين وغيرهم من الجماعات الأصولية عشيّة اندلاع الحرب اليهودية الكبرى.

الرسولية الأولى[1] التي قام بها برفقة برنابا بين سنتي ٤٥ و ٤٩ م.، جاء قوم من أنصار الختان في كنيسة أورشليم وأحدثوا بلبلة في كنيسة إنطاكية بعدما راحوا يعلّمون أن الختان ملزم للجميع، وأن لا خلاص للوثنيين إذا لم يختتنوا على سنّة موسى. وقد تصرف هؤلاء دون علم الرسل أو موافقتهم[2].

ومن المعلوم أن مسألة الختان لم تكن مطروحة في بداية عهد الكنيسة لأن اليهود كانوا يشكلون أكثرية المؤمنين. كما أن بطرس وغيره من الرسل وافقوا، منذ البدء، على قبول الوثنيين في جماعة المؤمنين دون الحاجة إلى ختانهم[3]، وبالتالي فإن مسألة الختان بالنسبة إلى الوثنيين هي أمر مستحدث، فكيف يفسّر هذا الأمر؟

لا شك أن ذلك عائد إلى الظروف الدينية والسياسية في فلسطين، فقد شهدت الفترة الممهدة للحرب اليهودية الكبرى، نشاطاً ملموساً للجماعات الأصولية التي كانت تدعو إلى القضاء على مخالفي الشريعة والثورة ضد الرومان[4] والمتعاونين معهم من اليهود، كما سيأتي تفصيله لاحقاً.

أحيلت مسألة ختان الوثنيين، التي أحدثت بلبلةً في كنيسة إنطاكية، إلى الرسل والشيوخ في كنيسة أورشليم من أجل مناقشتها. فتكلّم بطرس نيابةً عن الرسل، كما تحدّث يعقوب نيابة عن شيوخ الكنيسة، فأيّدا رأي بولس وبرنابا، وتمّ بالنتيجة إعفاء الوثنيين من الختان، لكنهم أُلزموا اجتناب رجس ذبائح الأصنام والدم والميتة والزنى[5].

قام بولس، في بداية سنة ٥٠ م.، برحلته الرسولية الثانية فبشّر في بعض المدن التي زارها سابقاً مثل دربة وليسترة وأيقونية وانطاكية بسيدية، ثم انتقل

١- شملت الرحلة الرسولية الأولى قبرص وبعض مدن بمفيلية وبيسيدية وليقونية الواقعة جنوب آسية الصغرى.

٢- رسل ١٥: ١ و٥ و ٢٤.

٣- رسل ١٠: ٤٤-٤٨.

٤- وردت في كتاب أعمال الرسل إشارة الى وجود جماعة من الأصوليين اليهود كانت على استعداد لقتل كل من يخالف أحكام الشريعة (رسل ٢٢: ١٢-١٣)، كما توجد إشارة إلى جماعة أصولية أخرى كانت تدعو علناً للثورة ضد الرومان (رسل ٢١: ٣٨).

٥- رسل ١٥: ٢٩.

إلى مناطق أخرى شملت قسماً من غلاطية وفريجية الشمالية وميسية. والحدث المهم الذي ميّز هذه الرحلة هو انتقاله إلى قارة أوروبا حيث أسس كنائس فيليبي وتسالونيكي في مقدونية، بالاضافة إلى كنيسة كورنتس في آخائية.

وقام بولس سنة ٥٣ م. برحلته الرسولية الثالثة، فمرّ مجدداً بغلاطية وفريجية. كان هدفه هذه المرة مدينة أفسس في ولاية آسية الرومانية حيث مكث طوال ثلاث سنوات. بعد ذلك رحل إلى مقدونية وآخائية وتنقّل في تلك المناطق مثبّتاً الكنائس في الإيمان وجامعاً الهبات من أجل مساعدة المسيحيين في أورشليم الذين كانوا يتعرّضون للاضطهاد[1].

وخلال تلك الرحلة الرسولية، كتب بولس رسالته إلى أهل غلاطية بين سنتي ٥٤ و ٥٧ م. والجدير ذكره أن موضوع هذه الرسالة مشابه لجزء مهم من رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنتس[2]. ففي الرسالتين المذكورتين، تتكرر الحادثة التي حصلت سابقاً في انطاكية وبتّ فيها مجمع أورشليم بشكل نهائي. والرسالة إلى أهل غلاطية هي في الحقيقة ردّة فعل على «بشارة أخرى» قامت بها جماعة من المتهوّدين الذين جاؤوا من فلسطين زاعمين أنهم من جماعة يعقوب، فأثاروا البلبلة في كنائس غلاطية بعدما بشّروا أن لا خلاص للوثنيين إلاّ اذا اختتنوا على شريعة موسى[3]. وفي الرسالة الثانية إلى كنيسة كورنتس، أشار بولس إلى مرور جماعة أخرى من المتهوّدين أطلق عليهم تهكماً اسم «الرسل الأكابر». هؤلاء أيضاً كانوا يتباهون بالختان ويزعمون أنهم

١- ١ تس ٢: ١٤؛ ٢ كور ٨: ٣-٤.

٢- تتألف الرسالة الثانية إلى أهل كورنتس على الأرجح من رسالتين كتبهما بولس في مناسبتين مختلفتين، ثم ضمّتا إلى بعضهما البعض في ظروف نجهلها. كتبت الأولى في مقدونية بعدما وصل إليها بولس قادماً من أفسس، وهي تضم الفصول (١-٥) و(٧-٩)، وتنتهي بإرشادات وجهها بولس إلى كنيسة كورنتس من أجل الاعداد لتنظيم حملة الهبات لمساعدة إخوانهم الفقراء في أورشليم. وتتألف الثانية من الفصول (٦ و١٠-١٣)، وموضوعها مشابه للرسالة الى أهل غلاطية. ومن المرجح أنها كتبت بعدما زار بولس كنيسة كورنتس مرة ثانية، لأنه يشير فيها إلى احتمال عودته مرة ثالثة لزيارة تلك الكنيسة (٢ كور ١٢: ١٤؛ ١٣: ١).

٣- غل ١: ٦-٧؛ ٢: ١٢؛ ٦: ١٢.

رسل المسيح وخدمه. وكانوا يبشّرون «بيسوع آخر»[١]، غير ذاك الذي بشّر به بولس، زاعمين أن هذا الأخير هو رسول كاذب وأن تعليمه مغاير لإيمان يعقوب والرسل في كنيسة أورشليم.

ولكن هل صحيح أن تعليم بولس[٢] كان مخالفاً لإيمان الرسل وشيوخ الكنيسة في أورشليم وعلى رأسهم يعقوب؟ إن تعليم بولس لا يختلف أبداً في جوهره عن تعليم هؤلاء[٣]. والدليل على ذلك أنه بعد رجوعه من رحلته الرسولية الثالثة اجتمع بولس مع يعقوب وشيوخ الكنيسة الذين كانوا على معرفة بالاتهامات الموجهة ضده، «فمجّدوا الله»[٤] بعدما لمسوا النجاح الذي حققه بين الوثنيين. غير أنهم تحفّظوا لناحية ما أُشيع عنه أنه يعلّم اليهود المنتشرين بين الوثنيين التخلّي عن موسى وألاّ يختتنوا أولادهم ولا يتبعوا السنّة. وتحفظهم هذا لا يدلّ على قناعتهم بأن الختان يحقق الخلاص، ولكن الهدف منه هو تدارك بلبلة محتملة بين المؤمنين بسبب وجود عدد من المتعصبين للشريعة في صفوفهم. أضف إلى ذلك أن المناخ الأصولي السائد في أورشليم، كان يلزم اتخاذ جانب الحيطة والحذر، خاصةً بسبب وجود إخوة كذبة من اليهود المندسّين في صفوف الجماعة المسيحية بهدف التجسس عليها[٥]. والدليل على أن يعقوب وشيوخ كنيسة أورشليم كانوا موافقين على تعليم بولس، هو أن هؤلاء أنفسهم علّموه كيف يُقنع يهود أورشليم أن ما أشيع عنه هو غير صحيح، وأنه يتقيّد مثلهم بأحكام شريعة موسى[٦].

يُستنتج مما سبق، أن تعاليم الجماعات المتهوّدة المذكورة أعلاه تتناقض مع

١- ٢ كور ١١: ٤-٥ و ١٣-١٥ و ٢٢-٢٣.

٢- استناداً إلى رسائل بولس وأعمال الرسل، بشّر بولس أن يسوع المسيح هو ابن الله، وقد جاء ليخلّص الخطأة، فافتدى البشر جميعاً بموته، ومن يؤمن به ينال الخلاص الأبدي. وبشّر أيضاً أن يسوع قام من الموت بعد ثلاثة أيام من صلبه، ثم جلس على عرش المجد إلى جانب الله الآب. وقد أحلّ مجيء المسيح شريعة المحبة والتسامح مكان الشريعة الموسوية الصارمة. (رسل ٩: ٢٠؛ ١ طيم ١: ١٥؛ ١ كور ١٥: ٣-١١؛ روم ٣: ٢٨-٢٩؛ اف ٢: ٣-١٥؛ قول ٢: ١٤).

٣- رسل ٢: ٢٢-٢٤ و٣٠ و ٣٢ و٣٦؛ ٣: ١٥-١٦؛ ٤: ١٢؛ ٥: ٣١؛ ١٠: ٣٨-٤٣.

٤- رسل ٢١: ٢٠.

٥- غل ٢: ٤.

٦- رسل ٢١: ٢٤.

قناعات الرسل ويعقوب وشيوخ الكنيسة؛ كما أن محور نشاطهم التبشيري ينحصر في نقطتين رئيستين:

أ- الإيمان بأن الخلاص لا يتحقق دون ممارسة أحكام الشريعة الموسوية، أي أن الختان ضروري في عملية الخلاص.

ب- التبشير بيسوع آخر، غير ذاك الذي بشّر به بولس. علماً أن تعليم بولس يتوافق في جوهره مع تعليم الرسل وشيوخ الكنيسة في أورشليم.

فإذا كان بولس يؤمن ان يسوع هو المسيح المخلّص، وأن الخلاص يتحقق بالإيمان دون الحاجة إلى مراعاة أحكام الشريعة، فإن تشدّد الجماعات المتهوّدة في ربط عملية الخلاص بتطبيق أحكام الشريعة الموسوية، يؤكد أنها كانت تنظر إلى يسوع كإنسان فقط، وليس كمخلّص سماوي، على مثال بعض الجماعات اليهودية-النصرانية الهرطوقية التي ظهرت منذ أواخر القرن الميلادي الاول فصاعداً. فقد تمحورت عقائد تلك الجماعات الهرطوقية حول النقاط التالية: الالتزام المطلق بالشريعة الموسوية كسبيل للخلاص، ونفي صفة الألوهة عن يسوع الناصري، وربما نفى بعضهم أن يكون يسوع هو المسيح، وذلك بخلاف ما بشّر به بولس وغيره من الرسل. وهذه الأمور تتوافق مع نظرة الأسينيين القمرانيين إلى معلّم البر. فقد اعتبروه إنساناً باراً فقط، وميّزوه عن المسيّا المنتظر، كما آمنوا أن التشدّد بمراعاة أحكام الشريعة هو السبيل الوحيد إلى القداسة وتحقيق الخلاص.

لذلك، فإن جماعة قمران في فلسطين كانت شديدة الشبه بتلك الجماعات المتهوّدة التي رحلت من فلسطين في العقد الخامس الميلادي لتكرز العهد الجديد في كنائس غلاطية وغيرها. وباعتقادنا أن هناك نهجاً فكرياً وعقائدياً واحداً يربط بين جماعة قمران والجماعات المتهوّدة في غلاطية من جهة، وبين هؤلاء جميعاً والجماعات اليهودية النصرانية الهرطوقية التي ظهرت منذ أواخر القرن الميلادي الأول فصاعداً، بحيث أن انخراط فلول الأسينيين في الجماعة الأبيونية[1]، أو ربما تأسيسهم لها بعد نهاية الحرب

١- تتكرر عبارة جماعة «الفقراء» (بالعبرية: ابيونيم) في «تفسير المزمور ٣٧» للإشارة إلى جماعة قمران نفسها.

أنظر: 4Q171, I, 21; II, 10; III, 10.

اليهودية الكبرى، حصل ضمن مساره الطبيعي. فهذا النهج هو نتيجة للتحدي الكبير الذي شكّلته المسيحية في القرون الأولى للميلاد تجاه الديانة اليهودية والقيّمين عليها.

رابعاً- تحديد هوية الشخصيات المهمة في تاريخ الجماعة

ذكرت المخطوطات ثلاث شخصيات مهمّة في تاريخ جماعة قمران ، غير أنه لا يمكن تحديد هويّة أصحابها إلاّ على ضوء وجود فكر عقائدي واحد يربط جماعة قمران بالجماعات المتهوّدة التي نشأت في العهد الرسولي. وتلك الشخصيات الغامضة في المخطوطات هي التالية: رجل الكذب، ومعلّم البر، والكاهن الشرير.

١- رجل الكذب

يلمّح عدد من المخطوطات إلى شخصية كانت من ألدّ أعداء جماعة قمران، والمقصود بذلك «رجل الكذب»، أو «واعظ الكذب»، الذي أضلّ عدداً كبيراً من الناس بكلام الغش[1]. إنه «الساخر الذي صبّ بوقاحته على اسرائيل مياه الكذب وأضلّهم في برية لا طريق فيها»[2]. فقد احتقر رجل الكذب الشريعة[3]. كما أن الذين ساروا وراءه احتقروا أيضاً شريعة الله و«خانوا العهد الجديد»[4]. وقد توقّعت جماعة قمران في نهاية الزمن الاسكاتولوجي، أن يتم القضاء على كل «الذين عادوا إلى الوراء مع رجل الكذب»[5].

وهناك نص في تفسير حبقوق يوضح موقع «رجل الكذب» من جماعة قمران، جاء فيه ما يلي: «تفسير هذا يعني أولئك الذين كانوا مع رجل الكذب. لأنهم لم يصدّقوا أقوال معلّم البرّ التي تلقّاها من فم إيل. ويعني أولئك الذين

١- 1Q14frags. 8-10,4; 4Q171, I, 26-27; 1QpHab, X, 9.

٢- CD-A, col. I, 14-15.

٣- 1QpHab, V, 11-12.

٤- 1QpHab, I, 11; II, 1-6.

٥- CD-B, XX, 14-15.

خانوا العهد الجديد، لأنهم لم يصدّقوا عهد إيل ونجّسوا اسمه القدوس»[1].

يُستنتج مما ورد أعلاه أن كاتب النص، من جهة، ورجل الكذب مع أنصاره، من جهة ثانية، ينتمون إلى «عهد جديد» بشّر به شخص واحد هو معلّم البر الذي تلقى الوحي من فم إله إسرائيل. فقد دعا معلم البرّ، وفق ما زعمه الكاتب، إلى احترام الشريعة الموسوية معتبراً إياها ركيزة العهد الجديد. أما رجل الكذب وجماعته، فلم يصدّقوا أقوال معلّم البرّ، وخانوا العهد الجديد برفضهم الالتزام بالشريعة الموسوية. والجدير ذكره أن موقف كاتب النص مشابه تماماً لموقف الجماعات المتهوّدة في غلاطية من بولس الرسول.

تؤكد الرسالة إلى أهل غلاطية وجود بشارة أخرى للعهد الجديد تختلف في جوهرها عن بشارة بولس التي تتوافق برأيه مع إيمان شيوخ الكنيسة في أورشليم[2]. يدور موضوع الرسالة المذكورة حول محور واحد هو موقف بولس من الشريعة الموسوية انطلاقاً من قناعته بأن خلاص الإنسان يتحقق بالإيمان وليس بالشريعة، لأن البار بالإيمان يحيا[3]. وقد دافع بولس عن موقفه هذا في رسالته إلى أهل رومة حيث أكّد أن «الإنسان ينال البرّ بالايمان المنفصل عن العمل بأحكام الشريعة»[4]، كما انتقد، في رسالته الثانية إلى أهل كورنتس، «الرسل الأكابر» الذين كانوا يبشّرون «بيسوعَ آخر»، متباهين بأنهم عبرانيون إسرائيليون من ذرية ابراهيم[5]، ما يعني أن «يسوع» الذي بشّروا به، مماثل لمعلّم البر القمراني، ذلك الرجل البارّ الذي دعا إلى مراعاة أحكام الشريعة الموسوية.

ومن المعروف أن بولس الرسول اعتُقل في أورشليم، بعد عودته من رحلته الرسولية الثالثة، إثر شكوى قُدِمت ضده من بعض اليهود المقيمين في ولاية آسية، اتّهموه فيها بأنه «هو الرجل الذي يُعلِّمُ الناسَ في كل مكان تعليماً يسيء

١- 1QpHab, II, 1-4.

٢- غل ١: ٦-٧؛ ٢: ٦-١٠.

٣- غل ٣: ١٠-١٢.

٤- روم ٣: ٢٨.

٥- ٢ كور ١١: ٤-٥ و٢١-٢٢.

إلى شعبنا وشريعتنا وهذا الهيكل...»[1]. وكان بَلَغ يهود أورشليم والكنيسة فيها أن بولس يعلِّم اليهود المنتشرين بين الوثنيين فيدعوهم «أن يرتدّوا عن شريعة موسى» ويوصيهم «بألاّ يختُنوا أولادهم ولا يَتْبَعوا سنَن الآباء»[2]. وهذه التهمة تتوافق مع ما ورد في «تفسير حبقوق» حول «رجل الكذب الذي احتقر الشريعة وسط كل جماعتهم»[3].

إذاً، في الفترة المشتركة لتواجد المسيحيين والأسينيين على أرض فلسطين، كان الكثير من اليهود، ومن بينهم الأسينيون، ينظرون إلى بولس الرسول أنه العدو اللدود للشريعة الموسوية. هذه العداوة تجاه بولس من الغيورين على الشريعة، استمرت فترة طويلة من الزمن، إذ نجد أثراً لها في النصوص اليهودية-النصرانية الهرطوقية اللاحقة، كما هو الحال بالنسبة إلى انجيل برنابا. ففي مقدمة هذا الانجيل المنحول، ورد ما يلي:

«...أيها الأعزاء ان الله العظيم العجيب قد تفقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيّه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى مبشرين بتعليم شديد الكفر داعين المسيح ابن الله ورافضين الختان الذي أمر به الله دائماً مجوّزين كل لحم نجس الذين ضلّ في عدادهم **أيضاً بولس...**»[4].

يرتكز النص المذكور أعلاه على الأسس التالية:

أ- اعتبار بولس رسولاً كاذباً لرفضه الختان وهو من أهم أحكام الشريعة الموسوية. وهذا النهج يتوافق مع تعاليم الجماعات المتهوّدة في غلاطية ومع تعاليم الأسينيين التي تشدّد على تطبيق أحكام الشريعة.

ب- رفض بشارة بولس بأن يسوع هو ابن الله، واعتبار يسوع بمنزلة نبي فقط. ويلتقي هذا المفهوم مع تعاليم الجماعات المتهوّدة التي كانت تبشّر

١- رسل ٢١: ٢٨. رُجم القديس اسطفانوس الذي يُعتبر أول شهداء المسيحية، حوالى سنة ٣٦ م. وذلك بحضور بولس الرسول نفسه بعدما وُجهت إليه تهمة مماثلة (رسل ٦: ١١-١٤).

٢- رسل ٢١: ٢١.

٣- 1QpHab, V, 11-12.

٤- **انجيل برنابا**، ترجمة خليل سعاده، توزيع مكتبة ومطبعة محمد علي صبح واولاده بميدان الأزهر مصر، القاهرة، ١٩٠٨، ص ٣.

بيسوع آخر غير الذي بشّر به بولس. وبما أن هذا الأخير كان يعلّم أن يسوع هو ابن الله[1]، لذلك يمكن الاستنتاج أن متهوّدي غلاطية وغيرهم من الجماعات اليهودية-النصرانية الهرطوقية، رفضوا ما بشّر به بولس واعتبروا أن يسوع هو إنسان فقط، وقد منحه الله موهبة النبوءة، أي أنه بمنزلة معلّم البرّ القمراني. ولم يكن هذا الأخير، بنظر جماعة قمران، مسيح إسرائيل، إذ من المفترض أن يأتي المسيّا المنتظر بعد حوالى الأربعين سنة من وفاة معلّم البر[2]. وبما أن المسيّا المنتظر يأتي لتثبيت ملكوت الله على الأرض، لذلك استحق هو، وليس معلّم البر، لقب «ابن الله» بنظر جماعة قمران، كما يتضح من الرؤيا الآرامية التي تحمل الرمز (4Q246). وباعتقادنا أن الجماعات المتهوّدة في غلاطية وفي كورنتس تُعتبر، من الناحية الدينية العقائدية، في مرحلة متوسطة بين جماعة قمران والجماعات اليهودية-النصرانية الهرطوقية التي ظهرت فيما بعد. وبالرغم من تمايز تلك الجماعات عن بعضها البعض بسبب إختلاف ظروف نشأتها وتبدّل مسرح نشاطها الجغرافي أو بسبب التطوّر التاريخي، فقد جمع بينها كلّها نهج عقائدي متشابه، نتج عن التحدي الكبير الذي شكّلته المسيحية الناشئة تجاه الديانة اليهودية.

٢- معلّم البِرّ والكاهن الشرير

نظراً لتشابه جماعة قمران مع الجماعة المسيحية الأولى لناحية الحياة المشتركة والسيرة الفاضلة والمحبة الأخوية، وللتشابه الأكثر وضوحاً مع الجماعات المتهوّدة التي زعمت أن العهد الجديد يقضي بتطبيق الشريعة الموسوية، وأنه لا خلاص للانسان بدونها. وبفضل وجود العديد من الصفات المشتركة بين معلّم البر القمراني ويسوع الناصري، سواء لناحية اللقبّ وفضيلة البِرّ ومواهب المعرفة والنبوّة، أو لناحية افتتاحهما الزمن الأخير وتعرّض كلّ منهما للاضطهاد على يد الكاهن الشرير، يمكن الافتراض أن

١- رسل ٩: ٢٠.

٢- CD-B, XIX, 35 - XX, 1 et 13-15.

معلّم البرّ القمراني ويسوع الناصري هما شخصية تاريخية واحدة نُظر إليها من زاويتين مختلفتين، بواسطة جماعتين يهوديّتين معاصرتين، تدّعي كل واحدة منهما أنها تمثّل العهد الجديد. وقد تمسّكت إحدى الجماعتين المذكورتين بالشريعة الموسوية تمسّكاً شديداً، معتبرة أن العهد الجديد لا يتحقق إلاّ بمراعاة أحكامها، في حين أن الجماعة الأخرى تحرّرت من روابط الناموس وسنن الآباء[1]، واعتبرت أن الايمان هو السبيل الوحيد إلى الخلاص. وهذا يفسّر سبب وجود قواسم مشتركة أحياناً، ومتناقضة أحياناً أخرى، بين ما ذكرته مخطوطات البحر الميت عن معلّم البر، وما ذكرته الأناجيل والنصوص المسيحية القانونية عن يسوع الناصري.

تأكيداً لهذا الرأي، نشير إلى أن معلّم البرّ افتتح العصر الإسكاتولوجي لدى الأسينيين، وتوفي قبل حوالى الأربعين سنة من الزمن الذي انتظر فيه هؤلاء مجيء المسيّا للاشتراك بحرب نهاية الأزمنة. وبما أن الحرب المشار إليها هي الحرب اليهودية الكبرى ضد الرومان التي انتهت بسقوط أورشليم (٧٠م.) وقلعة مسعدة (٧٣م.). كما وأن تلك الحرب هي الوحيدة التي تستحق صفة حرب اسكاتولوجية في تاريخ اليهود خلال القرن الميلادي الأول وقبله بقرون عديدة. وقد ثبت اشتراك الأسينيين فيها من خلال المصادر والتنقيبات الأثرية في خربة قمران. وكان الثوار اليهود المشاركين فيها ينتظرون مجيء المسيّا ليملك على العالم. فإذا احتسبنا مدة أربعين سنة إلى

١- استناداً إلى الأناجيل وأعمال الرسل، اعتبر الفريسيّون ومعلّمو الشريعة بعض الأعمال التي قام بها يسوع أو تلاميذه بمثابة خرق لشريعة موسى ومخالفة لتقاليد القدماء، نذكر منها على سبيل المثال: المعجزات التي فعلها يسوع في السبوت (لو ١٤: ١-٦)- حادثة قطف السنبل على يد تلامذته يوم السبت، وعدم غسل أيديهم قبل الطعام (متى ١٢: ١-٢؛ ١٥: ٢)- دخول بطرس إلى بيت كرنيليوس في قيصرية وتناول الطعام مع الوثنيين (رسل ١٠: ٢٤-٢٨؛ ١١: ٢-٣)، كما أن التهمة التي وجّهت إلى اسطفانوس، أول شهداء المسيحية، هي أنه «يكفر بموسى» و«يبدّل ما أورثنا موسى من سنن» (رسل ٦: ١١-١٥). وقد وُجهت تهمة مخالفة الشريعة أيضاً إلى يعقوب الثاني، رئيس كنيسة أورشليم (JOSEPHE, *Ant. Jud.*, XX, ix, 1, § 200) ، فحكم عليه مجلس السنهدرين بالرجم سنة ٦٢ م. بالرغم مما أشيع عنه في الأوساط اليهودية-النصرانية الهرطوقية أنه كان متشدداً في تطبيق الشريعة.

الوراء من نهاية الحرب اليهودية الكبرى، يتبيّن لنا أن معلّم البر كان معاصراً ليسوع الناصري، وأنّ كلاً منهما مات بين سنتي ٣٠ و ٣٣ م. والجدير ذكره، أنه لا يوجد في شتّى المصادر العائدة للحقبة الزمنية المشتركة لتواجد المسيحيين والأسينيين على أرض فلسطين أيّ تلميح لوجود شخصيتين تاريخيتين تتميّز إحداهما بصفات يسوع الناصري كما ذكرتها النصوص الانجيلية القانونية، وتتميّز الأخرى بصفات معلّم البر كما وردت في مخطوطات البحر الميت. بل بالعكس، فإننا نجد بشكل عام وجهتي نظر رئيستين مختلفتين حول يسوع الناصري نفسه، واحدة تعتبره رجلاً باراً ورسولاً سماوياً يحقق الخلاص للمؤمنين به، وأخرى تنظر اليه كرجل بارّ، وتعتبر ان العهد الجديد هو في العودة إلى تطبيق الشريعة الموسوية.

لذلك يمكن القول أن معلّم البرّ القمراني يرمز إلى يسوع الناصري وفق نظرة جماعة قمران إليه. فإذا صحّ هذا الرأي تتضّح فوراً هوية الكاهن الشرير الذي اضطهده، والمقصود بذلك قيافا، كبير الكهنة في أورشليم (١٨-٣٦ م). ومن المعروف أن قيافا ينتمي إلى شيعة الصدوقيين. وقد ترأس محاكمة يسوع إثر اعتقاله، كما أنه اضطهد الرسل[١].

١- متى ٢٦: ٥٧-٦٦؛ رسل ٥: ١٧-١٨.

الفصل الثاني

ظلال الحقبة الاسكاتولوجية في فلسطين وبلدان الشتات

من يقرأ تاريخ فلسطين منذ ظهور المسيحية حتى نهاية الحرب اليهودية الكبرى، يلاحظ أن المجتمع اليهودي بدأ يتحوّل تدريجياً من حالة الاستقرار والسلام إلى مرحلة تشوبها الفوضى والعنف والأصولية وما رافق ذلك من دعوات للتحرر ورفض للسيادة الرومانية. وقد أثّر هذا الوضع المتأزّم في فلسطين على بعض الجاليات اليهودية في بلدان الشتات[1] بحيث توتّرت العلاقات بينهم وبين الوثنيين.

أولاً- فلسطين في عهد الملك أغريبا الأول

بعد وفاة الإمبراطور طيباريوس سنة ٣٧ م. خلفه غايوس قيصر الملقب بـ«كاليغولا» (٣٧-٤١ م.)، وكان صديقاً لهيرودس أغريبا الأول (١٠-٩ ق.م.-٤٤ م.) حفيد الملك هيرودس الكبير، فولاّه على تترارخية فيليبّس ومنطقة أبيلينة[2] سنة ٣٧ ميلادية. فعصر الحسد قلبي هيرودية وزوجها هيرودس أنتيباس فأقلعا بدورهما إلى روما لاستعطاف كاليغولا. فأمر هذا الأخير بنفي أنتيباس إلى إسبانيا[3] وأعطى تترارخيّته إلى أغريبا الأول سنة ٣٩م. ولما تربع الامبراطور كلوديوس على العرش (٤١-٥٤ م.)، ألغى نظام المحصّلية في اليهودية، وألحق منطقتي اليهودية والسامرة بمملكة أغريبا.

١ - يقدّر عدد اليهود في القرن الميلادي الأول وقبل اندلاع الحرب اليهودية الكبرى بما يزيد عن ٨ ملايين نسمة، كان يعيش ثلثهم فقط في فلسطين. أما الباقون، أي يهود الشتات، فقد توزّعوا تحت كل سماء. أنظر:

André PAUL, *Le Monde juif à l'heure de Jésus: histoire politique,* Paris, 1981, p. 100.

٢- منطقة من سلسلة لبنان الشرقية. عاصمتها أبيلة، وكانت تقع إلى الشمال من دمشق، وتبعد عنها مسافة ٣٠ كلم تقريباً.

٣- JOSEPHE, *Guerre,* II, ix, 6, § 183.

شجّع الملك أغريبا الأول الثقافة الهلينستية خارج أراضي اليهودية[1]، فسك نقوداً تحمل رسمه أو رسم الامبراطور، ظهر على بعضها عبارة «محبّ قيصر» أو «محبّ الروم» وزيّن قصره في قيصرية بالتماثيل. أما في أورشليم فلم يشأ أن تحمل النقود المسكوكة أي رسم، احتراماً منه لسُنَن اليهود ومشاعرهم. وقد جعل من تلك المدينة مقرّه العادي، وظهر فيها بمظهر الملك اليهودي المحافظ. وكان يدافع عن اليهود وتقاليدهم خارج حدود مملكته.

نظر أغريبا الأول في أمر الجماعة المسيحية إرضاءً لليهود، وخاصةً الفرّيسيين منهم، فاضطهد كنيسة أورشليم وأمر بقطع رأس يعقوب بن زبدى، تلميذ يسوع وشقيق يوحنا. كما قبض على سمعان بطرس وزجّه في السجن[2]. وتؤكد تلك الأعمال تصاعد المدّ الأصولي في المجتمع اليهودي وتزايد الاهتمام لدى هؤلاء بقمع جميع العناصر التي تخالف السُنن اليهودية.

ثانياً- عبادة الأباطرة وانتفاضة اليهود في الاسكندرية وفلسطين

رغب كاليغولا في أن تكرّمه شعوب أمبراطوريته كإله يُعبد ويُهتف له بهذا الاسم[3]. فكان ذلك من الأسباب الرئيسة التي أدّت إلى حصول اضطرابات في الاسكندرية بين الجالية اليهودية واليونانيين. فقد ادّعى الأخيرون أن جميع الرعايا في الامبراطورية يشيدون المذابح والمعابد للإمبراطور، ويظهرون له في كل مكان الإكرام الواجب للآلهة، باستثناء اليهود[4]. رُفعت المسألة لينظر فيها الإمبراطور كاليغولا، فأرسل كل فريق وفداً للدفاع عن قضيته. وكان على رأس الوفد اليهودي الفيلسوف فيلون الإسكندري. ويبدو أن الامبراطور كان مستاءً جداً من الاتهامات الموجهة ضدّ اليهود لدرجة أنه رفض الاستماع للدفاع المقدم من فيلون وصَرَفه من حضرته[5].

١- Bo REICKE, *The New Testament Era,* p. 200.

٢- رسل ١٢: ١-٤.

٣- JOSEPHE, *Guerre,* II, x, 1, § 185.

٤- JOSEPHE, *Ant. Jud.,* XVIII, viii, 1, § 257-258.

٥- *Ibid.,* XVIII, viii, 1, § 260.

وكان اليونانيون قد شيّدوا سنة ٣٨م. مذبحاً لكاليغولا جوبيتر في مدينة يمنة الملحقة بأراضي الإمبراطور، فهاج اليهود ودمّروا المذبح[1]، لأن شريعتهم وسنن آبائهم تمنعهم من وضع صورة لله أو لأيّ إنسان، سواء أكان ذلك في الهيكل أم في أيّ موضع آخر من بلادهم[2]. فاغتاظ كاليغولا وعَدَّ تمتّع الشعب اليهودي وحده عن عبادته احتقاراً له. فعيّن بترونيوس والياً على سوريا مكان فيتاليوس، وأمره بالدخول مع جيوشه إلى اليهودية ووضع تمثال للإمبراطور في هيكل أورشليم، وسحق اليهود إذا عصوا أوامره. فأوكل الوالي أمر صناعة التمثال إلى حرفيين من صيدا. فتوافد عشرات الألوف من اليهود إلى طبرية للاحتجاج أمام بترونيوس قائلين إنه إذا رغب بإكمال مهمّته «فعليه أن يذبح الأمة اليهودية بكاملها، لأنهم سيقدمون أنفسهم ذبيحة مع نسائهم وأطفالهم»[3]. تباطأ بترونيوس بتنفيذ أوامر الإمبراطور بعد أن أبلغه مخاوفه بأن اليهود يستعدّون للثورة ضد روما[4]، فغضب كاليغولا على بترونيوس بسبب تردّده وعدم تنفيذه التعليمات الصادرة إليه، وأمره بالانتحار. ولكنّ اغتيال كاليغولا في مطلع سنة ٤١ م. أنقذ بترونيوس واليهود معاً.

وفي عهد الامبراطور كلوديوس تجددت الاضطرابات في الاسكندرية بين اليهود واليونانيين. فقد تشجّع اليهود الذين لاقوا الذلّ في عهد كاليغولا وتعرّضوا لسوء المعاملة من سكان الاسكندرية، فاحتكموا إلى السلاح. فأصدر كلوديوس إلى حاكم مصر أمراً بقمع هذه الثورة[5]، كما أصدر براءتين منح بموجبهما يهود الاسكندرية واليهود المقيمين في أنحاء الإمبراطورية حقّ المحافظة على سُنن آبائهم، شرط ألاّ تفضي محافظتهم على شرائعهم إلى الازدراء بمعتقدات الشعوب الأخرى[6].

تعليقاً على الأحداث المذكورة أعلاه، نشير إلى أن فرض عبادة الأباطرة

١- Bo REICKE, *The New Testament Era,* p. 196.

٢- JOSEPHE, *Guerre,* II, x, 4, § 195.

٣- *Ibid,* II, x, 4, § 197.

٤- JOSEPHE, *Ant. Jud.,* XVIII, viii, 8, § 302.

٥- *Ibid.,* XIX, v, 2, § 278.

٦- *Ibid.,* XIX, v, 3, § 290.

على اليهود يشكّل بحدّ ذاته حافزاً للثورة، والحرب المكابية هي برهان على صحة هذا الرأي. غير أن لجوء يهود الاسكندرية إلى حمل السلاح لم يحصل في عهد كاليغولا، بل في عهد الإمبراطور كلوديوس[1]، أي بعد زوال الحافز الداعي إلى التمرّد والثورة، ما يجيز الافتراض بأن تمرّد يهود الاسكندرية ينطلق من وعيهم إلى وجودهم في خضمّ الزمن المشيحي. والدليل على ذلك ما رواه يوسيفوس عن حادثة حصلت في عهد نيرون بين اليهود وأهل الاسكندرية، وتزامنت مع انتشار الفوضى والاضطرابات في فلسطين. قال يوسيفوس ما معناه ان سكان الاسكندرية كانوا يعقدون اجتماعاً في مدرّج المدينة بخصوص إرسال بعثة إلى نيرون، وصادف أن دخل عدد من اليهود مع أخصامهم اليونانيين إلى ذلك المكان في آن معاً؛ فوجّه بعض الحاضرين التهمة الى اليهودَ بأنهم أعداء وجواسيس، ثم هجموا عليهم واشتبكوا معهم بالأيدي. فهرب اليهود، غير أن أخصامهم ألقوا القبض على ثلاثة منهم وقرّروا إحراقهم وهم أحياء. عندها امتشق يهود الاسكندرية السلاح وهبّوا لنجدة إخوانهم، فبدأوا أولاً برمي الحجارة على اليونانيين، ثم تناولوا مشاعل وهرعوا إلى المدرّج وهددوا بإحراق المجتمعين عن بكرة أبيهم. فتدخل والي المدينة، طيبريوس الكسندروس، ودعاهم إلى الهدوء، ولما لم يرتدعوا، وجّه لهم كتيبتين رومانيتين بالاضافة إلى ألفي جندي ليبي صودف وجودهم في الاسكندرية. فهاجم الجنود الحي اليهودي المسمّى «دلتا». وكان اليهود قد تجمّعوا كتلة واحدة ووضعوا في مقدمتهم كل من حمل منهم سلاحاً. لاقى المهاجمون مقاومة من اليهود، لكنهم تمكنوا في النهاية من خرق صفوفهم، وأعملوا السيف في رقابهم غير آبهين بالنساء والشيوخ والأطفال. ومات في تلك المذبحة من اليهود ما يقارب الـ ٥٠ ألفاً[2].

١- أمر الإمبراطور كلوديوس بإبعاد جميع اليهود عن روما (رسل ١٨: ٢). ومن المرجح أنه فعل ذلك بسبب تزايد الأصولية والانعزالية لدى الجالية اليهودية التي يحتمل أن تكون قد تأثرت بالمناخ الاسكاتولوجي السائد في فلسطين. ويدعم هذا الرأي ما أشار إليه كاتب رؤيا يوحنا حين اعتبر خروج اليهود من روما كإحدى المراحل الممهدة للحرب الاسكاتولوجية (رؤ ١٨: ٤-٨).

٢- JOSEPHE, *Guerre,* II, xviii, 7-8.

ثالثاً- الثيرابوتيون والآمال المشيحية

تحدث فيلون الاسكندري في مبحث «الحياة التأملية»[1] عن جماعة معاصرة له من المتزهدين اليهود الذين كانوا يعيشون بجوار مدينة الإسكندرية، في مكان يُشرف على بحيرة مريوط. عُرف هؤلاء باسم «الثيرابوتيين»[2]. وقد تغاضى فيلون عن تحديد الزمن الذي نشأوا فيه، بالرغم من معرفته بتاريخهم، نظراً لتواجدهم بالقرب من المدينة التي عاش فيها. ومن المرجح أن تلك الطائفة نشأت في عصره[3].

زَهَد الثيرابوتيون في الدنيا، فتخلّوا عن أملاكهم وأموالهم إلى أولادهم وأقاربهم وأصحابهم. وانصرفوا دون الالتفات وراءهم، تاركين أحباءهم والبلدان التي عاشوا فيها[4]. وفي سعيهم للتحرر من عالم المادة، استقرّوا في الأماكن المنعزلة، خارج أسوار المدن. وقد أنشأوا أهم مستعمرة لهم بالقرب

١- PHILON, *De Vita,* 1-90.

٢- كلمة «ثيرابوتيين» يونانية الأصل، وهي تتضمن معاني عبادة الله وخدمته بالاضافة إلى المداواة والشفاء، وتتوافق من حيث المعنى الأخير مع كلمة «أسينيين» السامية التي أُطلقت على إخوانهم في فلسطين.

٣- هناك مؤشرات عديدة تدعم هذه الفرضية، منها أن فيلون هو المصدر الوحيد الذي أخبر عن الثيرابوتيين. وقد اعتقد أوسابيوس القيصري (٢٦٥-٣٤٠ م.)، أسقف مدينة قيصرية على ساحل فلسطين، أن ما ذكره فيلون بخصوصهم ينطبق على «مبشّري المسيحية الأوائل». كما ذكر أوسابيوس أن فيلون ألّف كتاب «الحياة التأملية» بعد مدة طويلة من قدومه إلى روما في زمن الإمبراطور كلوديوس. وأكّد أن تسمية «ثيرابوتيين» أطلقت عليهم توافقاً مع نمط حياتهم، أو لأن هذا الإسم أطلق عليهم منذ البدء، حين لم يكن اسم المسيحيين قد شاع استعماله في كل مكان. وأشار أيضاً إلى احتمال «أن تكون كتب الأقدمين لديهم هي ذاتها الأناجيل وأعمال الرسل وعلى الأرجح بعض الشروحات على أسفار الأنبياء القدماء مثل تلك التي تحويها الرسالة إلى العبرانيين والكثير غيرها من رسائل بولس». وبالرغم من أن رأي أوسابيوس القيصري بعيد عن الصحة، خاصةً لناحية افتراضه بأن كتب الثيرابوتيين المقدسة هي ذاتها كتب الجماعة المسيحية الأولى، لكن يُستدلّ من كلامه أنه ما كان ليجرؤ على مماثلة الثيرابوتيين بالمسيحيين الأوائل لو لم يكن على يقين تام بأنهم نشأوا بعد ظهور المسيحية.

أنظر: EUSEBE, *H.E.*, II, 17, 1, 4, 12, 18 et 24.

٤- استقطبت جماعة الثيرابوتيين التي تأسست بالقرب من الاسكندرية يهوداً من فلسطين ومن بلدان الشتات أيضاً.

من مدينة الاسكندرية حيث توجد جالية يهودية كبيرة العدد[1]. في تلك البقعة المنعزلة، عاشوا في منازل بسيطة جداً يحتوي كل منها على غرفة شبيهة بمحراب أو محبسة، لا يُدخل إليها طعام أو شراب، بل كل ما يزيد العلم والتقوى كمالاً، مثل كتب الشريعة والأنبياء والمزامير وغيرها من كتبهم المقدسة.

كانت ملابسهم بسيطة جداً، وهي تتألف من معطف سميك في الشتاء، وقميص من الكتان في الصيف. عاش هؤلاء حياة زهد وتقشف، فكانوا يكتفون بالقليل من القوت الذي يتألف عادة من الخبز مع الملح الممزوج بالزوفا. وكان شرابهم من ماء النبع. ولم يكن أيّ واحد منهم يتناول طعاماً أو شراباً قبل مغيب الشمس، لأن حاجات الجسد بنظرهم جديرة بالظلام. وكان البعض منهم يتغاضى عن تناول الطعام لمدة ثلاثة أو ستة أيام قبل تناول الطعام الضروري[2].

اعتاد هؤلاء القوم الصلاة مرتين يومياً، عند شروق الشمس وغروبها[3]، فكرّسوا النهار بكامله للتأمل وقراءة كتبهم المقدسة. وكانوا يعكفون أيضاً على تأليف التراتيل والمزامير تكريماً لله، فيمكث كلّ واحد في محبسته مدة ستة أيام. وفي اليوم السابع، أي السبت، كانوا يجتمعون سوية في مكان مخصّص يحتوي على مجموعتين من المقاعد، الأولى لجهة اليمين وهي مخصصة للرجال، والثانية لجهة اليسار وهي مخصصة للنساء، ويوجد بينهما فاصل. فيجلس الرجال وفق تراتبية معيّنة تأخذ بعين الاعتبار أعمارهم وتاريخ انتسابهم. وخلال الاجتماع، يتقدم الرجل الأكبر سناً بينهم والأكثر تمرّساً في العقيدة، فيشرح الكتب المقدسة على ضوء عقيدته.

١- كانت مدينة الاسكندرية آنذاك أهم مدينة في مصر، بالاضافة إلى كونها من أهم الحواضر الهلنستية. وقد أشار فيلون إلى أنها كانت تتألف من خمسة أحياء، وكان اليهود يشكّلون أغلبية السكان في اثنين منها.

PHILON, *In Flaccum,* 55; Cf. *The Works of Philo,* translated by C. D. YONGE, USA, 1997, p. 729.

٢- PHILON, *De Vita,* 34-35.

٣- *Ibid.*, 27.

اعتبر الثيرابوتيون اليوم السابع مقدساً ومميّزاً. فكانوا في السبوت يدهنون أجسادهم بالزيت[1]. ولم يكن العدد سبعة فقط مثار إعجابهم، بل أيضاً مربّع هذا العدد، وهو حاصل جمع مربعات أضلع المثلث قائم الزاوية[2]. انه تمهيد لعيد كبير يقع كل خمسين يوماً.

وكانوا، في ذلك العيد، يجتمعون باللباس الأبيض[3]. وبعدما يغمر المكان سكون عظيم، يشرع الرئيس في شرح آيات من الكتب المقدسة أو إيضاح المسائل الغامضة التي يعرضها عليه أحدهم. ثم يبدأ بالتعليم فيطيل الكلام شارحاً المعاني المجازية الكامنة في النصوص المقدسة. وينهي كلامه بترتيل مزمور موجّه لله. ثم يقوم من هم دونه رتبة، فيرتّلون بعض المزامير. أما الآخرون فيترقّبون بصمت كبير حتى يحين موعد ترديد اللازمة، حينها ترتفع أصوات النساء والرجال معاً. وبعد الانتهاء من ترتيل المزامير، يصطفون بانتظام حول المائدة المقدسة. وكانت النساء، ومعظمهنّ من العذارى المتقدمات في السن، يشتركن أيضاً في تلك الولائم. وكان الطعام يتألف من الخبز والملح الممزوج بالزوفا. ولم تكن الخمرة تُقدّم خلال تلك المأدبة بل المياه العذبة فقط[4].

بعد الانتهاء من المأدبة المقدسة، كانوا يحتفلون طوال الليل بترتيل المزامير، فينشدون ويرقصون. ثم تختلط جوقتا الرجال والنساء، فتشكلان معاً جوقة واحدة. ويذكر فيلون أنه خلال ذلك الاحتفال كان يتكرر ما حصل في الماضي عند ضفاف البحر الأحمر، عندما صار البحر بقرار من الله خلاصاً للبعض وفناءً للآخرين. فقد انحسرت المياه وارتفع في كلا الجهتين سور صلب،

١- PHILON, *De Vita*, 36.

٢- كان المثلث قائم الزاوية مقدساً ومشهوراً في ذلك الزمن خاصةً عند الفيثاغوريين والمصريين، وكان يبلغ طول أضلعه على التوالي: ٣ و ٤ و ٥ وحدة قياس. ويبلغ حاصل جمع مربع هذه الأضلع الخمسين، أي (٣×٣) + (٤×٤) + (٥×٥) = ٩ + ١٦ + ٢٥ = ٥٠. هذا الرقم هو مقدّس أيضاً لدى جماعة قمران، بحيث أشار «نظام الجماعة» إلى «سمو قداسة الحرف ن» الذي يساوي ٥٠ وفق حساباتهم (1QS, X, 4).

٣- PHILON, *De Vita*, 65-66.

٤- *Ibid.*, 81.

وصارت المسافة الفاصلة درباً طويلاً عَبَره الشعب اليهودي سيراً على الأقدام نحو الشاطئ المقابل. أما أعداؤهم فماتوا غرقاً. وبعد أن يتذكر الثيرابوتيون ذلك الحدث الذي يفوق إدراكهم وتصوراتهم، وبعد أن يكونوا قد امتلأوا حماساً، يشكّل الرجال والنساء جوقة واحدة، ويبدأون بترتيل المدائح إلى الله مخلّصهم حتى الصباح. ثمّ يوجّهون أبصارهم نحو الشرق. وحين تشرق الشمس، يرفعون الأيدي نحو السماء سائلين بالصلاة يوماً سعيداً. وبعد ذلك يعود كل واحد إلى محبسته الخاصة لكي يمارس فلسفة التأمل التي اعتاد على ممارستها[١].

إن ما ذكره فيلون عن الثيرابوتيين، يثبت أن تلك الجماعة كانت تعيش الزمن المشيحي على غرار جماعة قمران المعاصرة لها، خاصةً في ما يتعلق بمشهد عبور بني اسرائيل البحر الأحمر بقيادة النبي موسى الذي حقق لشعبه الخلاص، فحرّره من عبودية فرعون. ويرمز تكرار هذا المشهد إلى رغبة الثيرابوتيين بالتحرر من سيادة الوثنيين، وبالتالي فإنه يندرج ضمن إطار الزمن المشيحي.

لذلك يُرجّح أن يكون الهدف من استقرار الثيرابوتيين على مقربة من الاسكندرية، هو التأثير على الجالية اليهودية الكبيرة العدد في تلك المدينة، عن طريق الإيحاء لها باقتراب موعد مجيء المسيّا، بغية أن تقوم تلك الجالية، في الوقت المناسب، بدعم المعركة الاسكاتولوجية التي كان يتمّ الاستعداد لها سرّاً في فلسطين، والهادفة إلى تحرير أورشليم والشعب اليهودي من سيطرة الأغراب.

رابعاً- الانتفاضة اليهودية في بلاد ما بين النهرين

روى يوسيفوس في كتاب «العاديات اليهودية» أخبار الانتفاضة اليهودية في بلاد ما بين النهرين[٢] التي حصلت في بداية العقد الخامس من القرن الميلادي الأول، وما نتج عنها من ويلات ومصائب على الجالية اليهودية في

١- PHILON, *De Vita,* 85-89.
٢- JOSEPHE, *Ant. Jud.,* XVIII, ix, 1-9.

تلك البلاد. ومفاد ذلك أن مدينتي نارادا (Narada) ونصيبين (Nisibis) كانتا موقعين حصينين على الفرات بفضل أسوارهما الشاهقة وما وفّرته لهما الطبيعة من الحماية. وكان اليهود في تلك البلاد قد اعتادوا على وضع كنوزهم في المدينتين المذكورتين، بما في ذلك التقدمات والأموال المكرّسة للهيكل التي كان يتم نقلها إلى أورشليم بحراسة مشدّدة خوفاً من تعدّي اللصوص.

في ذلك الزمن، قام شقيقان يهوديان من مدينة نارادا وهما «أنيلايوس» و«أسينايوس»، ورحلا إلى منطقة نائية، تتكاثر فيها المستنقعات، وتقع بين نهري دجلة والفرات. فجمعا حولهما عدداً من الأنصار، وشيّدا حصناً وتسلّطا على أهل الجوار. وكانت بلاد ما بين النهرين خاضعة سياسياً للبرثيين، فجرّد حاكمها جيشاً للقضاء على الشقيقين وأنصارهم فلاقى شرّ الهزيمة. ووصل الخبر إلى أرطبان، ملك البرثيين، فكتم غيظه وأرسل يدعو الشقيقين إلى بلاطه بغية كسب ودّهما. فلما حضرا، كلّف ملك البرثيين أسينايوس إعادة الهدوء إلى بلاد ما بين النهرين وتطهيرها من اللصوص، ريثما يتمكن من إخماد حركات العصيان والتمرد التي ظهرت في باقي أنحاء مملكته.

ثم مات أسينايوس، فآلت السلطة المطلقة إلى يد شقيقه أنيلايوس الذي جرّد حملات عسكرية على بعض القرى الخاضعة لمترداتس، وهو أحد الأشراف البرثيين وصهر الملك أرطبان، وشرع في نهبها، فغنم الكثير من الأموال والعبيد والماشية. فجمع مترداتس جيشاً لمحاربة أنيلايوس، لكنه فشل ووقع أسيراً في قبضة هذا الأخير الذي عاد فأطلق حريته خوفاً من قيام ملك البرثيين بالانتقام من يهود بلاد ما بين النهرين. فلما استعاد مترداتس حريته جهّز جيشاً للانتقام من خصمه فتمكّن من الانتصار عليه وقتل عشرات الألوف من أتباعه.

عزّز أنيلايوس جيشه المهزوم بالمزيد من المحاربين، وراح يغزو الدساكر في جنوبي بلاد ما بين النهرين محدثاً فيها خراباً كبيراً. فضغط أهل الحرب وسكان المناطق المجاورة لنارادا على يهود تلك المدينة وأرسلوا إليهم وفداً دعاهم للوساطة مع أنيلايوس من أجل تحقيق السلام، فوافق اليهود وانتدبوا عدداً منهم لمرافقة الوفد. فلما تسرّب خبر المكان الذي يتحصّن فيه أنيلايوس

إلى أخصامه، هجموا عليه ليلاً وقتلوه مع عدد كبير من أنصاره.

بعد القضاء على أنيلايوس وجيشه، ضعفت هيبة اليهود في بلاد ما بين النهرين وصاروا عرضة للهجوم من قبل مواطنيهم، فارتحل قسم منهم إلى مدينة سلوقية[1] التي كان يقطنها عدد كبير من اليونانيين والسريان. وكان هؤلاء على خلاف دائم فيما بينهم. فلم جاء اليهود إلى تلك المدينة، اتفق اليونانيون مع السريان على المصالحة، وأثبت الطرفان اتفاقهما بهجوم مفاجئ على اليهود، فحصلت مجزرة قُتل فيها خمسون الفاً من اليهود. وهرب من تبقّى منهم إلى مدينة قطيسفون الواقعة على الضفة اليسرى لنهر دجلة مقابل سلوقية، كما تجمّع القسم الأكبر من يهود بلاد ما بين النهرين في مدينتي نارادا ونصيبين نظراً لموقعهما الحصين.

يُستنتج مما ذُكر أعلاه، نشوء حركة عصيان وتمرّد بين جماعة من يهود الشتات في جنوبي بلاد ما بين النهرين، دفع بهم إلى امتشاق السلاح بغية الانتقال من العبودية إلى التحرر وممارسة السلطة. وقد استغرقت تلك الانتفاضة ما ينوف عن إحدى وعشرين سنة[2]، وهي حصلت خلال الحقبة الممهّدة لاندلاع الحرب اليهودية الكبرى، أي الفترة التي كان الثوار اليهود في فلسطين يأملون فيها من بني جنسهم القاطنين فيما وراء نهر الفرات أن يثوروا معهم[3].

خامساً- الفتنة في فلسطين في زمن المحصلية الثانية

عند وفاة الملك هيرودس أغريبا الأول، كان ابنه أغريبا الثاني[4] لا يزال في السابعة عشر من العمر. فرغب الامبراطور كلوديوس بإعادة نظام المحصّلية

١- أسس سلوقس الأول نيكاتور (٣١٢-٢٨٠ ق.م.) مدينة «سلوقية» على الضفة الغربية لنهر دجلة، جنوبي مدينة بغداد.

٢- JOSEPHE, *Ant. Jud.*, XVIII, ix, 4 et 8, § 339, 373.

٣- JOSEPHE, *Guerre*, Préambule, 2, § 5.

٤- وُلد هيرودس اغريبا الثاني سنة ٢٧ ب.م. عيّنه الأمبراطور كلوديوس ملكاً على خلقيس (عنجر) سنة ٤٨ م، فاستبدل أراضي مملكته سنة ٥٣ بتترارخية فيليبّس. وبسبب اخلاصه للامبراطورية الرومانية، وسّع الامبراطور نيرون حدود مملكته سنة ٥٦ م. فأعطاه بعض المدن الكائنة في منطقتي بيرة والجليل. وقد ظلّ أغريبا الثاني وفياً لروما خلال الحرب اليهودية الكبرى.

إلى فلسطين. فشمل هذا النظام اليهودية والسامرة والجليل[1].

تميّز عهد المحصّليّة الثانية بتفاقم أعمال الشغب والفوضى في أنحاء فلسطين، وازدياد نشاط الزيلوت، وتعاظم العداء بين اليهود والوثنيين، فمهّدت تلك الحقبة لاندلاع الحرب اليهودية ضد الرومان[2].

ولا بدّ من تعداد أهم الحوادث التي حصلت خلال تلك الفترة كما رواها المؤرخ اليهودي يوسيفوس.

١ - عهد كسبيوس فادوس

عُيّن كسبيوس فادوس (Cuspius Fadus) محصّلاً على فلسطين، فمارس السلطة بين سنتي ٤٤ و ٤٦. من أهم الأحداث التي حصلت في عهده ما يلي:

- حصول صراع دموي بين يهود منطقة بيرة وسكان مدينة فيلادلفيا[3] سببه الخلاف حول حدود بلدة تدعى «زيا».

- القبض على طولومايوس، وهو رئيس عصابة من قطاع الطرق، أحدث أشدّ الضرر في منطقة أدوم وبلاد العرب. فأمر المحصل فادوس بقتله وبتطهير منطقة اليهودية من اللصوص[4].

- روى يوسيفوس حدثاً يندرج ضمن إطار الزمن المشيحي، ومفاده أن «توداس» أقنع جماعة كبيرة من اليهود باللحاق به مع أموالهم إلى نهر الاردن، زاعماً أنه نبي، وبإمكانه أن يأمر مياه النهر فتنشقّ لتؤمّن ممراً سهلاً. فتبعه جمهور غفير. لكن المحصّل الروماني قبض على «توداس» وقتله بعدما فتك بالكثير من أتباعه[5].

وما يُلفت النظر في تصرّف «توداس»، أنه دعا الناس إلى اللحاق به مع أموالهم، تماماً كطالبي الدخول في جماعة قمران الذين كان يُفرض عليهم تقديم أموالهم وممتلكاتهم إلى المفتش المسؤول عند انخراطهم في الجماعة.

١- Bo REICKE, *The New Testament Era,* p. 202.

٢- *Ibid.*, p. 203.

٣- فيلادلفيا هي الأسم القديم لمدينة عمان، عاصمة المملكة الاردنية الهاشمية.

٤- JOSEPHE, *Ant. Jud.*, XX, i, 1, § 1-5.

٥- Ibid., XX, v, 1, § 97-99.

أضف إلى ذلك أن الزمن الذي ادّعى فيه توداس النبوّة، يتوافق مع ترقّب الأسينيين لمجيء النبي[1] الذي يبدو ظهوره، في الفكر الديني اليهودي، علامةً لمجيء المسيّا.

٢- عهد طيباريوس الكسندروس

طيباريوس الكسندروس هو يهودي من مدينة الاسكندرية. استلم مهام المحصّلية بين سنتي ٤٦ و ٤٨ م. ويُعرف عنه أنه لم يحافظ على الوفاء لدين آبائه.

تمكن طيباريوس، خلال تولّيه مهمة المحصّلية، من اعتقال يعقوب وسمعان ابني يهوذا الجليلي، فأمر بصلبهما[2]. ومن المعروف أن يهوذا الجليلي هو مؤسس حزب الزيلوت. وكان قد حرّض الشعب على الثورة ضد روما سنة ٦ م. بسبب الإحصاء الضرائبي. ويظهر أن يعقوب وسمعان تابعا سياسة والدهما في التحريض على الثورة ضد الرومان، بدليل أن شقيقهما مناحيم تولّى الزعامة بعدهما، فكان من أبرز الزعماء الأصوليين عند اندلاع الحرب اليهودية، كما سنرى لاحقاً.

٣- عهد فنتيديوس كومانوس

في عهد المحصّل فنتيديوس كومانوس (٤٨-٥٢م)، حصلت فتنة في مدينة أورشليم قُتِل فيها عدد كبير من اليهود. فقد تجمع منهم جمهور غفير للاحتفال بعيد الفصح. وخوفاً من حصول اضطرابات، أمر كومانوس مفرزة من جنوده بحمل السلاح والتمركز قرب أبواب الهيكل لقمع كل عصيان قد يحصل. ويبدو أن أحد الجنود الرومان كشف عن عورته أمام الجمهور، فاغتاظ اليهود الذين رأوه، واعتبروا ذلك إهانة موجهة لشعبهم. فشتم أحدهم كومانوس زاعماً أنه هو الذي وضع الجندي هناك. فلما عَلِم كومانوس بذلك غضب غضباً شديداً، وأمر الجنود بامتشاق السلاح والتوجّه إلى قلعة

١- 1QS, IX, 11.

٢- JOSEPHE, *Ant. Jud.*, XX, v, 2, § 102-103.

«انطونيا» التي تشرف على الهيكل. فخاف اليهود من تأهب الجنود، وتدافعوا للهرب عبر شوارع أورشليم الضيّقة، فمات منهم عدد كبير سحقاً تحت الأقدام، وتحوّلت بهجة العيد إلى حِداد[1].

وبعد فترة قصيرة، حلّت مصيبة أخرى في أورشليم، عندما قام بعض الداعين إلى الثورة بشنّ هجوم على موكب اسطفانوس، عبد الامبراطور، فجرّدوه من مقتنياته[2]. وقد أطلق يوسيفوس على هؤلاء صفة قطاع طرق ولصوص. غير أنهم كانوا من الثوار الزيلوت الذين رغبوا في التحرر من أسيادهم الرومان، فبدأوا بشنّ حرب عصابات عليهم داعين الشعب اليهودي إلى التمرّد والثورة.

وروى يوسيفوس حادثة حصلت بين اليهود والسامريين في عهد المحصّل كومانوس. فقد كان من عادة الجليليين اليهود أن يعبروا بلاد السامرة عند ذهابهم إلى أورشليم في زمن الأعياد. وفيما كانوا في الطريق، اشتبكوا مع سكان بلدة تدعى «غيناي»، وهي تقع بالقرب من تخوم بلاد السامرة والسهل الكبير، فقُتل عدد من اليهود. فلما وصل الخبر إلى رفاقهم الذين سبقوهم، جاؤوا إلى كومانوس وسألوه الثأر للذين قُتلوا بدون وجه حق، فأهمل طلبهم. عندها غضب الجليليون، فدعوا الجموع للاحتكام إلى السلاح وتأييد قضيتهم في الحرية. حاول رؤساؤهم تهدئتهم، ووعدوهم بإقناع كومانوس بالثأر للضحايا، لكنهم لم يصغوا إليهم. فامتشقوا السلاح وطلبوا المساعدة من بعض زعماء الجماعات الأصولية مثل أليعازر بن ديناوس واسكندر، فنهب هؤلاء بعض قرى السامريين وأحرقوها وقتلوا سكانها[3]. فلما عَلِم كومانوس بما حصل، شنّ حملةً على الثوّار اليهود ففتك بعددٍ منهم. فلما رأى أعيان أورشليم خطورة الوضع لبسوا المسوح وحثوا الرماد على رؤوسهم، ورَجَوْا الثوّار بكافة الطرق للرجوع عن مخطّطهم وإلقاء السلاح والعودة إلى منازلهم بكل هدوء، بعدما رأوا في الحالة ما ينذر بزوال بلادهم وتدمير الهيكل

١- JOSEPHE, *Ant. Jud.*, XX, v, 3.

٢- *Ibid.*, XX, v, 4.

٣- JOSEPHE, *Guerre*, II, xii, 4, § 235.

وخضوعهم للعبودية مع نسائهم وأولادهم. فأقنعت هذه الأقوال الثائرين، فتفرّقوا، وانسحبوا إلى أماكنهم الحصينة. ومنذ ذلك الوقت تعرّضت اليهودية بكاملها لغزواتهم وأعمالهم اللصوصية.

وأضاف يوسيفوس أن وجهاء السامرة ذهبوا لمقابلة اوميديوس كوادراتوس، والي سوريا الذي كان يقيم آنذاك في صور، فاتهموا اليهود بحرق قراهم ونهبها. وادّعوا أن أخصامهم قاموا بذلك كما لو أن الرومان ليسوا أسياداً لهم. فلما جاء كوادراتوس إلى السامرة، تحقّق من أن السامريين هم الذين تسبّبوا بالفتنة. ولكن عندما علم أن بعض اليهود فكّروا بالثورة، أمر بصلب الذين اعتقلهم كومانوس. ثم انتقل إلى بلدة تُدعى لدّة، فجلس على كرسي القضاء واستمع ثانية إلى السامريين. فأخبره أحدهم أن دورتوس وأربعة غيره من الثوّار اليهود، دعوا الشعب لعصيان روما. فأمر كوادراتوس بقتلهم، كما أرسل كبير الكهنة حنانيا وآخرين غيره الى روما وهم مكبّلين بالسلاسل، لتبرير موقفهم أمام الامبراطور كلوديوس[1].

يتضح، مما ذُكر أعلاه، وجود مناخ عصيان وثورة في المجتمع اليهودي في فلسطين ضد الاحتلال الروماني. فقد شعر الجليليون بمرارة العبودية، فدعوا جموع اليهود، ليس فقط من أجل الثأر لقتلاهم، بل أيضاً لتأييد قضيتهم في الحرية؛ واحتكموا إلى السلاح دون استئذان السلطات الرومانية، ما يعني رفضهم لسيادة المحتلّ. إضافة إلى ذلك، فقد التمسوا مساعدة أليعازر بن ديناوس، وهو أحد الثوار الغيورين على الشريعة والخارجين على طاعة الرومان. وكان هذا الأخير قد تحصّن منذ سنوات عديدة مع أنصاره في الجبال العاصية، تماماً كما فعل المكابيون في بداية ثورتهم ضد السلوقيين دفاعاً عن الشريعة الموسوية. وقد سُرَّ أليعازر المذكور بطلب الجليليين مساعدته لهم، فالسامريون يندرجون في لائحة أعداء بني إسرائيل في حرب آخر الأزمنة، لأن العداء بين الشعبين هو عداءٌ تاريخي. وهكذا هجم الجليليون بمؤازرة أليعازر على بعض قرى السامرة فأحرقوها ونهبوها.

١- JOSEPHE, *Ant. Jud.*, XX, vi, 1-3.

٤- عهد انطونيوس فيليكس

عَيَّن الامبراطور كلوديوس محصّلاً جديداً على اليهودية والسامرة والجليل وبيرة يُدعى «أنطونيوس فيليكس» (٥٢-٦٠م). تدهور الوضع الأمني في فلسطين في عهد هذا الأخير، وامتلأت بلاد اليهودية «**بقطّاع الطرق والدجالين** الذين يخدعون الشعب»[١]. وكان فيليكس يقبض يومياً على عدد كبير من منهم. وقد تمكن من ألقاء القبض على أحد زعمائهم ويدعى اليعازر بن ديناوس. وورد خبر القاء القبض عليه في كتاب «الحروب اليهودية» على الشكل التالي:

«ألقى [فيليكس] القبض على أليعازر، وهو رئيس عصابة من قطاع الطرق، **كان يخرّب البلاد منذ عشرين سنة**، كما ألقى القبض على عدد كبير من أتباعه، وأرسلهم إلى روما. أما قطّاع الطرق الذين صلبهم وأهل البلاد المتواطئين الذين عاقبهم، فكان عددهم كبيراً جداً»[٢].

ومن المعروف أن الجليليين كانوا قد استنجدوا بأليعازر بن ديناوس للثأر من السامريين خلال الحوادث التي حصلت في عهد المحصّل كومانوس. وقد جعل يوسيفوس خبر إلقاء القبض عليه في عهد نيرون (٥٤-٦٨م) الذي ثبّت فيليكس محصلاً على بلاد اليهودية. وبما أن أليعازر كان «يخرّب البلاد منذ عشرين سنة» كما ورد في النص أعلاه، فمن المرجّح أن يكون تمرّده على روما حصل في أواخر العقد الرابع من القرن الميلادي الأول.

ويلاحظ ممّا ذُكر أعلاه أمر في منتهى الأهمية، وهو كثرة عدد الدجالين الذين يخدعون الشعب. ولا ريب أن هؤلاء كانوا يبشّرون بدنو زمن الخلاص من عبودية روما، وأن هذا الخلاص سوف يتحقق بمجيء المسيّا المنتظر وحصول الدينونة الشاملة.

وقد أشار يوسيفوس إلى ظهور جماعة من الأشرار في أورشليم، عُرِف

١- JOSEPHE, *Ant. Jud.*, XX, viii, 5, § 160-161.

٢- JOSEPHE, *Guerre*, II, xiii, 2, § 253.

أتباعها باسم «الاسخريوطيين»[1]. وكان هؤلاء يغتالون أعداءهم في وضح النهار، وفي وسط شوارع المدينة، فيختلطون بالجموع وهم يُخفون تحت ثيابهم خناجر صغيرة لطعن أعدائهم بها. وكان القاتل، عند سقوط ضحيّته، يشارك الجموع سخطهم، فيكسب ثقتهم ويتعذّر امساكه. وقد قتلوا في بداية الأمر الكاهن الأكبر يوناثان، واغتالوا الكثير غيره فيما بعد[2]. وكان كل يوم يحمل معه خبر جريمة. فصار الخوف أسوأ من الشر بحدّ ذاته. وانتظر كل واحد الموت في كل لحظة كما في الحرب[3].

وقد تحدث يوسيفوس أيضاً عن ظهور جماعة من المنافقين الكثيري التطواف، الذين كانوا يسعون إلى الفتنة «تحت غطاء الوحي الالهي». فقد أثار هؤلاء الجماهير «وقادوهم إلى البرية حيث قالوا ان الله سوف يُظهر لهم علامات اقتراب الحرية»[4]. فلما وجد فيليكس في تصرّفهم نذير ثورة، أرسل وراءهم خيّالة ومشاة مدججين بالأسلحة فقطّعوا عدداً كبيراً منهم إرباً.

تبدو العناصر المكوّنة للزمن المشيحي بوضوح تام في ما ذكره يوسيفوس أعلاه. فسَعي جماعة من اليهود لإحداث فتنة «تحت غطاء الوحي الالهي»، يؤكد إيمانهم بتحقّق نبوءات الأنبياء في عصرهم بالنسبة الى الدينونة الشاملة ومجيء المسيّا؛ كما أن رحيلهم إلى«البرية» متأثر بنبوءة أشعيا حول

١- ذكر يوسيفوس أن الأسخريوطيين سيطروا على قلعة مسعدة خلال الحرب اليهودية الكبرى (JOSEPHE, *Guerre,* IV, vii, 2, § 400). وبما أن تسلسل الأحداث، خلال تلك الحرب، يؤكد أن مناحيم بن يهوذا الجليلي، زعيم حزب الزيلوت، هو الذي شنّ هجوماً مباغتاً في بداية الحرب على الحامية الرومانية في قلعة مسعدة واستولى عليها، وأن هذه القلعة ظلّت تحت سيطرة أنصاره من الزيلوت الذين قادهم أليعازر بن جائير بعد مقتل مناحيم سنة ٦٦. فمن المرجّح إذاً أن يكون الأسخريوطيون من الزيلوت الأشدّ تطرفاً.

٢- جرى اغتيال عدد من كبار الكهنة خلال الحرب اليهودية، ومنهم حنانيا بن نيدبا، وحنان بن حنان، ويشوع بن غملائيل وغيرهم. ويبدو أن التهمة الرئيسة التي وجّهت ضدهم هي التعاطف مع الرومان. ويتوافق اغتيال كبار الكهنة على يد الأصوليين اليهود مع العداء الذي يكنّه أصحاب مخطوطات البحر الميت لكهنة أورشليم، ما يؤكد توافق مميزات مخطوطات البحر الميت مع السياق التاريخي العائد للحرب اليهودية الكبرى.

٣- JOSEPHE, *Guerre,* II, xiii, 3.

٤- *Ibid.,* II, 13, 4.

إعداد الطريق ليهوه[1]. هذا الإعداد لطريق الرب في البرية، يقع في سياق التحضير لحرب مقدسة كما رأينا سابقاً. وقد شارك في هذا الاعتقاد العديد من الجماعات اليهودية المعاصرة لتلك الأحداث، ومنهم الأسينيون. وكان هؤلاء جميعاً على يقين أن الحرب المقدسة التي كانوا يستعدّون للاشتراك فيها، ستحقق الخلاص والحرية لأبناء شعبهم.

وفي سياق الحديث عن تلك الفترة المضطربة من تاريخ فلسطين، روى يوسيفوس خبر «النبي المصري» الدجّال الذي ظهر في أورشليم حوالى سنة ٥٧. فقد ادّعى النبوة، وجمع حوله عدداً كبيراً من الأنصار، وانطلق بهم من البرية إلى جبل الزيتون. وكان ينوي الزحف على اورشليم ويستولي عليها بالقوة بعد أن يهزم الحامية الرومانية، ثم يملك على الشعب. غير أن فيليكس استبق الهجوم وراح لملاقاته بعدد كبير من الجنود. وخلال المعركة، هرب المصري مع عدد من مناصريه، وقُتل الكثير من أتباعه أو وقعوا في الأسر، وتفرّق الناجون واختبأوا[2].

وقد لُقّب هذا النبي الدجّال بـ«المصري» للدلالة على انتمائه إلى الجالية اليهودية في مِصر حيث نما الشعور أيضاً باقتراب زمن العبور إلى ضفة الحرية كما حصل في أيام النبي موسى. وهو ادّعى النبوّة استناداً إلى (تث ١٨: ١٥). ومن الملاحظ أنه انطلق بأنصاره من «البرية»، تماماً كجماعة قمران، ما يعني أنه كان يعدّ الطريق لمجيء يهوه على غرار عدد من الجماعات الأصولية المعاصرة له. كما أنّ ترقّبه لاستلام السلطة وقيادة الشعب بعد الانتصار على الحامية الرومانية في اورشليم، يؤكد اعتقاد مناصريه بأنه المسيّا المنتظر.

وبعد ذلك بوقت قصير، ظهرت نار الفتنة من جديد. فقد توافق المخادعون وقطاع الطرق على الدعوة للتحرّر، وهدّدوا بالموت كل من ارتضى الخضوع للسيادة الرومانية. ولما تزايد عددهم، توزّعوا فرقاً في البلاد، وغزوا بيوت الوجهاء من المواطنين، فقتلوا أصحابها وأحرقوا القرى. فامتلأت اليهودية

١- اش ٤٠: ٣.

٢- JOSEPHE, *Guere,* II, xiii, 5.

كلّها بجنونهم، وتزايد العنف يوماً بعد يوم[1].

وفي مدينة قيصرية الساحلية وقع خلاف بين اليهود والسريان. فقد ادّعى اليهود ان قيصرية هي مدينة يهودية، وحجّتهم أن الملك هيرودس الكبير الذي بناها هو يهودي. أما أخصامهم، فقد اعتبروا المدينة هلّينية، لأنه لو اراد هيرودس إعطاءها لليهود، لما شيّد فيها تماثيل ومعابد. وتطوّر الخلاف إلى نزاع مسلح بين الفريقين، فتدخّل فيليكس وأرسل عدداً من أعيان الطرفين للمثول أمام الأمبراطور نيرون[2] بغية إعطاء حكمه في هذه المسألة.

وقد حصل هذا النزاع بين سنتي ٥٩ و ٦٠ أي بعد مدة طويلة من بناء مدينة قيصرية على الساحل الفلسطيني[3]. فلماذا انتظر يهود قيصرية كل هذه المدّة ليطالبوا بحقّ إدارة شؤون تلك المدينة؟

لا يُستبعد أن تكون الآمال المشيحية، التي كانت سائدة آنذاك في فلسطين، قد أثرت على مجرى الأحداث التي حصلت في قيصرية، خاصةً وأن تلك الأحداث حصلت قبل سنوات معدودة من اندلاع الحرب اليهودية الكبرى. ومن الملاحظ أن فصول تلك القضية لم تنتهِ عند هذا الحدّ، فقد نظر نيرون قيصر فيها، وقرر منح إدارة شؤون مدينة قيصرية للجالية اليونانية. وقد تزامن هذا القرار مع حصول نزاع جديد في قيصرية بين اليهود واليونانيين ومع اندلاع الحرب اليهودية الكبرى، كما سيأتي تفصيله لاحقاً.

٥- عهد بوركيوس فستوس

تولّى بوركيوس فستوس (٦٠-٦٢ م.) مهام المحصلية في عهد الامبراطور نيرون. ولما وصل إلى اليهودية وجدها في حال يرثى لها لأن قطاع الطرق كانوا «يحرقون وينهبون جميع القرى». وكان عدد الاسخريوطيين قد ازداد كثيراً.

١- JOSEPHE, *Guere,* II, 13, 6.

٢- *Ibid.*, II, 13, 7.

٣- بنى الملك هيرودس الكبير مدينة قيصرية بين سنتي ١٢ و ٩ ق.م في موضع يسمّى برج سطرون، يقع جنوبي مدينة حيفا ويبعد عنها مسافة ٣٠ كلم تقريباً، وذلك بعد أن رمّم البرج وأنشأ مرفأً وشيّد عدداً من الأبنية الفخمة المزيّنة بالنقوش والتماثيل. وقد بنى فيها قصره الفخم الذي صار فيما بعد مقرّاً للمحصّل الروماني.

فأرسل فستوس فوجاً من الخيالة والمشاة ضد الذين خدعهم دجّال كان قد «وعدهم بالخلاص ونهاية الآلام إن تبعوه إلى البرية»[١]. فقُتل الدجّال مع جميع مرافقيه.

وفي رواية ذلك الدجال التي نقلها يوسيفوس، تتكرر بعض مشاهد الحقبة المشيحية، ومنها:

- عدوان على قرى اليهودية قام به عدد من الأصوليين اليهود الذين وصفهم يوسيفوس بأنهم قطّاع طرق ولصوص.
- دعوة اليهود للرحيل إلى البرية التي تشكّل المحطة الأولى في الزمن المشيحي، ويُراد بها الاستعداد ليوم «يهوه» الذي سيتحقق فيه الخلاص من سلطة الأغراب.

٦- عهد لوتشِيوس ألبينوس

تردّت الأوضاع الأمنية في فلسطين كثيراً في عهد المحصّل لوتشيوس ألبينوس (٦٢- ٦٤ م.). روى يوسيفوس أنه عندما وصل ألبينوس إلى أورشليم صرف جلّ اهتمامه من أجل إعادة السلام إلى البلاد، فشنّ حرباً على الأسخريوطيين ونكّل بهم. وفي أحد الأعياد صعد عدد منهم ليلاً إلى المدينة، واعتقلوا أمين سرّ أليعازر، حافظ الهيكل وابن حنانيا عظيم الكهنة. وأرسلوا من يخبر حنانيا أنهم لن يفرجوا عن أمين سرّ أليعازر إلاّ إذا قام بتحرير عشرة رفاق لهم كانوا محتجزين لدى ألبينوس. فحضّ حنانيا ألبينوس على هذا العمل فكان له ما أراد. غير أن ذلك كان مصدر مصائب أعظم. فقد استعمل قطاع الطرق مختلف الأساليب لأسر بعض المقربين من حنانيا، وكانوا لا يحرّرونهم إلاّ بعد مقايضتهم بعدد من الاسخريوطيين. فلما كثر عدد هؤلاء، تشجّعوا وعادوا لتخريب البلاد بأسرها.

وعندما عرف ألبينوس أن غيسيوس فلوروس جاء ليخلفه، أراد أن يُظهر لأهل أورشليم رغبته في القيام بعمل لصالحهم، فجمع الأسرى، وأمر بقتل من يستحق الموت علناً، أما الذين سُجنوا بسبب خطأ بسيط، فقد أطلق

١- JOSEPHE, *Ant. Jud.*, XX, viii, 10.

سراحهم مقابل مبلغ من المال. ففرغت السجون من الأسرى، وامتلأت البلاد من جديد بقطاع الطرق[1]. فكان كل شرير يترأس عصابة من الأشرار، فيعتدون على الموسرين وينهبون أموالهم وأرزاقهم[2].

يتبيّن مما ذُكر سابقاً، أن المؤرخ اليهودي يوسيفوس أراد إلقاء مسؤولية حصول الفوضى والاضطرابات في فلسطين على المحصلين الرومان، بسبب جشعهم وسوء ادارتهم، وأيضاً على الأصوليين اليهود الذين دعوا إلى الثورة ضد الرومان. وكان الثوار ينهبون أملاك الطبقة الموسرة من اليهود، لاعتقادهم أنهم كانوا من المتعاونين مع السلطة الرومانية. أضف إلى ذلك أن حرب آخر الأزمنة التي كانوا يستعدّون لها، تستلزم الكثير من الأموال بغية تجهيز أنصارهم بالأسلحة والتحضير لحرب طويلة الأمد.

وهكذا تزايدت أعمال العنف في فلسطين، وخاصةً في أورشليم. وخيّم على سكان تلك المدينة جوّ من الرهبة ينبئ بالكارثة المقبلة.

١- JOSEPHE, *Ant. Jud.*, XX, ix, 3-5.

٢- JOSEPHE, *Guerre,* II, xiv, 275.

الفصل الثالث

الحرب اليهودية الكبرى

أولاً- اندلاع الحرب

اندلعت الحرب اليهودية الكبرى ضد روما خلال نيسان-أيار سنة ٦٦م في عهد المحصّل غيسيوس فلوروس الذي تولّى مهام المحصلّية بين سنتي ٦٤ و ٦٦م. وقد انطلقت الشرارة التي أشعلت نيرانها من مدينة قيصرية[١] حيث كان لليهود مجمع قائم بالقرب من أرض تخصّ أحد اليونانيين. زعم يوسيفوس أن صاحب تلك الأرض استفزّ المصلّين بإنشائه محلات بمحاذاة الدرب المؤدية إلى المجمع، فحاول بعضهم منعه عن متابعة أعمال البناء. ولما اجتمع اليهود كعادتهم لصلاة السبت، قام أحد الوثنيين من قيصرية مع زمرة من رفاقه بانشاء مذبح بالقرب من مدخل الطريق المؤدية إلى المجمع، وشرعوا بتقديم ذبيحة من الطيور لآلهتهم. فاعتبر اليهود هذا العمل إهانة للشريعة وتدنيساً للمكان المقدّس، واشتبك الطرفان بالأيدي؛ فتدخل الجنود الرومان لهدم المذبح وتهدئة النفوس. وقام اليهود بنقل كتبهم المقدسة إلى قرية «نرباتا» التي تبعد عن قيصرية ٦٠ غلوة، كما ذهب عدد من وجهائهم إلى سبسطية (السامرة) لمقابلة فلوروس وتقديم شكوى. فاعتقلهم فلوروس بسبب إخراجهم كتب الشريعة من قيصرية. ولم يكتف بعمله هذا، بل عمد إلى سحب ١٧ وزنة من كنوز الهيكل[٢]. فاغتاظ يهود أورشليم وتظاهروا احتجاجاً على هذا العمل. وقام بعضهم، تهكماً بفلورس، بجمع صدقة له في سلال. فأثار هذا العمل سخطه، ودخل أورشليم بعسكره فنهب بعض أحيائها وقتل عدداً من الأهالي.

١- JOSEPHE, *Guerre,* II, xiv, 6, § 296.

٢- لعلّ قيام فلوروس بسحب قسم من أموال الهيكل ناتج عن تقاعس الشعب اليهودي عن دفع الجزية المترتبة عليه إلى الإمبراطور. وقد أشار الملك أغريبا الثاني إلى هذا التقاعس وحضّ اليهود على الإسراع بدفع ما يتوجّب عليهم. أنظر: JOSEPHE, *Guerre,* II, xvii, 1, § 405.

ثم طلب فلوروس من رؤساء الكهنة، أن يعدّ الشعب استقبالاً لائقاً لكتيبتين رومانيتين قادمتين من قيصرية، دلالةً على الولاء والطاعة. فأقنع رؤساء الكهنة الجموع باستقبال العسكر الروماني بالتحية، تهدئةً لخواطر فلوروس وحفاظاً على الأمة اليهودية. فلما أدّى اليهود التحية لم يردّ العسكر الروماني عليها بالمثل، كما جرت العادة. فتذمّر اليهود، ووجه بعض المتطرفين منهم شتائم لفلوروس. فهجم الجنود وأعملوا في الجموع ضرباً بالهراوات والسيوف، وتقدّم الخيالة فطاردوا المحتشدين الذين هربوا نحو أحياء أورشليم الداخلية للنجاة بأنفسهم. فمات العديد منهم سحقاً تحت حوافر الخيول أو تحت أقدام بعضهم البعض، وذلك بسبب ضيق الممرات وتدافع الجموع.

إثر هذا الحدث، سيطر الثوار على الهيكل، وهدموا الأروقة التي تصله بقلعة انطونيا، وهي مركز الحامية الرومانية. ففضّل فلوروس الانسحاب إلى قيصرية، تاركاً كتيبة واحدة في أورشليم، ومحمّلاً أعيان الشعب مسؤولية اعادة الأمن والنظام إليها.

في أثناء ذلك، كان الملك أغريبا الثاني في الاسكندرية، فغادرها مسرعاً إلى اورشليم، وطلب من المتمردين العودة إلى الصواب واظهار ولائهم لروما. كما أنذرهم بأن الرومان سينتقمون من الشعب اليهودي ويجعلون منه أمثولة لباقي الأمم. ثم حاول أن يُقنع الشعب بتقديم الطاعة لفلوروس بانتظار قيام نيرون قيصر بتعيين خلف له. لكن جماعة من الثوار شتموا الملك ومنعوه من الإقامة في أورشليم، وتجرّأ البعض منهم على رميه بالحجارة، فعاد إلى مملكته.

بعد ذلك قام حافظ الهيكل أليعازر، ابن الكاهن الأعظم حنانيا[1]، بإقناع الكهنة بعدم قبول التقدمات والذبائح من غير اليهود. وهذا يعني إلغاء الذبائح اليومية التي كانت تُقدّم على نيّة الامبراطور والشعب الروماني، وبالتالي إعلان الحرب على الرومان[2]. فارتفعت أصوات الداعين إلى السلام،

١- هو حنانيا بن ندبيا. تولى رئاسة الكهنوت بين سنتي ٤٧ و٥٩ م.

٢- JOSEPHE, *Guerre,* II, xvii, 2, § 409.

لاقناع المتمردين بالعودة عن هذه الخطوة، لكن دون جدوى. ولما رأى حزب السلام، أي رؤساء الكهنة وأعيان البلاد والمقرّبين من العائلة المالكة، ان جهودهم السلمية لم تعد نافعة، قرروا اللجوء إلى القوة، لقمع الثورة في مهدها. فاتصلوا بالملك أغريبا الثاني الذي مدّهم بألفي فارس[1]. وتمكن حزب السلام من احتلال الأحياء العليا في المدينة، بينما سيطر الثوار على جبل الهيكل والأحياء السفلى. غير أن قوّات حزب السلام عادت وتراجعت أمام زحف الجماهير الغاضبة التي أضرمت النيران في عدد من المباني، ومنها قصري الملك أغريبا الثاني وشقيقته بيرينيس، بالإضافة إلى دائرة المحفوظات العامة حيث تسجّل الديون، وذلك طمعاً في انحياز الفقراء إلى جانب دعاة الثورة بعد تحرّرهم من الديون المتوجبة عليهم لصالح الأغنياء.

احتل الثوار قلعة انطونيا في منتصف شهر آب سنة ٦٦م. ثم حاصروا قصر الملك هيرودس الكائن بمحاذاة السور الغربي للمدينة والذي تحصّن فيه فرسان الملك أغريبا وفلول العسكر الروماني، كما لجأ إليه عدد من كبار الكهنة والأعيان.

وكان مناحيم بن يهوذا الجليلي قد أغار على مخازن الأسلحة في حصن مسعدة الذي شيّده الملك هيرودس الكبير، فنهبه وسلّح أنصاره ودخل أورشليم كأنه ملك فصار زعيم الثورة[2]. ثم شدّد مناحيم الحصار على قصر هيرودس، فآثرت قوات أغريبا الاستسلام. أما القوات الرومانية فتحصّنت في ثلاثة أبراج من القصر. وعثر الثوار على الكاهن الأكبر حنانيا مع شقيقه حزقيا مختبئين في موضع من القصر فقتلوهما.

ثمل مناحيم من نشوة الانتصار إثر سقوط بعض المواقع الحصينة بيده وبعد مقتل الكاهن الأكبر، فتصرّف كزعيم مستبد وصعد إلى الهيكل لابساً رداء الملوك برفقة عدد من أنصاره المسلّحين، فترصّدهم أنصار أليعازر، حافظ الهيكل، وانقضّوا عليهم فقتلوا عدداً منهم؛ غير أن بعضهم تمكن من الفرار إلى حصن مسعدة، ومنهم أليعازر بن جائير نسيب مناحيم. وكان

١- JOSEPHE, *Guerre,* II, xvii, 4, § 421.

٢- *Ibid.*, II, xvii, 8, § 433-434.

مناحيم قد اختبأ في محلّة تدعى «عوفل». فلما عثر عليه أنصار أليعازر، عذّبوه وأهانوه ثم قتلوه.

بعدما سُدَّت ابواب الفرج بوجه الجنود الرومان الذين تحصّنوا في أبراج قصر هيرودس، فاوضوا الثوار بخصوص استسلامهم والقاء أسلحتهم مقابل الحفاظ على حياتهم، فوافقوا على ذلك. لكن ما إن تخلّى الرومان عن أسلحتهم وابتعدوا قليلاً خارج أسوار المدينة حتى انقضّ أنصار أليعازر عليهم وقتلوهم جميعاً، باستثناء قائدهم «ماتيليوس» الذي عُفي عنه لرغبته باعتناق الدين اليهودي وقبوله الاختتان وفق الشريعة. وهكذا حققت الثورة أولى انتصاراتها. فتحررت أورشليم من سيادة روما في بداية ايلول سنة ٦٦م .

وبينما كان الثوار يحتفلون بالنصر في أورشليم، انقضّ الوثنيون في قيصرية على يهود المدينة وذبحوا أكثر من عشرين ألف نسمة. واشتعلت نار الثورة أيضاً في باقي أنحاء فلسطين حيث راح اليهود يغزون ويخرّبون ويعملون القتل. وكثرت المذابح في الأماكن المختلطة، فحيث شكّل اليهود أكثرية السكان، كانت الغلبة لهم، وإلاّ فعليهم. وامتدّت الاضطرابات خارج فلسطين وصولاً إلى مدينة الاسكندرية حيث تطوّرت العداوة بين اليونانيين واليهود إلى حركة عصيان وتمرّد لدى الأخيرين، فأصدر طيبريوس ألكسندروس، حاكم مِصر آنئذٍ، الأمر إلى الجيش الروماني بقمع هذا التمرّد، فحصلت مذبحة في الحيّ اليهودي كانت حصيلتها ما يقارب الخمسين ألفاً[1].

وكان على روما ان تنتقم مما حصل في أورشليم. فزحف والي سوريا «كستيوس غالوس» على رأس جيش للقضاء على الثورة. وانضم اليه بعض الحلفاء، ومنهم الملك أغريبا الثاني، فدخل كستيوس اليهودية في شهر تشرين الأول ٦٦م.، وشنّ هجوماً فاشلاً على اورشليم، ثم انسحب عائداً إلى انطاكية. فحاصره الثوار اليهود قرب بيت حورون، ولم يتمكن من الافلات إلاّ بعد أن ترك وراءه الكثير من العدّة والعتاد. فلما علم سكان دمشق بهزيمة غالوس انقضّوا على يهود المدينة وذبحوا منهم حوالى عشرة آلاف وخمسمائة شخص[2].

١- JOSEPHE, *Guerre,* II, xviii, 8, § 497.

٢- *Ibid.,* II, xx, 2, § 561.

ثانياً- حكومة الحرب الاولى وتنظيم شؤون الدفاع

بعد الانتصار على والي سوريا، عاد الثوار إلى أورشليم للاحتفال بالنصر، فقمعوا الأصوات الداعية إلى السلام. ثم اجتمعوا في الهيكل لتنظيم أمور الدفاع، فأوكلوا أمر القيادة في أورشليم إلى كلٍّ من يوسف بن غريون والكاهن الأكبر حنان (Anan)[1]. وجرى تعيين قائدين على منطقة أدوم هما يشوع بن صفا، وأليعازر بن الكاهن الأكبر حنانيا الذي شغل منصب حافظ الهيكل كما مرّ سابقاً. كما تولّى يوسف بن سمعان قيادة المنطقة العسكرية في أريحا. وتمّ تكليف مناسى لقيادة منطقة «بيرة»، ويوحنا الأسيني لقيادة منطقة تمنة الواقعة في جبل افرائيم، بالإضافة إلى مدن لدّة وعماوس ويافا. وعُيّن يوحنا بن حنانيا حاكماً على منطقتي غفنة وأكربتان[2]. أما يوسيفوس بن متّيا، مؤرخ الحرب اليهودية نفسه، فقد جرى تعيينه حاكماً على منطقتي الجليل العليا والسفلى بالاضافة إلى مدينة جَمَلة (Gamala) في الجولان.

وما يميّز هذه المرحلة ان الطبقة الارستقراطية هي التي تسلّمت زمام الأمور، ذلك أن رؤساء الكهنة وأعيان الفريسيين هم الذين نظّموا وسائل الدفاع عن البلاد[3]. كما يلاحظ غياب المتطرّفين الزيلوت عن «حكومة الحرب» هذه، أي هؤلاء الذين كانوا من الداعين علناً إلى الثورة ضد الرومان. وبالمقابل فقد اشترك الأسينيون في «الحكومة» المذكورة بشخص يوحنا الأسيني، وهؤلاء هم من الداعين سرّاً للحرب ضد الرومان، في حين أنهم كانوا يتظاهرون في العلن بالمسالمة واحترامهم للسلطات القائمة. لهذا فقد استحقوا الثناء والإطراء من يوسيفوس، إذ يبدو أن نهجهم السياسي هو المفضل لديه.

١- عيّن الملك أغريبا الثاني حنان بن حنان في منصب رئاسة الكهنوت عند قدوم ألبينوس لتسلّم مهام المحصّلية، فدشّن عهده برجم يعقوب الثاني رئيس كنيسة أورشليم سنة ٦٢م. أنظر: JOSEPHE, *Ant. Jud.*, XX, ix, 1, § 200.

٢- تقع في الناحية الجنوبية الشرقية من مدينة نابلس وتبعد عنها مسافة ١٢ كلم.

٣- Emil SCHÜRER, *The History of the Jewish people in the age of Jesus Christ*, vol. 1, p. 489.

ثالثاً- الهجوم على عسقلان

بعد انتصار الثوار اليهود على غالوس، والي سوريا، قرر عدد منهم الهجوم على مدينة عسقلان الساحلية الواقعة إلى الشمال الشرقي من مدينة غزة. قاد الحملة كلٌّ من نيجر، حاكم بيرة، وسيلاس البابلي، ويوحنا الأسيني. وبالرغم من كثرة عدد المهاجمين واستبسالهم، فقد تمكّنت الحامية الرومانية القليلة العدد من دحر المهاجمين ومطاردتهم. فسقط في المعركة ما يقارب العشرة آلاف يهودي بينهم القائدين يوحنا الأسيني وسيلاّ. ولم يسقط من الرومان سوى عدد قليل من الجرحى[1].

لم تثنِ هذه الهزيمة عزيمة الثوار اليهود، بل ازدادوا شجاعةً وحماساً، فجمعوا عدداً أكبر من المحاربين وهاجموا عسقلان مرة ثانية. وفي هذه المرة أيضاً، انتصرت الحامية الرومانية على المهاجمين بفضل حسن التنظيم والخبرة، وسقط في ساحة المعركة ما يقارب الثمانية آلاف محارب يهودي. وتمكن القائد نيجر من الهرب والاختباء في برج حصين في محلّة «بلصدق» حيث تعقّبه الرومان وأضرموا النار في أسواره. فلما طاولت ألسنتها أعالي البرج، انسحبوا وهم يعتقدون أن نيجر لاقى حتفه. غير أن هذا الأخير قفز إلى أسفل البرج واختبأ في أحد الخنادق. وبعد ثلاثة أيام، وفيما كان بعض مناصريه يفتّشون عن جثته لدفنها وهم ينوحون عليه، سمعوا صوته، ثم ظهر أمامهم فجأةً، فكانت لهم فرحة كبرى إذ اعتقدوا ان العناية الالهية حفظت لهم قائدهم للمشاركة في المعارك القادمة[2].

رابعاً- الجبهة الشمالية

حصّن يوسيفوس مدن الجليل، وأنشأ جيشاً قوامه أكثر من مئة الف رجل[3]، ليحارب الجيوش الرومانية التي توقّع زحفها في ربيع سنة ٦٧م.، غير أنه جابه معارضة قوية من يوحنا بن لاوي الملقب بـ«الكوشالي»، وهو قائد من

١- JOSEPHE, *Guerre,* III, ii, 2, § 19-20.

٢- *Ibid.,* III, ii, 3, § 27-28.

٣- *Ibid.,* II, xx, 6, § 576.

الزيلوت تحصّن في مدينة كوشالة (الجش)، وهي مسقط رأسه، وحاول السيطرة على الجليل.

سمع نيرون قيصر بنبأ اندحار كستيوس غالوس عندما كان في آخائية. فعيّن فسبزيانوس والياً على سوريا، وأمره بإخماد ثورة اليهود. فجاء هذا الأخير إلى انطاكية، وجهّز جيشاً شكّلت نواته الكتيبتان الخامسة والعاشرة، وأمدّه الملك أغريبا الثاني وبعض حلفاء روما بعدد من الجنود. ثم رحل فسبزيانوس إلى بطلمايس (عكا) حيث لاقاه ابنه تيطس بالكتيبة الخامسة عشرة التي أحضرها من مِصر، فبلغ عدد جيش فسبزيانوس حوالى ستين ألف مقاتل[1].

ولما عَلِم أهالي «صفوريس»، وهي كبرى مدن الجليل، بمجيء فسبزيانوس إلى بطلمايس، لاقاه أهلها سائلينه السلام؛ فعزّز تلك المدينة الحصينة بحامية رومانية. ثم زحف بجيشه نحو الجليل، فانهارت معنويات جنود يوسيفوس عندما شعروا باقتراب الرومان، وتفرّقوا قبل اشتباكهم مع أعدائهم[2]. ورحل يوسيفوس مع من تبقى من جيشه إلى طبرية أولاً ثم إلى حصن «يوتبات». فحاصرهم الرومان، وسقط الحصن بقبضتهم في شهر تموز ٦٧م بعد مقاومة عنيفة. غير ان يوسيفوس تمكن من الفرار والاختباء في مغارة كان سبقه إليها بعض جنوده. فلما اكتُشف مخبأه حاول الاستسلام، فمنعه رفاقه من ذلك وذكّروه بأنه كان ينصحهم بالاستشهاد «في سبيل الحرية»[3]. لذلك قرروا أن ينتحر الجميع، لأن الموت برأيهم أفضل من العبودية. فاحتال يوسيفوس على خلاص نفسه، فأقنعهم بأن يقتل الواحد منهم رفيقه وفقاً لقاعدة القرعة، فوافقوا. وشاءت العناية الالهية أن يبقى يوسيفوس إلى النهاية مع رجل آخر، فأقنعه بالاستسلام للرومان، وهذا ما حصل. وقد نال يوسيفوس عطف فسبزيانوس عندما تنبأ بأن هذا الأخير سوف يصبح سيّد العالم[4].

١- JOSEPHE, *Guerre,* III, iv, 2, § 69.

٢- *Ibid.,* III, vi, 3, § 129.

٣- *Ibid.,* III, viii, 4, § 357.

٤- *Ibid.,* III, viii, 9, § 401.

لا شك أن يوسيفوس كان يعلم في قرارة نفسه أنه ليس نبياً، وأن هذه النبوءة ليست من صنيعه. فجميع اليهود الذين شاركوا في الحرب ضد الرومان، ومنهم يوسيفوس نفسه، كانوا يترقّبون مجيء المسيّا المنتظر ليحرّر شعب إسرائيل ويملك على العالم. وقد جعل يوسيفوس من تلك النبوءة أحد الأسباب الرئيسة التي أدّت إلى اندلاع الحرب اليهودية[1]. فلما تيقّن يوسيفوس من الهزيمة، عرف ان تلك النبوءة سوف تتحقق في القائد الذي هزمه. وهذا ما حصل فعلاً، فقد نودي بفسبزيانوس امبراطوراً عندما كان لا يزال في اليهودية.

استأنفت الجيوش الرومانية زحفها بعد استراحة قصيرة في قيصرية، ففتحت طبرية لهم أبوابها. واستبسل سكان «جَمَلة» في الجولان في الدفاع عن مدينتهم، فسقطت في تشرين الثاني سنة ٦٧م بعدما تكبّد المهاجمون خسائر فادحة.

ولم يبقَ في الجليل سوى معقلين للمقاومة وهما جبل طابور وكوشالة. فاحتل الرومان جبل طابور بسهولة وتقدموا نحو كوشالة التي تحصّن فيها يوحنا بن لاوي. فهرب هذا الأخير مع أنصاره إلى اورشليم.

انطلق فسبزيانوس خلال شهر آذار سنة ٦٨م ليثبت سلطته على الساحل والسامرة ومنطقة بيرة. وبينما كان يستعد للزحف على أورشليم، وصله نبأ انتحار الأمبراطور نيرون (٩ حزيران ٦٨م)، فأوقف العمليات الحربية مترقباً التطورات. وطال انتظاره سنة كاملة، إذ تنازع على السلطة في روما، بين سنتي ٦٨ و ٦٩، كل من غلبا وأوتو وفيتاليوس.

خامساً- سيطرة المتطرّفين على السلطة

في تلك الأثناء، كان يوحنا بن لاوي الكوشالي قد جمع حوله بعض الغيورين وبسط سلطته على أورشليم. فقبض على الأغنياء وأخذ أموالهم. ثم استقرّ مع أنصاره في حرم الهيكل وتدخل في شؤون رئاسة الكهنوت، فعزل الكاهن الاكبر وعيّن مكانه رجلاً من عوام الكهنة. ولما كثر شرّه، قاومته الطبقة

١- JOSEPHE, *Guerre*, VI, v, 4 § 312.

الارستقراطية، فاندلعت حرب أهلية بين الفريقين. فاستنجد يوحنا بسكان منطقة أدوم لتثبيت سلطته. فحمل هؤلاء السلاح وجاؤوا إلى أورشليم معتقدين أن كبار الكهنة سوف يسلمونها للرومان[١]. منع أخصام يوحنا الأدوميين من دخول المدينة وأقفلوا أبوابها بوجوههم. فتسلّل أنصار يوحنا في المساء وكسروا الأغلاق وفتحوا باب أورشليم، فدخل الأدوميون وقتلوا عدداً كبيراً من سكانها، وخاصةً من الطبقة الموسرة، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم.

بعد ذلك، طغى يوحنا واستبدّ، وسعى إلى التفرّد بالسلطة والقرار غير عابئ بآراء مناصريه، فانقسم حزبه إلى فريقين اضطهدا الشعب، وتسابقا على النهب والسلب، فخيّم جو من الارهاب والكآبة على أورشليم.

استغلّ سمعان بن الغيورة، وهو أحد قادة الزيلوت، توقف العمليات الحربية من جانب الرومان، فراح يغزو القرى في تخوم منطقة أدوم ناشراً الذعر بين السكان. وكان سمعان قد شارك في المعركة ضد جيش والي سوريا، كستيوس غالوس، حين هاجم مؤخرة الجيش الروماني المنسحب نحو بيت حورون، فشتّت الجنود واستولى على عدد وافر من الماشية ثم أحضرها إلى أورشليم[٢]. بعد ذلك، تزعّم على زمرة من الثوار الزيلوت، فراح ينهب بيوت الأغنياء في منطقة أكربتان ويعامل أصحابها بقسوة. فلما قرّر الكاهن الأكبر حنان وشيوخ أورشليم إرسال جيش ضده، هرب مع أنصاره إلى قلعة مسعدة. وعندما سمع بموت الكاهن الأكبر حنان، رحل عن مسعدة واختبأ في الجبال بعدما أشاع في البلاد «أن العبيد سوف يُعتقون»[٣]. فشكّل جيشاً تمكّن بفضله من السيطرة على أدوم، قبل ان يتمكن الرومان من فرض سيطرتهم مجدداً على معظم مناطقها باستثناء بعض المواقع الحصينة، كقلعة مسعدة مثلاً. أما الأدوميون الذين شتّتهم سمعان فقد ارتحلوا إلى أورشليم وناصروا يوحنا، ثم تركوه بسبب طغيانه واستبداده.

ويبدو أن استعدادات سمعان العسكرية كانت موجهة نحو أورشليم، التي

١- JOSEPHE, *Guerre*, IV, v, 7, § 347.

٢- *Ibid.*, II, xix, 2, § 521.

٣- *Ibid.*, IV, ix, 3, § 508.

كان يعتبرها غاية مقصده. فرحل إليها وطوّق أسوارها وهددّ العمال الذين كانوا يغامرون بالخروج منها لزرع حقولهم. فكان سمعان خارج الأسوار أكثر شراً من الرومان بنظر الشعب. أما في الداخل فكان أنصار يوحنا أكثر عنفاً وشراً من الرومان ومن سمعان[١].

فلما يَئِسَ أهل اورشليم وكهنتها من استبداد يوحنا وطغيانه، ارتأوا استدعاء سمعان بن الغيورة ليعينهم عليه، فدخل المدينة بين نيسان وأيار سنة ٦٩م.، فتراجع يوحنا وأنصاره إلى حرم الهيكل وتحصّنوا فيه. واتّصلت الحروب بين الفريقين، فصار الوضع في أورشليم أسوأ مما كان عليه سابقاً، بحيث اصبح سكانها تحت رحمة طاغيتين يتصارعان للاستيلاء على السلطة.

ثم برز في أورشليم زعيم ثالث اسمه أليعازر بن سمعان، انحاز اليه بعض الأعيان وأنصارهم من الغيورين، فملكوا الهيكل وما حوله، وضبطوه بالمقاتلين. فتراجع يوحنا وأنصاره إلى المنطقة السفلى من المدينة، في حين أن سمعان كان مسيطراً على المنطقة العليا. واتصلت الحروب بين هؤلاء الثلاثة، فأحرقوا، في صراعهم، القسم الأكبر من مخزون القمح[٢]، وبدأ شبح الجوع يطلّ على أورشليم.

لا شك أن الصراع بين كلّ من يوحنا وسمعان وأليعازر هو على علاقة وثيقة بمفهوم المسيّا المنتظر. يُستدلّ على ذلك من خلال التلميحات التي أوردها يوسيفوس عن خضوع أنصار سمعان لقائدهم «كأنه ملك»[٣]، ورغبة كل قائد من هؤلاء الثلاثة بالاستئثار «بالسلطة المطلقة»[٤] في الزمن الذي كان الثوار اليهود يترقّبون مجيء المسيّا.

سادساً- سقوط أورشليم وآخر معاقل المقاومة

فرح فسبزيانوس لسماعه خبر الحرب الأهلية بين اليهود، وانتظر حتى يهلك هؤلاء بعضهم بعضاً[٥]. فلمّا نادت به الفيالق المصرية امبراطوراً في

١- JOSEPHE, *Guerre,* IV, ix, 10, § 558.

٢- *Ibid.,* V, i, 4, § 24.

٣- *Ibid.,* IV, ix, 4, § 510.

٤- *Ibid.,* IV, vii, 1, § 395; IV, ix, 11, § 576; V, i, 2, § 5.

٥- يوسيفوس، **تاريخ يوسيفوس اليهودي**، ص ٢٤٧.

أوائل تموز ٦٩م وأيّدتها في ذلك بقية الفيالق الرومانية في فلسطين وسوريا، عيّن ابنه تيطس لقيادة جيوشه، وراح يهتم شخصياً بالأمور المتعلقة بتثبيت عرشه. وقد وصله نبأ اغتيال الامبراطور فيتاليوس ونجاح قضيته عندما كان لا يزال في الاسكندرية (كانون الأول ٦٩م).

باشر تيطس قبل فصح سنة ٧٠م بحصار أورشليم. فلما رأى اليهود ذلك، قلقوا وتوقّفوا مؤقتاً عن الصراع الدائر فيما بينهم. وفي عيد الفطير الذي يرمز إلى ذِكرى بدء تحرر اليهود من عبودية مصر[١]، فتح أليعازر ابواب الهيكل للمحتفلين بالعيد. فاندسّ أنصار يوحنا إلى داخل الهيكل، بعدما أخفوا أسلحتهم تحت ثيابهم، فلم يظنّ بهم أحد سوءاً، ثم انقضوا فجأة وفتكوا بعدد كبير من الكهنة وأصحاب أليعازر. فانضم هذا الاخير إلى سمعان وحارب إلى جانبه ضد يوحنا. ثم غادر اورشليم إلى إحدى القرى وتحصّن فيها[٢].

كلّف تيطس يوسيفوس أن يدور حول أسوار أورشليم ويخاطب أهلها لكي يستسلموا فينالوا عفو الرومان. وكان مؤرخ الحرب اليهودية يعلم جيداً أن عدداً من سكان المدينة يرغب في مسالمة الرومان، خاصةً هؤلاء الذين عانوا الظلم والحرمان بسبب طغيان كلّ من يوحنا وسمعان. غير أن أنصار الطاغيتين وقفوا بالمرصاد، وفتكوا بكل من حاول الانتقال إلى المعسكر الروماني.

ولا شك أن يوسيفوس، خلال جولاته حول أسوار أورشليم، مرّ أمام الباب الذي دعاه «باب الأسينيين»، وهو برأينا الباب الذي تولّى الأسينيون الدفاع عنه خلال الحرب اليهودية، ويقع في الناحية الجنوبية الغربية من المدينة. فعظمت نفس يوسيفوس لشجاعة الأسينيين واستهزائهم بالموت كما مرّ آنفاً.

وبالعودة إلى جبهة القتال في أورشليم، نشير إلى أن الرومان تمكّنوا من دكّ أسوار المدينة بعد قتال مرير ومحاولات متكررة. وقد استبسل أنصار

١- JOSEPHE, *Guerre*, V, iii, 1, § 99.

٢- تحصّن أليعازر في قرية تسمى «ماصيو» حيث انضمّ اليه عدد من الثوار اليهود. فلما حاصرتهم جيوش تيطس، قتل الثوار جميع نسائهم وأولادهم وطرحوهم في الآبار وردموا عليهم التراب. ثم خرجوا بعد ذلك إلى عسكر الروم فظلوا يحاربونهم إلى أن فتك الرومان بهم جميعاً. أنظر: يوسيفوس، **تاريخ يوسيفوس اليهودي**، ص ٣٢٣.

يوحنا وسمعان وغيرهم من الزيلوت والأسينيين في الدفاع عنها. وفي آب سنة ٧٠م اقتحم الجنود الرومان الهيكل وأضرموا النيران فيه. وتمكن يوحنا الكوشالي من الفرار إلى المواضع العليا من المدينة، حيث دافع مع سمعان حتى أواخر شهر ايلول سنة ٧٠م. ولما اشتدّ الجوع والعطش على يوحنا، خرج من مخبئه «وقد لبس لباس الملك وزيّه»[١]، وقرر الاستسلام إلى تيطس، فأمر هذا الأخير بسجنه مدى الحياة. أما سمعان فحاول الهرب عبر دهاليز كائنة تحت الأرض. فلما نفذت منه المؤونة، خرج وهو يرتدي «رداءً أبيض ومعطفاً من الأرجوان»[٢] دلالة على القداسة والمُلك، ثم استسلم للرومان. فاحتفظ به تيطس لقتله عند ادراج الكابيتول خلال مسيرة الاحتفال بالنصر.

لم تنته فصول الحرب عند هذا الحد بالرغم من أن سقوط أورشليم حسمت النتيجة نهائياً لصالح الرومان، بل استمرّت المقاومة في بعض المواقع، وأهمها قلعة مسعدة حيث تحصّن أليعازر بن جائير مع أنصاره الأسخريوطيين. وكان هؤلاء يعتبرون اليهود الذين رضوا بالحكم الروماني بمثابة أعداء لهم[٣]، فكانوا يطاردونهم وينهبون أملاكهم ويسرقون ماشيتهم ويحرقون منازلهم. فجرّد حاكم اليهودية «فلافيوس سيلفا» حملة عسكرية على قلعة مسعدة وحاصرها. فلما شارفت على السقوط (أيار ٧٣)، آثر المحاصَرون الانتحار على العبودية، فاختاروا بالقرعة من بينهم عشرة أشخاص ليقتلوا الباقين بمن فيهم النساء والأطفال، على أن يختار هؤلاء واحداً منهم بالقرعة ليقتل التسعة الباقين ثم ينتحر بدوره. لم ينجُ من تلك المذبحة سوى امرأتين وخمسة أطفال كانوا قد اختبأوا في أحد الدهاليز بعيداً عن الأنظار. وبلغ عدد المنتحرين ٩٦٠ شخصاً[٤].

شكّلت الحرب الإسكاتولوجية المذكورة كارثة على المستوى الوطني بالنسبة إلى الشعب اليهودي، إذ بلغ عدد الذين قُتلوا خلال حصار أورشليم ما يقارب

١- يوسيفوس، تاريخ يوسيفوس اليهودي، ص ٣١٢.

٢- JOSEPHE, *Guerre,* VII, ii, 2, § 29.

٣- *Ibid.,* VII, viii, 1, § 255.

٤- *Ibid.,* VII, ix, 1, § 400.

المليون والمائة ألف، وجلّهم من اليهود[1]. وأرسل الرومان عدداً كبيراً من الأسرى للعمل في الأشغال الشاقة في مصر، ووزّعوا عدداً آخر على حلبات المصارعة في الولايات الرومانية للموت بواسطة السلاح أو تحت أنياب الوحوش المفترسة. وبيع عدد كبير منهم في أسواق الرقيق في الشرق والغرب. وأمست فلسطين ولاية امبراطورية. كما وُهبت بعض مناطقها إلى عدد من أبطال الجيش، أو إلى غيرهم ممن نال عطف الامبراطور.

وقد امتدّ تأثير الحرب اليهودية والمناخ الاسكاتولوجي الذي كان سائداً في فلسطين إلى الجاليات اليهودية في بلدان الشتات[2]. ففي إنطاكية حيث كانت الجالية اليهودية كبيرة العدد، وُجِّهت التهمة الى اليهود بالتخطيط لحرق المدينة، ما أدّى إلى اضطهادهم ومقتل عدد كبير منهم[3]. وقد طال الاضطهاد اليهود المقيمين في المدن السورية. ويُقال إنه في دمشق وحدها، حصلت مذبحة ضدهم كانت نتيجتها مقتل ثمانية عشر ألف يهودي بمن فيهم النساء والأطفال. أما في مصر فقد تجاوز عدد القتلى اليهود الستين ألفاً[4].

وكان قد لجأ إلى مدينة الاسكندرية عدد من الاسخريوطيين الذين نجوا من الحرب في فلسطين. فحاولوا إقناع الجالية اليهودية هناك بالمطالبة باستقلالهم ورفض سيادة الرومان عليهم واعتبار إله إسرائيل سيّدهم الأوحد. لكن السلطات المحليّة تمكنت من إقناع اليهود بعدم الانقياد وراءهم حفاظاً على سلامتهم، كما طالبتهم بتسليم هؤلاء المتمرّدين كدليل على ولائهم للرومان. فجرى اعتقال جميع الأسخريوطيين الذين لجأوا إلى مصر. وقد فضّل هؤلاء الموت على الاعتراف بسيد آخر غير «يهوه»[5].

ولا بدّ من الإشارة أخيراً إلى ما حصل في القيروان حيث لجأ عدد من الأسخريوطيين. فقد أقنع أحدهم، ويدعى يوناثان، عدداً كبيراً من أفراد الجالية اليهودية بالسير معه إلى الصحراء واعداً إياهم بمشاهدة إشارات

١- JOSEPHE, *Guerre,* VI, ix, 3, § 420.

٢- *Ibid.,* VII, x, 1, § 408.

٣- *Ibid.,* VII, iii, 1-4.

٤- *Ibid.,* VII, viii, 7, § 368-369.

٥- *Ibid.,* VII, x, 1, § 410-419.

إلهية. لكن الوالي الروماني أرسل وراءهم عدداً من الخيالة والجنود الذين تمكنوا من القبض عليهم وإبادتهم. وتمكن يوناثان من الفرار، فقُبض عليه في وقت لاحق. وكانت الاعترافات التي أدلى بها مناسبة لقيام الوالي الروماني بقتل ما يقارب الألف شخص من يهود القيروان[1].

سابعاً- موقع الحرب اليهودية من تاريخ الأسينيين

بعد استعراض أهم مراحل الحرب اليهودية الكبرى والحقبة التي مهّدت لها في تاريخ فلسطين، يمكن القول ان تلك الحرب شكّلت محطة رئيسة في تاريخ الأسينيين، بحيث لا يمكن فَهم مخطوطات البحر الميت إلاّ على ضوء السياق التاريخي العائد للحقبة المذكورة. فمن المؤكد أن الأسينيين مثّلوا دوراً معيّناً في الحرب اليهودية ضد الرومان استناداً إلى ما ذكره يوسيفوس. ومن المرجّح جداً أنهم أصحاب مخطوطات البحر الميت، لأن عناصر الحقبة المشيحية الاسكاتولوجية لا تزال ظاهرة في المصادر التي تحدثت عنهم، كما رأينا آنفاً. أضف إلى ذلك أن بلينوس الكبير الذي عاصر الأسينيين في القرن الميلادي الأول، حدّد مكان إقامتهم في الموقع ذاته الذي جرى فيه إخفاء المخطوطات. وقد أجمع علماء الآثار على واقعة إخفاء المخطوطات في مغاور قمران خلال الحرب اليهودية الكبرى. لذلك فإن جميع الدراسات القمرانية التي لا تنطلق من اعتبار تلك الحرب محطة رئيسة في تاريخ الأسينيين، هي دراسات بعيدة عن الحقيقة وعن الموضوعية.

ومن الملاحظ أن مميّزات مخطوطات البحر الميت تتوافق بشكل عام مع الظلال التاريخية العائدة لتلك الحقبة المضطربة من تاريخ فلسطين. فقد حدّد «تفسير المزمور ٣٧» مدة الحقبة الاسكاتولوجية التي عاشها أصحاب المخطوطات بأربعين سنة تقريباً[2]. وأكّد كاتب «نظام الحرب» أن مدّة الأربعين سنة تبدأ بفترة تحضيرية على مدى ٦ سنوات، يلي ذلك ٢٩ سنة من الجهاد

١- JOSEPHE, *Guerre,* VII, xi, 1, § 437-446.

٢- 4Q171, II, 7-8.

الفعلي بالإضافة إلى ٥ سنوات سبتية[١] لا يجوز القتال فيها. ومن يدقّق في تاريخ فلسطين خلال العقد الرابع من القرن الميلادي الأول، يلاحظ أن الهدوء ظلّ سائداً في اليهودية والجليل والسامرة، وأن الكنائس في تلك المناطق بقيت تنعم بالسلام[٢]، بالرغم مما أحدثته نشأة الديانة المسيحية من بلبلة في الأوساط الدينية اليهودية. ثم بدأ التوتّر يتصاعد تدريجياً في فلسطين منذ بداية العقد الخامس فصاعداً، فتزايدت أعمال الفوضى واللصوصية، وتعدّدت الجماعات الأصولية التي اشتهر أعضاؤها ببغضهم للرومان وللمتعاونين معهم. وكان هؤلاء يعتقدون أن زمنهم هو الزمن الأخير الذي ستتحقق فيه نبوءات الأنبياء ويأتي المسيّا المنتظر ليحرّر بني إسرائيل ويملك على العالم أجمع. وقد تُوّجت تلك المرحلة المضطربة من تاريخ فلسطين باندلاع الحرب اليهودية الكبرى سنة ٦٦ م.، وهي الوحيدة التي تنطبق عليها صفة الحرب الاسكاتولوجية في تاريخ اليهود خلال أجيال عديدة.

والجدير ذكره أن وثيقة دمشق أكّدت أيضاً أن المدة الزمنية الفاصلة بين موت معلّم البر ومجيء المسيّا هي قرابة الأربعين سنة[٣]. وبما أن جميع الثوار اليهود المناوئين للرومان، بمن فيهم الأسينيون، كانوا ينتظرون، خلال الحرب اليهودية الكبرى، مجيء المسيّا المنتظر ليحكم العالم بأسره[٤]. فمن المفترض إذاً أن يكون معلّم البر، وهو مؤسس جماعة الأسينيين، قد مات في بداية الجيل الذي مهّد لاندلاع تلك الحرب. وبالتالي تكون نشأة الأسينيين معاصرة لنشأة المسيحية أو بعدها بسنوات معدودة.

١- 1QM, II, 9-14.

٢- رسل ٩: ٣١.

٣- CD-B, XIX, 35 – XX, 1, 13-15.

٤- JOSEPHE, *Guerre,* VI, v, 4, § 312.

الفصل الرابع

نقد اهم النظريات حول الأسينيين وتحديد هويتهم

أولاً- نظرية روث

أشار «سيسيل روث» إلى أن الخلفية التاريخية لمخطوطات البحر الميت لا تتفق مع مرحلة ما قبل المسيحية، بل تتزامن مع الثورة اليهودية الكبرى ضد روما. واستند إلى واقعة العثور بين أطلال قلعة مسعدة على نشيد مخصص لذبيحة السبت (Mas1K) يستند إلى التقويم القمراني، فقال ما معناه ان جماعة قمران تنتمي إلى الزيلوت الاسخريوطيين الذين تحصّنوا في قلعة مسعدة، واستبعد وجود علاقة تربطهم بالأسينيين الذين اشتهروا بحبّهم للسلام[1]. كما رجّح «روث» أن يكون معلم البرّ مناحيم بن يهوذا الجليلي الذي قتله أنصار أليعازر بن الكاهن الأكبر حنانيا سنة ٦٦م، أو ربما يكون أليعازر بن جائير الذي تولّى زعامة حزب الزيلوت بعد اغتيال مناحيم. وباعتقاد صاحب هذه النظرية أن أسماء الأشخاص لها مدلول سطحي، وأن أعضاء جماعة قمران كانوا من الزيلوت، كما أن الأدب القمراني يلقي أضواء جديدة على تاريخ الثورة اليهودية سنة ٦٦م. وما نتج عنها من صراع كبير ضد روما[2].

تتخلل نظرية «روث» استنتاجات صحيحة وأخرى غير دقيقة. فاعتباره أن الأدب القمراني يلقي أضواء جديدة على تاريخ الثورة اليهودية الكبرى هو رأي صحيح، لأن المخطوطات العائدة لطائفة الأسينيين صيغت على الأرجح في الحقبة الممهّدة لتلك الحرب. لكن الخطأ هو في اعتبار الأسينيين أحد فروع حزب الزيلوت، نظراً للأسباب التالية:

١- الأسينيون هم من الأصوليين اليهود، وهذا الأمر ثابت في مخطوطاتهم التي تؤكد غيرتهم على الشريعة وكرههم الشديد لمخالفيها وعدائهم للأجنبي المحتل. غير أنه لا توجد علاقة بينهم وبين حزب الزيلوت الذي أسسه يهوذا

١- Cecil ROTH, «Qumran and Masadah: a final clarification regarding the Dead Sea sect», *RQ,* n° 17 (1964), p. 81, 86-87.

٢- Cecil ROTH, *The Historical Background of the Dead Sea Scrolls,* p. viii.

بن حزقيا الجليلي سنة ٦ ميلادية، وتزعّمه فيما بعد أولاده يعقوب وسمعان ومناحيم، وأخيراً أليعازر بن جائير، كما ذكرنا آنفاً. والدليل على ذلك أن يوسيفوس أثنى على طائفة الأسينيين في مؤلفاته، ووصفهم بـ«القديسين» كما فعل فيلون قبله، لكن يوسيفوس أظهر حقداً شديداً تجاه الزيلوت والأسخريوطيين معاً، فوصفهم بقطّاع الطرق واللصوص، واتّهمهم بارتكاب كل عمل سيء[١].

٢- أكّدت مخطوطات البحر الميت أن «معلم البر» كان كاهناً. غير أنه لا يوجد في مؤلفات يوسيفوس ما يدلّ على أن مناحيم بن يهوذا أو أليعازر بن جائير هما على علاقة بالكهنوت او أنهما ينتسبان إلى عائلة من الكهنة.

٣- لقد دخل مناحيم بن يهوذا هيكل اورشليم سنة ٦٦م لابساً الحلّة الملوكية. فيكون بعمله هذا قد اعتبر نفسه المسيّا المنتظر. وهذا الموقف يتناقض مع مضمون مخطوطات البحر الميت التي تنفي أن يكون معلّم البِرّ هو مسيح إسرائيل الذي انتظرته جماعة قمران في نهاية الأزمنة.

٤- تبلغ المدة الزمنية الفاصلة بين وفاة معلم البر ومجيء المسيّا المنتظر للقضاء على الأشرار، ما يقارب الأربعين سنة. وهذه المدة لا تتوافق مع سيرة مناحيم بن يهوذا الجليلي الذي قُتل في خريف سنة ٦٦ م.، أي في بداية الحرب اليهودية الكبرى التي تمثّل ذروة الصراع الإسكاتولوجي بين أبناء النور وأبناء الظلمة.

لقد كان للأسينيين كيان قائم بذاته. كانوا جماعة مستقلّة عن الزيلوت وباقي الثوّار المتطرفين، ولا صلة تجمع بين هؤلاء جميعاً سوى الغيرة على الشريعة ورفض الاحتلال الروماني، إنطلاقاً من عقيدة المسيّا المنتظر التي تعتبر أن الأرض هي مِلكٌ لإله إسرائيل ومسيحه. وقد حازوا على رضى فيلون الاسكندري ويوسيفوس والطبقة الارستقراطية بشكل عام، ولهذا السبب سُمح لهم بالمشاركة في حكومة الحرب الأولى بشخص يوحنا الأسيني، بينما جرى إقصاء الأحزاب المتطرفة، كالزيلوت والأسخريوطيين وغيرهم، عن الحكومة

١- JOSEPHE, *Guerre*, VII, 8, 1, § 268-270.

المذكورة.

ولو افترضنا جدلاً ان معلّم البِرّ، أي مؤسس الجماعة، هو مناحيم بن يهوذا الجليلي أو نسيبه أليعازر الذي تزعّم حزب الزيلوت من بعده، فهذا يعني ان مخطوطات البحر الميت الخاصة بجماعة قمران كُتبت بعد نشوب الحرب اليهودية الكبرى. لكن هذا الأمر يتناقض مع مضمون المخطوطات، لأنها كُتبت في الحقبة الممهّدة ليوم الثأر والدينونة، إذ لا نجد فيها أيّة إشارة تؤكد أن المعركة الاسكاتولوجية الكبرى قد بدأت فعلاً أو أنها شارفت على الانتهاء. أضف إلى ذلك أن نظرية «سيسيل روث» تتعارض مع المعطيات الأركيولوجية التي تؤكد أن المخطوطات أخفيت في مغاور قمران إبّان الحرب اليهودية الكبرى. وهذه المدة الفاصلة بين وفاة مناحيم بن يهوذا الجليلي (٦٦م) وإخفاء المخطوطات (٦٨ م)، لا تكفي مطلقاً لكتابة هذا العدد الهائل من النصوص الخاصة بجماعة قمران.

ثانياً- نظرية تايتشر

عثر «تايتشر»، الاستاذ في جامعة كامبردج، على لفظة «ابيونيم» في عدد من المخطوطات، وهي كلمة عبرية تعني «فقراء»، فقال إن أعضاء جماعة قمران كانوا من «الأبيونيين»، وهؤلاء هم من اليهود-النصارى الهراطقة الذين نشأوا على الأرجح في أواخر القرن الميلادي الأول، أي بعد سقوط أورشليم بيد الرومان. واستناداً إلى نظرية «تايتشر»، فإن معلّم البر هو يسوع الناصري وفق نظرة الأبيونيين إليه. والجدير ذكره أن هؤلاء اعتبروا يسوع آخر الانبياء، لكنهم رفضوا ما أُشيع عن ألوهيته. وذكر صاحب النظرية، ووفقاً لما نقله بوروز، أن «رجل الكذب» المذكور في بعض مخطوطات البحر الميت هو بولس الرسول الذي يعتبره الأبيونيون رسولاً كاذباً وخائناً للإنجيل[1].

لا شك أن بعض الأدلّة التي استند إليها «تايتشر» لتأكيد وجهة نظره هي صحيحة، إذ لا يمكن تفسير عدداً من العبارات الواردة في المخطوطات إلاّ على ضوء انتمائها إلى الأدب اليهودي-النصراني، على مثال ما ورد في

١- BURROWS, *Manuscrits,* p. 191-192.

«وثيقة دمشق»: «...هؤلاء البناة أمسكتهم الدعارة في نقطتين: أولاً حين تزوّجوا امرأتين خلال حياتهم مع أن مبدأ الخليقة هو: ذكراً وأنثى خلقهم»[1]. فالعبارة الأخيرة موازية لما جاء في الانجيل على لسان يسوع الناصري: «لقساوة قلوبكم، كتب لكم هذه الوصية. فمنذ بدء الخليقة جعلهما الله ذكراً وأنثى»[2]. فهذا التشابه بين النصّين معنىً ولفظاً هو أحد البراهين التي استند إليها «تايتشر» ليثبت أن «وثيقة دمشق» صادرة عن جماعة من اليهود-النصارى.

غير أن نظرية «تايتشر» لم تلقَ قبولاً لدى غالبية المتخصصين، لأن القول بأن الأبيونيين هم أصحاب المخطوطات يؤدي إلى الاستنتاج بأن المخطوطات الخاصة بجماعة قمران كُتبت بعد انتهاء الحرب اليهودية الكبرى. وهذا الرأي لا يتّفق مع نتائج التنقيبات الأثرية في خربة قمران والمغاور القريبة منها، كما ذكرنا سابقاً.

ثالثا- نظرية أيزنمان

بعد دراسة مضمون المخطوطات والمصطلحات الواردة فيها، لاحظ «أيزنمان» وجود أدلّة تثبت الطابع الأصولي واليهودي-النصراني للأدب القمراني الذي يتميّز بشكل عام بالغيرة على الشريعة والعداء لكل ما هو أجنبي، وأشار إلى ما تضمّنه أحد النصوص من عداء أصوليّ ضد التقدمات والذبائح التي كان يرسلها الأغراب إلى الهيكل، فاعتبر ذلك من خصائص الفترة الممهدة للحرب ضد الرومان. وقد دعم رأيه بواقعة العثور بين ركام أحد المواقع في قمران على قطع أثرية صغيرة كُتب على واحدة منها عبارة «السنة الثانية»، والمقصود بذلك السنة الثانية لتحرير صهيون خلال الحرب ضد الرومان[3].

استناداً إلى هذا الطابع الأصولي المعادي لكل العناصر الغريبة عن الأمة

١- CD-A, IV, 20-21.

٢- مر ١٠: ٦.

٣- Robert EISENMAN, *The Dead Sea Scrolls and the First Christians, Massachusetts* (USA), 1996, p. xvii, xx et xxvii.

اليهودية الذي يظهر جلياً في عدد من مخطوطات البحر الميت، وضع «أيزنمان» علامة استفهام حول علاقة الأسينيين بالمخطوطات المذكورة وفقاً لما ذكرته المصادر الكلاسيكية عنهم، وخاصةً لجهة الطابع السلمي الذي اشتهروا به والذي يتعارض مع مضمون المخطوطات[١].

ومن المعروف أن بعض الإشارات التاريخية في المخطوطات تلمّح إلى ثلاثة أشخاص مثّلوا دوراً مهماً في تاريخ الجماعة. الأول هو «معلّم البرّ» الذي اشتهر بالبرّ والتقوى، وكان متشدداً بتطبيق الشريعة الموسوية كما هو ثابت من النهج الذي سارت عليه جماعة قمران فيما بعد. والثاني هو «الكاهن الشرير» الذي اضطهد معلّم البر. أما الثالث فهو «رجل الكذب» الذي ازدرى الشريعة في وسط الجماعة كلّها[٢] وأضلّ عدداً كبيراً من بني إسرائيل، فخانوا «العهد الجديد»[٣]. ومن أجل تحديد هؤلاء الأشخاص، قام «أيزنمان» بدراسة الأوضاع السياسية والدينية في فلسطين في الفترة السابقة للحرب اليهودية، وأجرى تحليلاً للمصطلحات الواردة في مخطوطات البحر الميت، فلاحظ أنه يمكن تأويل الكثير منها على ضوء النصوص المسيحية المعاصرة لتلك الحقبة أو التي جاءت بعدها. وخلص إلى القول إن معظم المخطوطات الخاصة بجماعة قمران تعود إلى القرن الميلادي الأول[٤].

وقد لاحظ «أيزنمان» أن الجماعة المسيحية الأولى في أورشليم كانت محافظة على الشريعة الموسوية[٥] على غرار جماعة قمران. وكان على رأسها يعقوب الثاني الملقّب بـ«أخي الرب» والذي تتفق المصادر المسيحية واليهودية-النصرانية القديمة على الإشادة بتشدّده في الحفاظ على الشريعة، وعلى وصفه بالرجل «البار»[٦]. فقد ذكر أوسابيوس القيصري أن يعقوب كان معتبراً من الجميع أنه أعظم بارّ بين البشر بسبب سموّه في الحياة التقشفية والتقوى

١- EISENMAN- WISE, *Man. Rév.*, p. 276.

٢- 1QpHab, V, 11-12.

٣- 1QpHab, I, 11; II, 1-6.

٤- Robert EISENMAN, *The Dead Sea Scrolls and the first Christians*, p. 8.

٥- رسل ٢١: ٢٠.

٦- Robert EISENMAN, *op. cit.*, p. 112.

التي أظهرها في حياته. كما نقل أوسابيوس ما ذكره هيجسبوس (١٠٠؟-١٨٠م) عن يعقوب، فقال ما معناه ان الجميع لقّبوه «بالبار» لأنه كان يوجد كثيرون يحملون اسم يعقوب. وأضاف أنه كان مقدساً من بطن أمه. فهو لم يشرب خمراً ولا مسكراً، ولا أكل لحماً، ولم يعلُ رأسه موسى، ولم يدهن نفسه بالزيت. وكان مسموحٌ له وحده بالدخول إلى قدس الأقداس[١].

وبفضل صفة البِرّ التي اشتهر بها يعقوب إلى جانب تشدّده في الحفاظ على شريعة موسى، أعتقد «أيزنمان» أن يعقوب هو معلّم البر نفسه. ولدعم رأيه هذا، أشار إلى وجود خصمين ليعقوب تتوافق صفاتهما مع عدوّي معلّم البر. أولهما الكاهن الاكبر حنانيا الذي جمع المجلس اليهودي الأعلى سنة ٦٢ م. لمحاكمة يعقوب، فتقرر قتله رجماً. وثانيهما بولس الرسول الذي اشتهر بتحرّره من عقدة الشريعة الموسوية، في الوقت الذي كانت فيه الجماعة المسيحية في أورشليم، وعلى رأسها يعقوب، تسير على نهج الحفاظ على الشريعة والتشدّد في تطبيق أحكامها[٢].

تعليقاً على نظرية «ايزنمان»، نورد الملاحظات التالية:

هناك الكثير من الوقائع والآراء الصحيحة في نظرية «أيزنمان»، وأهمها اعتباره أن السياق التاريخي للحرب اليهودية الكبرى يشكّل الخلفية التاريخية لمخطوطات البحر الميت، واعتقاده أن سيرة «رجل الكذب» مشابهة تماماً لسيرة بولس الرسول. فقد تميّزت الجماعة المسيحية الأولى بوجود تيّارين فيها[٣]: واحد يدعو إلى التشدّد في تطبيق الشريعة الموسوية، وعلى رأسه يعقوب الثاني، رئيس الجماعة المسيحية الأولى في أورشليم. وآخر يدعو إلى مسيحية متحررة من عقدة الشريعة، وعلى رأسه بولس الرسول الذي أكّد أن الخلاص يأتي من الايمان وليس بفضل العمل بأحكام الشريعة[٤].

غير أن «أيزنمان» أخطأ في تحديد جماعة قمران وشخصية مؤسسها.

١- EUSEBE, *H. E.*, II, 23, 2-6.

٢- Robert EISENMAN, *The Dead Sea Scrolls and the first Christians*, p. 112-113.

٣- رسل ١٥: ١؛ غل ١: ٦ - ٩؛ ٢: ١١-١٤؛ ٢ كور ١١: ٤-٦ و ٢١- ٢٢.

٤- روم ٣: ٢١-٢٢؛ اف ٢: ١٥.

فوجود فريق من «أنصار الشريعة» في صفوف الجماعة المسيحية الأولى في أورشليم، لا يعني أن موقف يعقوب والرسل والشيوخ من الشريعة الموسوية مشابه لموقف جماعة قمران التي اعتبرت الشريعة ركناً أساسياً في عملية الخلاص. بل على العكس، فإننا نجد لدى يعقوب والرسل تفهّما دائماً لمواقف بولس المتطرّفة من الشريعة، والداعية لاعتبارها غير ضرورية في خلاص الانسان[1]. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن الجوّ الأصولي السائد آنذاك في فلسطين، والمعادي لكل العناصر الغريبة عن الأمة اليهودية ولكل ما يهدّد الشريعة الموسوية، فرض على المسؤولين في كنيسة أورشليم اتخاذ جانب الحذر حفاظاً على الاستمرارية، وخاصةً بسبب الاضطهاد والضغوط الاقتصادية التي تعرّض لها المسيحيون الأوائل في منطقة اليهودية والتي نجد بعض الإشارات التاريخية الدالة عليها في عدد من رسائل بولس[2].

أما بالنسبة إلى تحديد هوية معلّم البرّ. فقد أخطأ «أيزنمان» عندما ذكر أن يعقوب الثاني هو معلّم البر نفسه. فهناك أمور كثيرة في سيرة يعقوب تتوافق مع سيرة معلّم البرّ إلى جانب أمور أخرى تتعارض معها. فما قيل عن لسان هيجسبوس بأن الزيت لم يلطّخ جسد يعقوب، يتوافق مع ما أخبره يوسيفوس عن الأسينيين الذين كانوا يرون في الزيت وسخاً[3]. لكن القول إن يعقوب كان يدخل إلى قدس الاقداس في هيكل أورشليم، يعني أنه كان بمنزلة الكاهن الأعظم، وهذا الأخير هو الوحيد الذي كان يحقّ له الدخول إلى ذلك المكان المقدّس، ولمرة واحدة فقط في السنة. غير أنه لا يوجد في مخطوطات

١- سجّل كاتب أعمال الرسل موقفين متسامحين ليعقوب والرسل وشيوخ الكنيسة في أورشليم تجاه مواقف بولس المعارضة لاعتبار الشريعة الموسوية ضرورية في عملية الخلاص، أولهما خلال مؤتمر أورشليم الأول (رسل ١٥: ١-٢٩) المنعقد حوالى سنة ٤٩ م.، وثانيهما بعد رجوع بولس من رحلته الرسولية الأخيرة سنة ٥٨ م. وكان قد بلغ يعقوب وشيوخ الكنيسة في أورشليم أن بولس «يعلّم اليهود المنتشرين بين الوثنيين فيدعوهم إلى التخلّي عن موسى ويوصيهم بألاّ يختنوا أولادهم». فاقترحوا على بولس أن يطّهر ويحلق رأسه ليثبت لأنصار الشريعة أنه «سالك مثلهم طريق الحفاظ على الشريعة» (رسل ٢١: ٢٠-٢٤). وفي عملهم هذا دلالة على تفهّمهم وعلى تأييدهم الضمني لمواقفه.

٢- ١ تس ٢: ١٤-١٥؛ ٢ كور ٨: ١-٤؛ ٩: ١-١٥؛ روم ١٥: ٢٦.

٣- JOSEPHE, *Guerre*, II, 8, 3, § 123.

البحر الميت ما يؤكد أن معلّم البر كان بمنزلة الكاهن الأعظم.

وقد ذُكر عن يعقوب أيضاً أنه لم يشرب خمراً ولم يأكل لحماً. وهذا القول يتعارض مع مضمون عدد من المخطوطات التي تؤكد وجود الخمر غير المسكر في المآدب المشتركة لدى جماعة قمران. فقد أوجبت الأنظمة أن يبارك الكاهن تلك المآدب، وأن يمدّ يده أولاً إلى بواكير الخبز والخمر[١]. ولو صحّ أن يعقوب كان بمنزلة عظيم الكهنة في جماعة قمران، لوَجب عليه المشاركة في تلك المآدب المقدسة، من أجل مباركة طلائع الخبز والخمر. لكنّ ما ذُكر عنه بأنه لم يشرب خمراً في حياته، يثبت أنه لم يكن ينتمي إلى جماعة قمران التي كانت تحتفل سنوياً بعيد الخمرة الجديدة. كما أن ما روي عن يعقوب بأنه لم يتناول اللحم طوال حياته، يتعارض مع أعمال التنقيبات الأثرية في خربة قمران التي أكدت وجود عظام غنم وماعز وبقر[٢]، وُضعت في جرار وأوعية، وطُمرت في الفسحات المحيطة بالأبنية. وقد أكّد «شيفمان» أن تلك العظام هي بقايا لوجبات طعام جرى تناولها في أثناء المآدب المقدسة في قمران التي تعتبر مقدمة للمأدبة المشيحية الكبرى في نهاية الأزمنة[٣]. فإذا كان يعقوب لم يتناول لحماً في حياته، فهذا يعني عدم اشتراكه في مآدب قمران المشيحية. أضف إلى ذلك أن ما أُشيع عنه في المصادر المسيحية واليهودية-النصرانية لناحية تشدّده في مراعاة أحكام الشريعة، هو أمر مبالغ فيه، لأن التهمة التي استند اليها مجلس السنهدرين لإصدار حكمه برجم يعقوب هي «مخالفة الشريعة»، وذلك وفقاً لشهادة يوسيفوس[٤].

أما في ما يتعلق برجل الكذب، فمن المرجّح جداً أنه يرمز إلى بولس الرسول، كما ذكر العديد من الباحثين. فبسبب نجاح رحلاته الرسولية وما

١- 1QSa, II, 17-22.

٢- J. DUHAIME, «Remarques sur les dépôts d'ossements d'animaux à Qumrân», *RQ,* n° 34 (1977), p. 247.

٣- Lawrence H. SCHIFFMAN, «Communal meals at Qumran», *RQ,* n° 37 (1979), p. 48 et 55.

٤- JOSEPHE, *Ant. Jud.,* XX, 9, 1, § 200.

أشيع عنه أنه كان يدعو اليهود المنتشرين بين الوثنيين إلى التخلّي عن موسى، ويوصيهم بألاّ يختنوا أولادهم وألاّ يتبعوا السُنَّة[1]، أصبح بولس، منذ أواسط القرن الميلادي الأول فصاعداً، العدو اللدود لعدد من الجماعات اليهودية واليهودية-النصرانية. فقد كان عدواً للمتهوّدين الذين جاؤوا من فلسطين حوالى سنة ٥٦ م.، ليكرزوا بشارة أخرى[2] للعهد الجديد في الكنائس التي أسسها في بلاد غلاطية ومدينة كورنتس. وقد زعم هؤلاء أن بولس هو رسول كاذب، وأن إنجيله مختلق، لأن العهد الجديد بنظرهم هو في الحفاظ على الشريعة الموسوية. وكان بولس عدواً للكثير من يهود الشتات، فقد جرى اعتقاله سنة ٥٨ م. بناءً على تهمة وجّهها إليه أشخاص يقيمون في ولاية آسية، ومفادها أن بولس تخلّى عن الشريعة. وكان له أعداء في فلسطين أيضاً، ومنهم هؤلاء اليهود الأصوليين الذين تآمروا مع الأحبار والشيوخ لاغتياله إثر اعتقاله[3]. أما في ما يتعلق بالأسينيين المعاصرين لبولس، فلا شكّ أنهم سمعوا ما أشيع عنه وعن ازدرائه الشريعة الموسوية، إذ كانوا، حين اعتقاله، منتشرين في كلّ أنحاء فلسطين، وفي مدينة أورشليم بشكل خاص. فمن المفترض إذاً أنهم اعتبروه عدوّاً لدوداً لهم، لأنهم فاقوا معاصريهم اليهود بالتعصب للشريعة الموسوية، ولأن أنظمتهم كانت تلزم معاقبة مخالفي الشريعة، كونهم «موكّلين بالتكفير عن الأرض واسقاط العقوبات على الكافرين»، و «على الذين يخالفون فريضة من الفرائض»[4]. والجدير ذكره أن بولس ظلّ يُعتبر العدوّ الأول للجماعات اليهودية-النصرانية الهرطوقية التي نشأت في القرون الأولى للميلاد، ومنها على سبيل المثال وليس الحصر، تلك الجماعة التي اتخذت من انجيل برنابا كتاباً مقدساً لها، وفيه ينتقد الكاتب بولس ويعتبره ضالاً لقوله إن المسيح هو ابن الله ولرفضه الختان[5].

١- رسل ٢١: ٢١ و٢٨.

٢- ٢ كور ١١: ٤؛ غل ١: ٦.

٣- رسل ٢١: ٢٧-٣٦؛ ٢٣: ١٢-١٥.

٤- 1QS, V, 6-7; VIII, 6-7.

٥- **انجيل برنابا**، ص ٣.

رابعاً- أصحاب المخطوطات وسرّ نشأتهم

أثبتت التنقيبات الأثرية التي أجريت في موقع قمران واقعة إخفاء مخطوطات البحر الميت خلال الحرب اليهودية الكبرى ضد الرومان. ومن المعروف أن الأسينيين كانوا يشغلون ذلك الموقع استناداً إلى شهادة بلينوس الكبير المعاصر لهم، والذي كتب عنهم نبذة قصيرة قبل سنوات معدودة من اندلاع الحرب اليهودية. وقد أجرى بلينوس تعديلاً طفيفاً على نبذته المذكورة بعد نهاية تلك الحرب، لكنه لم يذكر أبداً أن جماعة أخرى حلّت محلّ الأسينيين في موقع سكنهم الكائن في الشمال الغربي من شاطئ البحر الميت. وهذا يدلّ على أن الذين قاموا بإخفاء المخطوطات في المغاور المجاورة لخربة قمران هم الأسينيون أنفسهم، أي أنهم أصحاب مخطوطات البحر الميت.

هناك الكثير من البراهين التي تدعم هذا الرأي. فبالرغم من تردّد عدد من الباحثين في اعتبار الأسينيين وجماعة قمران جماعة واحدة، نظراً لما ذكرته المصادر عن إيثار الأسينيين للسلام، فقد رأينا عند تحليل تلك المصادر، أن الأسينيين كانوا يترقّبون مجيء المسيّا[1] على غرار جماعة قمران وغيرها من الجماعات الأصولية التي كانت تسعى إلى التحرر من سلطة الرومان قبيل اندلاع الحرب اليهودية الكبرى. ومن المعروف أن هذه العقيدة كانت من الأسباب الرئيسة التي أدّت إلى اندلاع الحرب اليهودية[2]، ما يعني أن اليهود الذين آمنوا بها، ومنهم الأسينيون، شاركوا فعلاً في الحرب اليهودية الكبرى. وبالفعل فقد ذكر يوسيفوس إسم أحد قادتهم ويُدعى يوحنا الأسيني الذي شارك في الهجوم على مدينة عسقلان في بداية الحرب، كما أكّد تعرّضهم للاضطهاد وتحمّل شتى أنواع العذاب على أيدي الرومان، وأشاد بشجاعتهم وإيثارهم الموت على مخالفة الشريعة[3]. وهذا الأمر يعني أن الأسينيّين كانوا يستعدّون سرّاً للحرب ضد الرومان ومخالفي الشريعة. ومن

١- أنظر الباب الثاني، الفصل الثالث من هذا الكتاب، ص ١٣٣ وما يليها.

٢- JOSEPHE, *Guerre,* VI, v, 4 § 312.

٣- *Ibid.,* II, viii, 10, § 152-153; II, xx, 4, § 566-568; III, ii, 1, § 9-12.

المرجّح أنهم تظاهروا، قبيل اندلاع الحرب، بحبّهم للسلام وكرههم للحرب وأدواتها، رغبةً منهم في إزالة الشكوك حول استعداداتهم العسكرية السرية التي كان يجري التحضير لها انطلاقاً من موقع قمران. وهذا ما جعل الرومان يهاجمون ذلك الموقع الذي سقط بيدهم سنة ٦٨ م.

إذاً يرتبط إسم الأسينيين بالحرب اليهودية الكبرى دون غيرها من حروب بني إسرائيل، وهذا يؤكد أنها محطة رئيسة في تاريخهم الغامض. وتُعتبر تلك الحرب حرباً إسكاتولوجية بنظر الثوار اليهود الذين شاركوا فيها، لأن تأثيرها طاول الشعب اليهودي بأسره، وهي الوحيدة التي تستحق تلك الصفة منذ بداية القرن الثاني قبل الميلاد حتى نهاية القرن الميلادي الأول.

وإذا كانت الحرب اليهودية التي اندلعت سنة ٦٦ م. محطة رئيسة في تاريخ الأسينيين، فلا بدّ من التساؤل حول الزمن الذي نشأوا فيه. هنا تتعارض المصادر الكلاسيكية مع الأصول، أي مع مخطوطات البحر الميت. فأيهما أصدق المصادر أم الأصول؟

تذكر المصادر أن الأسينين نشأوا في العصور الغابرة دون أن تحدّد زمن نشأتهم بشكل دقيق. أما الأصول فتؤكد أن جماعة قمران كانت، منذ تأسيسها على يد معلّم البرّ، تعيش مرحلة نهاية الأزمنة، كما تحدّد بعض المخطوطات المدة الزمنية الفاصلة بين موت معلّم البرّ ومجيءّ المسيّا للمشاركة بالمعركة الاسكاتولوجية النهائية بحوالى الأربعين سنة. ولما كانت الحرب اليهودية الكبرى هي المعركة الاسكاتولوجية النهائية التي ترقّبت فيها جماعة قمران مجيء المسيّا للقضاء على الأشرار، فهذا يعني أن تلك الجماعة تأسست قبل أربعين سنة تقريباً من نهاية تلك الحرب، أي أن زمن نشأتها معاصر لنشوء الجماعة المسيحية الأولى أو أنها نشأت بعدها بفترة قصيرة.

ولا نجد في المخطوطات أيّة إشارة يُفهم منها أن المسيّا المنتظر قد جاء فعلاً، أو أن الأسينيين ربحوا معركتهم النهائية ضد الأشرار أو خسروها، وهذا عائد إلى أن المخطوطات أودعت في مخابئها خلال الحرب الاسكاتولوجية التي شارك أصحابها فيها، أي عندما لم تكن النتيجة النهائية قد حُسمت بعد لصالح أعدائهم الرومان.

هناك أمور أخرى تدعم رأينا القائل بعدم تواجد الأسينيين في العصور

السابقة للقرن الميلادي الأول، إذ لا يذكر التاريخ أي مصدر يتعلّق بهم يشير إلى أن صاحبه عاش في القرون السابقة للميلاد. وباعتقادنا أن أقدم المصادر على الاطلاق حول موضوع الأسينيين، هو ما كتبه فيلون الاسكندري في مبحثه «كل فاضل هو حر»، بالإضافة إلى النبذة التي كتبها بلينوس الكبير عنهم في مؤلفه «التاريخ الطبيعي». فهذان النصّان يعكسّان الظلال التاريخية لمرحلة نشوء جماعة قمران في البرية. فقد وصف بلينوس الأسينيين أنهم شعب من أغرب الشعوب، يعيش منفرداً في صحبة النخيل (=البرية)، في موقع كائن إلى الغرب من البحيرة الأسفلتية (=موقع قمران)، وهم يعيشون دون نساء ولا حبّ ولا مال، أي أنهم مجتمع مكوّن من الذكور الذين يمارسون العفّة المطلقة. إن ما ذكره بلينوس هو فائق الأهمية. فقد تحدث عنهم استناداً إلى المعطيات المعروفة في عصره، حين كانوا قد غادروا مدن فلسطين إلى البريّة، وهي المحطة الأولى من تاريخهم، ولم يكونوا قد قرّروا العودة مجدداً إلى المدن التي هجروها. ويدعم هذا الرأي ما ذكره فيلون الاسكندري في «كل فاضل هو حر». فبعد أن ذكر فيلون أن عدد الأسينيين يتجاوز الأربعة آلاف من الرجال الذين يعيشون حياة قداسة وبتولية، عاد وأكّد أنهم «يسكنون القرى ويهجرون المدن»[1]. إذاً، في الزمن الذي نشر فيه فيلون وبلينوس الكبير كتابيهما المذكورين أعلاه، لم يكن الأسينيون قد أعادوا انتشارهم في مدن فلسطين.

ونجد في مخطوطة «نظام الجماعة»، وهي من النصوص القديمة الخاصة بجماعة قمران، ظلالاً تاريخية مشابهة لما ذكرته المصادر المشار إليها أعلاه، حيث ورد فيها نداء موجّه لبني اسرائيل للانفصال عن المجتمع الفاسد والرحيل إلى البريّة لإعداد الطريق لـ«يهوه». وتؤكد تلك المخطوطة أن أعضاء الجماعة هم من الرجال الذين ينشدون القداسة ويسعون إلى الكمال[2]. كما تشير أيضاً إلى توزّع أفراد الجماعة على أخويات لا يقلّ عدد الواحدة منها

١- PHILON, *Quod Omnis,* 76.

٢- 1QS, VIII, 13-14; IX, 8.

عن عشرة أشخاص[1]. وأغلب الظن أن هذا الانتشار كان لا يزال محصوراً بمنطقة قمران والقرى النائية، إذ لا وجود في «نظام الجماعة» لأية إشارة تؤكد عودة أعضاء الجماعة إلى المدن التي غادروها.

ويلاحظ وجود تطوّر في السلوك الاجتماعي لدى الأسينيين في كتاب «الدفاع عن اليهود» الذي نشره فيلون بعد سنوات عديدة من صدور كتاب «كل فاضل هو حر» حيث ذكر فيلسوف الاسكندرية، أن الأسينيين هم من الرجال الناضجين الذين يعيشون في أخويات حياة قداسة وبتولية، لكنه أكّد أنهم «يسكنون عدداً من مدن اليهودية والقرى والأماكن الآهلة بالسكان»[2]. إذاً في الزمن الذي كتب فيه فيلون كتابه «الدفاع عن اليهود»، كان الأسينيون قد بدأوا انتشارهم مجدداً في مدن فلسطين.

ونلاحظ المزيد من التطوّر في السلوك الاجتماعي لدى الأسينيين في النصوص التي نشرها يوسيفوس باللغة اليونانية، وهي أحدث عهداً من المصادر السابقة. فقد أكّد مؤرّخ الحرب اليهودية أنهم يتوزّعون في جميع مدن فلسطين حيث يعيشون بأعداد كبيرة. كما ذكر وجود جماعة أخرى من الأسينيين تؤثر الزواج على البتولية حفاظاً على النسل[3]. ويتزامن هذا التطوّر في الحياة الاجتماعية لدى الأسينيين، استناداً إلى المصادر المعاصرة لهم، مع تطوّر الحياة الاجتماعية لدى جماعة قمران، إذ نجد في «ملحق نظام الجماعة» إشارة الى النساء والاولاد وإلى إمكانية زواج الأعضاء[4]، كما تذكر «وثيقة دمشق» وجود أعضاء يعيشون في مخيّمات مع نسائهم وأولادهم. وتؤكد تلك المخطوطة انتشار أعضاء الجماعة في مدن اليهودية[5]. إن هذا التطوّر المتوازي بين الأصول والمصادر لناحية هجر المدينة إلى البرية، ومن ثمّ العودة مجدداً إلى المدن، إضافة الى اتخاذ موقف مبدئي معادٍ للمرأة، ثم السماح

١- 1QS, VI, 3-5.

٢- EUSEBE, *Prép. Ev.*, VIII, 11, 1, 3 et 5.

٣- JOSEPHE, *Guerre,* II, viii, 4, § 12; 13, § 160-161.

٤- 1QSa, I, 4 et 10-12.

٥- CD-A, VII, 6-7; XI, 5.

فيما بعد بالزواج، يدلّ على انتماء الأصول والمصادر إلى سياق تاريخي واحد.

وهنا لا بدّ من التساؤل، إذا كان الأسينيون قد نشأوا بعد ظهور المسيحية بمدة قصيرة، فكيف اقتنع معاصروهم، وخاصةً بلينوس الكبير، انهم تواجدوا منذ ألوف الدهور؟

عندما نشأ الأسينيون في موقع قمران، كانت الأبنية لا تزال قائمة وصالحة للسكن في ذلك الموقع. وكان يشغلها، على الأرجح، عدد من المتزهّدين الذين يُحتمل أن يكونوا من فلول طائفة الحسيديين. وقد مثّلت تلك الطائفة دوراً مهماً في الدفاع عن الشريعة الموسوية في بداية الحرب المكابية، فلما زال الخطر المهدّد للشريعة، شيّدوا لهم في منطقة قمران مقرّاً رئيساً سكنوه خلال فترة طويلة، عُرِفوا خلالها بأنهم من أهل الصلاح والتقوى، كما اشتهر بعضهم بموهبة التنبؤ عن المستقبل. وبعد احتلال فلسطين على يد الرومان، تابع شاغلو أبنية قمران زهدهم وتنسّكهم بشكل هادئ في ذلك الموقع النائي. ولكن في الزمن الذي بدأت فيه المسيحية تستقلّ شيئاً فشيئاً عن الديانة اليهودية، خاصةً خلال رحلات بولس الرسولية التي أكّد فيها أن الشريعة الموسوية ليست ضرورية في عملية الخلاص، أصبحت المسيحية تشكّل خطراً جدّياً على الديانة اليهودية. فقد كان الفريسيّون، قبل ذلك، على استعداد للسفر إلى أقاصي المعمورة لإقناع أحد الوثنيين باعتناق الديانة اليهودية. وكانوا غالباً ما يفشلون في مهمتهم، لأن الوثنيين عرفوا صعوبة تطبيق أحكام الشريعة، وخاصةً الختان. لكن مع نشوء المسيحية وقيام بولس برحلاته التبشرية إلى العالم الهليني-الروماني، آمن على يده وأيدي معاونيه الكثير من الوثنيين. وقد ساهم في نجاح بشارة بولس، إعفاء الوثنيين من واجب الختان[1]، وتأكيده أن الإيمان، وليس الشريعة الموسوية، هو السبيل الوحيد إلى الخلاص. إذاً، أمام هذه الظروف، وأمام التحدّي الكبير الذي شكّلته المسيحية تجاه الديانة اليهودية، نشأت موجة من الأصولية الدينية التي كانت تدعو الى تطهير فلسطين من العناصر الغريبة عن الأمة اليهودية والمهدّدة للشريعة الموسوية. وسرى الاعتقاد لدى الجماعات الأصولية، كالزيلوت

١- رسل ١٥: ١-٢٩.

وغيرهم، أن نهاية الأزمنة قد بدأت فعلاً. وكان هؤلاء يعتقدون ان خلاص الشعب اليهودي هو في تحرير بلادهم من الرومان، والقضاء على المتعاونين معهم، وإبادة مخالفي الشريعة أينما وُجدوا. وقد دعوا علناً للثورة ضد المحتل الأجنبي، وشنّوا على الرومان حرب عصابات. أما الأسينيون، فقد آثروا الاستعداد الهادئ للثورة ضد الرومان. وفي الزمن الذي لم يكن فيه اسم المسيحيين قد شاع استعماله بعد، كانت صفة الشفاء الروحي والجسدي هي الصفة الغالبة على الذين آمنوا بتعاليم يسوع الناصري. كما عُرف عنهم محبتهم لبعضهم البعض وعيشهم المشترك، وقيامهم بأعمال الرحمة والتسامح. وكانوا يعتقدون أنهم يمثّلون العهد الجديد. وهذه الصفات والمعتقدات تمثّل قاسماً مشتركاً مع الأسينيين المعاصرين لهم، بحيث كان من الصعب جداً على السلطات الرومانية التمييز بين الجماعتين.

في هذا السياق التاريخي الذي نشأت فيه جماعة الأسينيين، تتضح لنا رموز الشخصيات الغامضة التي تتحدث عنها المخطوطات. فمعلّم البرّ الذي يُعتبر مؤّسس تلك الجماعة ومعلّمها الأوحد، هو صورة ليسوع الناصري وفق نظرة الأسينيين اليه. فقد وافقوا على أنه كان إنساناً ومعلّماً للبرّ، لكنهم رفضوا أن يكون المسيّا المنتظر، لأنهم كانوا ينتظرون مسيحاً ملكاً يعيد المجد لملكة داود، ومسيحاً كاهناً من نسل هارون، يجدّد العهد الذي قطعه موسى مع ربّه. أما الكاهن الشرير الذي اضطهد معلّم البر وتسبّب بموته، فيرمز إلى قيافا، كبير الكهنة في أورشليم. ولا شكّ أن رجل الكذب الذي احتقر الشريعة أمام الجماعة، هو بولس الرسول الذي تتفق معظم الجماعات اليهودية-النصرانية الهرطوقية على اعتباره رسولاً كاذباً. وبالتالي، يمكن اعتبار الأسينيين في طليعة المذاهب اليهودية-النصرانية الهرطوقية التي كانت تهدف الى إعادة المسيحيين الى حظيرة الشريعة الموسوية.

وهناك أهداف أخرى لنشوء الأسينيين، لعلّ أهمها حماية الثورة التي كانوا يستعدّون لها سرّاً في قمران ضد السلطات الرومانية، حتى اذا انكشفت تلك الثورة او أخفقت، كان من السهل جداً اتهام المسيحيين بإشعالها، فتعمد السلطات الرومانية إلى اضطهادهم. ويمكن تأييد هذا الرأي بحادثتين، حصلت الأولى في كنيسة أفسس عندما زعم هومنّايُس وفيليطُس أن القيامة

قد أتت[1]. وربما كان ادّعاؤهما من الأسباب التي أدّت إلى ابتعاد الكثير من المؤمنين في ولاية آسية الرومانية عن المسيحية[2]. كما يرجّح أن يكون هومَنايُس وفيليطُس من علماء الشريعة المتهوّدين المندسّين في كنيسة أفسس، لأن زعمهما بمجيء القيامة مرتبط بالمعركة الإسكاتولوجية الكبرى ضد روما التي اندلعت في فلسطين في السنة عينها. أما الحادثة الثانية، فهي بدء اضطهاد المسيحيين في روما، وقد حصل ذلك سنة ٦٦م. وقد أشار المؤرخ الروماني «تاسيت» الى تلك الحادثة فقال ، وفقاً لما نقله دانيلو، ما حرفيته:

«بهدف إسكات الاشاعات حول حريق روما، اتّهم نيرون اشخاصاً مكروهين بسبب أعمالهم الفظيعة، يسمّيهم العامة مسيحيون. وقد دُعوا بهذا الاسم نسبة إلى المسيح الذي سلّمه المحصل بيلاطس البنطي للعذاب في عهد طيبيريوس... ففي البدء قُبض على الذين اعترفوا بإيمانهم بالدين المسيحي، وبفضل افاداتهم تمّ اعتقال الكثيرين غيرهم. ولم تكن التهمة بسبب اشعال المدينة فقط، بل بسبب حقدهم على الجنس البشري»[3].

والجدير ذكره أن تهمة الحقد على الجنس البشري لا تنطبق على المسيحيين، خاصةً في العهد الرسولي، بل تنطبق على الأصوليين اليهود الذين كانوا يعيشون الآمال المشيحية في تلك الفترة، كالزيلوت والأسخريوطيين والأسينيين وغيرهم. والدليل على ذلك أن مخطوطة «نظام الحرب» تؤكد بوضوح أن الحرب الإسكاتولوجية التي خطّط لها الأسينيّون موجّهة ضد بني سام وحام ويافث[4]، أي ضد الجنس البشري بكامله.

١- ١ طيم ٢: ١٨.

٢- ١ طيم ١: ١٥.

٣- *N. H. E.*, vol. 1, p. 112.

٤- 1QM, II, 10-14.

الخاتمة

بالرغم من التقدّم السريع، منذ أوائل التسعينيات في القرن الماضي، في عملية نشر مخطوطات البحر الميت التي شارفت على الانتهاء، لم يحصل أيّ تقدّم ملموس في جلاء الغموض الذي يكتنف أصحابها. فقد تعددت آراء الباحثين حول هذا الموضوع، فقال معظمهم إن الأسينيين هم أصحاب المخطوطات نظراً للتشابه الكبير في نمط العيش المشترك بينهم وبين جماعة قمران. لكن عدداً من الباحثين رفض هذا الرأي لما لمسوه لدى أصحاب المخطوطات من أصولية دينية، وعداء للغريب المحتل، واعتقادهم أن الزمن الذي عاشوا فيه هو آخر الأزمنة التي سيتوّجها مجيء المسيّا المنتظر ليحكم العالم بأسره. وهذه المعطيات لا تتوافق برأيهم مع ما اشتهر به الأسينيون من محبة وإيثار للسلام وكره للحرب وأدواتها. لذلك افترض القائلون بهذا الرأي أن أصحاب المخطوطات هم من الزيلوت الغيورين على الشريعة، واعتبروا أن الحرب اليهودية الكبرى ضد الرومان تشكّل الخلفية التاريخية لمخطوطات البحر الميت. ولاحظ عدد آخر من الباحثين وجود تأثير يهودي-نصراني في عدد من المخطوطات، فقالوا إن أصحابها هم إحدى الجماعات اليهودية-النصرانية التي ظهرت في القرون التالية لنشوء المسيحية.

والجديد في هذه الدراسة أنها دراسة تحليلية تأخذ بعين الاعتبار جميع المعطيات التي توفرها الأصول والمصادر ونتائج التنقيبات الأثرية في موقع قمران.

ونتيجة للبحث والتحليل والمقارنة والاستدلال، توصلنا إلى الفرضية التالية: الأسينيون هم فعلاً أصحاب مخطوطات البحر الميت. لكن ما زعمه أصحاب المصادر لناحية وجود الأسينيين في القرون السابقة للميلاد هو غير صحيح، لأنهم نشأوا بعد ظهور المسيحية بوقت قصير (حوالى ٤٠ م.)، أي في بداية الحقبة الممهّدة لاندلاع الحرب اليهودية الكبرى ضد الرومان التي شارك الأسينيون فيها. وقد شهدت تلك الحرب نهايتهم كجماعة منظمة.

والجدير ذكره أن أقدم المصادر التي تحدثت عن الأسينيين تعود إلى القرن الميلادي الأول، ولا نجد فيها أو في المصادر اللاحقة، أية إشارة إلى مصادر أخرى عن الأسينيين كُتبت في العصور السابقة للميلاد. وأقدم من كتب عنهم هو الفيلسوف اليهودي فيلون الاسكندري الذي ذكرهم في سياق دفاعه العام عن اليهود الذي نشط فيه منذ عهد الامبراطور كاليغولا (٣٧-٤١م). وبعده بفترة قصيرة، كتب بلينوس الكبير نبذة عن الأسينيين زعم فيها أنهم نشأوا منذ ألوف الدهور. ولا شكّ أن المؤرخ اليهودي يوسيفوس كان أكثر دقة من سابقيه، فلمّح في مؤلفاته الصادرة باليونانية، إلى تواجد الأسينيين في القرون السابقة للميلاد من خلال سرده لبعض الروايات المتعلقة بمشاهيرهم. غير أن تلك الروايات ترد أيضاً في مصدر منسوب إلى المؤرخ نفسه، جرى تعريبه في القرن العاشر الميلادي عن اللغة العبرية القديمة، وهو بعنوان «تاريخ يوسيفوس اليهودي»، وفيه نجد اسم الحسيديين في المواضع التي ذُكر فيها اسم الأسينيين في مؤلفات يوسيفوس المنشورة باليونانية. وهذا يعزّز رأينا القائل باحتمال أن تكون طائفة الأسينيين قد أعطيت عمقاً تاريخياً على حساب طائفة يهودية أخرى.

وقد اتّخذ الأسينيون من بناء «خربة قمران» مقرّاً رئيساً لهم منذ نشأتهم. وكان البناء آنذاك صالحاً للسكن، لكننا لا ندري إذا كان شاغراً أو مأهولاً. فإن كان مأهولاً، فهذا يعني أنهم تحدّروا من جماعة يهودية قديمة، نرجّح أنها من فلول طائفة الحسيديين الذين شاركوا سابقاً في الحرب المكابية ضد السلوقيين. وقد اشتهر هؤلاء ببعض الصفات التي تميّز بها الأسينيون لاحقاً، كالتنبوء والتزهّد والتقوى والغيرة على الشريعة. ومن المرجّح أن الأسينيين ادّعوا العراقة في التاريخ لتبرير حيازتهم بعض النصوص التي زعموا أنهم ورثوها عن آبائهم، كسفر أخنوخ ووصية لاوي وسفر التكوين المنحول وعدد آخر من النصوص التوراتية المنحولة. فاعتقد معاصروهم أنهم يشكّلون استمرارية للذين سبقوهم في سكنى «خربة قمران» القديمة البنيان.

وقد ثبت من دراسة المصادر وتحليلها، أن الحرب اليهودية الكبرى كانت محطة رئيسة في تاريخ الأسينيين، إذ يُستنتج من شهادة بلينوس الكبير، المتوفي سنة ٧٩م، أن هؤلاء كانوا يشغلون موقع قمران قبل اندلاع تلك الحرب.

كما ذكر المؤرخ اليهودي يوسيفوس إسم أحد قادتهم، المدعو يوحنا الأسيني، الذي شارك في الهجوم على مدينة عسقلان. وأكّد أيضاً أن الأسينيين ذاقوا مرّ العذاب على أيدي الجنود الرومان خلال الحرب المشار إليها[1]. أضف إلى ذلك ما أثبته علم الآثار من أن المخطوطات أخفيت في المغاور القريبة من «خربة قمران» قبيل احتلال ذلك الموقع على يد الجنود الرومان (٦٨م.).

وثبت أيضاً من دراسة مضمون النصوص وتحليل المصطلحات، أن الأسينيين كانوا يعيشون الآمال المشيحية على غرار جماعة قمران صاحبة المخطوطات. فقد نشأوا في البرية، كما هو ثابت من شهادة بلينوس الكبير. والبرية هي المحطة الأولى في الزمن المشيحي خلال الحروب المقدسة لبني إسرائيل. كما أن الارتحال إلى البرية، شكّل ظاهرة مميّزة لدى العديد من الجماعات اليهودية الأصولية خلال الحقبة الممهدة لاندلاع الحرب ضد الرومان.

ويوجد في مصادر الأسينيين الكثير من المصطلحات والعبارات التي ترتبط بمفهوم الحرب المقدسة وعقيدة المسيّا المنتظر، ومنها وجود فئة من الأسينيين الذكور كانوا يُحرّمون على المرأة الدخول إلى مخيّماتهم بسبب مفهوم الدناسة والنجاسة. وكان هؤلاء يريدون المحافظة على قداسة المعسكر وطهارته، لاعتقادهم أنهم في خضّم معركة اسكاتولوجية مقدسة، وأن «يهوه» سيتفقّدهم ويقيم في وسطهم مع جيوش ملائكته لينصرهم على أعدائهم.

وقد سعى الأسينيون نحو القداسة التي شهد لهم بها كلّ من يوسيفوس وفيلون. فألزموا أنفسهم بالمحافظة على النقاوة والطهارة، وواظبوا على التطهّر بالماء وارتداء اللباس الأبيض قبيل اشتراكهم باجتماعاتهم ومآدبهم المقدسة. كما وجب عليهم الابتعاد عن المعسكر عند إراحة أجسادهم، واستعمال أداة شبيهة بالمعول بهدف الحفاظ على نظافة المكان. وكل هذه الأمور تدلّ على إيمانهم بعقيدة الحضور الإلهي في وسطهم، وبالتالي على أنهم كانوا يستعدّون لشنّ حرب مقدسة ضد أعدائهم، ونعني بذلك الرومان ومخالفي الشريعة. مع الإشارة إلى أن المأدبة المقدسة التي كانوا يجتمعون

١- JOSEPHE, *Guerre,* II, viii, 10, § 152-153; II, xx, 4, § 566-568; III, ii, 1, § 9-12.

حولها كل يوم، هي استباق للوليمة الاسكاتولوجية الكبرى، ودليل على ترقّبهم للمسيّا المنتظر، كما هو ثابت من مخطوطات البحر الميت. وإذا كان الأسينيون قد عاشوا الآمال المشيحية، فهذا يثبت اشتراكهم في الحرب اليهودية ضد الرومان، لأن تلك العقيدة كانت من الأسباب الرئيسة لاندلاع تلك الحرب[1].

لقد كان الأسينيون جماعة باطنية، يُظهرون للغرباء عنهم غير ما يضمرونه في قلوبهم. فقد بدوا لمعاصريهم أنهم مسالمون، وكارهون للحرب وأدواتها، في حين أنهم كانوا يستعدّون في السرّ، وانطلاقاً من مقرّهم الرئيس في قمران، لشنّ حرب اسكاتولوجية ضد أعدائهم، وذلك في زمن تعدّدت فيه أحزاب الزيلوت الغيورين على الشريعة الذين شنّوا حرب عصابات على الرومان والمتعاونين معهم. غير أن الفارق بين الأسينيين والزيلوت كبير، لأن يوسيفوس بالغ في الثناء على الأسينيين، في حين أنه صبّ جام غضبه على الزيلوت وغيرهم من اليهود المتطرفين.

وقد شكّل نشوء طائفة الأسينيين في قمران حدثاً مهماً في تاريخ اليهود، ارتسمت ظلاله التاريخية بشكل متواز ومتسلسل في الأصول والمصادر معاً، بدءاً من أقدمها حتى أحدثها عهداً، منذ أن هجر الأسينيون مدن فلسطين إلى البرية والأماكن النائية، ثم عودتهم تدريجياً إلى المدن وصولاً إلى أورشليم، وهي مدينتهم المقدسة التي دافعوا عنها حتى الرمق الأخير. هذه الظلال التاريخية المتوازية تدل على أن مخطوطات البحر الميت ومصادر الأسينيين تنتمي إلى سياق تاريخي واحد، وبالتالي فإن كتبة المخطوطات عاصروا اصحاب المصادر التي يعود أقدمها إلى مطلع العقد الخامس من القرن الميلادي الأول.

ويدور موضوع مخطوطات البحر الميت حول محور واحد هو قناعة أصحابها أنهم يعيشون، منذ نشأتهم، زمن الدينونة الذي سينتهي بمجيء المسيّا للقضاء على الأشرار وإبادتهم. وتحدّد بعض المخطوطات مدة تلك الحقبة بأربعين سنة تقريباً، أي ما يعادل جيلاً من الزمن، وهي المدّة ذاتها

١- JOSEPHE, *Guerre,* VI, v, 4 § 312.

التي تفصل بين وفاة مؤسس الجماعة وإبادة الأشرار على يد المسيّا المنتظر[1].
فإذا عدنا إلى الوراء مدّة أربعين سنة تقريباً، ابتداءً من نهاية الحرب اليهودية الكبرى وانطفاء الآمال المشيحية لدى الثوار اليهود[2]، يتبيّن لنا أن نشأة طائفة الأسينيين تقع في سياق نشأة الديانة المسيحية.

وفي هذا الإطار التاريخي، ينجلي الغموض المتعلّق بمؤسس الجماعة والكاهن الشرير الذي اضطهده. فمعلّم البرّ يرمز إلى معلّم المسيحية الأول، يسوع الناصري، الذي اشتهر ببرّه ومحبته للحق والصدق. أما الكاهن الشرير فيرمز إلى الكاهن الأعظم قيافا الذي اضطهد يسوع وتسبّب بموته. ولا شك أن «رجل الكذب» الذي ازدرى الشريعة، على ما ورد في بعض المخطوطات، يرمز إلى بولس الرسول. وكان بولس قد زار عدداً من مجامع اليهود في بلدان الشتات وبشّر أن الخلاص هو في الايمان وليس في العمل بأحكام الشريعة الموسوية.

لقد شكّل نشوء المسيحية تحدياً كبيراً للديانة اليهودية، فكان الردّ على هذا التحدي بتأسيس جماعة قمران. ومن المحتمل أن يكون أحد أهداف إنشاء تلك الجماعة حماية الثورة اليهودية ضد الرومان التي كان يجري التحضير لها سرّاً في قمران، في زمن تعدّدت فيه الجماعات الأصولية اليهودية المطالبة بالتحرّر من السلطة الرومانية، لاعتقاد زعمائها بحلول الزمن المشيحي. فجاءت جماعة «العهد الجديد» في قمران شديدة الشبه بالجماعة المسيحية الأولى التي كانت تعتقد بدورها أنها تمثّل «العهد الجديد». حتى إذا انكشف الاستعداد لتلك الثورة باكراً أو أنها أخفقت، كان من السهل جداً على السلطات الروحية اليهودية في ذلك الزمان اتهام المسيحيين بإشعالها، فتعمد السلطات الرومانية إلى الاقتصاص منهم. ومن المعروف أن الاضطهاد الأول

١- CD-B, XIX, 35 - XX, 1, 13-15.

٢- انتهت الحرب اليهودية الكبرى بسقوط أورشليم بيد الرومان سنة ٧٠ م.، ولكن المقاومة استمرت حتى سقوط حصن مسعدة سنة ٧٣ م. وقد هرب عدد من الثوار الاسخريوطيين إلى الاسكندرية والقيروان وحاولوا جرّ يهود الشتات لاعلان الثورة ضد روما ومتابعة حربهم الاسكاتولوجية من جديد، لكنهم فشلوا في تحقيق غاياتهم. أنظر: JOSEPHE, *Guerre*, VII, 10.

للمسيحيين حصل في عهد الإمبراطور نيرون، وفي السنة ذاتها التي اندلعت فيها الحرب اليهودية الكبرى.

ويُمكن وصف جماعة قمران الأسينية بأنها الجماعة اليهودية-النصرانية الأولى (بمعناها الهرطوقي) في تاريخ المسيحية، نظراً لنشوئها بعد المسيحية وليس قبلها. وربما كان الأسينيّون على علاقة بالمتهوّدين الذين حاربوا بولس وتعاليمه في كنائس غلاطية وكورنتس وأماكن أخرى، نظراً لوجود فكر لاهوتي واحد يربط بين هؤلاء جميعاً، وهو يرتكز على إقرارهم بأن يسوع الناصري كان رجلاً باراً ومعلّما للبرّ والتقوى، لكنهم أنكروا أن يكون المسيح، كما رفضوا ما علّمه بولس وغيره من الرسل بأن الإيمان بيسوع يحقق الخلاص. فالخلاص بنظرهم لا يتحقق إلا بممارسة الشريعة الموسوية. لذلك حاولوا ردّ المسيحية إلى أحضان الشريعة، وهو المبدأ الذي سارت عليه الجماعات اليهودية-النصرانية الهرطوقية التي هدّدت المسيحية منذ نهاية القرن الميلادي الأول فصاعداً.

ونتيجة لذلك، تطرح هذه الدراسة تساؤلات جديدة حول هذا العدد الهائل من النصوص التوراتية المنحولة التي وُجدت بين مخطوطات البحر الميت، والتي لم يكن لها أي تأثير على الديانة اليهودية، بل كان أثرها فاعلاً في الجماعات اليهودية-النصرانية الهرطوقية، وفي معتقدات الجماعات المسيحية الاولى. وهذا ما سنعمل على متابعته في دراسات لاحقة وصولاً إلى الحقيقة.

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن

لائحة المراجع العامة

أولاً- المصادر

أ- بالعربية

ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، الجزء الأول، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.

ابن منظور، **لسان العرب**، منشورات دار صادر، المجلد ١٤، بيروت، بدون تاريخ.

انجيل برنابا، ترجمة خليل سعاده، توزيع مكتبة ومطبعة محمد علي صبح واولاده بميدان الأزهر مصر، القاهرة، ١٩٠٨.

البلخي، **البدء والتاريخ**، الجزءان الأول والثاني، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧.

البيروني، **الآثار الباقية عن القرون الخالية**، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠.

الدمشقي، القديس يوحنا، **المئة مقالة**، تعريب الأرشمندريت أدريانوس شكور، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٤.

الرؤى المنحولة، ترجمة اسكندر شديد، (الكنيسة في الشرق -١٠-)، منشورات دير سيدة النصر، نسبيه- غوسطا، ١٩٩٩.

الشهرستاني، **الملل والنحل**، ٣ أجزاء، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، الجزء الأول، منشورات دار القاموس الحديث، بيروت، بدون تاريخ.

الفغالي، بولس- عوكر، انطوان - الخوري، نعمة الله وغيرهم، **العهد الجديد، ترجمة بين السطور**، الدكوانة (لبنان)، ٢٠٠٣.

الفغالي، الخوري بولس،

- **أخنوخ سابع الآباء: كتاب أخنوخ أو أخنوخ الأول وأسرار أخنوخ أو أخنوخ الثاني**، (على هامش الكتاب -٣-)، الرابطة الكتابية، بيروت، ١٩٩٩.
- **كتابات قمران: نظام الجماعة، ملحق نظام الجماعة، المباركات، نظام الحرب، المدائح**، (على هامش الكتاب -١-)، الجزء الأول، الرابطة الكتابية، بيروت، ١٩٩٧.
- **كتابات قمران: درج الهيكل، وثيقة صادوق، مزامير داودية، تفاسير بيبلية، منحول التكوين، مقاطع مختلفة**، (على هامش الكتاب -٢-)، الجزء الثاني، الرابطة الكتابية، بيروت، ١٩٩٨.
- **وصيّات الآباء الإثني عشر**، (على هامش الكتاب -٤-)، الرابطة الكتابية، بيروت، ٢٠٠٠.

الكتاب المقدس، منشورات دار المشرق، بيروت، ١٩٩٩.

المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، الجزء الأول، طبعة بربيه دي مينار وبافيه دي كرتاي عنى بتنقيحها وتصحيحها شارل بلا، منشورات الجامعة اللبنانية قسم الدراسات التاريخية (١١)، بيروت، ١٩٦٥.

يوسيفوس، **تاريخ يوسيفوس اليهودي**، طبع بنفقة سليم نقولا مدور وابرهيم سركيس، بيروت، ١٨٧٢.

ALLEGRO John M. - ANDERSON Arnold A., *Qumrân cave 4.I, 4Q158-4Q186,* (DJD, 5), Oxford, 1968.

BAILLET Maurice - MILIK Jozef Tadeusz - VAUX Roland de, *Les « Petites Grottes» de Qumrân: exploration de la falaise: les grottes 2Q, 3Q, 5Q, 6Q, 7Q à 10Q: le rouleau de cuivre,* (DJD, 3), Oxford, 1962.

BAILLET Maurice, *Qumrân grotte 4. III, 4Q482-4Q520,* (DJD, 7), Oxford, 1982.

BARC Bernard (éd.), *Colloque International sur les textes de Nag Hammadi, (Québec, 22-25 août 1978),* (Bibliothèque Copte de Nag Hammadi, Section «Etudes», 1), Québec, 1981.

BARTHELEMY Dominique - MILIK Jozef Tadeusz (éds.), *Qumran Cave 1,* (DJD, 1), Oxford, 1955.

BAUER J. B., *Les Apocryphes du Nouveau Testament,* (Lire la Bible, 37), Paris, 1973.

CARMIGNAC Jean - GUILBERT Pierre, *Les Textes de Qumran traduits et annotés,* (Autour de la Bible), vol. 1, Paris, 1961.

CARMIGNAC Jean - COTHENET E. - LIGNEE H., *Les Textes de Qumran traduits et annotés,* (Autour de la Bible), vol. 2, Paris, 1963.

CARMIGNAC Jean, *La Règle de la Guerre des fils de lumière contre les fils des ténèbres,* (Autour de la Bible), Paris, 1958.

DUPONT-SOMMER André - PHILONENKO Marc (éds.), *La Bible: Ecrits Intertestamentaires,* Paris, 1987.

EISENMAN Robert - WISE Michael, *Les Manuscrits de la Mer Morte Révélés: choix, traduction et interprétation de 50 textes clefs inédits,* traduit par Jean-Christophe Attias, Paris, 1995.

EISENMAN Robert - ROBINSON J. M., *A Facsimile Edition of the Dead Sea Scrolls,* 2 volumes, Washington, DC, 1991.

EPIPHANE, «Adversus Haereses», *P.G.,* Excudebatur et Venit Apud J.-p. Migne Editorem, tomus XLI, Parisiis, 1863.

EUSEBE DE CESAREE,

- *Histoire Ecclésiastique,* traduction et annotation par Gustave BARDY, (Sources Chrétiennes, n° 31), vol. 2, Paris, 1952.
- *La Préparation Evangélique,* introduction, traduction et notes par Guy SCHROEDER et Edouard des PLACES, (Sources Chrétiennes, n° 369), Paris, 1991.

JOSEPHE Flavius,

- *Antiquités judaïques,* traduction de G. MATHIEU et L. HERRMANN, (*Oeuvres Complètes de Flavius Josèphe,* collection éditée sous la direction de Théodore Reinach), tome 4, Paris, 1929.
- *Contre Apion,* texte établi et annoté par Théodore REINACH et traduit par Léon BLUM, (Collection Des Universités de France), Paris, 1930.
- *Guerre des Juifs,* traduction de René HARMAND, revisée et annotée par Théodore REINACH, (*Oeuvres Complètes de Flavius Josèphe,* collection éditée sous la direction de Théodore REINACH), tomes 5 et 6, Paris, 1911.
- *The Life of Flavius Josephus Written by Himself, The Works of Josephus,*

translated by W. Whiston, Philadelphia, (undated).
MARTINEZ Florentino G. - TIGCHELAAR Eibert J. C., *The Dead Sead Scrolls, Study Edition,* 2 volumes, Grand Rapids, Michigan / Cambridge, U.K, 2000
MIGNE J.-P., «Le IV^e^ livre des Machabées», *Dictionnaire des Apocryphes,* tome 1, Brepols, Turnhout (Belgium), 1989, p. 737-850.
PHILON D'ALEXANDRIE,
- *De Vita Contemplativa,* introduction et notes de F. DAUMAS, traduction de P. MIQUEL, (*Les Oeuvres de Philon d'Alexandrie,* 29, collection dirigée par Roger ARNALDEZ – Jean PUILLOUX – Claude MONDESERT, sous le patronage de l'Université de Lyon), Paris, 1963.
- *Quod Omnis Probus Liber Sit,* introduction, texte, traduction et notes par Madeleine PETIT, (*Les Oeuvres de Philon d'Alexandrie,* 28, collection dirigée par Roger ARNALDEZ – Jean PUILLOUX – Claude MONDESERT, sous le patronage de l'Université de Lyon), Paris, 1974.

SANDERS Jim Alvin, *The psalms scrolls of Qumrân cave 11: (11Qpsa),* (DJD, 4), Oxford, 1965.
The Works of Philo complete and unabridged, translated by C.D. YONGE, USA, 1997.
VAUX Roland de - MILIK Josef Tadeusz, *Qumrân cave 4. II,* (DJD, 6), Oxford, 1977.
VERMES Géza - VERMES Pamela, *The Dead Sea Scrolls in English: Qumran in perspective,* London, 1977.
VINCENT A., *Les Manuscrits hébreux du désert de Juda,* Paris, 1955.
WISE Michael - ABEGG Martin Jr. - COOK Edward, *Les manuscrits de la mer Morte,* traduit de l'anglais (Etats-Unis) par Fortunato Israël, Paris, 2001.

ثانياً- المراجع

أ- بالعربية

البستاني، كميل افرام، «الأسّينيون»، **دائرة المعارف**، بإشراف فؤاد افرام البستاني، الجزء ١٢، بيروت ١٩٧٧، ص ٣٦٩-٣٨٦.
«تاريخ يوسيفوس اليهودي»، (مقالة لكاتب مجهول)، **المشرق**، العدد ١٢ (١٩٠٩)، ص ٣١٤-٣١٥.
حمادة، حسين عمر، **مخطوطات البحر الميت**، دار منارات للنشر، عمان - الاردن، ١٩٨٢.
رستم، أسد، **مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران**، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٩٠.
سباهي، عزيز، **أصول الصابئة (المندائيين) ومعتقداتهم الدينية**، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ١٩٩٩.
السحمراني، أسعد، **الصابئة/ الزرادشتية/ اليزيدية**، منشورات دار النفائس، بيروت، ١٩٩٧.
صادر، قيصر،
- «مخطوطات قمران»، مجلة المسرة، السنة ٦٠ (١٩٧٤)، ص ٧١٣-٧٢٢.
- «فحوى مخطوطات قمران»، مجلة المسرة، السنة ٦٠ (١٩٧٤)، ص ٨٤٣-٨٥٠.

صموئيل، المطران أثناسيوس يشوع، **كنز قمران مدارج البحر الميت**، ترجمة الدكتور القس الفونس شوريز، مراجعة وتنقيح ونشر ثاوفيلوس جورج صليبا، لا مكان، ١٩٨٥.

العابدي، محمود، **مخطوطات البحر الميت**، منشورات دائرة الثقافة والفنون، عمان، ١٩٦٧.
العوري، هالة، **أهل الكهف: قراءة في مخطوطات البحر الميت**، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ٢٠٠٠.
العيسة، أسامة، **مخطوطات البحر الميّت (قصة الاكتشاف)**، قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٣.
فريحة، انيس، **دراسات في التاريخ**، بيروت، ١٩٨٠.
الفغالي، الخوري بولس،
- «الأسيانيّون ومخطوطات البحر الميت»، مجلة **المسرّة**، العدد ٨١٨ (١٩٩٥)، ص ٦٠٩-٦٤٨.
- «كتابات مغاور قمران قرب البحر الميت»، مجلة **المنارة**، العدد ١ (٢٠٠٣)، ص ٦٧-٨٨.
كريستنسن، أرثر، **إيران في عهد الساسانيين**، منشورات دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢.
مرمرجي الدومنيكي، الأب، «المخطوطات العبرية القديمة المكتشفة حديثاً في فلسطين»، مجلة **المنارة**، العدد ٥ (١٩٥٠)، ص ١٩٨-٢٠٨.
المظفر، محمد رضا، **عقائد الإمامية**، عُني بنشره السيد مرتضى الرّضوي، القاهرة، بدون تاريخ.
معجم اللاهوت الكتابي، تعريب د. ارنست سمعان، الأب اسكندر وديع، الأب اندراوس سلامه وغيرهم، منشورات دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦.
ولبي، القس جيمس- مطر، ابراهيم، **مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران**، مكتبة المشعل الانجيلية، بيروت، ١٩٥٧.

ب- بالأجنبية

ABECASSIS Eliette, *Qumran,* Paris, 2001.
ALBERTINI Eugène, *L'Empire Romain,* (Peuples et Civilisations), Paris, 1970.
AUGE Christian, «Un trésor monétaire frappé à Tyr», *Le Monde de la Bible,* n° 107, Paris, 1997, p. 19-26.
BAILLET Maurice, «Un recueil liturgique de Qumrân, grotte 4: Les paroles des luminaires», *RB,* n° 2 (1961), p. 195-205.
BONSIRVEN Joseph, *Le Judaïsme palestinien au temps de Jésus-Christ,* Paris, 1950.
BORDET Marcel, *Précis d'histoire romaine,* (Histoire Ancienne), Paris, 1972.
BOWMAN John, «Did the Qumran Sect Burn The Red Heifer?», *RQ,* n° 1 (1958), p. 73-84.
BRAUN F. M., «L'arrière-fond judaïque du quatrième évangile et la Communauté de l'Alliance», *RB,* tome LXII (1955), p. 5-44.
BROWNLEE William H., «The 11 Q Counterpart to psalm 151, 1-5», *RQ,* n° 15 (1963), p. 379-387.
BUCHANAN George W., «The role of purity in the structure of the Essene sect», *RQ,* n° 15 (1963), p. 397-406.
BURROWS Millar,
- *Les manuscrits de la mer Morte,* traduit par M. Glotz et M.-T. Franck, (les Enigmes de l'univers), Paris, 1957.
- *Lumières nouvelles sur les manuscrits de la mer Morte,* traduit par Gabrielle Rives, Paris, 1959.

CAQUOT André, «Le service des anges», *RQ,* n° 49-52 (1988), p. 421-429.
CARMIGNAC Jean,
- «Le Retour du Docteur de Justice à la fin des jours?», *RQ,* n° 2 (1958), p.235-248.
- «Les éléments historiques des Hymnes de Qumran», *RQ,* n° 6 (1960), p. 205-222.
- «Qui était le Docteur de Justice?», *RQ,* n° 38 (1980), p. 235-246 .
- «Roi, royauté et royaume, dans la liturgie angélique», *RQ,* n° 46 (1986), p. 177-186.

CHARLESWORTH J. H., «The origin and subsequent history of the authors of the Dead Sea Scrolls: Four transitional phases among the Qumran Essenes», *RQ,* n° 38 (1980), p. 213-233.
COPPENS J., *Le Messianisme royal. Ses origines. Son développement. Son accomplissement,* (Lection divina, 54), Paris, 1968.
CROSS F. M. Jr., *The Ancient Library of Qumran and Modern Biblical studies,* New York, 1961.
DANIELOU, J.,
- *Les Manuscrits de la Mer Morte et les Origines du Christianisme,* Paris, 1974.
- *The Theology of Jewish Christianity,* (A history of early Christian doctrine before the Council of Nicaea), Vol. 1, translated by John A. BAKER, London, 1978.

DANIELOU Jean - MARROU Henri, *Des Origines à Saint Grégoire le Grand,* dans L.-J. ROGIER, R. AUBERT, M. D. KNOWLES (éds.), *Nouvelle Histoire de l'Eglise,* tome 1, Paris, 1963.
DELCOR M.,
- «Cinq nouveaux psaumes esséniens?», *RQ,* n° 1 (1958), p. 85-101.
- «Qumran: Doctrine des Esséniens», *DBS,* tome 9, Paris, 1979, p. 960-980.
- «Repas cultuels Esséniens et Thérapeutes, Thiases et Haburoth», *RQ,* n° 23 (1968), p.401-425.

DELCOR M.- BAILLET M. (et al.), *Qumrân, sa piété, sa théologie et son milieu,* Louvain, 1978.
DIMANT Devorah, «Resurrection, restoration, and time-curtailing in Qumran, early Judaism, and Christianity?», *RQ,* n° 76 (2000), p. 527-548.
DONCEEL Robert, «Reprise des travaux de publication des fouilles au Khirbet Qumran», *RB,* n° 3 (1992), p. 557-573.
DRIVER J. R., *The Judaean scrolls, the problem and a solution,* New York, 1965.
DUHAIME J.,
- «Les voies des deux esprits (1QS 4: 2-12) une analyse structurelle», *RQ,* n° 75 (2000), p. 349-367.
- «Remarques sur les dépôts d'ossements d'animaux à Qumrân», *RQ,* n° 34 (1977), p. 245-251.

DUPONT-SOMMER André,
- *Aperçus préliminaires sur les manuscrits de la Mer Morte,* publié sous la direction de Charles VIROLLEAUD, (L'Orient Ancien Illustré), Paris, 1950.
- *Les Ecrits ésséniens découverts près de la Mer Morte,* Paris, 1968.
- *Nouveaux aperçus sur les manuscrits de la mer Morte,* Paris, 1953.

EISENMAN Robert, *The Dead Sea Scrolls and the First Christians,* Massachusetts (USA), 1996.

FINKEL Asher, «The Pesher of dreams and scriptures», *RQ*, n° 15 (1963), p. 357-370.

GELIN A., «Messianisme», *DBS*, tome 5, Paris, 1957, p. 1165-1212.

GRABBE Lester L., *An Introduction to First Century Judaism: Jewish Religion and History in the Second Temple Period*, Edinburgh, 1998.

HUMBERT J.-B., «L'espace sacré à Qumrân, propositions pour l'archéologie», *RB*, n° 2 (1994), p. 161-214.

JAUBERT Annie, «Le pays de Damas», *RB*, n° 2 (1958), p. 214-248.

KUHN K.G., «Les Rouleaux de cuivre de Qumrân», *RB*, n° 2 (1954), p.193-205.

LANGEVIN P.-E., *Jésus Seigneur et l'eschatologie: Exégèse de textes prépauliniens*, (Studia, Travaux de recherche, collection dirigée par les Facultés S. J. de Montréal avec la collaboration de l'Université de Sudbury, 21), Bruges-Paris, 1967.

LAPERROUSAZ E.-M.,

- «A propos des dépôts d'ossements d'animaux trouvés à Qoumrân», *RQ*, n° 36 (1978), p. 569-573.
- «A propos du Maître de Justice et du temple de Jérusalem: Deux problèmes de nombre», *RQ*, n° 57-58 (1991), p. 265-274.
- «Infra hos Engadda», *RB*, n° 3 (1962), p. 369-380.
- «Notes sur l'évolution des conceptions de Guerre Sainte dans les manuscrits de la mer Morte», *RQ*, n° 46 (1986), p. 271-278.
- *Qoumrân, L'établissement éssénien des bords de la mer Morte, histoire et archéologie du site*, Paris, 1976.

LAURIN R. B., «The problem of two messiahs in the Qumran Scrolls», *RQ*, n° 13 (1963), p.39-52.

L.-DUHAIME Jean,

- «Les voies des deux esprits (1QS 4 : 2-14) une analyse structurelle», *RQ*, n° 75 (2000), p. 349-367.
- «Remarques sur les dépôts d'ossements d'animaux à Qumrân», *RQ*, n° 34 (1977), p. 245-251.

LEON-DUFOUR Xavier, *Dictionnaire du Nouveau Testament*, Paris, 1975.

LUBE J., «A reinterpretation of 4Q Testimonia», *RQ*, n° 46 (1986), p. 187-197.

MANNS Frédéric, *Le Judaïsme: milieu et mémoire du Nouveau Testament*, (Studium Biblicum Franciscanum, Analecta n° 36), Jerusalem, 1992.

MARCHAL L., «Esséniens», *DBS*, tome 2, Paris 1934, p. 1109-1132.

MARTINEZ Florentino Garcia, «Les grandes batailles de Qumrân», *Le Monde de la Bible*, n° 107, Paris, 1997, p. 5-8.

METZGER Bruce M., «The furniture in the scriptorium at Qumran», *RQ*, n° 4 (1959), p. 509-515.

MILIK J. T.,

- *Dix ans de découvertes dans le désert de Juda*, Paris, 1957.
- «Fragments d'un midrash de Michée dans les manuscrits de Qumrân», *RB*, n° 3 (1952), p. 412-418.
- «Le rouleau de cuivre de Qumrân (3Q 15)», *RB*, n° 3 (1959), p. 321-357.

MOFFATT James,

- «The Essenes», *The Encyclopaedia of religion and ethics*, vol. 5, New York,

1955, p. 396-401.
- «Therapeutae», *The Encyclopaedia of religion and ethics,* vol. 12, New York, 1958, p. 315-319.

MOMMSEN T., *Histoire Romaine,* t. 1, Paris, 1985.

NODET E., «Un nouveau commentaire des oeuvres de Josèphe», *RB,* n° 3 (2001), p. 386-421.

NOLLAND John, «A misleading statement of the Essene attitude to the Temple», *RQ,* n° 36 (1978), p. 555-562.

PAUL André,
- *Ecrits de Qumran et sectes juives aux premiers siècles de l'Islam, recherches sur l'origine du Qaraïsme,* Paris, 1969.
- *Les Manuscrits de la mer Morte,* Paris, 2000.
- *Le Monde juif à l'heure de Jésus: histoire politique,* Paris, 1981.

PEDLEY Katharine Greenleaf, «The Library at Qumran», *RQ,* n° 5 (1959), p. 21-41.

PIXNER Bargil, «Unravelling the copper scroll code. A study on the topography of 3Q15», *RQ,* n° 43 (1983), p. 323-361.

PLOEG J. van der, - BARTHELEMY D. - BETZ O. (et al.), *La secte de Qûmran et les origines du Christianisme,* (Journées bibliques de Louvain, 9, 1957), (Recherches Bibliques, IV), Paris, 1959.

PLOEG J. van der,
- «Les manuscrits de la grotte XI de Qumrân», *RQ,* n° 45 (1985), p. 3-15.
- «Le psaume XCI dans une recension de Qumrân», *RB,* n° 2 (1965), p. 210-217.

POUILLY Jean, *Les manuscrits de la mer Morte et la Communauté de Qumrân,* (Cahiers Evangile. Supplément, 28; Documents autour de la Bible), Paris, 1979.

PUECH Emile,
- «La pierre de Sion et l'autel des holocaustes d'après un manuscrit hébreu de la grotte 4 (4Q522)», *RB,* n° 4 (1992), p. 676-696.
- «Messianisme, eschatologie et résurrection dans les manuscrits de la mer Morte», *RQ,* n° 70 (1997), p. 255-298.
- «Notes sur le fragment d'apocalypse 4Q246: le Fils de Dieu», *RB,* n° 4 (1994), p. 533-556.
- «Préséance sacerdotale et Messie-Roi dans la Règle de la Congrégation (1QSa ii 11-22)», *RQ,* n° 63 (1994), p. 351-365.
- «Quelques résultats d'un nouvel examen du Rouleau de Cuivre (3Q15)», *RQ,* n° 70 (1997), p. 163-190.

REICKE Bo, *The New Testament Era,* London, 1978.

RIGAUX B., «Esséniens», *Dictionnaire d'Histoire et de Géographie Ecclésiastiques,* sous la direction de R. AUBERT et E. van CAUWENBERGH, tome 15, Paris, 1963, p. 1013-1035.

ROTH Cecil,
- «A Talmudic reference to the Qumran sect», *RQ,* n° 6 (1960), p. 261-265.
- «Qumran and Masadah: a final clarification regarding the Dead Sea sect», *RQ,* n° 17 (1964), p.81-87.
- «The Zealots and Qumran: the basic issue», *RQ,* n° 5 (1959), p. 81-84.

- *The Historical background of the Dead Sea Scrolls,* Oxford, 1958.
SCHAFER Peter, *Histoire des Juifs dans l'antiquité,* traduit de l'allemand par Pascale SCHULTE, Paris, 1989.
SCHIFFMAN Lawrence H., «Communal meals at Qumran», *RQ,* n° 37 (1979), p. 45-56.
SCHMIDT J., *Dictionnaire de la mythologie grecque et romaine,* Paris, 1985.
SCHÜRER Emil, *The History of the Jewish people in the age of Jesus Christ,* 2 volumes, Edinburgh, 1979.
SCHWARTZ Daniel R., «The three temples of 4Q Florilegium», *RQ,* n° 37 (1979) p. 83-91.
SINCLAIR Lawrence A., «Hebrew text of the Qumran Micah Pesher and textual traditions of the minor prophets», *RQ,* n° 42 (1983), p. 253-263.
SKEHAN P. W., «Qumran», *DBS,* tome 9, Paris, 1979, p. 798-1014.
SOGGIN, J. Alberto, *A History of Israel from the beginnings to the Bar Kochba revolt AD 135,* translated by John BOWDEN, Great Britain, 1984.
STARCKY J., «Les quatre étapes du messianisme à Qumran», *RB,* n° 4 (1963), p. 481-504.
STEGEMANN Hartmut, *The library of Qumran: on the Essenes, Qumran, John the Baptist, and Jesus,* Leiden - New York, 1998.
STEUDEL Annette,
- «The end of the days in the Qumran texts», *RQ,* n° 62 (1993), p. 225-242.
- «The eternal reign of the people of God - Collective expectations in Qumran texts (4Q246 and 1Q)», *RQ,* n° 65-68 (1996), p. 507-527.

SUTCLIFFE Edmund F., «Hatred at Qumran», *RQ,* n° 7 (1960) p. 345-356.
TALMON Shemaryahu, *The world of Qumran from within,* Jerusalem, 1989.
The New Bible Dictionary, Norwick, U.K, 1975.
THOMSON J. E. H., «The Essenes», *The International Standard Bible Encyclopaedia,* vol. 2, Grand Rapids, Mich. 1960, p. 997-1005.
TREBOLLE J., «A Canon Within a Canon: Two series of Old Testament books differently transmitted, interpreted and authorized», *RQ,* n° 75 (2000), p. 383-399.
TREVER John C., «When was Qumrân cave I discovered?», *RQ,* n° 9 (1961), p. 135-141.
VAUX Roland de,
- *L'Archéologie et les Manuscrits de la Mer Morte,* (The Schweich lectures of the British Academy - 1959), London, 1961.
- *Les Institutions de l'Ancien Testament,* 2 volumes, Paris, 1982.

VAUX Roland de - MILIK Jozef Tadeusz - *Qumrân grotte 4.II,* (DJD, 6), Oxford, 1977.
VERMES Géza, «The Etymology of Essenes», *RQ,* n° 7 (1960), p. 426-443.
VILLALON José R., «Sources vétéro-testamentaires de la doctrine qumranienne des deux messies», *RQ,* n° 29 (1972), p. 53-63.
VIOLETTE Jean-Claude, *Les Esséniens de Quomrân,* Paris, 1983.
WATER, R. van der, «Reconsidering palaeographic and radiocarbon dating of the Dead Sea Scrolls», *RQ,* n° 75 (2000), p. 423-439.
WERBLOWSKY Z., *The Encyclopedia of the Jewish religion,* London, 1965.

الفهرس العام

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

الباب الرابع

صفحة